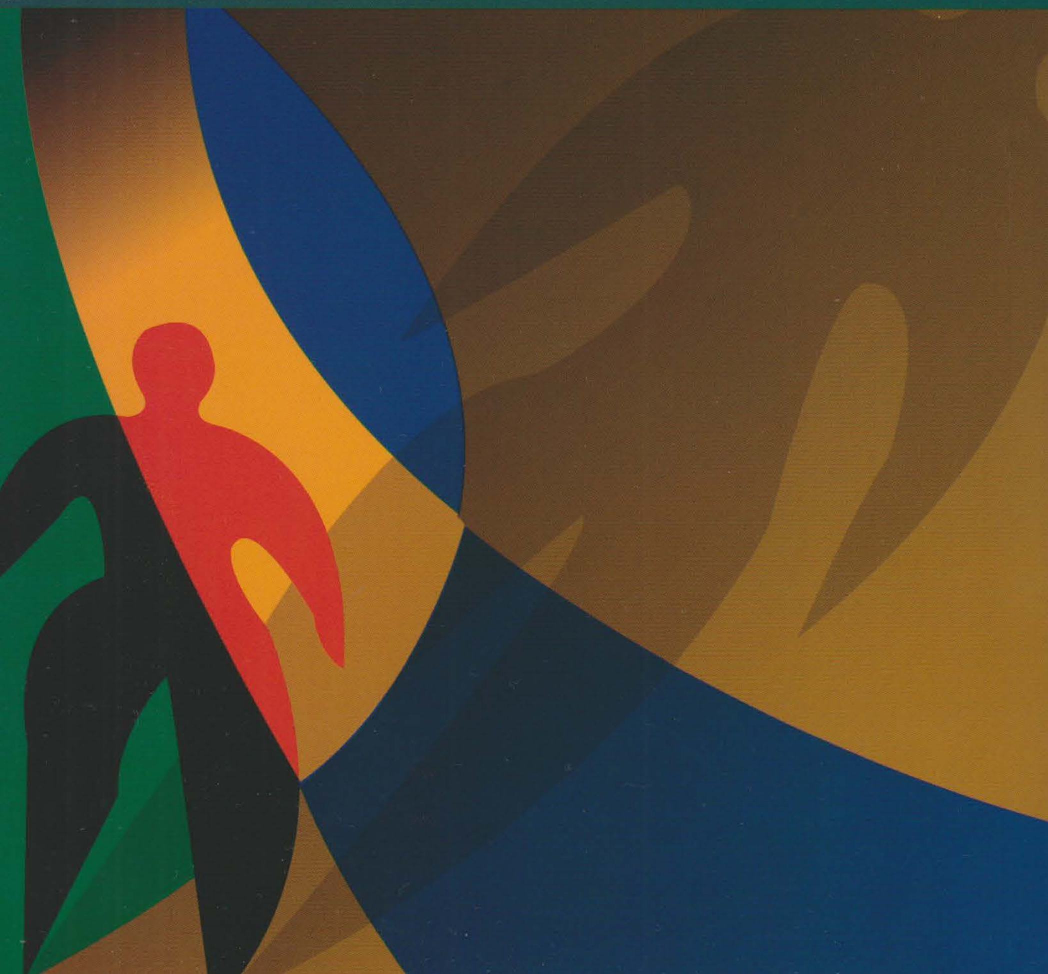
س. عباس نورالدين

فعّل طاقاتك الكامنة

كيف تكون معرفة النفس
وسيلة إلى القدرات العظيمة



بسم الله الرحمن الرحيم

فعّل طاقاتك الكامنة

كيف تكون معرفة النفس وسيلة إلى القدرات العظيمة

س. عباس نورالدين
مركز باء للدراسات

الطبعة الأولى - بيروت - 2017
بيت الكاتب للطباعة والنشر

www.islamona.center - baa-center
96176862741 - - - - 009611477233

فعّل طاقاتك الكامنة

كيف تكون معرفة النفس
وسيلة إلى القدرات العظيمة

س. عباس نورالدين

مركز باء للدراسات

في هذا الكتاب

تمهيد

رغم أنّ التراث الإسلاميّ حافل بالأبحاث والأفكار المتعلّقة بالنفس إلا أنّه يصعب على القارئ أن يجد كتابًا مستقلًا سهلًا وعمليًا يمكن أن يشكّل قاعدة صلبة له للانطلاق في معرفة نفسه، التي هي المقصود من جميع التصريحات والإشارات التي أكّدت على أهميّة هذه المعرفة ودورها المصيري في حياة الإنسان.

ليس المطلوب أن يعرف الإنسان النفسَ على النحو الكلي، بل المهم أن يعرف نفسه هو. وذلك لأنّ المعرفة النافعة التي تشكل وسيلة أساسية لمعرفة الحقيقة المطلقة هي تلك التي يعبّر عنها بالعلم الحضوري. وفي هذا النوع من العلم والإدراك يتجاوز عرفان الإنسان ذاك الإدراك الحصولي الذي يكون مجرد صور مرتسمة عن المعلوم ليصل إلى الإدراك الشهودي الذي هو حضور حقيقة الشيء في النفس لا صورته!

وسرّ ذلك أنّ الهدف الأسمى من معرفة الإنسان نفسه هو أن يعرف ربّه، والربّ بالنسبة للكون كله هو علته وسببه، فإذا عرفت العلة عرف المعلول؛ أمّا النفس فهي تلك الآية الإلهية العظيمة التي تُعدّ من أكبر الدلالات على الله تعالى. ولأنّ معرفة الله كما هو الحق - لا كما هو حقّه - لا تحصل إلّا في ظل الارتباط الشخصي، فلا يمكن تحقّق هذه المعرفة الواجبة إلّا بوصول العلم إلى مقام الوعي التام، حيث يدرك الإنسان حضورًا حالة الاتّحاد بين نفسه ومعلوماتها. فإذا حصل هذا الوعي كان الإنسان مدركًا لحقيقة العلم في نفسه.

فالله تعالى ليس موجودًا كليًا، وإن كانت المعرفة الكلية بصفاته خطوة ضرورية بالنسبة للمحجوبين؛ وعلى هذا الأساس، فإنّ معرفته كما يجب لا بد أن تكون نظير المعرفة الشخصية، كما يقال بشأن معرفتك بكون فلان ابن خالك (وهي معرفة تتجاوز قوة الدليل والبرهان والإدراك العقلي الكلي).

لا شك بأنّ الأمثلة تُضرب ولا تقاس، فشتّان ما بين معرفة الله ومعرفة الإنسان لابن خاله. فإنّ نوع المعروف يفرض نفسه بقوّة في هذه المعرفة ويجعلها دائرة حول محوره ومتشكلة به. فمعرفة الله ليست من سنخ مشاهدتنا لنهر النيل أو لقائنا بأحد سكان البرازيل بإضافة فارق وحيد وهو أنّ وجود الله هو أمر أكثر أهمية في الحياة! كلا، فإنّ نوع المعرفة الذي يليق بكمال الإنسان والذي خُلق الإنسان من أجله والذي كان كل الكون مقدّمةً له يختلف بالجوهر عن أي معرفة أخرى. وكم هو محروم ذاك الذي يحصر معرفته بالله في إطار الحد الأدنى الذي أشير إليه في الكتب الفقهية أو الرسائل العملية، ويغفل عن أنّ هذه الحدود قد وُضعت لتعيين مجموعة من المسؤوليات والأحكام الخاصة.

إن قوله تعالى: {**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**}[1] لا يمكن أن نستنتج منه أنّ الحدّ المطلوب من معرفة الله هو إثبات سعة قدرته وإحاطة علمه؛ فهل من الحكمة أنّ يخلق الله سبع سماوات ويخلق سبعًا مثلهن من الأرض، ويجعل كل هذا الفيض المتنزّل والتدبير الملكوتيّ المستمر لأجل حصول تلك المعرفة التي تتحقّق بحركة عقلية بسيطة عبر طيّ مقدّمتين: كبرى وصغرى.

فلو أنّك أخذت شخصًا عاقلًا إلى جامعة كبرى تحتوي عشرات المباني الضخمة والصروح المنتشرة والمختبرات المتطوّرة وقلت له أنّ هدف هذه الجامعة هو إثبات وجود الظاهرة الطبيعية الفلانية التي يمكن إثباتها في دقيقة واحدة، لسخر هذا العاقل من هذا المشروع الكبير واعتبر صاحبه عابثًا.

إنّ معرفة الله أعمق وأوسع وأشمل وأطول من أي شيء نعرفه أو يمكن أن نعرفه في حياتنا.. إنّها تلك المعرفة التي تتفتّح دومًا وتقدّم لنا المزيد من المعرفة. وبعبارةٍ أدق، لأنّ الله تعالى هو دائم الظهور والتجلّي على قاعدة {**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**}[2] ولا يمكن أن يكون له ظهوران أو تجليان متشابهان عبر امتداد الدهور، فلا شك بأنّ معرفته ستكون رحلة ممتدة على مدى الخلود وما فوق الزمان المنقطع، وفي الحياة الآخرة أكثر من هذه الدنيا المحدودة. فهو تعالى الكامل الذي لا حدّ لكماله وهو الجميل المطلق الذي لا ينتهي ظهور جماله.

على هذا الأساس، يجب أن يصل الإنسان إلى ما نعبّر عنه بالمعرفة الشخصية الحضورية حيث تصبح الصور الذهنية والخيالية والمفاهيم الكلية كشمعة مضيئة أمام شمس ساطعة. وهكذا يكون الله تعالى هو الدال على كل شيء كما قال النبي الأكرم ﷺ: "اعرفوا الله بالله" أو: «بك عرفتك وأنت دللتني عليك..» وغيرها من التصريحات الواضحة بأنّ معرفة الله لا تكون في الحقيقة إلّا به دون أحد سواه. وكيف يمكن أن يكون لغيره من النور والظهور ما ليس له حتى يكون دليلًا عليه.

وحيث أن تفتّح هذا النوع من المعرفة يبدأ من النفس ومن اتّصال الوعي بالمعرفة الذاتية، فلا بدّ أن تكون الخطوة الأساسية هي معرفة الإنسان لنفسه. إنّ الطريق الوحيد لانبعاث هذا النوع من الإدراك هو الذي يحصل من خلال ما يمكن أن نعتبره نوعًا من التجربة الذاتية. فلا يمكن للإنسان أن يعرف شيئًا بالمعرفة الحضورية إلّا بعد أن تصبح المعرفة والعلم عنده في حالة من الوعي الكلي المهيمن. فإذا أصبح هذا العلم فيه متحقّقًا بصورة من الوعي التام: أي يكون قد أحاط بعلمه وأدرك معنى علمه وحقيقته، فلا شك بأنّه قد يكون قد تحقّق بواسطة الاتّصال بربّه!

إنّ علمنا بأنفسنا على النحو الحضوري يشبه حصولنا على موجة البثّ الخاصّة بمحطّة إذاعية. فلا يمكننا أن نستمع إلى برامجها إلّا بعد وضع جهاز المذياع عندنا على الموجة المحدّدة.

لقد وضع الله تعالى فينا هذه الموجة وأطلعنا على رمزها الخاص وهو "من عرف نفسه فقد عرف ربّه".

إنّه السر الكبير في حياتنا والتحدّي الأكبر في سيرنا المعنوي. فكيف يمكن أن نصل إلى هذه المعرفة وسط هذا الركام الهائل من الأعراف والبنى الثقافية والقيم والأنظمة التي لا تزيدنا سوى غربة بعد غربة عن أنفسنا.

هنا يكمن المرض الأكبر، وهنا بالذات نحتاج إلى الطب الأعظم.. والإمام الخميني هو أحد أبرز وأمهر خرّيجي مدرسته.

على هذه الصفحات سوف نتوقّف عند أهم ما كتبه الإمام أو قاله في مناسبات عدّة

حول النفس في ماهيتها وحقيقتها وقواها وأمراضها ومشاكلها وعلاجها وكيفية تهذيبها، ونشرح ونفصّل فيما يمكن أن يكون مساعدًا لنا على التوجّه إلى عمق أنفسنا وجعل قضية معرفتنا لأنفسنا قضية كبرى في حياتنا.

كيف تستعمل هذا الكتاب: يمكنك أن تقرأ المقاطع الأولى من كل فصل فتنبعث الأسئلة العميقة في ذهنك وإذا أحببت التعمق والتوغل في معارف النفس أكمل قراءة الشرح الذي قدمه الكاتب وفي حال كان لديك الفرصة المناسبة للتوسع لا تحرم نفسك من مطالعة الشواهد الإضافية.

نسأل الله تعالى أن يكون هذا الكتاب - مع صغر حجمه - دليلًا مرشدًا للباحثين عن معارف النفس في التراث الإسلامي الأصيل الذي اعتصره الإمام في عمق شخصيّته وبيانه، وأن يكون ملهمًا لنا للانطلاق في الآفاق الواسعة لهذه المعرفة التي لا تنتهي وإن انتهى العمر في هذه الدنيا، بل تستكمل في مراحل الوجود الأخرى حتى نصل إلى اليقظة التامّة والشهود المطلق ونكون من الذين ينظرون إلى وجه الله تعالى {**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**}.[3]

عربصاليم

2016\12\5

anourdin@gmail.com

1

هل أنّ النفس تكبر وتزداد حجمًا؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«طرق التفكّر في لطائف صنعة الخلق لا تُحصى، ولكن أقربها إلينا هي أنفسنا، فمعرفة النفس، بل معرفة بناء البدن، بل معرفة أفعاله، طريق معرفة الله: "من عرف نفسه فقد عرف ربّه".»[4]

النفس الإنسانية ظاهرة كونيّة وجزء من نظام عالم الخلقة الذي يحكي عن قدرة الله وحكمتــه وعلمه وحياته ومجموع صفاته. ففعل الخلق الإلهــيّ يُظهر صفات الخالق. والخلق محل ظهور الكمالات الإلهية. حين يكون الفاعل مقتدرًا ولا يكون لقدرته مانع، أي تكون القدرة مطلقة **{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**،[5] فإنّ كل ما يريده يتحقّق.

يُقال أنّ النفس الإنسانية هي أعظم آيات الخلق، لأنّها جمعت كلّ أسراره، والعارف يعــبّر عن الإنســان الكامل الذي لا نقص في خلقته بأنّه الكــون الجامع أو العالم الصغير الذي انطوى فيه العالم الأكبر:

أتحسب أنّك جرمٌ صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

ففيه من كلّ شيء، وهو صاحب القلب الذي يمكن أن يتّسع ليشمل ما هو أكبر من السّــماوات والأرض. لأنّ لــه مرتبة التجرّد عن الماديّــات والزمانيّات. والمجرّد من الشيء يكــون أكمل من ذاك الشيء. فمرتبة النفس الإنســانية مــن حيث الوجود أعلى وأكمل وأوسع وأشــمل من مرتبة الكون المادي بأرضه وسمائه. لهذا، فإنّ التفكّر في النفس هو تفكّــرٌ في أقرب الدلالات على الخالق، لأنّها أكثر ما يعبّر عنه. ولو تصوّرنا مهندسًــا بارعًا

ذا علمٍ واسـع، وكان مبتكرًا مبدعًا صاحب اختراعات عدّة، وأردنا أن نتعرّف على عمق علمه ومدى إبداعه فإنّنا سننظر في الاختراع الذي ظهر فيه علمه وقدرته أكثر من غيره. وقد نسأل هذا المخترع عن أحبّ الاختراعات إليه، لأنّنا نعلم أنّ هذا هو أقرب الدلالات على ما نريد معرفته فيه.

هكـذا هي النفس بالنسـبة لنا أيضًا؛ فهي أقرب الـدلالات إلينا. وإذا لم نبصر من خلالها ما ينبغي، فلن نبصر شيئًا. وكيف يعرف الإنسان أو يعلم بحقيقة الأشياء، وهو لا يعلم حقيقة نفسـه؟! ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السـلام: «من جهل نفسـه كان بغير نفسـه أجهل».[6]

وقـد تجلّت هـذه النفس في عالم الطّبيعـة بالبدن. فهو مثالها النـازل، وفيه كل ما فيـه متنزلًا إلى عـالم الحسّ. فمن عرف بدنه أوشـك أن يعرف نفسـه. وأفضل الطرق لمعرفـة البدن معرفـة كيفية عمله وأفعالـه. وأفضل الأفعال التي تعـبّر عن النفس في البدن هـي تلـك الأفعـال الاختيارية (مقابل الأفعـال البدنيّة الجبريّة كهضم الطّعـام ونبض القلـب وجريان الدم). والأفعال التي تتكرّر بمناسبات متشابهة هي السـلوكيات التي تحكي عن مصدرٍ واحد. فإذا تكرّر إعطاء الفقير حين القدرة نعلم أنّ هذه النفس تتّصف بالسـخاء. وإذا تكـرّر الإقدام حيث ينبغي، عرفنا أنّ هذه النفس تتّصف بالشـجاعة. ومن خلال هذه الصفات، يمكن أن نتقدّم خطوة مهمّة نحو معرفة أصلها ومنشئها حيث الحقيقة الكبرى التي تحكي أفضل حكاية عن النفس. وهناك سنجد الله!

> **من جهل نفسه كان بغير نفسه أجهل.**
> **أمير المؤمنين عليه السلام**

لقـد تحدّث العارفون عن هذه التجربة الذوقيـة الحضورية، واعتبروا أنّها لا تحصل بمجرّد التفكّر. بل تحتاج إلى اسـتعدادٍ خاص في القلب والرّوح. وأهم ما ذكروه هو تلك الطهارة من الشـوائب، التي تحيط بالمعرفة وتقيّدها وتمنع صاحبها من إدراك الحقيقة فيها. مثل المنامات التي يكون أصلها من ملكوت الأشـياء، لكن نفوسنا تقيّدها بحسب اهتماماتنـا وانشـغالاتنا وتوجّهاتنا وحالاتنا. فمـن كان كاذبًا بطبيعتـه تكون مناماته

بعكــس الحقيقة. ومن كان شــديد الهم والخــوف رأى تلك الحقائــق في قالب هموم النفس ومخاوفها. وهكذا.

بيــد أنّ الطريــق الذي رســمه الله تعالى لنــا لنعرفه من خلال معرفة أنفســنا يبدأ مــن معرفة أفعالهــا، بــشرط الوصول إلى منشــأ هذه الأفعال. ومن أجمل ما قيل في هذا المجــال أنّ النفــس في عمق وجودها وماهيّتهــا شــديدة الانفعال تجــاه الربّ المتعــال، لأنّها في هــذا العمق، على مقابلة دائمــة مــع ربّهــا، وإن كان أكــثر الناس لا يشعرون بذلك. ولعلّ هذا أحد أهم معاني نسيان النفس. وفي هذه المقابلة، التي تكون بالنسبة للكثيرين في الدنيا بصورة غفلة وفي الآخرة بصورة حضور، تنفعل النفس وتظهر منهــا تلك الأحــوال. وأعظم أحوالها ما يتّصل بالانفعال تجــاه حضور الله تعالى. وهذه هي المرآة الصافية للنفس التي من نظر إليها شــاهد ربّه. والكلام يطول وســيأتي مزيد إن شاء الله.

إنّ التفكّــر في النفس هــو تفكّرٌ في أقرب الــدلالات على الخالــق، لأنّها أكثر ما يعبّر عنه.

شواهد إضافية

✷ المرقاة نحو هذه المعارف، بل كل الحقائق هي معرفة النفس. فإنّها مفتاح المفاتيح والآية الكبرى والمثال الأكبر لذلك السريان. ولهذا من عرفها فقد عرف ربّه.[7]

✷ مصدرُ التواضعِ العلمُ بالله والعلم بالنفس، وغايته الله تعالى أو الفوز بكرامته، وثمرته الكمال الإنساني.[8]

✷ كمال الشيء ما به تمامه وانجبر به نقصانه، فالصورة كمال الهيولى، والفصل كمال الجنس، ولهذا عرّفت النفس بأنّها كمال أوّل لجسمٍ طبيعي آلي، إذ بها كمال الهيولى باعتبار وكمال الجنس باعتبار.[9]

✷ إنّ لجميع الموجودات الممكنة الوجود جهتين ووجهتين: الجهة الأولى هي النورانية والوجود والإطلاق والكمال، وهذه هي الوجهة الغيبية الإلهية؛ والجهة الثانية هي الظلمة والتعيّن والماهيّة والنقص: وهذه هي الوجهة النفسانية للأشياء.[10]

✷ فلو تحرّرت من أسر النفس، وأصبحت عبدًا للحقّ المتعالي، وجعلت القلب موحدًا، وأجليت مرآة روحك من غبار النفاق والإثنينيّة، وأرسلت قلبك إلى النقطة المركزية للكمال المطلق، لشاهدت بعينك آثار ذلك في هذا العالم، ولتوسع قلبك بقدر يغدو محلًا لظهور السلطنة التامّة الإلهية حيث تصير مساحتها أوسع من جميع العوالم «لاَ يَسعُني أَرْضِي وَلاَ سَمَائِي وَلكِنْ يَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِن»، ولشعرت غنًى واضحًا في النفس، حيث لم تعبأ بكلّ العوالم الغيبية والمادية، ولأصبحت إرادتك قوية، حيث لم تفكّر في عالمي المُلك والملكوت، ولم تجد لهما اللياقة لاحتضانك.[11]

✷ اعلم أنّ الإنسان هو الكون الجامع لجميع المراتب العينية والمثالية والحسية، منطوٍ فيه العوالم الغيبية والشهادية وما فيها، كما قال اللّه تعالى: {وعلّم آدم الأسماء كلّها}. وقال مولينا ومولى الموحدين صلوات اللّه عليه على ما نقل:

أتزعم أنّك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

فهو مع الملك ملك، ومع الملكوت ملكوت، ومع الجبروت جبروت. وروي

عنه وعن الصادق عليهما السلام: اعلم أنّ الصورة الإنسانية هي أكبر حجج الله على خلقه، وهي الكتاب الذي كتبه بيده وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي مجموع صورة العالمين، وهي المختصر من اللوح المحفوظ، وهي الشاهد على كل غائب، وهي الطريق المستقيم إلى كل خير، والصراط الممدود بين الجنة والنار.[12]

2

هل نحن
نعرف أنفسنا
جيّدًا كما نظنّ؟

يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه:

«اعلم، أنّ الإنسان يغفل عن حقيقة نفسه بسبب الوقوع في حبّها والعجب بها والتّوجّه إليها، وربّما وقع في الخلط فاعتبر نقائصها وعيوبها كمالًا ومحاسن. ومثل هذا الخلط في صفات النفس كثير جدًّا، ويندر وجود من يقدر على التمييز الصحيح. وهذا من مراتب نسيان النفس الناتج عن نسيان الحقّ جلّ وعلا المشار إليه في الآية 19 من سورة الحشر: {وَلا تَكُونُوا كَالَّذينَ نَسُوا اللّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُون}».[13]

في مقابل معرفة النفس يوجد تعبير لطيف هو نســيان النفس. ونادرًا ما يُقال جهل النفــس أو عدم العلم بالنفــس. وفي القرآن الكريم ذُكر هذا التعبير في عدّة موارد وذُكر أيضًا ما يرتبط بخسران الإنسان نفسه. وسوف يأتي شرحه إن شاء الله.

أمّا نسيان النفس فهو إشارة لطيفة إلى أنّ المشكلة ليست في معرفة الإنسان لنفسه، بل في الغفلة عنها ونسيانها. وأنت تعلم أنّ النسيان يكون مقابل الحفظ لا الجهل. فإذا ســألك صاحبك عن شيء لا تعلم عنه شــيئًا لا تقول له نسيته. فأنت تنسى ما تعلم لا ما تجهل. وسر ذلك أنّ معرفة الإنســان لنفسه هي أمرٌ حتميّ لا فرار منه، لأنّ مقام العلم والمعرفــة هما أحد مقامات النفس. فما دامت النفس موجودة فلا بد أن يكون صاحبها

عالمًا. وبعبارةٍ أخرى، لا يكون العلم بالإنسان في موقعٍ خارج صقع النفس ومقامها. ولأنّ العلم متّحد مع النفس، والنفس أمر قابل للعلم، لا بدّ أن يكون الإنسان عالمًا بنفسه. فما الذي يحدث يا ترى؟

هنا تحصل الغفلة أو النسيان، بالرغم من شدّة القرب والاتّحاد. والعجب كل العجب أنّه كيف نغفل عن معروف قريب منّا إلى هذا الحد! وهنا يأتي الإمام (قدس سرّه) ويسعفنا ببعض الإشارات اللطيفة ويبيّن لنا أنّ حبّ النفس والعجب وشدّة التوجّه إلى النفس هي أمور تتسبّب بمثل هذا النسيان والغفلة. فلا نزداد للوهلة الأولى سوى تعجبًا وتحيرًا. فكيف تكون شدة التوجّه إلى النفس سببًا للغفلة عن النفس؟ أليس التوجّه نقيض الغفلة؟

إنّ حبّ النفس يعبّر عن الغفلة التامّة عن حقيقة أساسية وهي ماهية النفس، فلو كان الإنسان ملتفتًا إلى هذه الحقيقة لما أحبّ نفسه.

لكن تعجبّنا يزول حين نلتفت إلى عمق كلام الإمام. لأنّ النظر إلى النفس انطلاقًا من حبّها يرجع إلى قضية حسّاسة جدًّا وهي أنّ هذا الحب يعبّر عن الغفلة التامّة عن حقيقة أساسية وهي ماهية هذه النفس. فلو كان الإنسان ملتفتًا إلى هذه الحقيقة لما أحبّ نفسه!!

ولا بأس أن نلتفت أيضًا إلى مقصود الإمام وأمثاله من أهل الله بشأن حبّ النفس، والذي أصبح في هذا الزّمن صعب الفهم على الكثيرين. فتارة ينظر الإنسان إلى نفسه، ويعتقد بأنّها مستقلة في التأثير والفعلية وهذا ناشئ من اعتقاده بأنّها مستقلّة في الوجود، وهذا هو أحد معاني إنكار ربط الخلق بالخالق (وهو في عمقه إنكار للخالقية الإلهية) وإن كان أصحاب هذا الاعتقاد لا يلتفتون إلى مشكلتهم هذه. فإذا نظر الإنسان إلى نفسه نظر استقلال وأحبّها انطلاقًا من هذا النظر، أعجب بها. وعلامة هذه النظرة الاستقلالية المنقطعة عن الله، أنّ محبّ نفسه لا يحب غيرها. وهذا ما سيظهر في أوضح مشهد وجوديّ يوم القيامة حين يفرّ المرء من أمّه وأبيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التي

تؤويه. ولحبّ النفس مظاهر عديدة، وهي الأنانية التي يعرفها الناس.

وتارة ينظر الإنســان إلى نفسه نظرة استظلالية، بمعنى أنّه يراها ظلّ الفعل والخلق الإلهي. فهو هنا يشــاهد عين الربط والتعلّق ويؤمن بأنّه قائم بالله وأنّ نفســه ليست سوى مظهر صفات الله وأسمائه. فإذا أحبّ نفسه ها هنا، فإنّه يحبّها لكونها آية إلهية، قد أُمر بتكميلها والسـير بها إلى غايتها والرّجـوع بها إلى مبدئها وخالقها. وعلامة هذه الحقيقــة في الآخـرة قوله تعالى: {يا أَيَّتُهَــا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعــي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّــةً * فَادْخُلي في عِبــادي * وَادْخُلي جَنَّتي}.[14] وعلامة هــذه الحقيقة في الدنيا أن يحبّ الإنســان الخلق كحبّه لنفسه: أن تحبّ لأخيك ما تحب لنفسك. وذلك لأنّ الكل مشــتركون في الحقيقة التي هي عبارة عن الآية والدلالة. فإذا كنت تحبّ نفســك لأنها من الله ولله، فلا شــك أنّك ســتحب الناس لأنّهم كذلك.

فــما يقصده الأولياء من قبح حبّ النفس هو الذي يفضي إلى العجب بها وبأعمالها. والعجــب يــؤدّي إلى التكبّر. لأنّ المتكبر يرى نفســه أفضل من غيره. ولا يرى الإنســان أفضليّــة نفســه إلا إذا كان يعتقــد بأنّ ما عنده هو من نفســه: {إِنَّما أُوتيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدي}.[15] وبســبب الكبر يحتجب الإنسان عن ربّــه بالكامل. وهذه هي جهنّم البعد: {أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرينَ}.[16]

إذا نظـر الإنســان إلى نفســه نظـر اسـتقلال وأحبّهـا انطلاقـاً من هذا النظـر، أعجب بهـا. وعلامـة هذه النظرة الاستقلالية المنقطعة عن الله، أنّ معجب بنفسه لا يحب غيرها.

والمعجب بنفسه غافل عن عيوبها. ومن غفل عن عيوبه انقطع عن معرفة حقيقة نفســه. لأنّ العيوب إشارات ودلالات واضحة على النفس. فلا يصدر العيب أو يظهر إلا من النفس.

يقــول الإمــام الخمينيّ﴿قدس سره﴾: «هــل قرأت كتاب نفســك، وتدبّــرت في هذه الآية العظيمة التي جعلها الله مرقاة لمعرفته ومعرفة أســمائه وصفاته؟ فانظر ماذا ترى من إنباء حقيقتك الغيبية في عقلك البسيط بالحضور البسيط الإجماليّ، وفي عقلك التفصيليّ

بالحضور التفصيليّ، وفي ملكوت نفسك بالتجلّي المثالي والملكوتيّ، ثمّ يتنزّل الأمر بتوسّط الملائكة الأرضية إلى عالم الملك. وإن شـئت قلت: بظهور جبروتك في الملكوت، والملكوت في الملك، فتظهر بالصوت واللفظ في النشأة الملكيـة الظاهرة. فهـل الإنبـاء والإظهار في تلـك النشـآت والمراحل وهـذه العوالم والمنازل على نهج واحد وطريق فارد؟»[17]

إذا كنت تحبّ نفسـك لأنها من الله ولله، فلا شـك أنك سـتحبّ الناس لأنهم كذلك.

شواهد إضافية

✷ مقام المشيئة هو مقام الإطلاق، ومع العقل عقل، ومع النفس نفس، ومع المثال مثال، ومع الطبع طبع، والمراد بأربعة أجزاء وهو عالم العقل والنفس والمثال والطبع أي العالم المقارن بالصورة والمادة، والعالم المجرّد عن المادة دون الصورة، والعالم المجرّد عن المادّة والصورة دون التعلّق بالمادة، والعالم المجرّد عنها دون الماهية. وبما ذكرنا يُعلم معنى قوله: ليس منها واحد قبل الآخر فإنّ العوالم الأربعة باعتبار وجهتها إلى المشيئة المطلقة وجنبة "يلى الربي" في عرضٍ واحد لم يكن أحدها قبل الآخر... والثلاثة التي أظهرها هي عالم النفس والخيال والطبع، فإنّ في هذه الثلاثة غبار عالم الخلق، فتكون فاقة الخلق بما هو خلق إليها.[18]

✷ إنّ لازم نسـيان الحقّ تعالى أن ينسـى الإنسان نفسه، أو قل يجرّه الحقّ تعالى إلى نسيان نفسه. وهو أمرٌ يصدق على جميع المراحل السّابقة. في مرحلة العمل، فإنّ الذي ينسى الله وحضوره جلّ وعلا يُبتلى بنسيان ذات نفسه أو يجرّ إلى ذلك. وينسى عبوديّته فيخرج من مقام العبوديّة. ومن لا يعرف ما هو ومن هو وما هي وظيفته والعاقبة، يحلّ الشّيطان فيه ويجلس بدلًا من ذاته، والشّيطان عامل عصيان وطغيان. وإذا لم يثب إلى رشده ويرجع إلى ذكر الحقّ وانتقل من هذا العالم على هذه الحال من الطّغيان والعصيان فقد يظهر (في ذلك العالم) على شكل شيطان مطرود من الحقّ تعالى. أمّا إذا كان بمعنى الترك.. الأمر أشد إيلامًا لأنّه إذا كان ترك إطاعة الحقّ وترك الحقّ موجبًا أن يتركه الحقّ ويكله إلى نفسه ويقطع عنه عناياته فلا شكّ في أنّه ينتهي إلى خذلان الدّنيا والآخرة. في الأدعية الشّريفة للمعصومين نجد أنّه تمّ التّأكيد على الدّعاء كي لا يكلنا الله إلى نفوسنا، لأنّهم كانوا يعلمون نتائج هذه المصيبة ونحن غافلون عنها.[19]

✷ إنّ الإنسان، وبسبب محدودية أُفقه الوجودي، وكذلك بسبب انغماسه في

الطبيعة؛ محجوبٌ عمّا وراء طبيعته فلا يدرك عوالم ما فوقه وما تحته؛ بل هو محجوب بالكامل عن نفسه أيضًا ولذلك فهو يتوهّم انحصارها في هذا الجلد والعظام والبدن المُلكي والإدراكات الحسّية والخيالية، ويغفل عن حقيقة نفسه ولبُّها. وتبعًا لذلك ينحصر كل همّه وغمّه في تلبية الحاجات المُلكية الدنيوية، وحاجات البطن والفرج، فهو غافلٌ عن غاياته الإنسانية، ولا يتحرّك من أجل تحقّقها لأنه غافلٌ ومحجوب عن نفسه، ومن لا يرى في نفسه إلّا الحياة الحيوانية لا يسعى لغير الغايات الحيوانية.[20]

- إن من أحابيل الشيطان والنفس الخطيرة ومكائدهما الدقيقة، صدّ الإنسان عن التفكير في حاله وفي أمراضه، وإيقاعه بالتالي في النسيان والغفلة، وعندها يعجز عن معالجته أطباء النفوس، فلا ينتبه لبؤس حاله إلا يوم ينقطع عن سبيل الإصلاح، ويغلق في وجهه باب العلاج. قال تعالى: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ}.[21]

- من الأمـور التي يقع الخلط بشأنها ويخدع فيها الإنسان بسبب محجوبيته؛ هي التمييز بين الغرور والأماني، وبين الرجاء والثقة بالحقّ تعالى، ومن الواضح للغاية أنّ الغرور هو من أكبر جنود إبليس، في حين أنّ الرجاء هو من جنود الرحمان والعقل، فهما متمايزان إذًا في المبدأ وفي الآثار. إذ إنّ مبدأ الرجاء هو العلم بسعة الرحمة الإلهية والإيمان ببسط الفيض والكمال وتجليات الأسماء والصفات الإلهية؛ في حين أنّ منبع الغرور هو التهاون في الأمر الإلهي، والجهل بعوالم الغيب والصورة الغيبية لأفعال النفس، واللوازم الملكوتية لصفاتها: ولذلك فإنّ آثارهما متمايزة أيضًا، لأنّ العارف بسعة الرحمة الإلهية وشمولية النعم الربّانية والمؤمن بها تحصل عنده حالة الرجاء، وتدعوه هذه المعرفة والإيمان إلى تزكية الأعمال وتصفية الأخلاق، والجد في طاعة أوامر المولى ووليّ النعم. أمّا الغرور فهو واقع في شباك الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء، لذلك فهو متخلّف عن كسب المعارف واكتساب الأخلاق الكريمة والمبادرة إلى الأعمال الصالحة.

إنّ النفوس الراجية هي التي تطيع الأوامر الإلهية، لكنّها في الوقت نفسه لا تتّكل على طاعاتها وأحوالها؛ لأنّها أدركت عظمة الحقّ جلّ وعلا، وعرفت أنّ كلّ شيء صغير، وكلّ كمال حقير في قبال هذه العظمة، لذا فهي لا ترى لجميع أعمالها الصّالحة أي قيمة في حضرة جلالة كبريائه تعالى، فيكون اتّكالها على رحمة ذاته المقدسة ونزول فيضها القدسي.

أمّا النفوس المغرورة فقد تخلّفت عن جميع الكمالات، ودخلت في صف أراذل الحيوانات، وأعرضت غافلة عن الحقّ تعالى ورحمته، لكنّها تقول - بلقلقة اللسان وحده - إنّ الله أرحم الراحمين وإنّه كريم عظيم. الشيطان يدفعها إلى ارتكاب المعاصي الكبيرة وترك الواجبات العظيمة، ويلقّنها القول إلى جانب ذلك في مقام الاعتذار: الله كريم عظيم، في حين أنّها لو كانت قد أدركت - ولو بمقدار قيد أنملة - عظمة الله تبارك وتعالى لما تجرّأت على عصيانه في محضره وبوسيلة نعمه! فهي تتشدق بوصفها له تبارك وتعالى بالعظمة وسعة الرحمة، وتغرّر نفوسها والآخرين بذلك، لكنّها لا تشبه في أي من أفعالها وأقوالها من ظهرت في قلبه نفحة بسيطة لعظمة الحقّ تعالى، وشعّ في صفحة نفسه قبس من نور سعة رحمته جلّ وعلا.

أصحاب هذه النفوس يتهاونون بأمور الآخرة ويسمّون تهاونهم رجاء وثيقًا، ويضيفون عليه صبغة التوكّل والثقة بعظمة الحقّ تعالى، لكنّهم ينهمكون بكلّ حرص وطمع وعجلة في الاكتناز والجمع فيما يرتبط بالأمور الدنيوية، وكأنّ الله عظيم فقط فيما يرتبط بالآخرة وشؤونها ولا عظمة له [والعياذ بالله من هذا القول] فيما يرتبط بالأمور الدنيوية! فهم يتّكلون في أمور الدنيا على النفس والخلق بصورة كاملة، ويغفلون عن الحقّ تعالى فيها بصورة كاملة، بل ولا يذكرون حتى اسمه تعالى، في حين أنهم يقولون بشأن الأمور الأخروية: نتوكّل على الله وما هذا إلا الغرور.

إنّ "الدنيا مزرعة الآخرة» وهذه حقيقة ثابتة بالبرهان العقليّ ومروية عن الرسول الخاتم، صلى الله عليه وآله وسلّم، فالذين لا يعملون ويطلبون الثواب والثمار هم المغرورون، والذين يعملون ويتّكلون على

عملهم هم المعجبون بأنفسهم، وهم الذين نسوا أنفسهم وغفلوا عن الحقّ تعالى. أمّا الذين يعملون ويستصغرون أنفسهم وعملهم، ولا يتّكلون - في الدنيا أيضًا - على غيره، ولا يثقون بسواه، ولا يتطلّعون إلى غيره من الموجودات، فأعينهم مفتوحة على جمال الجميل جلّ وعلا فقط، ولا يتوانون عن العمل والقيام بالواجب والخدمة، بل إنّ معرفتهم بالله تدفعهم إلى العمل والطاعة، وتصدّهم عن المعصية.[22]

* ما أكثر ما ذكر في قصّة آدم وحوّاء أو قضاياهما مع إبليس، من ابتداء خلقهما إلى نزولهما إلى الأرض من المعارف والمواعظ التي تكررت أو ذكرت بطريقة رمزية، وما أكثر ما أشير فيها إلى معايب النّفس وكمالاتها ومعارفها وأخلاق إبليس، ومع ذلك نحن عن كل ذلك غافلون.[23]

3

ما هي
الأدوات التي تعين النفس
للوصول إلى ما تصبو إليه؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«قال الشيخ العارف القاضي سعيد القمي: «إنّ النفس عقل بالعرض ونفس بالذات»، وقال في شرحه لكتاب التوحيد: «امتثل العقل للأمر الإلهي فتصوّر بصورة النفس الكلية لتصوير المادة». وهو قدس سره وإن قصر ذلك التصوير على النفس فقط، لكنّ العلم بمراتب الوجود وملكوت الغيب والشهود يعطي ما ذكرنا من تصوّره بصورة الجسم أيضًا. وهذا مراد الأقدمين، كأفلاطون، من هبوط النفس إلى العالم السفليّ، مع أنّ البرهان يثبت حدوثها من المادّة. وفي كتاب أثولوجيا ورد أنّ النفس عقل تصوّر بصورة الشوق. وجاء في هذا الكتاب أيضًا: «إنّ النفس لمّا اشتاقت إلى السلوك وإلى أن تظهر أفاعيلها، تحرّكت من العالم الأوّل أوّلًا، ثمّ إلى العالم الثاني، ثمّ إلى العالم الثالث، فإنّ العقل لم يفارقها، وبه فعلت ما فعلت».[24]

في كلـمات العارفين والحكماء الشيء الكثير حول معرفة النفس وأسرارها. وأحد أهم معاني النفس وأبعادها ما يُسمّى «العقل».

وقد تحدّث الفلاسفة عن العقل كثيرًا. لكنّ كلمة العقل بدأت عند العرب قبل أن يعرفوا أي فلسفة. ومن المستبعد جدًّا، بل من المستحيل، أن يكونوا قد أخذوا هذه

الكلمة من الفلاسـفة. أوّلًا لأنّهم لم يكونوا على اتّصال بغيرهم من الشعوب من الناحية العلميـة. فلم يعرف العرب قبل الإسـلام أي نـوع من التّبادل العلمـيّ، وخصوصًا مع اليونان والفرس الذين كان لهم فلسـفات. وثانيًا لأنّ كلمة العقل لم تكن مسـتعملة بما هي هي لفظًا في اللغات الأخرى.

وجاء الإسـلام، واسـتعمل القرآن لفـظ العقل في صيغة الفعل فقـط مثل قوله: {لا يَعْقِلُـون}،[25] و{لعلّكم تعقلون}.[26] ولا يوجد أي إشـارة قرآنية إلى وجود العقل كحقيقة مسـتقلّة، بل هو من أفعال النفس والقلب. ثمّ جاءت الأحاديث عن أولياء الدين بدءًا من رسول الله ﷺ ومرورًا بأهل بيته المعصومين لتحدّثنا عن حقيقة عظيمة هي العقل، وتذكر لنا الكثير من أحواله وتجلياته وأفعاله وآثاره وأهميته وموقعيته. حتى إذا بدأت حركة الترجمة بدافعٍ من السـلطات الحاكمـة للوقوف بوجه حركة أهل البيت العلمية وطمس آثارهم، استعمل المترجمون لفظ العقل، الذي كان يوحي بمعاني إسلامية خاصّة، للتعبير عن حركة فكرية محدّدة أشـار إليها فلاسـفة اليونـان. وبعد ذلك غلب المعنى اليونانيّ على المعنى الإسلاميّ، واستطاعت الترجمة أن تأسر لفظ العقل الإسلامي وتضعه في قالبهـا. وحين انطلق بعض أهل العرفان والتصوّف والباطنية في المجتمع الإسـلامي واعترضوا على حركة الفلسـفة قاموا بنقض العديد من مبانيها. ومنها العقل الفلسفي. حتى اشتُهر عنهم أنّهم أعداء العقل. وذكر ذلـك بالصراحـة والتلميـح في الكثير من نصوصهـم. والواضح أنّهـم كانوا يعترضون على العقل بحسـب التفسـير والاستعمال الفلسـفي، لا الإسـلاميّ. وقد وُجد من بين أهـل العرفـان والحكمة من اسـتطاع أن يجمع بين الاستعمالين، وسعى للتقريب بين التفسيرين.

إنّ العقل نورٌ وفيضٌ إلهيّ يُفاض على النفس، فإذا اسـتقبله صاحبه بحسن اختيـاره وعمـل بمقتضاه واسـتنار بنـوره، اتّحدت نفسـه معه وصارت النفـس عقـلًا... وإذا خالف صاحبها هـذا العقل ولم يهتدِ بنـوره، وغلّب هـواه عليـه، يخرج منه هـذا النور وربّما لا يعود إليه أبدًا.

وما يهمّنا قوله هنا، وممّا يمكن أن يكون له فائدة جمّة، وهو حصيلة تفكير وبحث

طويل على مدى سنين من المطالعة والتعمّق في النصوص الدينية والآثار الفلسفية والعرفانية، إنّ العقل نورٌ وفيضٌ إلهيّ يُفاض على النفس، فإذا استقبله صاحبه بحسن اختياره وعمل بمقتضاه واستنار بنوره، اتّحدت نفسه معه وصارت النفس عقلًا مصوّرًا، أمكن أن يُقال أنّ هـذه النفس عقلٌ بالفعل، وإذا خالف صاحبها هذا العقل ولم يهتدِ بنوره، وغلّب هواه عليه، يخرج منه هذا النور وربّما لا يعود إليه أبدًا، وهؤلاء هم الذين {لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا}،[27] فقلوبهم يعني بواطنهم يعني أنفسهم خالية من نور العقل.

ما يعين على رحلة الرّجوع إلى النفس الكليّة التي لهـا الولاية على كل عالم المـادة هو نور العقـل الذي يميّز بين الكـمال والنقـص والحسـن والقبح والخير والشر والحق والباطل.

إنّ نشـأة النفس الكليّة بحسب مراتب الوجود سـابقة على عالم الطبيعة. أمّا نشأة النفوس الجزئية، فتبدأ من عالم الطبيعة كما هو ظاهرٌ للعيان. فما لم يتشـكّل البدن في رحم الأم من مغذّيات المادّة الطبيعية، لن تنشـأ النفس بنفخ الروح. وهكذا تبدأ هذه النفس الجزئية رحلتها للعودة إلى النفس الكلية المحيطة بعالم الطبيعة. بيد أنّ للإنسان إرادة واختيـار، وقـد لا يختار مثل هذه العودة، بل يفضّل النزول إلى الأسـفل والإخلاد إلى الأرض، فيُحـرم مـن ذلك المقام والكـمال العظيم. وهذا هو الحرمـان المبين وإليه الإشارة بقوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُون}،[28] وقوله تعالى: {مُهْطِعِينَ مُقْنِعي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواء}.[29]

فـما الـذي يعين على رحلة الرّجـوع إلى النفس الكلية التي لهـا الولاية على كل عالم المادّة؟ إنّه نور العقل الذي يميّز بين الكمال والنقص والحسن والقبح والخير والشرّ والحق والباطـل. حيث مرجع كل هذه الأمور إلى الكمال والنقص. ومرجع كل كمال إلى الكمال المطلـق وهو كمال الله تعـالى. وهذا هو المعنى الرائع الذي أراد رسـول الله ﷺ لنا أن نفهمه مـن خلال قوله: «الْعَقْلُ... مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمَنُ وَاكْتُسِـبَ بِـهِ الْجِنَان".[30] أو ذاك المعنى اللطيف في الحديث المشـهور عن أبي عبـد الله عليه السلام: «أول ما خلق الله العقل، قال له أقبل فأقبل، ثمّ قال له أدبر فأدبر، فقال: ما خلقت خلقًا أحب إليّ منك لك الثواب

وعليك العقاب».[31]

وفي الفيض الإلهيّ نورٌ آخر يعبّر عنه بالفطرة وهي المسـؤولة عن الشـوق والاندفاع نحو الكمال المطلق. فإذا اجتمع للإنسـان هذان النوران، أو بحسـب تعبير الإمام هذا النـور من تلـك النار: نور العقل من نـار الفطرة، فإنّه يتحرّك بالحركـة الحبية الواعية المدركة نحو كماله. ويميّز عقبات الطريق فلا يسقط في أفخاخها.

وإنّما كانت الأرض محل الأفخاخ والعقبات لحكمة إلهية عظيمة ترتبط بنوع الكمال الذي يصل إليه هذا الإنسان دون الملائكة وما دونها. وسوف يُشار إلى هذا السرّ إن شاء الله تعالى. غاية ما في الأمر هو أن نعلم أنّ الله تعالى زوّد الإنسـان بكل ما يحتاج إليه لهذا السير وهذا التمييز. وما عليه سوى أن يعمل بمقتضاهما ولا يغلّب شهوته وغضبه عليهما. {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.[32]

شواهد إضافية

- ميزان العرفان والحرمان هو الدافع، كلّما كانت الدوافع أقرب إلى نور الفطرة. وأكثر تحرّرًا من الحجب، حتى حجب النور،33 تكون أكثر ارتباطًا بمبدأ النور.[34]

- فالأنبياء، عليهم السّلام، والعلماء بالله وأصحاب المعرفة قد جاؤوا ليُخرجوا الناس من الاحتجاب، ويخلّصوا نور فطرتهم من ظلمات الجهل، ويعرّفوهم على الكامل والكمال. فإنّهم إذا شخّصوا الكمال والكامل، لن يحتاجوا إلى دعوةٍ للتّوجّه إليه وترك ما سواه، بل نور الفطرة هو أعظم هادٍ إلهيٍّ وهو موجودٌ في كل أفراد سلالة البشر.[35]

- اعلم، أنّ موضوع العقل والجهل الذي جرى ذكره بين موالي الإمام، عليه السلام، يرتبط على ما يبدو بالعقل والجهل عند الإنسان، أي بالقوّة العاقلة فيه، وهي القوّة الروحانية المجرّدة بحسب ذاتها، والميالة إلى الخيرات والكمالات، والداعية إلى العدل والإحسان بحسب فطرتها، وفي مقابلها القوّة الواهمة الميّالة فطريًّا إلى الدنيا - إذا لم تخضع للنظام العقلي ولم تسخر في ظلّ كبرياء النفس المجرّدة - وهي الشجرة الخبيثة وأصل أصول الشرور كافة.[36].

- عن الإمام الصادق عليه السلام: "فكان ممّا أعطى العقل من الخمسة والسبعين الجند: الخير وهو وزير العقل، وجعل ضدّه الشرّ، وهو وزير الجهل"... فالمراد من الخير الذي هو وزير العقل والحاكم على جميع جنوده، هو الفطرة المخمّرة المتوجّهة إلى الرّوحانيّة ومقامها الأصلي [في العالم العلوي].[37]

- ولما كانت عناية الحق تعالى ورحمته قد وسعت بني الإنسان في الأزل، جعل لهم سبحانه حسب تقدير دقيق نوعين من المربي والمهذّب، بمثابة جناحين يطير بهما من حضيض الجهل والنقص والقباحة والشقاء إلى أوج العلم والمعرفة والكمال والجمال والسعادة ويحرر نفسه من ضغط ضيق عالم الطبيعة إلى الفضاء الرحب الملكوتي الأعلى. وهما: المربي الباطني المتجسد في العقل والقدرة على التمييز بين الحسن والقبح. والمربي

الخارجي المتمثل في الأنبياء والأدلّاء لطرق السعادة والشقاء. وكل منهما لا يؤدي دوره بدون الآخر، إذ أن العقل البشري عاجز عن معرفة طرق السعادة والشقاء واكتشاف الطريق إلى عالم الغيب، ونشأة الآخرة، كما أن هداية الأنبياء، وإرشادهم لا تكون مؤثرة بدون إدراك العقل والقدرة على التمييز.[38]

✵ إذا خضع الوهم لحكم العقل والشرع، وكانت حركاته وسكناته مقيدة بنظام العقل والشرع، فقد أصبحت هذه المملكة مملكة روحانية وعقلانية، ولم يجد الشيطان وجنوده محط قدم لهم فيها.[39]

✵ إنّ النفس بمقتضى الطبيعة تميل إلى الشهوات الباطلة والأهواء النفسية، لولا العقل والشرع اللذان يكبحانها.[40]

✵ فالعقل هو الذي أرسله الله إلى سكان جميع العوالم، ليهديها سواء السبيل. فقال له: أقبل على المسجونين في ظلمات العوالم الخلقية من عالمك الأمري، فأرشدهم إلى دار السرور وعالم يغلو فيه النور على النور. فظهر في كل حقيقة بقدر الاستعداد إطاعة لأمر رب العباد، فهداهم إلى عالم الأسرار ودعاهم إلى محفل الأنس ودار القرار.

ثم بعد الإرشاد والهداية، أمره بالرجوع كجميع مظاهره من عالم الدنيا إلى الغاية القصوى والرفيق الأعلى، فقال له: أدبر. وهذه الحقيقة هي التي أعطاها الله تعالى الجنود في بعض المظاهر المناسبة من عالم القدس لتقاوم جنود الجهل وتتغلب عليها، وتقود الخلق إلى حزب الرحمن.[41]

✵ وقوله عليه السلام: «ولا أكملتك إلا فيمن أحب» إشارة إلى أن ظهور العقل في مراتب الموجودات على قدر استعدادهم الذي قدر لهم في الحضرة العلمية بالحب الذاتي. ولولا هذا الحب لما ظهر موجود من الموجودات، ولا وصل أحد إلى كمال من الكمالات؛ فبالعشق قامت السماوات.[42]

✵ وللعقل - بحسب فطرته الأصليّة السّليمة - معرفة فطريّة بالحقّ تعالى،

لأنّه غير محتجب بحسب هذه الفطرة الذّاتيّة المخمّرة، إذ أنّ الحجاب يتولّد من التّوجّه إلى الطّبيعة، وهي الشّجرة الخبيثة وهي في عالم التنزّل الشجرة المنهيّ عنها.[43]

* فإنّ شأن العقل هو الحكم القطعي وليس ذلك من شأن النفوس الوهمانية.[44]

4

هل أنّ النفس تقطن داخل الجسد ومقيّدة بحدوده؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«أمّا ارتباط النّفس بالجسد في هذه الدنيا فضعيف وناقص، ففي هذا العالَمُ يستعصي على النفس أن تظهر فيه بكامل قواها، أمّا الآخرة فهي عالم ظهور النفس. إن نسبة النفس إلى الجسد نسبة الفاعلية والخلاقية، كما هو ثابت في محلّه، وهي أتم مراتب النسبة والارتباط».[45]

حين تصل النفس في نموّها إلى حدّ التمام، وذلك بانبعاث الفطرة والعقل، ينشأ فيها هذا الميل إلى أصلها ومبدئها الذي يعبّر عنه بالرّوح. فالرّوح الإلهي الذي بسبب نفخته انبعثت الروح من الجسد، هو مقصد النفس وغايتها، وهو يسري فيها وكأنّه متّحد مع كلّ ذرّاتها. فإذا استحكمت هذه الوجهة في النفس بفعل الاختيار الحر الواعي، علمت النفس أنّ الجسد ليس سوى إحدى أدواتها الذي وُجد لكي تنال بواسطة استخدامه كمالها اللائق بها. فمن خلال تفاعل النفس مع عالم الدنيا (في طبيعتها أو مجتمعها) ترتقي النفس حتى تصل إلى مقام الروح وتتّحد معها كما تتّحد قطرات البحر مع البحر، بل ما هو أعمق من ذلك بكثير.

وسرعان ما تكتشف النفس التائقة إلى عالم الروح أنّ هذا الجسد عاجز عن الكثير ممّا تصبو إليه، ولا يمكن أن يكون محل ظهور كمالاتها التي هي من شؤون العوالم العليا. فتصبح مشتاقة للتحرّر من عالم الطبيعة كما وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام:

«وَلَوْلَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ".[46]

وإذا كانت الدنيا هي عالم ظهور الأجساد، فإنّ الآخرة هي محل ظهور الأنفس في كمالاتها وحالاتها، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر. فمن النفوس من لو شعّت أنوارها على عالم الطبيعة لأحرقته بأسره، ومن النفوس من لو ظهرت في بشاعتها لمات أهل العالم من شدّة نتانتها. نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا.

ورُغم أنّ نشوء النفس من مهد الأجساد، لكن تمامية النفس يعطيها مقام الفاعليّة والعليّة على الأبدان، فتشكّلها كما يحلو لها في إطار النّظام الكونيّ الإلهيّ. ولا تظهر فاعلية النفس بكل مراتبها في هذا العالم لضيق أفقه. بل إنّ ما يظهر من هذه الفاعلية في الأبدان هو كلا شيء. وحين تبلى السرائر وتزول القيود والحدود المادّيّة، تكون النفس في فاعليتها بالجسد كيد الخباز في العجين. {فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ}.[47]

تمامية النفس يعطيها مقام الفاعليّة والعليّة على الأبدان، فتشكّلها كما يحلو لها في إطار النّظام الكونيّ الإلهيّ.

إنّ أصحاب النفوس القوية - سواء كانوا من الأخيار أو الأشرار - لهم تأثيرٌ كبير على أبدانهم وأبدان غيرهم بحسب أحوال نفوس الغير وقوّتها. وهذا ما يفسّر الكثير من الأعمال التي يعدّها البعض خارقة للعادة.

شواهد إضافية

* إنّ من أسرار العبادات وفوائدها أن تتقّوى إرادة النفس وتتغلّب النفس على الطّبيعة، وتكون القوى الطّبيعيّة مسخّرة تحت قدرة النفس وسلطنتها، وتكون إرادة النفس الملكوتية نافذة في ملك البدن بحيث تكون القوى بالنسبة إلى النفس كملائكة الله بالنسبة إلى الحقّ تعالى: {لا يعصون الله ما أمرهم}، {وهم بأمره يعملون}.[48]

* اعلم أنّ مالكية الحقّ تعالى... ليست من قبيل مالكيّة النفس لأفعالها الذاتية التي هي من شؤون النفس كإيجاد الصور الذهنية التي يكون قبضها وبسطها إلى حدٍّ ما تحت إرادة النفس أيضًا.[49]

* لا بدّ من معرفة أنّ هذا النّور الحقيقيّ الموجود في قلوب أهل الإيمان والعلم، لمّا كان من أنوار عالم الآخرة، ينير في عالم الآخرة حسب فعالية النفس بالنور الحسّي. وحيث أنّ هذا النور هو الذي ينير الصراط، يكون نور طائفة مثل نور الشمس وأخرى مثل نور القمر حتى ينتهي الأمر إلى نور يضيء أمام قدميه فقط.[50]

* إنّ النّفس حين تلتفت بصورة تامّة إلى شيء تغفل عن مُلك البدن، وتتوقّف القوى الحسيّة عن العمل وتتحّول الهموم إلى همٍّ واحد. إنّنا نشعر بأنفسنا حين السّجال في الكلام والجدال في البحث - نعوذ بالله - بالغفلة عمّا يحدث في المجلس.[51]

* إنّ أدنى المراتب والمراحل لظهور النّفس التي هي قشر القشر والبدن الصوري الملكي، إلى أعلى مقاماتها وحقائقها التي هي لبّ اللباب ومقام سرّ القلب، حاضرة في المحضر المقدّس للحقّ.[52]

5

ما معنى أن تصل النفس إلى حالة التجرّد؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«إنّ من حالات النّفس هو تجرّدها، وهي حالة لم يُولِ الحكماء العظام لأي مسألة حكميّة فلسفيّة أخرى مثلما أَوْلُوا لهذه المسألة من أهميّة وأثبتوها بالأدلّة والبراهين. ولكنّنا لسنا الآن بصدد إثبات تجرّد النّفس بصورة مفصّلة، وإنّما نكتفي ببعض الأدلة التي لا تستعصي مبادئها على الفهم، للوصول إلى المقصود.

فنقول: يُجمع الأطبّاء وعلماء الأبدان، وفي ظلّ التجارب، على أنّ جميع أعضاء الجسم، من أمّ الدّماغ التي هي مركز الإدراكات ومحلّ ظهور قوى النّفس، وحتّى آخر أجزائه الصّلبة تبدأ من سنّ الخامسة والثلاثين أو الثّلاثين فما فوق بالانحدار نحو الانحطاط والنّقصان والاقتراب من الضعف والانحلال. ولقد جرّبنا بأنفسنا أيضًا كيف يبدو الضّعف في القوى كلّها. ولكن في هذه الفترة نفسها، أي من سن الثلاثين أو الأربعين فما فوق، تزداد القوى الرّوحيّة والإدراكات العقليّة كمالًا ورقيًّا وسدادًا. ويتّضح من هذا أنّ القوى العقليّة ليست جسمانيّة، إذ لو كانت جسمانيّة لانحدرت، مثل سائر قوى الجسم، نحو الضّعف والوهن. كما لا يمكن توهّم بأنّ القوى العقليّة تزداد قوّةً بكثرة إعمال القوّة الفكريّة وحصول التّجربة، إذ إنّ القوى الجسمانيّة ينتابها التّعب والانحلال لا القوّة والكمال نتيجةً لكثرة العمل وبذل

الجهد. وهذا بذاته دليل على أنّ القوى العقليّة ليست جسميّة ولا من آثار الجسم. والاعتراض على هذا الكلام بضعف القوى الفكريّة أيّام الكهولة، كالضّعف الجسماني، لا محلّ له، وذلك لأنّه:

أوّلًا: ليست هناك قوّة جسمانيّة تنمو وتشتد حتّى سنّ الكهولة بحيث يمكن أن نقول بأنّ الموضع الفلاني من الجسم هو موضع الإدراكات العقليّة وأنّه كان يشتدّ ويزداد قوّة حتّى سنّ الكهولة، والآن بعد أن ضعُف هذا الموضع ضعُفت بضعفه القوّة الفكريّة أيضًا.

ثانيًا: هل إنّ هذا الضّعف في الكهولة يعود إلى الفكر كقوّة حالّة في الجسم، أم أنّ الفكر يحتاج إلى قوّة جسمانيّة فعند وهن الجسم - محلّ الفكر - لا يؤدّي دور الفكر؟ هذا كلّه بالنّسبة إلى القوّة الفكريّة. وأمّا الإدراكات المحضة والملكات الفاضلة في فترة الكهولة تكون أقوى أيضًا ممّا كانت عليه من قبل، حتى وإن قلّ ظهورها أو إظهارها. وعلى كلّ حال، يكفي لإثبات دعوانا - تجرّد النّفس - ما قلناه من قوّة الإدراك في سنّ الأربعين أو الخمسين مع أنّ الجسم ينحدر نحو الوهن والضّعف.

وأمّا الإجابة على الاعتراض والنّقض فهو أنّ النّفس لمّا تستجمع قواها من مُلك البدن، وتعود القوى إلى باطن ذاتها، كلّما كانت القوى أقرب إلى عالم الجسم والجسمانيّة، كانت أسرع إلى الضعف والكلل، وكلّما كانت أبعد كانت أبطأ في الإصابة بالضعف. أمّا القوى التي تنتمي إلى عالم التجرّد والملكوت فتقوى وتزداد شدّة حين يزداد عمر الإنسان. وهذا دليل على أنّ النفس ليست جسمًا ولا هي قوّة جسمانيّة.

وأيضًا إنّ خصائص النّفس وآثارها وأفعالها على النّقيض من خصائص الأجسام وآثارها وأفعالها بصورةٍ مطلقة. وهذا دليل على أنّ

النفس ليست جسمًا. فمثلًا، نحن نعلم أنّ الجسم لا يتقبّل بالضّرورة سوى صورة واحدة، وإذا أريد إعطاؤه صورة أخرى كان لا بُدَّ للصّورة الأولى أن تفارقه لكي يمكنه تقبّل الصّورة الثانية. فإذا رسمت مثلًا، صورة على صفحة الورق، لا يمكن رسم صورة أخرى مكانها إلّا إذا أُزيلت الصّورة الأولى تمامًا، وهذا الحكم يجري في جميع الأجسام بالضّرورة العقليّة. أمّا النّفس فتختلف تمامًا، ففي الوقت الذي تكون هناك صورة مرسومة فيها، يمكن رسم صورة أخرى مضادّة لها من دون زوال الصّورة الأولى.

وأيضًا إنّ الجسم ترتسم فيه الصّور المتناهية. أمّا في النّفس فترتسم الصّور غير المتناهية. ولهذا فهي تحكم على الأمور غير المتناهية. وأيضًا إنّ الجسم الذي تزول منه الصّورة، لا تعود إليه من دون استئناف السّبب، ولكنّ النّفس إذا غابت عنها بعض الصّور عادت إليها من دون سبب خارجي. إذًا، يتبين أنّ النفس تضاد جميع الأجسام في خصائصها وآثارها وأفعالها. أي أنّ النفس مجرّدة وليست من سنخ الأجسام والجسمانيات، والمجرّدات لا تفسد، كما هو مبرهن عليه في محلّه. وذلك لأنّ الفساد لا يكون من دون مادّة قابلة للفساد، والمجرّدات منزّهة عن مادّة قابلة للفساد. إذ إنّ ذلك من لوازم الأجسام... ومن هنا يُستنتج أنّ النّفس لا تفسد بفساد البدن وبمفارقتها له، بل تبقى في عالم آخر ولا تفنى. وهذا هو المعاد الرّوحيّ للنّفوس والأرواح قبل يوم القيامة، إلى أن يشاء الله لها أن تعود إلى الأبدان».[53]

مـا معنى التجرّد الذي اهتمّ بإثباته الحكماء والفلاسـفة، وينكـره الكثير من علماء الطبيعة التجريبيين؟ وما هي أهم فوائد إثباته وتوجّه النفس إليه؟

تجـرّد النفس الإنسـانية يعنـي أنّ لهذه النفس قـوى وإمكانات أعـلى وأرقى من إمكانـات المادّة. فالمـادّة منحصرة في المكان والزّمان، والمجرّد هـو الذي يتجاوز هذين البعدين. والمادّة قابلة للتحلّل والترهّل والفساد (كما يُقال)، فالمجرّد عن المادّة لا يعتريه هذا الوهن والزوال.

قـد يبدو للكثيرين أنّ إثبات تجرّد النفس بهذا المعنـى ليس بذي أهميّة، لأنّنا لحدّ الآن لم نتعرّف إلى الكثير من خصائص المادّة وقواها. فلماذا ننتقل إلى التجرّد؟!

للنفـس هذا البدن بكل ما فيه من قوى وإمكانـات لم يتعرّف الناس إلّا على القليل منها، ولا يسـتخدمون أو يسـتفيدون إلا من أقل القليل الذي يعرفونه، لهذا فهم ليسوا بحاجة إلى التعرّف إلى الإمكانات التي تفوق هذا البدن. وبعبارةٍ أخرى، ما دام الإنسـان يحصر قوّته وإمكاناته في إطار البدن، وهو لا يستخدم منه إلا القليل، فهل سيتمكّن من استخدام ما يفوق هذا البدن بما لا يتناهى من إمكانات؟

حـين لا يـرى أحدنا ما يفوق عالم الطبيعة والمادّة - حتى لو اعترف به - فلا يمكن أن يـرى لنفسـه ما هو أبعد منه. والتجرّد لا يقابل المادّة كـما تصوّر الكثيرون، بل هو أمر أعـلى منها. وإذا كان عـالم المادّة والطّبيعة محلًا لظهور القـدرة الإلهية بحدود معينة، فـإنّ عالم التجرّد الأوّل الـذي يعبّر عنه بالملكوت هو محل ظهـور القدرة الإلهيّة بنحوٍ يكون بالنسـبة للمادّة كالمطلق بالنسـبة للمقيّد المحـدود. وإن كان هناك عوالم أعلى من الملكوت حيث يصبح الملكوت بالنسـبة لها كالمقيّد بالنسبة للمطلق! وإذا كان عالم الطبيعة محلًا لظهور الحياة الإلهيّة بصورةٍ ما، فإنّ ظهور الحياة في العوالم العليا سيكون بصورة تصبح الحياة الطبيعية عندها كالموت بالنسبة للحياة.

فإذا آمن الإنسـان بأنّ الله تعالى أعطاه مثل هذه القابلية والاستعداد، وتوجّه بقلبه إلى تلـك العوالم التي هـي محل تفتّح وازدهار هذه القابليـة، يكون قد حقّق الخطوة الأساسية على طريق التجرّد. والمقصود من التجرّد أن يتفاعل الإنسان مع العوالم العليا، فيؤدّي هذا التفاعل إلى تفعيل قواه النفسـية الكامنة والتي تفوق قوى الجسـد بما لا يتناهى. ولا شـك بأنّ للبشر في مثل هذا المقام حـالات، فمنهم من يعرض بالكامل عن عالم الطبيعة، فلا يشـهد تفتّح قواه الجسـمانية وازديادها؛ وذلك لشدّة شوقه وذهوله بعوالم الملكوت، ومنهم من يحفظ العالمين، ويشـاهد ازدياد قواه الجسـمانية والحسية

والطبيعيــة بصورة مذهلة، في الوقت الذي يكون له مع الله حالات لا يســعها إلا ملكٌ مقرّب أو نبيٌّ مرسل!

إنّ الاعتقــاد بتجــرّد النفس هو اعتقــاد بوجود عوالم أخرى غير مــا تراه هذه العين وتســمعه هذه الأذن. ولا يعني هذا الاعتقاد نفي عــالم الطّبيعة أو التنكّر له أو الغفلة عنه وعدم الاعتناء به، وإنّما يعني ألّا يحصر الإنســان نفســه بهذا المنزل الأدنى الذي هو كالمحطّة على طريق سفرٍ طويل وكالممر والجسر إلى دار المقامة ومنزل السّلامة.

فلــماذا ينكــر الكثير من علماء الغرب الطبيعيين وجود التجــرّد رغم أنّه لا يضر بهم شــيئًا؟ فهل تصوّروا أنّه إنــكارٌ لعالم الطبيعة، أم تنزيلٌ لهم عن عرشــهم الذي بنوه في مواجهتهم للدين والخرافات؟!

فلهــذه القضية قصّة طويلة يعرفها من اطّلع على تاريــخ العلم في أوروبا وخصوصًا في القرنــين الأخيرين، حين أصبحت كلمة «scientist" دالة على موقعية اجتماعية ذات مكتســبات عالية بســبب تفوّق أصحابها على منافســيهم من أهل الدين والفلسفة والخرافة والســحر والخيميــاء، وحصولهم على حصّة الأسد في سوق التجارة والاقتصاد والاجتــماع والسياســة. ومن أجــل تثبيت موقعيّتهــم هــذه، كان عليهــم أن ينكروا أي شيء لا تدركه التجربة الحســية؛ ومنها النفس المجرّدة أو القوى المجرّدة عن المادّة من النفس.

إنّ الاعتقاد بتجرّد النفس هو اعتقاد بوجود عــوالم أخرى غير ما تراه هذه العين وتسمعه هذه الأذن، فإذا آمن الإنسان بأنّ الله تعالى أعطاه القابلية والاســتعداد، وتوجّــه بقلبه إلى تلك العوالم التي هي محل تفتّح وازدهار هذه القابلية، يكون قد حقّق الخطوة الأساسية على طريق التجرّد.

ما الذي يضرّ بالعالم الطبيعي إذا احتمل وجــود قــوى كامنة أعلى من قوى الطبيعة في النفوس؟ فهــا أنت قد صفّيت الكثير من حســاباتك مــع خصومك العقليــين والدينيــين والخرافيين، حتى لم يعــد لهم من كلمة مســموعة في حضارتك. فما الذي يمنعك من التفكــر فيما هو أبعد ممّا يمكن أن تدركه بحواسك؟

فلا جواب سوى العصبية العمياء التي تفرّق بين البشر وتزيدهم جهلًا.

شواهد إضافية

- يمكن لنفوس الأولياء الكمّل بعد انسـلاخها عن العوالم ومشـاهدة الروح الأعظم أو سائر ملائكة الله أن تصحو وتحفظ حضرات الغيب والشهادة بواسـطة قوّتها، وفي هذه الصورة تشـاهد حقائـق الجبروتيين في جميع النشآت في آنٍ واحد.[54]

- المراد من نور الأنوار العقل المجرّد الأوّل، ومن الأنوار النفوس الكلية، أو هي بالإضافة إلى سائر العقل إلّا العقل الأوّل.[55]

- نعـم ربّما يمكن أن يحصل للنفس انصراف عن هذه العوالم بإشـارة من أحـد الأولياء وتـدرك إدراكًا معنويًّا أو صوريًّا من عـوالم الغيب بمقدار لياقتهـا، وربّما يكون للنفس انصراف عن الطبيعة بواسـطة بعض الأمور الهائلـة فتدرك أنموذجًا من عالم الغيب كما ينقل الشـيخ الرئيس قضية ذلك الشخص السّاذج أنّه أخذ براءة من النار في حجّ بيت الله. وينقل ما يشبهها الشيخ العارف محي الدين. فجميع هذه الأمور أيضًا من انصراف النفوس عن الملك وتوجّهها إلى الملكوت.[56]

- فيـا أيّها العزيز، إنّ حرمان قلوبنا المسـكينة من حلاوة ذكر الحقّ تعالى، وإنّ عـدم وصول لـذّة مناجاة تلك الـذّات المقدّسـة إلى ذائقة أرواحنا، ونحن محتجبـون عن الوصول إلى قرب الجناب، ومحرومون من تجلّيات الجمال والجلال، لأنّ قلوبَنا عليلةٌ ومريضةٌ، وقد حجبنا الإخلاد إلى الأرض، والاحتجـاب بالحجـب المظلمة للطبيعة عن معرفة كبريـاء الحقّ وأنوار الجمال والجلال. فما دام نظرُنا إلى الموجودات نظرًا إبليسيًّا استقلاليًّا، فلن نـذوق من شراب الوصل، ولن ننال لـذّة المناجاة. وما دمنا نرى لأحدٍ، في عالَـم الوجود، العزّةَ، والكبرياءَ والعظمةَ والجلالَ، ونحن في حجابِ أصنامِ التّعيّنات الخلقيّة، فلن يتجلّى سلطان كبرياء الحقّ جلّ وعلا في قلوبنا.[57]

6

هل يمكن للإنسان أن يضلّ عمّا تريده نفسه فيسعى بخلاف ما تريده؟

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«اعلــم أنّ النّفس الإنســانيّة، رغــم كونها - في معنًــى من المعاني الخارجــة عن نطاق بحثنا، مفطورة عــلى التّوحيد، بل هي مفطورة عــلى جميع العقائــد الحقّة. ولكنّها منذ ولادتهــا وخروجها إلى هذا العالم تنمو معها الميول النّفســيّة والشّهوات الحيوانيّة، إلّا من أيّده الله وكان له حافظٌ قدسيّ. ولمّا كان هذا الاستثناء من النّوادر فإنّه لا يدخل في حسابنا، لأنّنا نتناول نوع الإنسان عمومًا».[58]

إحدى أبــرز خصائص النفس هو ميلها الشــديد ورغباتها القويّــة، والتي يعبّر عنها بالهلــع الذي فسّره الكثيرون خطأً بالخوف. ففي قوله تعالى: {**إنّ الإنســان خُلِقَ هَلُوعًا * إذا مَسَّــهُ الشَّرُّ جَزُوع * وَإذا مَسَّــهُ الْخَــيْرُ مَنُوعا * إلَّا الْمُصَلِّينَ**}،[59] إشــارة إلى هذه الخصيصة الموجودة في النوع الإنســاني. ولكي يحفظ الإنســان هذا الميل الشــديد نحو الخير، كان عليه أن يضبط أفكاره وتوجّهاته القلبية. وهنا تأتي العبادة وخصوصًا الصلاة.

ففي أعماق كلّ إنسان ميلٌ شديد إلى الكمال المطلق الذي هو واحدٌ شخصيّ حقيقيّ وهــو الله تعالى. ولا يوجد من نفس إلا وفيها هذه الحالــة التي يُعبّر عنها بفطرة الله، لأنّ اللــه تعالى هــو الذي خلق هذه النفس في أصالتها وقبــل أن تمتد إليها يد التصرّف الشيطانيّ.

إنّ لتنزّل الإنسان إلى عالم الطبيعة سرًّا عظيمًا، أشرنا إليه في طيات الكلمات السابقة،

بيد أنّ الغفلة عن هذا المعنى الكبير، تؤدّي إلى تسلّل الشيطان إلى وهم الإنسان وذهنه وتخريب علاقته بعالم الطبيعة. وإنّما تفسد هذه العلاقة التي يُفترض أن تقوم على أساس الاستخلاف وأداء الأمانة والرحمة والعناية بسبب النظرة التملّكية لهذا الإنسان تجاه هذا العالم، فيتولّد من جرّاء هذه النظرة رغبات دانية لا تمت إلى الميول والرّغبات الأصيلة بشيء. وبسببها يحصل ما يشبه الصّراع الباطني الذي لا يمكن الفوز فيه إلا بتقوية الميول الفطرية الإلهية. وقد تحدّث أهل الله كثيراً عن برنامج المواجهة والصراع وذكروا الكثير من النصائح والإرشادات، لكن عمدتها يدور حول هذه القضية الفطرية وإن لم يصرّحوا بذلك بالعبارة.

في أعماق كلّ إنسان ميلٌ شديد إلى الكمال المطلق الذي هو واحدٌ شخصيّ حقيقيّ وهو الله تعالى. ولا يوجد من نفس إلا وفيها هذه الحالة التي يُعبّر عنها بفطرة الله.

شواهد إضافية

* في البشر خصائص لا توجد في أي موجود آخر ومن جملتها أنّ في فطرة البشر طلب القدرة المطلقة وليس القدرة المحدودة. طلب الكمال المطلق وليس الكمال المحدود. يريد الإنسان العلم المطلق والقدرة المطلقة. ولأنّ القدرة المطلقة ليست موجودة في غير الحقّ تعالى، فإنّ الإنسان بفطرته يطلب الحقّ، ولكن لا يدرك ذلك في نفسه.[60]

* هذه الفطرة نفسها إذا احتجبت عن روحانيّتها ، وصارت مظلمة لانشغالها بعالم الطبيعة ، وغلب عليها سلطان الشهوة والجهل والغضب والشيطنة، وألفت الملاذ الدنيوية وكثرات عالم الملك، حينئذٍ تعرض صفحتها الباطنية عن عالم الروحانية والملكوت، ويزول تناسبها وانسجامها مع تلك العوالم النورانية فتصير منسجمة مع عالم الجنّ والشيطان، ويسيطر عليها سلطان الوهم ودعابات القوّة المتخيلة - وهي شيطان الإنسان الصغير - فلا تستسيغ بعد ذلك ما ينزل من عالم النور والطهارة والقدس بل يصبح مرًّا على ذائقتها ثقيلًا على سمعها؛ في حين تحسّ بالمقابل بحلاوة وهمية مما يترشّح من عالم الظلمات والرجس، والعقائد الباطلة والأوهام الكاذبة، والسفسطة والمغالطات، فتأنس به روحها، ويكون حالها حال المرآة التي علاها الصدأ والوسخ، فتنكر كل ما هو من سنخ النور والصورة اللطيفة، وتستقطب ما هو من سنخ الصدأ والأوساخ فيتراكم فيها، وبذلك تظهر في النفس حال الجحود والإنكار، فلا يخضع القلب لأيّ حقّ وحقيقة حتى البديهيات والأمور الفطرية... وهي من أسوأ أحوال النفس وسبب خذلانها وخسرانها الأبدي.[61]

* الخسران والحسرة بل العجب والحيرة من أنّ هذه الفطرة التي هي نفسها براق سير الأولياء في معراجهم إلى القرب من حضرة الباري جلّ وعلا ورأسمالهم للوصول إلى الكمال المطلق، هي نفسها التي توصل الإنسان الطاغي إلى نهاية الشقاء والبعد عن ساحة الكبرياء القدسية، وهذا هو الخسران الأشدّ كما يقول الحق تعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسانَ لَفي خُسْرٍ}.

وأيّ خسران أشـدّ من أن يصرف الإنسان رأسمال السعادة الأبدية في

استحصال الشقاء الأبدي فيحوّل الوسيلة التي وهبه الله إيّاها ليصل بها إلى ذروة الكمال، إلى وسيلة السقوط في حضيض النقصان. فأيّ حسرةٍ ستحيط بك أيّها الشقي في ذلك اليوم الذي تُزاح أستار الطّبيعة عن الأبصار، وتشاهد بأمّ عينك أنّ سيرك وسعيك في هذا العالم كان باتّجاه البؤس والشّقاء والذلّة، وأنّ طريق تدارك ذلك قد أُغلقت أبوابه بوجهك في ذلك اليوم وانقطعت حيلتك عن كلّ شيء، فلا طريق أمامك للفرار من السلطنة الإلهية القاهرة: {يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا}،[62] ولا سبيل لديك إلى تدارك ما فات والاعتذار عن الماضي، {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ}[63]».[64]

✷ هذا الاختلاف في التشخيص ناشئٌ من احتجاب الفطرة، لأنّ الخطأ هنا هو في معرفة مصداق المحبوب المطلوب، وسببه اختلاف العادات والأطوار المتباينة، والتربية والعقائد المتشتتة.

وكل فرد محجوب عن محبوبه المطلق بمقدار حجابه، وليس في أي من الأمور - التي تعلق بها هؤلاء، وسعوا لها بكل جهدهم، وصرفوا لأجلها أعمارهم - محبوبهم الحقيقي، لأنها جميعًا محدودة وناقصة، في حين أنّ ما تعشقه الفطرة هو المطلق والتام، ولذلك نجد أنّ نار عشقهم للوصول إلى ما تعلّقوا به لا تخمد. فلو أُعطي حكم مملكة ما لمن يعشق السلطنة - ويتوهم أنه بالوصول إليها يتحقق أمله كاملًا فلا تبقى عنده أي أمنية - فإنه سيطلب حكم مملكة أخرى يضمّها إلى المملكة التي حصل عليها، فيتعلّق عشقه بمحبوب خياليّ مجازي آخر، فإذا حصل على المملكة الثانية طمع بثالثة وهكذا، وحتى لو خضعت أقطار الأرض جميعًا لسلطانه لتمنّى أن تخضع له ممالك الكواكب الأخر لو احتمل أنّ فيها ممالك أعلى وأوسع من مملكته، بل إذا سيطر على جميع عالم الملك وسمع خبرًا عن عالم الملكوت - ولو لم يكن مؤمنًا به حقًّا - لتمنّى أن يكون هذا الخبر صحيحًا، ولتمنّى كذلك أن تكون قوى عالم الملكوت وسلطنته موجودة فيحصل عليها!

إذن يتضــح أنّ العشــق هنا ليس للســلطنة المحدودة بل للســلطنة المطلقة وهذا العشق راسخ في فطرة الإنسان، فهو يكره المحدودية ويفرُّ منها من حيث لا يدري.[65]

7

هل أنّ النفس بطبيعتها ميّالة إلى الباطل؟

يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه:

«إنّ النفـــس في بدء فطرتها خالية من كل أنـــواع الكمال والجمال والنـــور والبهجة، كما أنّها تكون خالية أيضًا من أضداد هذه الصفات - المذكورة الأربعة - فكأنّ النفس صفحة نقية من كل رسم ونقش، لا توجد فيها الكمالات الروحية ولا تتّصف بالنعوت المضادة لها. ولكن قد أودع فيها نور الاســتعداد والأهلية لنيل أي مقام رفيع أو وضيع، وأُنشــئت فطرتها على الاســتقامة، وعُجنت طينتها بالأنوار الذاتية. وحين تجترح ســيّئة، تحصل في القلب ظلمة وســواد. وكلّما ازدادت المعــاصي تضاعفت الظلمة والســواد، إلى أن يغشى الظلام والسّــواد القلــب كلّه، وينطفئ نور الفطرة ويبلغ مرتبة الشّــقاء الأبديّ. فإذا انتبه الإنســان قبل أن يســتوعب الظلام القلب كلّه، ثم اجتاز منزل اليقظة ودخل إلى منزل التوبة واســتوفى حظوظ هذا المنزل... زالت الحــالات الظلمانية والكدورات الطبيعية وعــاد إلى الحالة الفطرية النوريــة الأصيلة والروحانيــة الذاتية وكأنّها تنقلــب - النفس - إلى صفحــة خالية من جميع الكــمالات وأضدادها. كما ورد في الحديث الشريف المشهور «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ».»[66]

النفــوس الجزئية في بدء تشــكّلها من الطبيعة والمادّة لا تكون ســوى اســتعدادات محضة. فهي قوّة لا فعلية فيها. وأوّل ما ينقش فيها الجســد بخصائصه الموروثة التي لا

يعلم علماء التشريح والطب عنه سوى أقل القليل. ويسعى علماء الجينات إلى اكتشاف هذه الخصائص الوراثية، ولعلّهم يطالعوننا كل حين باكتشاف الجينات المسؤولة عن الغضب أو الحقد أو الرأفة والحنان، وذلك عبر آليات تجريبية خاصة بهم، ما عليها هو أكبر ممّا لها. ففي بداية الخلقة تكون النفس شديدة التعلّق بالبدن الذي نشأت منه، ولذلك تظهر آثاره عليها بصورة واضحة. ولعلّه من هذه الجهة كان الولد سرّ أبيه. فالمولود في طفولته يظهر الكثير ممّا أخفاه آباؤه وأمّهاته، لأنّه ليس مقيّدًا بأعراف المجتمع وقوانينه كذلك. ثمّ تبدأ التربية بدورها الكبير في نقش مجموعة من الخصائص على صفحة النفس، وذلك بحسب قوّتها وتأثيرها. لهذا تختلف النفوس بحسب التربية اختلافًا كبيرًا.

> **إنّ النفس في بدء فطرتها خالية من كل أنواع الكمال والجمال والنور والبهجة، كما أنّها تكون خالية أيضًا من أضداد هذه الصفات.. ولكن قد أودع فيها نور الاستعداد والأهلية لنيل أي مقام رفيع أو وضيع.**
>
> **الإمام الخميني**

وتجري هذه العمليات الوراثية والتربية في الأسرة والبيئة والمدرسة والمجتمع جنبًا إلى جنب مع تفتّح الاستعدادات الفطرية التي توجّه الإنسان نحو الكمال والجمال والخير والحسن، وتجعله نافرًا من النقص والقبح والشر. وإنّما تتفتّح هذه الاستعدادات بحسب البيئة المحيطة بالإنسان بمقدار ما فيها من عوامل الجمال وتجلّيات الكمال. فالبيئة الصحراوية الجرداء القاحلة هي عامل سلبي أمام تفتح الكثير من الاستعدادات الفطرية نحو الجمال. والبيئة الاجتماعية القاسية الظالمة الجلفة لا تساعد أبدًا على ازدهار فطرة حبّ الكمال. كل ذلك والإرادة الإنسانية للأطفال ضعيفة والنفس في حالة من التلقي والتفاعل القهري، إلى أن يتشكل العقل وتقوى الإرادة بفعله ويكتشف الإنسان إمكانية اتّخاذ قرارات ومواقف تجاه بيئته ويدرك إمكانية وجود ما هو أوسع وأعمق منها.

وهنا يصبح قياد النفس بيد صاحبها فيحدّد مصيره وفق اختياره إمّا لنجد الخير والجمال، وإمّا لنجد الشر والقباحة. ومع كلّ خيار يتّخذه، إمّا أن يزداد توجّهه نحو الكمال والجمال، وإمّا أن يزداد إقباله نحو الشرّ والسفال. فالإنسان بعد الطفولة مسؤولٌ بالكامل عن تقوية فطرته أو إطفاء نورها.

شواهد إضافية

* إنّ قوله "خلق الكان والمكان.. إلى قوله منه الأنوار" إشارة إلى ترتيب أمهات مراتب الوجود من النازل إلى الصاعد. فإنّ الكان والمكان هما الكائنات الطبيعية والأجرام السماوية والأرضية، حتى يشمل النفس التي هي بذاتها من عالم الأنوار ولكنها طالعة من مطلع المادة، ظاهرة في الكائنات النازلة.[67]

* الإنسان ما دام محافظًا على سلامة فطرته الأصلية من الاحتجاب بحجب الطبيعة، فهو بعيدٌ عن التمرُّد والعمل برأيه، وعن إضفاء النفسانية على أعماله، بل يكون مُسلّمًا للحقّ تعالى بفضل سلامة فطرته؛ فيكون قلبه كالمرآة التي يتوجّه طرفها النورانيّ إلى الحقّ تعالى؛ فهو يتلقّى بالكامل ما يأتيه من عالم الغيب، فينطبع فيه بكماله، ويُسلّم للواردات الغيبية بدرجة يذهل عن نفسه بالكامل.[68]

* فجميع الشرور التي تصدر من هذا الإنسان البائس في هذا العالم هي نتيجة لاحتجاب الفطرة، بل هي الفطرة المحجوبة التي تكتسب - بسبب اختلاطها وتقوقعها في الحجب - صفة الشرية بالعرض وتصبح شريرة بعد أن كانت خيّرة بل كانت خيراً.

فإذا أزيحت هذه الحجب الظلمانية (بل النورانية) عن الوجه الشريف للفطرة وخُلّي بين فطرة الله المخمّرة بيد القدرة الإلهية وروحانيّتها، لظهر حينئذ عشقها للكمال المطلق من دون حجاب ولا خلط ولا وهم، ولحطمت الأحبّاء المجازيين وأصنام بيت القلب، وسحقت الأنا والأنانية وكل شيء، وتعلّقت بعروة الحبيب الحقيقي الذي تتوجّه إليه جميع القلوب - شاءت أم أبت - وتطلبه كل فطرة من حيث تدري أو لا تدري. وكل ما يصدر عن صاحب مثل هذه الفطرة وفي سبيل الحقّ والحقيقة وطريق الوصول إلى الخير المطلق وجمال الجميل المطلق؛ فهذه الفطرة هي بحدّ ذاتها مبدأٌ وعلّةٌ للخيرات والسعادات، بل هي خيّرة بل هي خير. والحمد لله تعالى.[69]

* اعلم، أنّ للقلب - وهو مركز حقيقة الفطرة - وجهتين: الأولى لعالم الغيب والروحانية، والثانية لعالم الشهادة والطبيعة. والإنسانُ هو وليد عالم الطبيعة وابن النشأة الدنيا - ولعلّ في قوله تعالى: {فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ}[70] إشارة إلى هذا المعنى، لذا فهو يتربّى منذ بداية خلقه في غلاف الطبيعة فتدخل روحانيته وفطرته في حجاب الطبيعة هذا، وتحيط به أحكام الطبيعة تدريجيًا وتشتد ويغلب عليه، تناسبًا مع نموّه الطبيعيّ في عالم الطبيعة. فإذا وصل مرحلة الطفولة احتضنته ثلاث قوى: قوّة الشيطنة وهي وليدة القوّة الواهمة. وقوّة الغضب، وقوّة الشهوة، وكلّما ازداد نموُّه الحيوانيّ تكاملت ونمت فيه هذه القوى الثلاث، وغلبت عليه أحكام الطبيعة والحيوانية.

ولعلّ في قوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِين} إشارة إلى النور الأصليّ للفطرة المخمّرة بيد القدرة الإلهية فهي {أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} لأنّها على صورة الكمال المطلق والجمال التام، أمّا الردُّ إلى {أَسْفَلَ سافِلِين} فهو إشارة إلى هذا الاحتجاب بالطبيعة وهي أسفل سافلين.[71]

* النفس الإنسانية هي كالمرآة تكون في الفطرة الأولى صافية نورانية خالية من كل كدورة وظلمة، فإذا واجهت عالم الأنوار والأسرار المناسب لجوهر ذاتها ترقّت تدريجيًا وانتقلت من مقام نقص النورانية إلى كمال الروحانية والنورانية حتى تتخلّص من جميع الكدورات والظلمات، وتتحرّر وتهاجر من قرية الطبيعة المظلمة وبيت النفس المظلم، فيكون نصيبها مشاهدة جمال الجميل، ويقع أجرها على الله. ولعلّ إلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِه مُهاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُوله ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّه﴾، وكذلك الآية الشريفة: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾.

أمّـا إذا وُجِّهت مرآة النفس الصافية شـطر الكـدورة والظلمة ودار الطبيعة التي هي "أسـفل سـافلين"؛ أثرت فيها كدورة الطبيعة بصورة

تدريجية وجعلتها ظلمانية كدرة، حتى يستولي غبارُ وصدأ الطبيعة على وجه مرآة ذات النفس، بحكم أنّ عالم الطبيعة ضدّ عالم النور الذي يصدر منه جوهر ذات النفس. وحينئذٍ تعمى النفس عن فهم الأمور الروحانية، ويشتدُّ فيها هذا الاحتجاب والحمق حتى تصير نفسًا "سجّينية" من سنخ "سجّين": ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾؛ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.[72]

8

هل يمكن للنفس أن تتعلّق بالأوهام؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«معلوم أنّ العشق الفعلي والعاشق الفعليّ يستلزم معشوقًا فعليًّا لأنّ المتضايفين متكافئان في القوّة والفعل، لذا يجب أن يكون معشوقو الفطرة موجودين بالفعل لكي تتوجّه إليهم الفطرة. ولا ينبغي التصوّر بأنّه من المحتمل أن يقع الإنسان في الخطأ والوهم فتتوجّه نفسه إلى صورة ذهنية وخيالات وهمية لا أصل لها ولا وجود، ذلك لأنّ الصورة الذهنية لا يمكن أن تكون معشوقة للنفس، لأنّ جميع الصور محدودة، والنفس عاشقة للمطلق غير المحدود. كما أنّ هذا العشق الفطريّ ملازم للوجود، فلا سبيل لخطأ الوهم فيه كما ثبت ذلك في البرهان اللمّي في العلوم العالية والحكمة المتعالية.»[73]

إنّ ظاهرة العشــق الذي هو الميل والشــوق الشــديد لهي من أكــبر ظواهر الحياة الإنسانية والتي تجلّت في الكثير من الإنجازات والأعمال. ولو لم يكن هذا العشق متعلقًا بمعشوقٍ عظيم، لما ظهرت كل هذه الآثار التي ميّزت الإنسان عن جميع الكائنات الحيّة في هذا العالم.

وحــين ندرس هذا العشــق ونحلّله، نكتشــف أنّه - بالإضافــة إلى وجوده في جميع النفوس البشرية - متعلّق بالكامل المطلق. وقد استفاد الإمام الخميني من هذه الظاهرة لإثبــات وجود الكامل المطلق، لأنّ النفس لا يمكــن أن تخترع أمرًا زائدًا عليها. فالنفوس

تبتــدع الصور الجديدة بتركيب صور قديمة موجــودة فيها. والكمال المطلق ليس صورة ذهنية ناشئة من صورة أخرى، فهو أمرٌ خارجٌ عن ابتداع النفس.

وهكذا يقدّم لنا التفكّر في النفس معرفة أخرى ذات أهمية فائقة في ســيرنا المعنويّ في هذه الحياة.

شواهد إضافية

* أنتم تبحثون عن شيء هو الكمال المطلق أي أنّ الله في فطرة الجميع، وهذا يثبت أنّ مثل هذا الكمال المطلق له تحقّق. العشق الحقيقي مستحيل أن يكون بدون عاشق حقيقي ومعشوق حقيقي. وهذا من الأدلة المحكمة لثبوت الكمال المطلق. لا تبحثوا وراء هذه الأوراق وتلك الأوراق، وخلف هذه الجبهة وتلك الجبهة، لا تتعبوا أنفسكم لن تشبعوا. ابحثوا عن شيء يمنحكم البهجة والسرور، ويُطمئِنُ أنفسكم. كلّما ازداد ما يصل لأيديكم يزداد تزلزلكم. الإنسان فطرته هي هكذا. لأنّه يريد الكمال المطلق ولكنّه أخطأ الهدف وحين يحصل على هذا يرى أنّه ليس هو ما يريد بل يريد شيئًا أكثر.[74]

* أحد الأدلة المحكمة لإثبات الكمال المطلق هو عشق الإنسان نفسه للكمال المطلق. لديه عشق حقيقيّ للكمال المطلق. لا لتوهّم الكمال المطلق، بل لحقيقة الكمال المطلق. من المُحال أن يكون هناك عاشق حقيقي من دون معشوق حقيقي. هنا لا أثر للتوهّم والتهيّؤات النفسيّة، لأنّ الفطرة تنشد حقيقة الكمال المطلق، لا توهّم الكمال المطلق حتى يأتي شخص ويقول أنّه خُدع. الفطرة لا تنخدع أبدًا.[75]

* الفطرة بعد احتجابها بحجب الطبيعة، مثلًا تتوهّم أنّ محبوبها هو أحد مظاهر الطبيعة، فتتعلّق به قلبيًا، الأمر الذي يصدّها عن جمال الجميل، فيكون نصيبها الحرمان من لقاء الله والاحتجاب عنه تعالى.[76]

* إنّ الإنسان - بفطرته الأوّلية التي خمّرها الحقّ تعالى - عاشقٌ للكمال المطلق، وكارهٌ للنقص، فإذا توجّه إلى النقص وأحبَّ غير الكمال المطلق، فهذا أمرٌ ناشئٌ من احتجاب الفطرة.[77]

9

ما معنى خلافة
الإنسان في الأرض؟
وما هو سرّ استخلافه؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«إنّ الرّحمة من صفات النفس في وجهتها الغيبيّة الملكوتيّة، في حين أنّ الرأفــة من صفات النفس في وجهتها الظاهريّة التي يمكن التعبير عنها بمقام الصدر».[78]

إنّ قيمة كل موجود في عالم الوجود تكمن في مدى تفاعله مع كل أركان هذا الوجود. ولو أردنا أن نحدّد أكبر موجود قيمة من هذه الناحية لما وجدنا سوى النفس الإنسانية. وميزة هذه النفس أنّها تتفاعل مع العوالم الملكوتية العليا في الوقت الذي تتفاعل مع عوالم النّاسوت الدنيا. والأولى هي العوالم الغيبيّة التي تكون وجهتها إلى الوحدة، والثانية هي العوالم الشهادتية التي تكون وجهتها إلى الكثرة. وفي النفس، قد يجتمع التوجّهان بإعانة العقل فتتنزّل الوحدة وتتجلّى في الكثرة وتندك الكثرة في الوحدة، فيرى الإنسان الجامع الوحدة في عين الكثرة. ويصبح كل ما يراه من كثرات عالم الطبيعة مظهرًا لوحدانية الحقّ تعالى. ولعلّه لا يوجد كائن كالإنسان لديه هذه الميزة التي أشير إليها أنّه يبلغ أعلى علين وهو في الوقت نفسه في أسفل سافلين. ولعلّ هذا أيضًا سر استخلافه في الأرض. وما دامت النفس ناظرة إلى الملكوت فهي طالبة للرحمة التي توصلها إلى كمالها. فإذا نظرت إلى الأسفل نظرة عناية تولّد منها الرأفة أو انعكست تلك الرحمة فيها بصورة الرأفة بسكان هذا المنزل الأسفل وقاطنيه من الموجودات الإنسية والجنية والطبيعيّة.

ما دامت النفس ناظرة إلى الملكوت فهي طالبة للرحمة التي توصلها إلى كمالها. فإذا نظرت إلى الأسفل نظرة عناية، انعكست تلك الرحمة فيها بصورة الرأفة بسكان هذا المنزل الأسفل.

وحيث أنّ الرأفة تتطلّب الوعاء الواسع الذي يتّسع لهذه الموجودات الضعيفة المحتاجة، فإنّ النفس تُسمّى في هذه الحالة بالصدر وصاحبها يكون واسع الصدر. فإذا أراد الله تعالى أن يهدي هذا الإنسان شرح صدره لمراضيه.

شواهد إضافية

* اعلم أنّ الإنسان... خليفة الله على خلقه، مخلوقٌ على صورته، متصرّفٌ في بلاده، مخلّع بخلع أسمائه وصفاته، نافذ في خزائن ملكه وملكوته، منفوخٌ فيه الرّوح من الحضرة الإلهيّة، ظاهره نسخة الملك والملكوت، وباطنه خزانة الحي الذي لا يموت. ولمّا كان جامعًا لجميع الصور الكونيه الإلهيّة كان مُربّى بالاسم الأعظم، المحيط لجميع الأسماء والصفات، الحاكم على جميع الرسوم والتعيّنات[79].

* اعلم يا حبيبي أنّ العوالم الكليّة الخمسة ظلّ الحضرات الخمس الإلهية، فتجلّى اللّه تعالى باسمه الجامع للحضرات، فظهر في مرآة الإنسان، «فإنّ اللّه خلق آدم على صورته»... وهو الاسم الأعظم والظلّ الأرفع وخليفة اللّه في العالمين [80].

* اعلم أنّ الإنسان الكامل لكونه كونًا جامعًا وخليفة اللّه في الأرضين وآية اللّه على العالمين، كان أكرم آيات اللّه وأكبر حججه، كما عن مولانا وسيدنا أمير المؤمنين أو عن سيدنا الصادق عليهما الصلاة والسلام: إنّ الصورة الإنسانية أكبر حجج اللّه على خلقه، وهي الكتاب الذي كتبه بيده، وهي مجموع صورة العالمين. [81]

* اعلم أنّ الإنسان الكامل هو مَثَل اللّه الأعلى وآيته الكبرى وكتابه المستبين والنبأ العظيم، وهو مخلوق على صورته ومنشئه بيدي قدرته وخليفة اللّه على خليقته ومفتاح باب معرفته من عرفه فقد عرف اللّه وهو بكل صفة من صفاته وتجلّ من تجلياته آية من آيات اللّه. ومن الأمثال العليا على معرفة بارئه معرفة كلامه. [82]

* الإنسان الكامل مظهر الاسم الجامع، ومرآة تجلي الاسم الأعظم، كما أشير إلى هذا المعنى في الكتاب والسنة كثيراً. قال الله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا}.[83] وقد تمّ هذا التعليم الإلهيّ على يدي الجمال والجلال تجاه باطن آدم بواسطة التخمير الغيبيّ الجمعيّ لدى الحضرة الواحديّة، كما أنّه تمّ التعليم الإلهيّ تجاه صورة آدم وظاهره، في عالم الشهادة بمظهره

الطبيعيّ الماديّ، بواسطة ظهور يدي الجلال والجمال. قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}.[84]

وتكون الأمانة لدى العرفاء الولاية المطلقة التي لا يليق بها غير الإنسان، وهذه الولاية المطلقة، هي مقام الفيض المقدّس. وقد أشير إليه في القرآن الكريم بقوله تعالى {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}[85]... وفي الزيارة الجامعة الكبيرة «وَالْمَثَلُ الأَعْلَى»،[86] وهذا المثل الأعلى وذلك الوجه الإلهيّ، هو الوارد في الحديث الشريف «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُوَرَتِهِ» ومعناه أنّ الإنسان هو المثل الأعلى للحقّ سبحانه، وآيته الكبرى، ومظهره الأتم، وأنّه مرآة لتجلّي الأسماء والصفات وأنّه وجه الله وعين الله ويد الله وجنب الله، «هُوَ يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَبْطِشُ بِاللهِ، واللهُ يُبْصِرُ وَيَسْمَعُ وَيَبْطِشُ بِهِ». ووجه الله هذا هو النور المذكور في قوله تعالى {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}[87]... وملخّص الحديث أنّ الإنسان الكامل الذي يكون آدم أبو البشر فردًا منه، أكبر آية ومظهر لأسماء وصفات الحقّ سبحانه، وأنه مَثَل الحق المتعالي وآيته. ولا بدّ من تنزيه الله سبحانه وتقديسه عن المِثْل بمعنى الشبه ولا يلزم تنزيه ذاته المقدس عن المَثَل الذي هو بمعنى الآية والعلامة {وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى}.[88]

إنّ كافة ذرّات الكون، آيات ومرآة تجلي ذاك الجمال الجميل عزّ وجلّ كلٌّ حسب حجمه ومنزلته الوجودية. ولكن لا يكون شيء آية للاسم الأعظم الجامع أي «الله» عدا الكون الجامع، والبرزخية الكبرى المقدسة جلّت عَظَمَتُه بِعَظَمَةِ باريه، فَاللهُ تَعَالَى خَلَقَ الإِنْسَانَ الْكَامِلَ وَالآدَمَ الأَوَّلَ عَلَى صُورَتِهِ الْجَامِعَةَ وَجَعَلَهُ مِرْآة أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ. قَالَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ: فَظَهَرَ جَمِيعُ مَا فِي الصُّورَةِ الإِلهِيَّةِ مِنَ الأَسْمَاءِ فِي هذِهِ النَّشأةِ الإِنْسَانِيَّةِ فَحَازَتْ رُتْبَةَ الإِحَاطَةِ وَالْجَمْعِ بِهذَا الْوُجُودِ وَبِهِ قَامَتِ الْحُجَّةُ لِلّهِ عَلَى الْمَلائِكَةِ.

فتبين من بحثنا هذا السالف الذكر، السبب في اصطفاء واختيار الحقّ

المتعالي للصورة الجامعة الإنسانية من كلّ الصور المختلفة للكائنات بأسرها. كما تبيّن السرّ في تفضيل الحقّ سبحانه لآدم عليه السّلام على الملائكة، وتكريمه دون كافة المخلوقات وفلسفة نسبة روحه إليه في الآية الكريمة {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي}[89] [90].

10

متى تكون الدنيا عائقًا
أمام تكامل قوانا
ومتى تكون عاملًا مساعدًا؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«أمّا بالنّسـبة لأولي العقل الكلّيّ والأوليـاء الكمّل عليهم صلوات الله، فقد ورد بشأنهم: "جزنا وهي خامدة"، لأنّ دار الطّبيعة لا تؤثّر أصـلًا في النفوس الكاملة، فهم في أمانٍ كامل من لهيب جهنّم، لأنّهم جعلوا الطبيعة نفسها إلهيّة وآمن الشيطان على أيديهم، وأخضع نور عقلهـم الكلي أرجاء الطبيعة كافّة لحكمه، فكانت ليلة عالم الطّبيعة منذ بدايتها إلى فجر يوم قيامة ليلة القدر بالنسبة لهم، فهم في أمنٍ وسـلامة طول هذه الليلة من سلطة إبليس وشباكه - وهي الطبيعة وشؤونها - {سلامٌ هي حتى مطلع الفجر}؛ ولذلك ورد بشأنهم: «جزنا وهـي خامدة»، في حين ورد بشـأن المؤمن: «فقد أطفأ نورك لهبي». ولا يخفـى أنّ جميـع الحجب بالنسـبة إليه عليه السـلام نورانيّة، لأنّ الحجـب الظّلمانيّة ترجـع إلى الطّبيعة ولوازمهـا؛ وهو وأولاده المعصومون عليهم السـلام منزّهون عن رجس عالم الطّبع والحجب، بل إنّ الطّبيعة نفسـها وتعيّناتها بالنسـبة لهـم حجب نورانية، لأنّ توجّهاتهم القلبيـة تكون دائمًا للجنبة الغيبية الإلهية في الموجودات، والعـالم منسيٌّ عندهم بما أنّه جهةٌ سـوائية فهـم في حضورٍ دائم في المحضر القدسيّ الإلهيّ.»[91]

إنّ من أعظم مقامات النفس وأحوالها وتجلّياتها هو ما يبرز في علاقتها بعالم الطّبيعة الـذي هو عالم الكثرات. ولأنّ عالم الطّبيعة هو المنزل الأدنى والذي ورد بشـأنه أنّه أبعد العـوالم عن الله تعالى، ففيه الفتنة الكبرى. لأنّ حقيقة الفتنة هي البعد عن الله تعالى. فـإذا أراد الإنسـان أن ينجو من هذه الفتنة يجب عليـه أن يرتحل إلى الله ويرجع إليه ويلوذ به، وذلك من خلال البحث عن كل ما هو إلهيّ في عالم الطبيعة، لأنّه حبل نجاته ووسيلة خلاصه. ولعلّه من هذه الجهة سُمّي بقية الله. فكأنّ الأرض كلّها غير الله وفيها بقيّة منه. هي الجهة الإلهية الغيبية في الأشياء.

عالم الطّبيعة هو المنزل الأدنى والذي ورد بشـأنه أنّه أبعد العوالم عن الله تعـالى، ففيه الفتنـة الكـبرى... أمّا الكاملـون الواصلـون إلى الله الذين عـبروا الفتنـة ونجحـوا فيهـا، فقد أصبحـوا بقيّة اللـه في الأرض، وصار التمسّك بهم وسيلة إلى الله.

أمّا الكاملون الواصلـون إلى الله الذين عـبروا الفتنـة ونجحوا فيها، فقـد أصبحوا بقيّة اللـه في الأرض، وصار التمسّـك بهم وسيلة إلى الله. ولأنّ جهنم هي باطن هذه الدنيا فمن سـقط في الفتنة يسقط في قعر جهنّـم. وإنّما يسـقط في الفتنـة كل من لا يهتدي إلى ذلك النور الإلهيّ والحبل الربّانيّ فلا يتمسّك به.

وقد أشار الإمام الخميني قدّس سرّه إلى نكتة علميّة مهمّة في تفسير الدنيا والطبيعة، فقال أنّ النور الإلهي في الطبيعة يصبح بالنسبة للأوليـاء الكاملين الذين عبروا فتنة الدنيا ولم يسـقطوا في شرّها هو أيضًا بالنسـبة لهم حجـاب وإن كان حجابًا نورانيًـا. فما يرونه من الله في هذا العالم (أي نور الله فيه) هو في الواقـع لا شيء أمام نوره الأتم الأعظم في العـوالم العليا، ولهذا فإنّ عليهم أن يخرقوا هـذا الحجاب. ولهذا كان دعاؤهم ونداؤهم: «إلهـي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلقةً بعزّ قدسك، إلهي واجعلني ممن ناديته فأجابك ولاحظته فصعق لجلالك فناجيته سرًّا".[92]

شواهد إضافية

* يقول الفقير إلى الله: إنّ الدنيا مرّة تُطلق على نشأة الوجود النازلة والتي هي دار تصرّم وتغيّر ومجاز، والآخرة تُطلق على الرجوع من هذه النشأة إلى ملكوت الإنسان وباطنه والتي هي دار بقاء وخلود وقرار. وهاتان النشأتان متحقّقتان لكلّ نفسٍ من النفوس وشخص من الأشخاص. وعلى العموم، لكلّ كائن مقام ظهور وملك وشهود. وتلك هي مرتبته النازلة الدنيوية. ومقام باطني، وملكوت غيبي، وهي النشأة الصاعدة الأخروية. وهذه النشأة النازلة الدنيوية وإن كانت ناقصة بذاتها وإنها آخر مراتب الوجود، ولكن لما كانت مهد تربية النفوس القدسية، ودار تحصيل المقامات العالية، ومزرعة الآخرة، فإنّها من أحسن مشاهد الوجود وأعز النشآت، وهي المغنم الأفضل عند الأولياء وأهل سلوك الآخرة. ولولا هذه الأمور الملكيّة والتغييرات والحركات الجوهرية، الطبيعية والإرادية، ولولا تسليط الله تعالى على هذه النشأة التبدّلات والتصرّمات، لما وصل أحد من ذوي النفوس الناقصة إلى حدّ كماله الموعود ودار قراره وثباته، ولحصل النقص الكلي في الملك والملكوت.

إنّ ما ورد في القرآن والأحاديث عن ذمّ هذه الدنيا، لا يكون عائدًا في الحقيقة إلى الدنيا من حيث نوعها أو كثرتها، بل يعود إلى التوجّه نحوها وانشداد القلب بها ومحبتها.

وعليه، يتبيّن من ذلك أنّ أمام الإنسان دنياوان: دنيا ممدوحة ودنيا مذمومة. فالممدوح هو الحصول في هذه النشأة وهي دار التربية ودار التحصيل ومحل التجارة لنيل المقامات واكتساب الكمالات والإعداد لحياة أبدية سعيدة، مما لا يمكن الحصول عليه دون الدخول إلى هذه الدنيا، كما جاء في خطبة لمولى الموحدين أمير المؤمنين علي عليه السلام ردًّا على من ذمّ الدنيا:

«إنّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا، وَدَارُ غِنىً لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنْ اتَّعَظَ بِهَا. مَسْجِدُ أحِبَّاءِ اللّهِ، وَمُصَلَّى مَلائِكَةِ اللّهِ، وَمَهْبَطُ وَحْيِ اللّهِ، وَمَتْجَرُ أوْلِيَاءِ اللّهِ. اكْتَسَبُوا فِهَا

الرحْمَةَ، وَرَبَحُوا فِيهَا الجَنَّة».[93]

وقال تعالى: {وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ}،[94] وهي دار الدنيا حسب ما ورد في تفسير العيّاشي عن الإمام الباقر عليه السلام. وعليه، فإنّ عالم الملك، وهو مظهر الجمال والجلال وحضرة الشهادة المطلقة، ليس مذمومًا بهذا المعنى، بل المذموم هو دنيا الإنسان نفسه، أي التوجّه إليها والتعلّق بها وحبّها، وهذا هو منشأ كلّ المفاسد والخطايا القلبية والظاهرية. كما جاء في كتاب الكافي الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: قال عليه السلام: «رَأْسُ كُلّ خَطِيئَةٍ حُبُّ الدُّنْيَا».[95] وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «مَا ذِئْبانِ ضَارِيَان فِي غَنَمٍ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ هذا في أَوَّلِهَا وَهذا في آخِرِهَا بِأَسْرَعَ فِيهَا مِنْ حُبِّ الَمالِ وَالشَّرَفِ فِي دينِ المُؤْمِنِ».[96] فتعلّق القلب بالدنيا وحبّها، هو الدنيا المذمومة. وكلّما كان التعلّق بها أشدّ كان الحجاب بين الإنسان ودار الكرامة والحاجز بين القلب والحقّ سبحانه، أسمك وأغلظ. وإنّ ما جاء في الأحاديث الشريفة من أنّ لله سبعين ألف حجاب من النور والظلمة، يمكن أن يكون المقصود من حجب الظلمة هذه الميول والتعلّقات القلبية نحو الدنيا. فكلما كان التعلّق بالدنيا أقوى، كان عدد الحجب أكثر، وكلّما كان الحبّ لها أشد، كانت الحجب أغلظ واختراقها أصعب.[97]

11

لماذا نرى
هذا التمايز
بين نفوس البشر؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«اعلم أنّ النّفس الإنسانيّة النّاطقة حقيقةٌ، هي: في عين الوحدة وكمال البساطة، ذات نشآت؛ عمدتها بطريق كلّيٍّ ثلاث نشآت:

الأولى: النّشأة المُلكيّة الدّنيويّة الظاهرة؛ ومظهرها الحواس الظاهرة، والقشر الأدنى لها هو البدن المُلكيّ.

الثّانية: النّشأة البرزخيّة المتوسّطة؛ ومظهرها الحواس الباطنيّة والبدن البرزخي والقالَب المثاليّ.

الثّالثة: النّشأة الغيبيّة الباطنيّة ومظهرها القلب والشّؤون القلبيّة.

ونسبة كلٍّ من هذه المراتب إلى الأخرى نسبةُ الظاهريّة والباطنيّة، التّجلّي والمُتَجلّي. ومن هذه الجهة تسري الآثار والخواص والانفعالات من مرتبة إلى أخرى. فمثلًا إذا أدركت حاسّة البصر شيئًا ما، يقع منه أثرٌ في الحسّ البصريّ البرزخيّ مناسبٌ لتلك النّشأة، ويقع منه أثرٌ في البصر الباطنيّ القلبيّ يناسب تلك النّشأة. وهكذا الآثار القلبيّة تظهر في النّشأتين الأخيرتين. وهذا المطلب، مضافًا إلى أنّه مطابقٌ للبرهان القويّ المتين، مطابقٌ للوجدان أيضًا. فلهذا يكون لجميع الآداب الصّوريّة الشّرعيّة في الباطن أثرٌ بل آثارٌ، ولكلٍّ من الأخلاق الجميلة التي هي من حظوظ مقام برزخيّة النّفس أيضًا آثارٌ في الظاهر والباطن، ولكلٍّ من المعارف الإلهيّة والعقائد الحقّة في

النّشأتين البرزخيّة والظاهرة آثار.

فمثلًا الإيمان بأنّ المتصرّف في مملكة الوجود وعوالم الغيب والشّهود هـو الحقّ تعالى وليس لسائر الموجودات فيها تـصرّفٌ إلا التصرّف الإذنيّ الظـلّي، يؤدّي إلى الكثـير من الكمالات النّفسـانيّة والأخلاق الإنسـانيّة الفاضلة، مثل التّوكّل والاعتماد عـلى الحقّ وقطع الطمع بالمخلـوق الذي هو أمّ الكمالات، ويوجب كثيرًا من الأعمال الصّالحة والأفعال الحسنة وترك الكثير من القبائح. وهكذا سائر المعارف التي تعدادها وتعـداد تأثيراتها خارجٌ عن مجال هذه الأوراق وفوق قلم الكاتب المكسور، ويحتاج إلى تحرير كتابٍ ضخمٍ لمؤلّفٍ صاحبِ قلمٍ قـويٍّ من أهل المعرفة، أو من نفَسٍ حارٍّ لأحد أهل الحال (إنّ أيدينا قصيرة والتّمر على النخيل).

وهكـذا مثلًا خُلُقُ الرّضا فإنّه من الأخلاق الإنسـانيّة الكماليّة، وله تأثـيراتٌ كبـيرةٌ في تصفية النّفـس وتجليتها، ويجعـل القلب موردًا للتّجلّيات الإلهيّة الخاصّة، ويوصل الإيمان إلى كماله، وكمال الإيمان إلى الطّمأنينة، والطّمأنينة إلى كمالها، وكمالها إلى المشـاهدة، والمشاهدة إلى كمالها، وكمالها إلى المعاشـقة، والمعاشـقة إلى كمالها وكمالها إلى المـراودة، والمـراودة إلى كمالها وكمالها إلى المواصلـة، والمواصلة إلى كمالها، ويرتقي إلى ما لا يسـعه وهمي ووهمك. وله في مُلك البدن والآثار والأفعال الصّوريّة التي هي أغصان وأوراق تلك الشجرة تأثيرٌ غريبٌ، فيصير السّـمع والبصر وسائر القوى والأعضاء إلهيّةً، ويظهر سرّ «كنت سمعه وبصره» إلى حد ما.

وكما أنّ لتلك المراتب في الظاهر تأثيرًا بل تأثيراتٍ، فلهيئة الظاهر وجميع الحركات والسّكنات (العاديّة وغير العاديّة)، ولجميع التّروك

والأفعال أيضًا في تلك المراتب تأثيراتٌ عجيبةٌ، بحيث أنّه قد يسقط السّالك من الأوج الأعلى إلى أسفل سافلين بنظرةٍ تحقيريّةٍ واحدةٍ إلى عبدٍ من عباد الله، ولا يستطيع جبران هذا السّقوط لسنواتٍ مديدةٍ».[98]

النفس حقيقة واحدة بسيطة غير مركّبة. فهي في حقيقتها، التي لا نعلم عنها شيئًا، ذات ماهيّة صرفة لا يشوبها شيء، مثل الحديد أو الذّهب أو أي عنصر صرف في هذا العالم حين نأخذه بما هو هو. فالنفس هي النفس ولا شيء آخر. وإنّما تعرض عليها حالات، وتظهر فيها تجلّيات بحسب المرائي والأبصار. فلو كنّا ننظر إليها بمنظار الحواس لرأيناها بدنًا؛ ولو نظرنا إليها بمنظار الحس الباطني، لرأيناها بصورة الأخلاق والملكات. أمّا إذا أضفنا إلى منظارنا عدسة أخرى ذات قوّة عالية ودقّة كبيرة، فسوف نشاهدها بجوهرها الذاتيّ الذي هو عين الربط والاتّصال بالله تعالى.

إنّ اختلاف مظاهر النفس إنّما يكون بحسب الرؤية والنظر والإدراك. أمّا حقيقتها الصّرفة فهي التي تتجلّى في شدّة ارتباطها وقيامها بخالقها. ولو قُدّر لنا أن نشهد هذه الحقيقة لما رأينا سوى الله تعالى. قال الله عز وجل: {**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد**}.[99]

ونظرًا لاختلاف تلقّي الناس لهذه العلقة والرابطة القيومية، تختلف نفوسهم اختلافًا شديدًا، لكنّهم يتوزّعون إلى فئتين أساسيّتين: المؤمن والكافر، {**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ**}.[100]

والمؤمنون درجات بحسب شدّة الإدراك. والكافرون دركات بحسب شدّة الإنكار والجحود. وعلى أساس شدّة حضور الله وقبوله أو رفضه، تظهر مجموعة كبيرة من الصفات حين تتفاعل النفس مع عالم الدنيا. فإذا كان التفاعل مع شؤونها ومظاهرها ووقائعها وأحداثها تفاعلًا إيجابيًا مقرونًا بالتسليم والرضا بأنّها من الله تعالى، برزت تلك الصفات الطيّبة والأخلاق الحميدة. وإذا ثبت صاحب هذه الأخلاق على تسليمه وتفاعله الإيجابيّ، استحكمت هذه الصّفات وصارت كأركان وقواعد الإيمان والإدراك. أمّا

إذا كان التفاعل سلبيًّا، فتبرز على أثر ذلك مجموعة من الصفات والملكات الخبيثة التي يمكن أن تزيد صاحبها كفرًا وعنادًا.

ولأنّ لعالم الطبيعة الكثير من الشؤون والمظاهر، تختلف الصفات وتتفاوت فيما بينها من حيث التأثير على الإيمان والإدراك. فمنها ما يكون ركنًا مركزيًا في زيادة الإيمان وإيصاله إلى أعلى مراتبه، ومنها ما يكون تابعًا لهذه الصفة ويكون تأثيرها أقل. وهكذا الأمر في الصفات السلبية الرذيلة. ففي الحديث أنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب. وذلك لشدّة تأثيره المقيت على الإيمان وسلب روحه من النفس.

ومن خلال هذه الصفات تتشكّل مقدّمات الأعمال وموادها. ولا تكون الأعمال سوى ظهور تلك الأخلاق والأحوال الباطنية. وفي الوقت نفسه أعطي الإنسان إمكانية تعديل إيمانه وتقويته. لأنّ تجربة الإيمان في الإنسان هي تجربة حرّة اختيارية. وعلى ضوء هذه التجربة ستتحدّد حالات النفس الأخلاقية، وبتبعها أفعالها الاختيارية.

وهكذا تسري خصائص العلاقة مع الله إلى الصّفات ومنها إلى الأعمال. وبواسطة الأعمال يمكن للإنسان أن يعمل على تعديل صفاته، فتسري آثارها إلى باطنه وجوهره وتؤثّر على علاقته بالله تعالى.

شواهد إضافية

* ينبغي معرفة أنّ العشق للكمال المطلق - الذي يتفرّع منه العشق للعلم المطلق، والقدرة المطلقة، والحياة المطلقة، والإرادة المطلقة، وغير ذلك من أوصاف الجمال والجلال - موجود في فطرة جميع بني البشر، فلا ميزة لأحد على غيره في أصل هذه الفطرة وإن تمايزوا في المراتب والدرجات، فالاختلاف والتمايز بين الناس ليس في أصل وجود هذه الفطرة، بل في تشخيص ومعرفة مصداق الكمال المطلق، وهذا الاختلاف ناتج من الاحتجاب بالطبيعة وقلّة الحجب وكثرتها، وشدّة الانشغال بالكثرة أو ضعفه، وشدّة التعلّق بالدنيا وشعبها ومظاهرها المتنوعة.[101]

* إنّ الارتباط شديد بين مُلك البدن والرّوح استنادًا إلى ما ثبت في الفلسفة العالية من أنّ للنفس نشأةَ غيبية ونشأة عالم الشهادة، فهي عالية في عين الدنوّ ودانية في عين العلوّ وإنّ الوحدة حاكمة على جميع قواها، لذلك فإنّ جميع الآثار الظاهرية تنتقل من ملك البدن إلى الروح كما أنّ الآثار المعنوية تسري من الروح إلى ملك البدن.[102]

* إنّ الأخلاق النفسية هي ظهور الحقائق والسرائر الروحيّة الباطنيّة، مثلما أنّ الأعمال الظاهرية هي ظهور الملكات والأخلاق النفسية. ونتيجة لشدّة الاتّصال والوحدة بين المقامات النفسية، فإنّ جميع أحكام الباطن تسري إلى الظاهر مثلما أنّ جميع أحكام الظاهر تسري إلى الباطن، ولذلك أولت الشريعة المطهّرة الاهتمام البالغ بحفظ الظاهر، فشرّعت آدابًا وأحكامًا حتى لكيفية الجلوس والقيام والمشي والكلام؛ لأنّ لجميع الأعمال الظاهرية ودائع تتركها لدى النفس والروح، وتؤدّي إلى إحداث تغييرات كلّية في الروح. فمثلًا إذا تسرّع الإنسان في المشي، أوجد ذلك حالَ تسرّع في روحه، وإذا كانت في روحه حالٌ من التسرّع ظهرت آثارها على ظاهره أيضًا، وكذلك الحال إذا التزم الوقار والسكينة والطمأنينة في أعماله الظاهرية - حتى لو كان ذلك على نحو التكلّف - ظهرت وترسّخت في باطن روحه تدريجيًا ملكة الطمأنينة، وهي من كرائم الصفات ويصدر منها الكثيرُ من الخيرات والكمالات.[103]

* إنّ صورة التكبّر الغيبية هي صورة نملة ضعيفة، ولعلّ سبب ظهور هذه الصورة البرزخية والقيامية هو أنّ نفس المتكبّر صغيرةٌ وضيعةٌ، فقد ثبت أنّ التكبر ناشئ من ضعف النفس وذلّتها وضيق الصدر؛ وحيث إنّ جوهر المتكبّر ولبّه صغيرٌ وروحه ضعيفة؛ وإنّ الصور الغيبية الملكوتية تابعة وناشئة من الملكات النفسانية، وإنّ البدنَ يكون في عالم الملكوت ظلًا للروح لا بصورة حيوان صغير حقير تسحقه أقدام الناس حتى ينتهي حسابهم. ويُحتمل أن تكون هذه الصورة الغيبية الملكوتية للمتكبّر نتيجة لأحواله المُلكية الدنيوية، لأنّه كان يُظهر نفسه كبيراً في الدنيا، فيُظهرهُ الحقّ تعالى في الدار الأخرى صغيراً حقيراً: «كما تدين تُدان».[104]

* وقد ثبت في محلّه أنّ نشآت النّفس الثلاث وهي نشأة الملك والدنيا وهي محط العبادات والقابلية، ونشأة الملكوت والبرزخ وهي محل العبادات القلبية والتهذيبات الباطنية، ونشأة الجبروت والآخرة وهي مظهر العبادات الروحية والتجريد والتفريد والتوحيد، وهي تجلّيات لحقيقة قدسيّة واحدة ومراتب لبارقة إلهيّة واحدة فنسبة غيب النفس إلى شهادتها وبرزخها ليست نسبة الظاهرية والمظهر أيضًا، بل نسبة ظهور وبطون الشيء الواحد. إذًا، فكل حكم من أحكام النشآت الثلاث يسري إلى الأخرى بما يناسب نشأتها مثلًا: العبادات القابلية الشرعية تؤدّي إلى تهذيب الباطن بل وبذر بذور التوحيد والتجريد في الروح إذا أقيمت على وفق الآداب الصورية والباطنية، مثلما أنّ تهذيب الباطن يقوّي قوّة التعبد في الإنسان ويوصله إلى حقائق التوحيد والتجريد، ويهذّب سرّ التوحيد باطنه ويكمل جنبة العبودية فيه. لذا يجب على السالك أن يكون ثابت القدم في نشآت النّفس الثلاث فلا يغفل عن أيٍّ منها في أي وقت. من الممكن أن تؤدّي نظرة محرّمة إلى أجنبية، أو معصية صغيرة تصدر عن اللسان، إلى حجب الإنسان لمدّة طويلة من سائر التوحيد وحقائقه، وعن مشاهدة تجلّيات المحبوب والخلوات مع المطلوب جلّ وعلا وهي قرّة عين أهل المعرفة.[105]

* تقدّم مرارًا أنّ الارتباط بين الروح والباطن الملكوتي وبين الظاهر وقوى النفس المُلكية، هو من القوّة بحيث يتأثّر كلٌ منهما بآثار الآخر، ويسري الكمال والنقص والصحّة والفساد من أحدهما إلى الآخر. ومن النادر أن تكون قوّة النفس الماسكة لروحانيّتها قويّة، وبنية التمنّع في روحها راسخة لا تسمح باطّلاع أحد على أسرار روحها. فهذا التمنّع والحفظ إجباري يخالف الطبيعة الإنسانية، ينهارُ حتمًا في يوم ما؛ إمّا في الدنيا إذا خرجت النفس عن حالها الطبيعية، بسبب اشتعال الغضَب، وكثيرًا ما يحدث؛ وإمّا بسبب استيلاء الشهوة، وهذا قلّما يدمّر تلك القوّة الماسكة. ولو لم يحدث هذا الانهيار في الدنيا ولم تظهر فيها للعيان حقيقة الأخلاق الروحية؛ إمّا لعدم توفُّر الفرصة وإمّا بسبب شدّة القوّة الماسكة الحافظة لها، فإنّ عالم الآخرة هو عالم ظهور الحقائق وكشف السرائر، لذلك فإنّ قدرة النفس ستتغلّب على تلك القوّة الماسكة ذات الأسلوب القهريّ، فلا مناص حينئذ من ظهور ما في البواطن واتّضاح ما في الخبايا؛ ولكن ليس بطريق الترشّح والسراية كما هو الحال في الدنيا؛ بل بطريق العلّية والمعلولية، وبسبب نفوذ إرادة الروح الأحدية التعلّق ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساق﴾، ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِر﴾.

من هنا يتّضح سرّ النّدب إلى تكرار الأذكار والأعمال الصالحة، فهذا التكرار يؤدّي إلى ظهور الملكات الفاضلة في الروح والملكوت. أمّا الأعمال القبيحة والسيئة فهي شديدة التأثير في النفس لأنّها تتلائم عادةً مع اللذات والشهوات النفسية، لذلك فإنّ القيام بها يكون بتوجّهٍ قلبيّ ونفسيّ فيشتد تأثيرها؛ من هنا فقد شدّدت الشرائع الإلهية في النهي عنها ومنعها، ودعت إلى الإعراض عن جميع شؤون الطبيعة؛ في حين أنّها دعت إلى عدم القناعة بالقيام بالأعمال الحسنة وصالحات الأذكار والأفعال مرّةً واحدة أو بضع مرّاتٍ، بل مخالفة لشهوات النفس ولذائذها، وعادةً ما تُؤدّى مع عدم رغبة النفس فيها وإدبارها عنها، ومع انعدام حضور القلب وإقبال الروح عليها، وهذا سرُّ شدّة ضعف آثارها في الروح والباطن، وقلّة تأثّر ملكوت النفس

بها، من هنا فقد وضعت الشريعة آدابًا وشروطًا لهذه الأعمال بهدف تقوية آثارها في الروح؛ وقد شرحنا بعضها في كتاب "آداب الصلاة".[106]

* ما دام الخلق الباطني للنفس فاسدًا والقذارات المعنويّة محيطة بها، لا تليق بمقام القدس وخلوة الأنس بل مبدأ فساد المملكة الظاهريّة للنفس هو الأخلاق الفاسدة والملكات الخبيثة.[107]

* ولا تظننّ أن تلك اللواحق (أي التعلّق والتقدّر الملكوتي، والانغمار في المادة والخضوع لسلطان الزمان والتدرج) كانت من لواحق الوجود وأعراضه دون الماهية، لانفكاكها عنها في التعقل! فإنّ هذا ظنٌّ فاسد وخيالٌ باطل، لأنّ سنخ ذات الملكوت هو التعلّق والتقدّر، وسنخ الملك هو الأسر بالمادة ولواحقها. ولهذا حُدّدت النفس بأنّها كمالٌ أوّل لجسم طبيعيّ آليّ، وصار علم النفس من الطبيعيّات. وقد أثبت صدر المتألهينّ أنّ نفسية النفس في ابتداء نشأتها ليست من العوارض اللاحقة بذاتها، كانت تلك العوارض لازمة أو مفارقة. كذلك أسر الصور الملكية بالمادة ولواحقها ذاتًا ممّا قام البرهان عليه. ولا يعني ذلك أنّ الصور الملكية والحقائق الملكوتية لا تنتهي إلى عالم النور. فإنّ هذا أيضًا ثابت عندنا بلا تهافت.[108]

* يمكن أن تكون للإنسان في عالم الملكوت صورة تغاير الصّورة الإنسانية، وإنّ تلك الصور تتبع ملكوت النفس وملكاتها، فإذا كنتم ذوي ملكات فاضلة إنسانية، فستجعل هذه الملكات صوركم إنسانية حين يُحشر الإنسان ومعه تلك الملكات ما لم تخرج عن طريق الاعتدال، بل إنّ الملكات إنّما تكون فاضلة حين لا تتصرّف النّفس الأمّارة بالسّوء فيها، ولا يكون لخطوات النّفس دور في تشكيلها.[109]

* النشأة الغيبية القلبية للسالك، ومحلّها البدن البرزخي الغيبي للنّفس الذي يتكون بإنشاء النفس وخلّاقيتها.[110]

* الرزانة والتأني من الصفات النفسانية الباطنية التي تظهر آثارها في الطمأنينة والثقل في الحركة، وإذا تحلّى القلبُ بالرزانة والوقار؛ ظهرت

آثارهما في الرأي والعقائد، ثمّ في الأفعال والأقوال أيضًا.[111]

* الملحوظ في معنى الزهد انعدام الرغبة والميل، وهذا من الصفات النفسانية.[112]

* بملاحظة أنّ الحديث الشّريف جعل التّواضع ضدًّا للكبر - وهو من الصّفات النفسانيّة - ولم يجعله ضدًّا للتكبّر الذي هو الإظهار العملي للكبر؛ لذلك ينبغي اعتبار التّواضع أيضًا من الصّفات النفسانيّة.[113]

* الذين هم أصحاب المعارف وأهل الفضائل والفواضل وهم شرفاء النّفس وكرماء الطينة، فلا يختارون على المناجاة مع الحقّ شيئًا، ويطلبون من الخلوة مع الحقّ ومن مناجاته نفس الحقّ، ويرون أنّ العزّة والشّرف والفضيلة والمعرفة كلّها في تذكّر الحقّ ومناجاته. فهم إذا توجّهوا إلى العالَم، ونظروا إلى الكونين يكون توجّههم ونظرهم إليها نظرًا عرفانيًّا، ويطلبون الحقّ في العالَم، ويرون جميع الموجودات جلوةً للحقّ ولجمال الجميل (أنا للعالم عاشق حيث منه الكون أجمع). فهم يواظبون على أوقات الصّلاة بتمام أرواحهم وقلوبهم، وينتظرون وقت المناجاة مع الحقّ، ويحضّرون أنفسهم ويهيّئونها لميقات الحقّ. فقلوبهم حاضرةٌ ويطلبون من المحضر الحاضر، ويحترمون المحضر لأجل الحاضر، ويرون أنّ العبوديّة هي المراودة والمعاشرة مع الكامل المطلق.[114]

* فما لم يخرج السالك عن حبّ الشهوات الدنيوية وسجن الطبيعة الموحشة الهيولائية، ولم يطهّر قلبه بماء الحياة من العلوم الروحانية، وكان لنفسه بقية من الأنانية لم يمكنه شهود جمال المحبوب بلا حجاب وعلى حدّ الإطلاق.[115]

* إنّ مصدر التكبّر هو رؤية النفس وحبّها، والجهل بالحقّ تعالى والغفلة عنه وعن مظاهره، وغايته النفس والتفاخر بها، ونتيجته التمرّد والطغيان.[116]

* إذا أصبح [السالك] عبدًا لها [للنفس] توجّه إلى أي مكان يجد فيه ما

يلبّي لذّاتها وأهوائها؛ فيقف موقف الخضوع والذلّ مقابل من بأيديهم الدنيا والمال والثروة طمعًا فيما لديهم، لكنّه في الوقت نفسه يتكبر ويتعالى على من هم دونه من الذين لا يجد عندهم ما يطمع فيه.[117]

- روح التملّق ناشئة من حبّ النفس والسعي لاستجلاب النفع لها.[118]

- الإنسان إذا حجبته حجب النفس عن فطرته السليمة، وسيطر عليه حبّ النفس والتوجّه لها؛ أخذ يسجل لنفسه، بدافع حبّها، الكثير من الكمالات، غافلًا عن مبدأ الكمالات؛ مستصغرًا الآخرين إذا لم يجد عندهم ما يثير طمعه المادي، ومعظّمًا لهم إذا وجد فيهم ما يطمع به، فيتكبر على الضعاف ويتملّق لأهل الدنيا الذين يطمع بما عندهم.[119]

12

كيف نحقّق الاعتدال في أنفسنا، فلا نخرج عن طورنا؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«اعلم أنّ ثمّة ثلاث قوى تلازم الإنسان - بعد القوّة العاقلة - منذ بداية نشوئه الطبيعيّ، وهي:

الأولى: القوّة الواهمة، التي نسمّيها «القوة الشيطانيّة»، وهي موجودة في الطّفل منذ بداية أمره، وبها يكذب ويخادع ويمكر ويتحايل.

الثانية: القوّة الغضبيّة، وهي التي يسمّونها «النفس السّبعيّة»، وبها تُدفع المضرّات والأمور المانعة من الانتفاع بالأشياء المفيدة.

الثالثة: القوّة الشهويّة، وهي التي يسمّونها «النفس البهيميّة»، وهي منبع الشهوات وعامل جلب المنافع واللذائذ في المآكل والمشارب والنّكاح.

وتختلف هذه القوى الثلاث باختلاف سنيّ العمر، وهي تتكامل في الإنسان مع نموّه الطبيعيّ، ويمكن أن تصل جميعها إلى حدّ الكمال فلا تتغلّب أيّ منها على الأخرى.»[120]

للنفس الإنسانية قوى، مثلما أنّ للجسد قوى. ففي أجسادنا قوّة الإبصار والهضم والبطش والذوق و.. وفي النفس قوّة الإدراك والغضب والشهوة.

بيد أنّ التعبير عن هذه الأمور بهذه المصطلحات قد لا يساعد على فهم الحقيقة.

ولأجل ذلك ينبغي أن يُقال أنّ للنفس قوى ظاهرية هي التي يدركها عامّة الناس، وقوى باطنية يدركها القليل من الناس.

ومـن هذه القوى الباطنة قوّة تمييز الكمال من النقص والحقّ من الباطل والخير من الشرّ والحسـن من القبح، وقد اصطُلح عليها بالقوّة العاقلة، لأنّها تضعف وتقوى؛ ومنها قوّة طرد الأشياء ورفضها والتي هي عبارة عن النفور من النقص والقبح، ويسمّيها بعضهم بالقوّة الغضبية، لأنّها تظهر بصورة الغضب. وإنّما ينفر الإنسان من مطلق النقص بسبب عشقه وشوقه إلى الكمال المطلق. ولهذا، فإنّه يميل إليه ميلًا شديدًا ويشتهيه.

وقـد اختلط على الكثيرين شـدّة ميل النفس إلى الشيء مع شـدّة ميل الجسـد إلى حاجاته. فأطلقوا على ميل النفس عنوان الشـهوة وقصدوا بها اشـتهاء الطعام والشراب والجنس والراحة الجسـمانية. ويبدو أنّ هناك تسامحًا واضحًا في استعمال المصطلحات، ممّا يوقع المتتبّع الحصيف في إشكالات وتساؤلات. ولهذا نقول:

إنّ للجسـد قوى مختلفة ومنها القوّة الطاردة التي تظهر في إبعاد كل ما يضرّه من مواد سـواء عبر الجهاز الهضمي أو التنفّسي أو الجلد أو غيره، فكأن الجسـد يمتلك آلية دقيقة للتخلّص من أي شيء لا ينسجم مع نظامه وحاجاته الطبيعية. ولعلّ جهاز المناعة هو أفضل تعبير عن هذه القوّة الطاردة.

وحيـث أنّ للنفوس نظامًا خاصًـا، وأهم ما فيها هو أنّها تتـوق إلى الكمال المطلق، فهـي متنفّرة جدًا من كل ما يمكن أن يمنعها مـن الوصول إلى غايتها هذه، ويظهر هذا الأمر في قوّة طاردة شديدة القوّة ومنها يظهر الغضب في أحواله وشؤونه المختلفة. وإنّما يكون الغضب مذمومًا حين يكون منشـؤه أمرٌ آخر غير تلك الفطرة العاشـقة للكمال، لأنّه سـيكون سببًا للتخلّص ممّا يفيد النفس ويصلحها ويوصلها إلى كمالها. ومن هنا عُدّ الغضب مفتاح كلّ شر، لأنّه في هذه الحالة سـيعمل بعكس المصلحة الحقيقية للنفس. وإنّما يكون الغضب ممدوحًا إذا نشأ من شدّة النفور من منافيات الفطرة الصافية، وبه تدفـع النفس عنها كل ما يمكن أن ينقصها أو يبعدها عن غايتها الأصيلة. وحين تضعف هـذه القوّة الغضبية، فمن الممكن أن يعرض على النفس من الأمور والحالات ما يسـير بها في دركات النقص من دون أن تقدر على دفعه.

ولأنّ النفـس تعشـق الكمال، فهـي طالبة له في كلّ حال. وحـين لا تقدر على تمييز

الكمال الواقعي من حاجات الجسد لشدّة قوّة هذه الحاجات ولغلبة الوهم عليها، فإنّها تميل ميلًا عظيمًا إلى مشــتهيات الجســد باعتبار أنّها كمالها. فأصحاب النفوس الضعيفة وأسرى الأوهام يصرفون قوّة شــهوة النفس للكمال في مشــتهيات الجســد، ولا يدركون كمالها الحقيقي. وفي هذا حرمانٌ عظيم.

النفس تعشــق الكمال، فهي طالبة له في كلّ حــال. وحين لا تقدر على تمييز الكمال الواقعي من حاجات الجســد لشــدّة قوّة هــذه الحاجــات ولغلبة الوهم عليها، فإنّها تميل ميلًا عظيمًا إلى مشتهيات الجسد باعتبار أنّها كمالها.

وأفضــل مثال على هــذه الواقعة قصّة العلاقة بين الجنسين. فالمرأة بالنسبة للرجل والرجل بالنسبة للمرأة كمالٌ مطلوب. وقد تفقد المرأة القوّة وتراها في الرجل فتطلب الرجل انطلاقًا من طلب الكمال. وقد يفقد الرجل العطوفة والرقّة والحنان، فيجده في المرأة، فيطلبــه لأنّه طالب للكمال. وهكذا يكون حبّ النوع النسائي للرجال نابعًا من فطرة سليمة، وكذلك الأمر في النوع الذكوري. ومن جانبٍ آخر، فإنّ أجســاد الجنســين تطلب الوصال والتلاحم لما فيها من حاجة إلى الجنــس والإنجاب ودفع ألم فورة الغدد والأجهزة التناســلية، الــذي قد يفوق في بعض الأحيان ألم الجوع والعطش. وهكذا يصبح كلٌّ من الذكر والأنثى على موعدٍ مع امتحانٍ كبير، يختلط فيه الميل النفساني الفطريّ بالحاجة الجسمانية الطبيعية. وغالبًا ما يحصل الغلط بفعل تســلّط الوهم وغياب العقل أو ضعفه، وبسبب ذلك يشتدّ الحبّ للجنس الآخــر ويزيد عن حدّه، بل يطغى ويخرج عن الفطــرة، وذلك حين يحبّ الذكر الأنثى لا لكــمال فيها والعكس. وبذلك تتشــكّل العداوة التي تعني نشــوء الســد والمانع من الكــمال، كــما قال تعالى: {**يا أَيُّهَــا الَّذينَ آمَنُوا إِنَّ مِــنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُــمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُم**}.[121]

وقــد يصطلح بعض علماء الأخلاق على حالة ضعف العقل والتمييز بين الخير والشر بالوهم، ويســمّون هذه الحالة بالقوّة التي تســتفيد منها النفس المريضة لبلوغ مآربها الخبيثة، عبر المكر والخداع والكذب وأمثالها.

ومــا يهمّنا من كلّ هذا الشرح هو أن نقترب أكثر من فهم أحوال نفوســنا لكي نزداد وعيًا في عملية إصلاحها وتزكيتها.

شواهد إضافية

* اعلم أنّ القوّة الشهويّة هي من القوى الشريفة التي أنعم الحقّ تعالى بها على الحيوان والإنســان من أجل حفظ الشّخص والبقاء في عالم الطبيعة، وحفظ النوع وبقائه، وإذا فقد الإنسان هذه القوّة أحاطه الفناء والزوال سريعًا بتأثير المحلّلات الداخلية منها والخارجية التي تســتهلك بدنهُ من دون أن يوفّر بديلًا لما تســتهلكه. وحيث أنّ اكتساب السعادة الأبدية لا يتيسّر من دون البقاء في عالم الدنيا والإقامة في نشأة الطّبيعة؛ فإنّ سعادة الإنســان الأبدية وحياتــه الملكوتية الشريفة من ثمــار نعمة وجود هذه القوّة الشريفة.

يُضاف إلى ذلك، أنّ لهذه القوّة تأثيرًا تامًّا ودورًا كاملًا في تشكيل العائلة الشريفة، ونظام المدينة الفاضلة، وتربية النفوس الناقصة. بالإضافة إلى ارتهان سعادة الإنسان نفسه بهذه النعمة السماوية، فإنّ سعادة بني جلدته ونوعهِ مرهونة بها أيضًا. ولكن هذه القوّة لا تحقّق هذه السّعادات الشخصيّة والنوعية إلّا في حال عدم تعدّيها لحدود الاعتدال، وعدم خروجها عن المعايير العقلية والإلهية، وعدم سقوطها في طرفي الإفراط والتفريط.[122]

* اعلم أنّ الله تبارك وتعالى قد خلق بيد قدرته وحكمته في عالم الغيب وباطن النّفس، قوىً لها منافع لا تُحصى. وأنّ ما نبحثه هنا هو ما يتعلّق بهذه القوى الثلاث، وهي: «الوهمية والغضبية والشهوانية»، ولكلّ واحدة من هذه القوى منافع كثيرة من أجل حفظ النّوع والشّخص وإعمار الدّنيا والآخرة كما ذكر ذلك العلماء... وما يجب أن أنبّه عليه في هذا المقام هو أنّ هذه القوى الثّلاث هي منبع جميع الملكات الحسنة والسيّئة، وأصل جميع الصّور الغيبيّة الملكوتيّة. وتفصيل هذا الإجمال هو أنّ الإنسان كما أنّ له في هذه الدّنيا صورة مُلكيّة دنيويّة، خلقها الله تبارك وتعالى على كمال الحسن والجمال والتّركيب البديع، والتي تتحيّر أمامها عقول جميع الفلاسفة والعظماء، لم يستطع علم معرفة الأعضاء والتّشريح حتّى الآن أن يتعرّف على حقيقتها بصورة صحيحة، وقد ميّزها الله تعالى عن

جميع المخلوقات بحسن التّقويم وجودة جمال المنظر، كذلك فإنّ له - أي للإنسان - صورة وهيئة وشكلًا ملكوتيًّا غيبيًّا، وهذه الصورة تابعة لملكات النّفس والخلقة الباطنيّة. وفي عالم ما بعد الموت - سواء في البرزخ أو القيامة - إذا كانت خلقة الإنسان في الباطن والملَكة والسّريرة إنسانيّة، تكون الصّورة الملكوتيّة له صورة إنسانيّة أيضًا، وأمّا إذا لم تكن ملكاته ملكات إنسانيّة، فصورته - في عالم ما بعد الموت - تكون غير إنسانيّة أيضًا، وهي تابعة لتلك السّريرة والملكة. فمثلًا إذا غلبت على باطنه ملكة الشّهوة والبهيميّة، وأصبح حكم مملكة الباطن حكم البهيمة، كانت صورة الإنسان الملكوتية على صورة إحدى البهائم التي تتلاءم وذلك الخُلق. وإذا غلبت على باطنه وسريرته ملكة الغضب والسّبعية، وكان حكم مملكة الباطن والسّريرة حكمًا سبعيًّا، كانت صورته الغيبيّة الملكوتيّة صورة أحد السّباع والبهائم. وإذا أصبح الوهم والشّيطنة هما المَلَكة، وأصبح للباطن والسّريرة ملكات شيطانيّة كالخداع والتّزوير والنّميمة والغيبة، تكون صورته الغيبيّة الملكوتيّة على صورة أحد الشّياطين حسب ما يتناسب وتلك الصّورة. ومن الممكن أحيانًا أن تتركّب الصّورة الملكوتية من ملكتين أو عدّة ملكات، وفي هذه الحالة لا تكون على صورة أيّ من الحيوانات، بل تتشكّل له صورة غريبة، هذه الصورة بهيئتها المرعبة المدهشة والسيئة المخيفة، لن يكون لها مثيل في هذا العالم.[123]

* من لا تكون فيه هذه القوّة الشريفة - التي هي تجلّي الغضب والانتقام الإلهيّ - في جانب التفريط، يكون ناقصًا، لأنّ التفريط فيها يوقعه في الكثير من الملكات الخبيثة والأخلاق الذميمة، مثل الخوف والجبن، والضعف والكسل، وجموح النفس، وقلّة الصبر وقلّة المقاومة، وعدم الثبات والخمول، وطلب الراحة والدّعة والاستكانة للظلم - وهو أقبح من الظلم - والرضا بالفواحش والرذائل، والفضيحة وانعدام الغيرة على نفسه وعائلته وأمّته.[124]

* قسّم الحكماء أجناس الفضائل إلى أربع فضائل هي: الحكمة والشجاعة

والعفّة والعدالة، إذ إنّ للنفس قوّتين هما: قوّة الإدراك وقوّة التحريك، ولكلّ منهما شعبتان، فقوّة الإدراك تنقسم إلى العقل النظريّ والعقل العملي، وقوّة التحريك تنقسم إلى قوّة الدفع [لغير الملائم] وهي قوّة الغضب؛ وإلى قوّة الجلب [للملائم] وهو قوّة الشهوة. والاعتدال في كلّ واحدة من هذه القوى الأربع وإخراجها من حدّي الإفراط والتفريط فضيلة. فالحكمة عبارة عن تعديل القوّة النظرية وتهذيبها؛ والعدالة تعديل القوّة العمليّة وتهذيبها، والشجاعة تعديل القوّة الغضبيّة وتهذيبها، والعفّة تعديل القوّة الشهويّة وتهذيبها.[125]

* "الحلم" من شُعَبِ اعتدال القوّة الغضبية، وهو ملكةٌ تؤدي إلى حصول الطمأنينة في النفس، فلا تهيج فيها القوّة الغضبية بسرعة أو في غير الموارد المناسبة، ولا تفقد زمام أمرها إذا واجهت ما لا ترغب فيه أو ما تكرهه أو ما لا يلائمها.[126]

* مثلما أنّ الصبر في مجاهدة قوى الشهوة والغضب والشيطنة - وهذه هي منشأ المعاصي الظاهرية - هو من أشقّ الأمور على الإنسان، وأصعب من القيام بالطاعات الظاهرية؛ كذلك الحال في مجاهدة الشيطان الأكبر والنفس - وهما منشأ المعاصي القلبية والباطنية، فالصّبر فيها من أصعب المجاهدات، إذ الواجب فيها على السالك الإعراض عن الكونين ورفض النشأتين، وسحق النفس وتحطيم وثن عبادتها العظيم وإسقاطه عن كعبة القلب بيد التمسّك بالولاية؛ لكي يصل السالك بذلك إلى حقائق الإخلاص ويجد سرائر الخلوص. وهذا ما لا يمكن الفوز به إلّا بالمعونة الإلهية والتوفيقات الربّانية.[127]

* "التُّؤدَة"... وبدليل مقابلتها بالتسرع، هو "التأني" وهو عبارة عن اعتدال القوّة الغضبية التي يكون التسرّع طرف الإفراط فيها كما صرّح بذلك بعض المحقّقين الأجلّاء؛ واعتبروا الطمأنينة النفسية من فروع الشجاعة. وقد يكون المراد من "التُّؤدَة" التثبّت، وهو أيضًا من ثمار اعتدال القوّة

الغضبية ومن فروع الشجاعة، ويعني تحلّي النفس بالثبات والاستقامة في تحمّل الشدائد وطوارق الحدثان المتنوّعة، وعدم الفرار منها بسرعة واجتناب الخفّة والضعف والتهاون والانفعال في مواجهتها، سواء أكانت عوارض أخلاقية وروحية أو طبيعية وبدنية.[128]

- إذا رأى السّالك نفسه إمامًا لملائكة الله، وقلبه إمامًا لقواه المُلكيّة والملَكوتيّة، وجمع بالأذان والإقامة قواه المُلكيّة والملَكوتيّة، واجتمعت عليه ملائكة الله، فعليه أنْ يجعل القلب، وهو أفضل قوى الظاهر والباطن، وشفيع سائر القوى، إمامًا.[129]

- إن النفس المتحلِّية بالثبات والاستقامة لا تنهار في مواجهة المصاعب الروحية، بل تثبت في الشدائد دون أن تسمح لها بأن تسلب منها شيئًا من الطمأنينة والاستقامة، ولعلّ في الآية الكريمة ﴿فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَك﴾ إشارة إلى هذا المقام من مقامات النفس.[130]

13

ماذا لو قرّرنا
إطلاق العنان لقوانا ورغباتنا النفسية
وتحريرها من كلّ قيد، ما الذي سيحصل لها؟

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«يمكن أن تتغلّب واحدة منها [القوى الثلاث] على الأخريين أو اثنتان منها على الثالثة. لذلك تنقسم صور أصول الممسوخات الملكوتيّة إلى سبعة أقسام:

أوّلها الصورة البهيميّة؛ وذلك إذا غلبت النفس البهيميّة فتتصوّر بها صورة باطن نفس الإنسان فيكون في صورته الملكوتيّة الغيبيّة الأخرويّة على هيئة أحد البهائم المناسبة لحاله، مثل صورة الثّور أو الحمار ونظائرهما.

أمّا إذا كانت عاقبة أمر الإنسان ظهور فعليّة الحال السبعية - بمعنى أنّ النفس السبعيّة تكون هي الغالبة على قواه - فإنّ صورته الغيبيّة الملكوتيّة تصير على هيئة أحد السّباع مثل النّمر أو الذئب ونظائرهما.

أمّا إذا تغلّبت قوّة الشيطنة على قواه الأخرى وكانت الفعليّة الشيطانيّة آخر فعليّاته، حينئذٍ يصير باطنه الملكوتي على صورة أحد الشياطين. وهذا أصل أصول المسخ الملكوتيّ.

وتظهر من تزاوج اثنين من تلك القوى الثلاث، ثلاث صور: ثور - نمر، ثور - شيطان، نمر - شيطان. وتظهر من التزاوج بين هذه القوى الثلاث صورة هجينة خليطة مزدوجة مثل: ثور - شيطان - نمر.

وعلى هذا المعنى يُحمل الحديث المرويّ عن الرسول الأكرم - صلّى اللـه عليه وآله - أنّـه قال: "يُحشر بعض النّاس على صورة تحسـن عندها القردة والخنازير".

واعلـم أنّه مثلـما أنّ الإفراط في هذه القوى الثلاث مفسـدٌ لمقام الإنسانيّة، يخرج الإنسان تارة عن حقيقة الإنسانية، وتارة أخرى عن فضيلة الإنسـانيّة، كذلك الحال مع التفريط والقصور فيها فهو أيضًا يُعتبر من مفسـدات مقام الإنسـانيّة ومن رذائل الملكات. ولكن إذا كان التفريط والقصور طبيعيًّا وفي أصل الخلقة ولا اختيار للإنسـان فيـه فهـو نقصان في أصل الخلقـة، وغالبًا ما يكـون بالإمكان تغيير النقائـص الطبيعيّة التي هي من هذا النّوع بالرياضات والمجاهدات والأعـمال القلبيّة والقالبيّة [الظاهريّة]، ويندر أن توجد - إن لم نقل لا توجد أصلًا - صفة من صفات النّفس تكون طبيعيّة بمعنى أنّها غير قابلة للتغيير.»[131]

قال الله تعالى مخاطبًا الإنسان: {**فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ**}.[132]

لمّا كانت النفوس في أصل تشـكّلها محض القابلية، فإنّها تكون مستعدّة للتشكّل بأي شـكل بحسـب فاعلية أصحابها وأفعالهم. فأعمالنا هي أدوات ووسائل صناعة نفوسنا، ولعلّـه من هذه الجهة قـال تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَـتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَما عَمِلَتْ مِنْ سُـوءٍ}.[133] وهذا هو أحد معاني تجسّـم الأعمال الـذي كثُر الحديث عنه في الروايات والأبحاث العلمية الكلامية والعرفانية.

وقد اتّضحت العلاقة بين العمل وتشـكّل الصّفـات، وتبيّن مدى تأثير نوعية الأعمال على تشـكّل الأخلاق والملكات الباطنية. فمن أفرط في اسـتعمال قوّته الغضبية الطاردة وصار يطرد من حوله كل جميل وحسـن، فسـوف يتشكل بصورة السباع التي لا تعرف الألفة والوفاء، بل أقبح بدرجات. ولعلّ قوله تعالى: {**وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ**}،[134] إشـارة

إلى أنّ جمعًـا كبـيرًا من البشر يُحشرون يوم القيامة بصـورة الوحوش. نعوذ بالله! وإذا أفرط في اسـتعمال قوّته الشهويّة وصار يجذب كلّ شيء لنفسه، فإنّه قد يُحشر بالصورة الحيوانية التي هي مثال للشّره، وهكذا الأمر في الإفراط في استعمال المكر واتّباع الوهم الذي ينتهي إلى الصورة الشـيطانية التي هي أقبـح صورة في الوجود. وقد خفيت هذه الصـورة في عالم الطبيعة لشـدّة قبحها. فلو ظهرت الحقيقة الشـيطانية كما هي لأهل العالم لماتوا من شدة بشاعتها. ولهذا يكون عـذاب الجهنميـين مـن أمثال هـؤلاء أن يجاوروا الشياطين: قال الله تعالى: {**وَقَيَّضْنا لهُـمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مـا بَيْنَ أَيْديهِمْ وَما خلْفَهُـمْ وَحَقَّ عَلَيْهِـمُ الْقَـوْلُ في أُمَمٍ قَدْ خلَـتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِـنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ**}.[135]

لمّا كانـت النفوس في أصل تشـكّلها محض القابلية، فإنّها تكون مستعدّة للتشـكّل بأي شكل بحسـب فاعلية أصحابهـا وأفعالهـم. فأعمالنـا هي أدوات ووسائل صناعة نفوسنا.

لقـد كانت القـوّة الجاذبة والقوّة الطـاردة لأجل مصالح محـدّدة من أجل تكميل النفـوس وإيصالهـا إلى مقام الروح. فـلا ينبغي الإفراط في اسـتعمالها؛ كذلك لا ينبغي التفريط، لأنّ ذلك سـيحرم النفس من الوصول إلى كمالها وفي هذا أيضًا عذابٌ شـديد. ولعلّ قوله تعالى بشـأن هؤلاء بأنّ {أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ}[136] يشـير إلى هذا المطلب. ولعلّه لا يوجـد أحد في هذه الدّنيا إلّا وقـد جرّب حالة الفراغ الإنسـانيّ والحرمان من مقاماتها الرفيعـة وما فيه من آلام، وسـتتضاعف يوم القيامة، الـذي هو يوم الحسرة حين يدرك هـؤلاء مدى التضييـع والخسران. ولعلّ قوله تعـالى: {قُلْ إِنَّ الْخاسِرِيـنَ الَّذينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم}،[137] إشارة إلى هذا المعنى.

وللأسـف فقد ركّزت الكثير من التعاليم الأخلاقية على جانب الإفراط، وتركت جانب التفريط الذي لا يقلّ خطره عن الإفراط، وقد تسـبّب هذا التركيز بالكثير من المشـاكل والمـآسي التي ابتُليت بها الأمّة الإسـلامية، حين أعرض المسـلمون عن دورهم الإلهيّ في إعـمار الأرض والانطـلاق في آفاقها، واعتبروا أنّ الحياة الدنيا هـي حياة الكفاف والحدّ الأدنى. وإنّما سـيطر مفهوم الكفاف على النشـاطات المختلفة للمسـلمين لغلبة النزعة الفردية في تعاليمهم وضمور البعد الاجتماعي في آثار علمائهم، إلا من عصم الله.

إنّ طلـب الكفاف والاكتفـاء بالحدّ الضروريّ في الحياة المادية هو أحد أهم أركان السـعادة الإنسـانية. بيد أنّه لا علاقة له بالمسـؤولية المرتبطة بالسـعي لإعمار الأرض وإحيائهـا وبناء الأنموذج الكامل فيهـا، وملاحقة الظّالمين والحكومات الطاغية في جميع أقطارهـا. وهنـا يبرز ضعف القوّة الغضبية بشـدّة حين غزا المغول بلاد المسـلمين فلم يجدوا سوى الضعف والهوان الذي وصل إلى حدّ أنّ المغولي حين دخل بغداد وذُهل بما فيها من ثروات وانشـغل بالسّـلب والنهب، كان لا يجد الفرصة لقتل سكّانها، فيأمرهم بالوقوف في زاوية الشـارع حتى يرجع إليهم ويقتلهم. وتحدّثنا كتب التاريخ أنّه كان في بعض الأحيان ينسى، فيرجع بعد يومين وإذ بهؤلاء المسلمين في مكانهم منتظرين، فيستلّ سيفه ويقطع رؤوسهم!!

لقـد كانت القـوّة الجاذبـة والقوّة الطـاردة لأجل مصالـح محدّدة من أجل تكميـل النفـوس وإيصالها إلى مقام الـروح. فلا ينبغـي الإفراط في استعمالها؛ كذلك لا ينبغي التفريط، لأنّ ذلك سيحرم النفس من الوصول إلى كمالها.

وهكـذا أيضًا ابتُليت أراضي المسـلمين بالتصحّر وقلّة الزرع، لأنّهم لم يسـتخدموا تلك القـوّة الشـهويّة الطالبـة للخير من أجـل تكثير الثروات العامّـة، ليكونوا ملجأ الشـعوب الفقيرة المسـتضعفة، وليصبحوا مهوى أفئدة العالمين، فيسـتفيدوا من هذه الفرصة العظيمة لجلب القلوب إلى الإسلام. وهكـذا أصبحت أمريكا المكان الذي يحلم المسلم بالسفر إليه لينال عيشة طيبة ويجد الفرصة المناسـبة للحياة الاقتصادية الكريمة. وكم قد تسبّب هذا الأمر بخروج المسلمين في تلك البلاد من دينهم أفواجًا.

وللأسـف فإنّ البشرية لم تقدّم لحدّ الآن أنموذجًا حقيقيًّا لاسـتعمال القوّتين الجاذبة والدافعـة في الشـأن الاجتماعيّ في حدّ الوسـط بين الإفراط والتفريـط، وإن كانت قد قدّمت الكثير من النماذج على الصعيد الفردي. ولعلّ ما قام به سليمان النبيّ العظيم في حياتـه كان يهدف إلى إظهار ما يمكن أن تصل إليه هاتان القوّتان في الحياة الاجتماعية وفي بنـاء الدولة. فقد اسـتطاع هذا النبيّ الجليل أن يبني دولـة بلغت من العظمة ما جعل طيور الأرض في خدمتها. وما يؤسـف له أنّ قوم سـليمان لم يسـتفيدوا من هذا النموذج وانقلبوا على التجربة الفتية ومنعوا من استمرارها.

شواهد إضافية

* إنّ للإنسان، بعد القوّة العاقلة، ثلاث قوى هي: القوّة "الواهمة" المعبّر عنها بالقوّة الشيطانية، والقوّة "الغضبية" المعبّر عنها بالنفس السبعية، والثالثة القوّة "الشهوية" المعبّر عنها بالنفس البهيمية، وهذه القوى هي الميزان في أجناس الفضائل والرذائل، إذ إنّ طرفي الإفراط والتفريط في أيٍّ منها رذيلة، وحدّ الاعتدال في كلّ منها فضيلة من الفضائل النفسانية. فالإفراط في النفس البهيمية يُسمّى "الشره" وهو عبارة عن إطلاق العنان للشهوات والنفس البهيمية لتتجاوز حدّ الاعتدال، وتغلو في قضاءِ وطرها من كلّ لذّة متى شاءت وبأي وسيلة، لأنّ إطلاق العنان موجود في كلّ قوّة من قوى الإنسان بالفرع المرتبط بها. فمثلًا إنَّ من الراسخ في جوهر طبيعة القوّة الشهوية بلوغ لذّاتها بصورةٍ مطلقة ولو أدّى ذلك إلى مخالفة نظام الشرع والعقل، وتلبية الشهوات من محرّمات الطعام والشراب، والنكاح وحتى لو كان نكاح المحارم والأُمهات. وعليه، فالشّره عبارة عن الإفراط في الشهوات والانغماس في الملذّات أكثر من الحدِّ المعتدل الذي يحدّده نظام العقل والشرع.

أمّا جانب التفريط في النفس البهيمية فهو «الخمود» وهو عبارة عن كبت القوّة الشهويّة فوق ما يقتضيه حدُّ الاعتدال والمقدار المطلوب، وتعطيل هذه القوّة النبيلة التي أنعم الله بها على الإنسان لكي يحفظ بها نفسه ونوعه. فإذا أُخضعت هذه القوّة لحكم العقل والشرع، وأُخرجت من حدَّي الغلوّ والتقصير والإفراط والتفريط، وكان تحرّكها منسجمًا مع العقل والشرع، ضمن حاكمية جنود الله، ظهرت فيها السكينة والطمأنينة؛ وملكةُ الاعتدال واكتسبت صبغة عقلية بل إلهية، وهذه هي «العفّة».[138]

* أيُّ جناية وخيانة أفظع من أن يؤدّي استخدامٍ هذه القوّة [الشهويّة] - المراد منها حفظ النسل - في غير محلّها وخلافًا لميزان العقل؛ إلى قطع النسل أو إصابته بأنواع البلايا والأمراض في حال بقائه؟! فقد كشفت الدراسات الحديثة للأطباء بشأن علل الأمراض أن علّة الكثير منها ترجع

إلى الأمراض التناسلية للمريض نفسه أو التي انتقلت إليه بالوراثة من أبيه أو أجداده. وهذا نموذج واحد من ألف مفسدة تظهر من إطلاق العنان لهذه القوّة في الحياة الدنيا. ولو تأمّل الإنسان مفاسدها الأخرويّة لاتّضح ما قالهُ أطبّاءُ النفوس وأمناء الوحي الإلهيّ وعلماء الآخرة من أنّ كل المفاسد الدنيوية لا تُعدُّ شيئًا في مقابل المفاسد الأخروية.[139]

* اعلمْ، أنّ القوّة الغضبية إذا كانت خاضعة لحكم العقل والشرع مهذّبة به، فهي من أعظم النعم الإلهية وأفضل الوسائل المعينة على سلوك طريق السعادة، فبها يكون حفظ نظام العالم وحفظ بقاء الفرد والنوع الإنساني، ولها أثرٌ كبيرٌ في إقامة المدينة الفاضلة. بهذه القوّة النبيلة يحفظ الإنسان والحيوان بقاءهما كأفراد وكنوع، وبها يدفعان التهديدات الطبيعية، وينقذان النفس من المهالك، لولا هذه القوّة لكان الإنسان محرومًا من الكثير من الكمالات وأنواع الرقيّ، ولولاها لما اندفع لحفظ النظام العائليّ وللذبّ عن المدينة الفاضلة. لذا فقد أوصى الحكماء والعلماء بعدّة أمور للخروج بهذه القوّة من حدّ النقص والتفريط، وكانوا يقومون بأنفسهم بأعمال استثنائية لإثارتها. وقد حُكي عن بعضهم أنّه كان يتعمّد مواطن الخوف فيقف فيها، ويحمل نفسه على المخاطرات العظيمة، ويركب البحر عند اضطرابه وهيجانه؛ ليعوّد نفسه الثبات في المخاوف. ومثل هذه المعالجات وإن كان فيها إفراطٌ ومبالغة، إلّا أنّ أصل المعالجة لإيقاظ القوّة الغضبية عند ضمورها وفتورها هو أمرٌ ضروريّ، لأنّ فتورها يؤدّي إلى إحداث خلل خطير في النظام الاجتماعي والحكومي للمدينة الفاضلة، ويهدد الحياة الفردية الاجتماعية بأخطارٍ ماحقة.

ألم يصف الله تعالى المؤمنين في كتابه العزيز بأنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُم﴾؟! ألم يصرّح بتفضيل المجاهدين في الحروب على القاعدين. وبسموّ درجاتهم عنده تبارك وتعالى؟! ألم يمدح الثابتين في سوح الجهاد ويحرّضهم عليه؟ وكل هذه الأمور لا تتحقّق إلّا في ظلّ القوّة الغضبية الكريمة، والمبتلى بضعفها وخمودها محرومٌ من كل هذه

الفضائل مضطرٌ للركون للذلة والمسكنة والوضاعة، والقعود عن القيام بواجباته الإنسانية والدينية. لذلك فالمبتلى بخمود هذه القوّة هو مريض يجب معالجته بالعلاجات العلمية والعملية بهدف نقل نفسه إلى خط الاعتدال في هذه القوّة.[140]

* في الجوّ الهادئ تستطيع العقول أن تعمل. ففي اليوم الذي يدخل الغضب في العمل، فإنّ العقل يقف جانبًا. إنّ القوة الغضبية حين تدخل فإنّها تبعد القوّة العاقلة جانبًا، فيتكلّم الشخص من دون عقل.[141]

* ولو أردتم حلّ مسألةٍ ما، بالصراخ والضجّة والغوغاء، ويعتبر كل شخص في نظره أنّ الطرف المقابل يهاجمه كعدوّ له، فتذهب العقول جانبًا. ولو أنّ القوّة الغضبية - وهي أسوأ القوى - لم تُضبط وباشرت بالعمل فعلاوة على أنّها لا تحل المسألة سوف تجعلها أكثر تعقيدًا.[142]

* السفه ملكةٌ تسلبُ النفس قدرة التحمّل على مواجهة ما لا يلائمها، فتفقد زمام أمرها عن جهل ومن دون حدود، ويتأجّج غضبها من دون أن تستطيع السيطرة عليها. فهذه الملكة من فروع خروج القوّة الغضبية إلى الإفراط.[143]

* إنّ الإفراط في القوّة الغضبية، الذي يُبتلى به أكثر الناس، والمعبّر عنه في الحديث الشريف بوصف "السفه"؛ بأنّه من رذائل الصفات وقبائح الصفات، فهو يسوق الإنسان إلى الهلاك، وكثيرًا ما يكون سببًا لشقاء الإنسان في دنياه وأخراه. فالذي تخرج فيه القوّة الغضبية عن حدّ الاعتدال إلى حدّ الإفراط؛ قد يوقع نفسه بنفسه في المهالك، ويدمّر دينه ودنياه.[144]

* إذا استمكنت صورة الغضب في نفس الإنسان وصارت ملكة باطنية فيه، وأخضعت مملكة وجوده لحكم النفس السبعية، وصارت صورته النهائية على هيئة سبع، حُشر على هذه الصورة في عالم البرزخ والقيامة. ولا يخفى أنّ أشكال السباع البرزخية والملكوتية تختلف كثيرًا عن أشكال السباع في عالم المُلك والدنيا، مثلما أنّ سبعية الإنسان تختلف كثيرًا عن سبعية باقي الحيوانات، ولذلك ورد في الحديث النبويّ الشّريف: "يُحشر

بعضُ الناس على صورة تحسن عندها القردةُ والخنازير".

وربّما يؤدّي اتّصاف الإنسان برذيلة إفراط القوّة الغضبية، وظهور ملكة السبعية الخبيثة فيه، إلى ظهور الكثير من أشكال الفساد الأخرى والأخلاق والأعمال، بل والعقائد الخبيثة أيضًا فيه. لذلك ينبغي للإنسان الواعي المؤمن بعالم الآخرة أن يعالج نفسه بأيّ رياضة أو وسيلة لكي يطهّر قلبه من هذه الرذيلة الخبيثة، فإنّها لو بقيت فيه، لا سمح الله، ورحل بها عن الدنيا فإنّها ستوقعه في أشكال رهيبة من العذاب والضغطات والنيران والعقوبات قد يطول أمدها بطول عمر الدنيا إلى أن يتأهّل للفوز بشفاعةِ الشافعين، لأنّ الشّفاعة لا تُوهَبْ جُزافًا في ذلك العالم، بل استنادًا إلى نوعٍ من التناسب بين الشافع والمشفوع له.[145]

✵ إنّ حقيقة الجهل الكلّيّ هي في مقابل العقل الكلّيّ، وهي عبارة عن الوهم الكلّيّ الذي هو وهم العالم الكبير والميّال]بالنفس[للشر والكذب والمغالطة والفساد، والأوهام الجزئية في العوالم النازلة، هي المراتب المتنزّلة من تلك الحقيقة الباطلة، ولعلّ في قول الرسول الأكرم - صلّى الله عليه وآله وسلم: "إن الشيطان يجري مجرى الدم من ابن آدم» كما هو مشهور، إشارة إلى إحاطة الوهم الكلّي بجميع الأوهام الجزئية، أو إشارة إلى الأوهام الجزئية وهي نتائج ومظاهر الشيطان الأكبر.[146]

✵ [لا] يوجد حدّ محدود لطغيان تلك القوى الثلاث، وهي قوّة الشيطنة ومن فروعها العجب والتكبّر وطلب الرئاسة، والخداع والمكر والنفاق والكذب وأمثالها. وقوّة الغضب ومن فروعها اتّباع الهوى والتجبّر والتفاخر، والتمرّد والطغيان، والقتل والفحش، وأذى الخلق وأمثالها. وقوّة الشهوة وفروعها الشّره والحرص، والطمع والبخل ونظائرها. فلو أطلق الإنسان العنان لقوّة الشيطنة لما وقفت عند أي حد ولما وقعت بأي مرتبة، ولصارت مستعدّة لأن تسحق - من أجل تحقيق ما تريده - جميع النواميس الإلهية والشرائع الحقّة؛ ولأن تقتل الأنبياء والأولياء الصالحين والعلماء بالله أفواجًا أفواجًا من أجل الوصول إلى رئاسة محدودة. وقس

على ذلك حال القوّتين الأخريين إذا أطلق لهما العنان وتُركتا وشأنهما.[147]

* يجدر التنبُّه إلى أنّ وجود أربع قوى في الإنسان، هي: العاقلة الروحانية، الغضبية السبُعية، الشهوية البهيمية، والرابعة القوّة الواهمة الشيطانية، يعني أنّ صور الإنسان في عالم الآخرة - وهو يوم ظهور الصور الغيبية والملكات النفسانية - لن تزيد على ثماني صور، لأنّ صورة الإنسان الجسمانية - الظاهرية في عالم الآخرة ونشأة ما وراء الطبيعة - تكون تابعةً لحقيقة صورتهِ الروحانية ومقام النفس، فعالم الآخرة ليس كعالم الدنيا الذي يكون فيه الظاهر مخالفًا للباطن عاصيًا لملكوت النفس، وقد أقيم البرهان العقلي على هذا الأمر في العلم الأعلى.

وعليه؛ فإذا سار الإنسان على الصراط المستقيم في هذا العالم، وعدّل قواه الثلاث وجعلها تابعةً للقوّة الروحانيّة العقلية، وأخضع سيرتهُ الباطنية والظاهريّة لموازين الشريعة الإلهية، حصل باطنهُ على ملكةِ الاستقامة، وصارت صورةُ روحه وباطنهِ صورةً إنسانية قويمة، فتكون بذلك صورته الجسمانية الظاهرة في ذلك العالم صورة إنسانية جميلة ومستقيمة. أمّا إذا كانت قوّة روحانية النفس ونشأتها العقلية تابعةً لإحدى القوى الثلاث تلك، فإنّ أيًّا من هذه القوى الثلاث، إذا غلبت القوى الأخرى وأخضعتها لسيطرتها ستُصبغ بصبغتها ظاهر مملكة الإنسان وباطنها، فتكونُ صورته الملكوتية الباطنة تابعة لها، فتظهر صورته الغيبية الملكوتية في شكل أحد السباع إذا كانت الغلبة للقوّة الغضبية، أو في شكل أحد البهائم إذا كانت الغلبةُ للقوّة الشهويّة، وكانت مملكة باطنه مملكة شهويّة؛ أو في شكل أحد الشياطين إذا كانت الغلبةُ للقوّة الواهمة الشيطانية وكانت مملكة الباطن خاضعة للشيطان. هذه هي جميعًا الصور الملكوتية البسيطة.[148]

* على الجميع أن يعلموا أنّ آفة الإنسان هي هوى النفس وهذا الهوى موجودٌ لدى الجميع وهو مستمدٌ من فطرة التوحيد التي هي فطرة طلب الكمال، فالإنسان يطلب الكمال المطلق من حيث لا يدري، إنّه

يطلب منصبًا وحين يحصل عليه يرى أنّه ليس هو مطلوبه، فلو جمع العالم كلّه وأودع بيد الإنسان فلن يقنع به، إنّكم تلاحظون أنّ الجبابرة الذين يتمتّعون بقدرات كبيرة يسعون إلى بسط نفوذهم وازدياد قدرتهم أكثر فأكثر ولا يقنعون بالتسلّط على الفضاء والأرض والبحار وحتى السماء، فإن لم يستطع الإنسان أن يحدّ من أهوائه ورغباته فإنّ هذا الجموح الذي لا تحدّه حدود سيؤدي به إلى الفناء، فيجب الحدّ من هذا الجموح وتجب السيطرة على النفس في كلّ الأمور، فعلى الإنسان أن يلاحظ مصلحة الإسلام في تمشية الأمور كلّها.[149]

✷ أيتها النفس الشقيّة التي قضيتِ سنيّ عمرك الطويلة في الشهوات ولم يكن نصيبك سوى الحسرة والندامة، ابحثي عن الرّحمة واستحي من مالك الملوك، وسيري قليلًا في طريق الهدف الأساسي المؤدّي إلى حياة الخلد والسعادة السرمدية، ولا تبيعي تلك السعادة بشهوات أيام قليلة فانية لا تتحصّل إلّا مع الصعوبات المضنية الشاقة.[150]

14

من المسؤول عن تعاستنا؟ وكيف يمكن أن نقي أنفسنا سوء المصير؟

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«فأوّل مرتبةٍ من مراتب القذارات هي تلوّث الآلات والقوى الظّاهرية للنّفس بلوث المعاصي وتقذّرها بقذارة التّمرّد على وليّ النّعم. وهذا هو الفخّ الصّوريّ الظاهريّ لإبليس. وما دام الإنسان أسير هذا الفخّ فهو من فيض المحضر ومن حصول القرب الإلهيّ محروم. ولا يظنّن أحدٌ أنّه يمكن أنْ يرقى إلى مقام حقيقة الإنسانيّة أو يستطيع أنْ يطهّر باطن قلبه من دون تطهير ظاهر مملكة الإنسانيّة، فهذا غرورٌ شيطانيّ ومن حيل إبليس الكبرى؛ وذلك لأنّ الكدورات والظّلمات القلبيّة تزداد بالمعاصي التي هي غلبة الطّبيعة على الرّوحانيّة. وما دام السّالك لم يفتتح المملكة الظّاهريّة فهو محرومٌ بالكامل من الفتوحات الباطنيّة التي هي المقصد الأعلى، ولا ينفتح له طريقٌ إلى السّعادة. فأحد الموانع الكبيرة لهذا السّلوك هو قذارات المعاصي التي لا بدّ أن تطهّر بماء التّوبة النّصوح الطّاهر الطّهور.

وليُعلم أنّ جميع القوى الظّاهريّة والباطنيّة التي أعطانا الله إيّاها وأنزلها من عالَم الغيب، هي أماناتٌ إلهيّةٌ كانت طاهرةً من جميع القذارات، وكانت طاهرةً مطهّرةً، بل كانت متنوّرةً بنور الفطرة الإلهيّة وبعيدةً عن ظلمة تصرّف إبليس وكدورته. فلمّا نزلت إلى ظلمات عالَم الطّبيعة وامتدّت يد تصرّف شيطان الواهمة

ويد الخيانة الإبليسـيّة إليها، خرجت عــن الطّهارة الأصليّة والفطرة الأوّليّة، وتلوّثت بأنواع القذارات والأرجاس الشّيطانيّة. فالسّالك إلى الله إذا أبعدَ يدَ الشّـيطان بالتّمسّــك بذيل عناية وليّ الله، - وطهّر المملكــة الظّاهريّــة وردّ الأمانــات الإلهيّة كما أخذهــا فهو ما خان الأمانة حينئذ. وإنْ كانــت قد صدرت منه خيانةٌ فهو موردٌ للغفران والسّــتّاريّة، فيســتريح خاطره من ناحيــة الظّاهر، ويقــوم بتخلية الباطن من أرجاس الأخلاق الفاســدة؛ وهذه هي المرتبة الثّانية من القذارات التي فسادها أكثر وعلاجها أصعب، وعند أصحاب الارتياض أهمّ. لأنّه ما دام الخُلق الباطنيّ للنّفس فاســدًا والقذارات المعنويّة محيطــة بها، لا تليق بمقام القدس وخلوة الأنس، بل إنّ مبدأ فســاد المملكة الظّاهريّة للنّفس هو الأخلاق الفاسدة والملكات الخبيثة. وما لم يبدّل السّــالك المَلَكات السّــيّئة بالمَلَكات الحسنة فلا يكون بمأمن من شرور الأعمال؛ وحتى لو وُفّق للتّوبة من المعاصي، فإنّ الاستقامة عليهــا - التي هي من المهمّات - لا تتيسّر لــه. فتطهير الظّاهر أيضًا متوقّــفٌ على تطهير الباطن، مضافًا إلى أنّ القذارات الباطنيّة موجبةٌ للحرمان من السّــعادة ومنشأٌ لجهنّم الأخلاق التي هي - وكما يقول أهل المعرفة - أشــدّ حرًّا من جهنّم الأعمال، وقد أشــير كثيرًا إلى هذا المعنى في أخبار أهل بيت العصمة.

فيلــزم للسّــالك إلى الله هــذه الطهارة أيضًا. وبعد أن يغســل عن لوح النّفس لوث الأخلاق الفاســدة بماء العلم النّافع الطّاهر الطّهور، وبالارتياض الشّرعيّ الصّالح، عليه أنْ يشتغل بتطهير القلب الذي هو أمّ القرى، والذي بصلاحه تصلح الممالك كلّها، وبفســاده تفســد كلّها. وقذارات عالَم القلب مبدأُ القذارات كلّها؛ وهي عبارةٌ عن التّعلّق بغير الحــقّ والتّوجّه إلى النّفس وإلى العالَم. ومنشــؤها جميعًا حبُّ الدّنيا

الذي هــو رأس كلّ خطيئة وحبّ النّفس الذي هــو أمّ الأمراض. وما دامت جذور هذه المحبّة في قلب السّالك لا يحصل فيها أثرٌ من محبّة اللــه، ولا يهتدي طريقًا إلى منزل المقصد والمقصود. ومادام للسّــالك في قلبــه بقايا من هذه المحبّة، لا يكون ســيرُه إلى الله، بل يكون إلى النّفس وإلى الدّنيا وإلى الشّــيطان، فالتطهــير من حبّ النّفس والدّنيا هــو أوّل مراتب تطهير السّــلوك إلى الله في الحقيقــة. لأنّه قبل هذا التّطهير لا يكون السّــلوك ســلوكًا، وإنّما يطلق السّلوك والسّالك على سبيل المسامحة».[151]

تكشــف الأحوال الســلبية للنفس عن جانب مهم من حقيقتهــا. وإنّما تحصل هذه الحالات من جرّاء انفصال وعي الإنســان عن حقيقته. لهذا قيل أنّ نســيان النفس هو أعظم المصائب. فمثل من ينسى نفســه مثل الذي يظنّ أنّه قد بنى بيتًا من الإســمنت المتين فيقوم بإضافة بعض الطوابق عليه ويهتم بتجميله، علمًا أنّ بيته الحقيقيّ لا علاقة له بهذا المنزل الإسمنتي، فلا شك أنّه سينهار به في نهاية المطاف!

نســيان النفس يعني نســيان جوهرها الواقعيّ الذي يرجع إلى عمق الارتباط بالله والاتّصــال بــه، والذي لا بد أن يظهــر في الحياة الدنيا بصورة العبوديــة والفقر إلى الله والتــوكل عليه ونفي الأســباب الوهمية والكمالات الباطلة. ولو عرف الإنســان حقيقة نفســه لأخلص لله في الانقطاع إليه دون ســواه. وحين ينسى الإنســان هــذه الحقيقة، فسوف يرى نفسه مستقلّة في التأثير، لأنّه رآها مستقلّة في الوجود والبقاء، وسوف يرى كل كمالاتها ناشئة من ذاتها: {**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**}،[152] فيتعزّز ويترفّع ويرى استحقاقها لكلّ لذّة أو زينة، فلا يرعوي عن ارتكاب أي جرم لأجل الحصول على ما يريد. ولأنّه يعيش في دنيا المحدودية والتنازع والتزاحم، فســوف يعادي خلق الله ويعارضهم لأجل الحصول على مشتهيات هذه النفس، فيظلم ويعتدي ويفسد ويسفك الدماء.

يذكــر الإمام الخمينــي (قدّس سرّه) أصل جميع المهلكات التــي تبتعد بالنفس عن

غايتهــا. وهــو تعلّق القلب بغير اللــه تعالى. وكيف لا تكون هــذه القذارة أصل جميع القــذارات والنفــس قد خُلقت لأجــل أن تكون مظهرًا تامًّا لأســماء الله وصفاته. فحين يتعلّق القلب بما ســوى الله، يبتعد الإنســان عن التوجّه إلى الله الذي له ملك كل شيء، فتنحدر النفس في رحلة التسافل إلى أسفل سافلين، وتحرم من كمالاتها.

لهذا فإنّ مبدأ الإصلاح هو التوجّه إلى القلب وإصلاحه. ولا يصلح القلب إلّا إذا تعلّق بالله وأحبّه وعشقه، لأنّ العشق هو أصل أي توجّه وحركة. وقد يحتاج الكثيرون إلى عبور مرحلتين أساسيتين لأجل النفوذ إلى قلوبهم وإصلاحها. المرحلة الأولى هي إصلاح الأعمال، والمرحلة الثانية هي إصلاح الملكات. فحين تكون النفس مبتلاة بسوء العمل، فهذا يعني أنّ التعلّق بغير الله مســتحكم وقويّ جدًا. ومن خلال التخلّص من قذارات المعاصي بماء التوبة النصوح الذي يرجع قسمٌ منه إلى القيام بصالح الأعمال، يحدّ الإنسان السالك من قــوّة تعلّق القلب بغير الله. وعليه أن يكمل رحلة تطهير القلب من خلال تطهير النفس مــن رذائل الأخلاق عبر المجاهدة الشرعية. فــإذا تخلّق بالأخلاق الفاضلة يكون قد قطع على شــجرة التعلّق بغير الله ما يرويها، فتيبس وتذوي ثمّ تتهاوى، لينبت محلّها شــجرة حــبّ اللــه، التي هي أصل ثابــت في أرض الحياة وفرعها شامخ في سماء الأسماء.

لو عرف الإنسان حقيقة نفسه لأخلص لله في الانقطاع إليه دون سواه. وحين ينسى الإنسان هذه الحقيقة، فسوف يرى نفسه مستقلة في التأثير، فيتعزّز ويترفّع ويرى استحقاقها لكلّ لذّة أو زينة، فلا يرعوي عن ارتكاب أي جرم لأجل الحصول على ما يريد.

وقد يحصــل أثناء هــذه المجاهدة، أن تــدرك عناية الــربّ الرحيم هذا الســالك المجاهــد في اللــه، فتناله جذبــة رحيمية تحــرق جميــع أكــوام التعلّقــات القلبية الفاســدة دُفعةً واحدة وتجذبه من نفسه وكلّ مــا فيه. ولهذا يطلــب العارفون هذه الجذبــة في الليل والنهار، لأنّهم يعلمون في أعماق نفوســهم أنّهم عاجزون عن التغلّب على هذه النفس الأمّارة بالسوء إلا برحمة من الله.

فلا يخفى أنّ أعمال الإنسان الاختيارية هي دليل على قوّة النفس. فلو خلا الإنسان من قدرة الاختيار للعمل واستخدام الجوارح، فإنّ نفسه تكون في حالة شديدة من

الضعف. وبعبارةٍ أخرى، ليست الأعمال سوى ظهور النفس في تمامها. وحين يتم إصلاح الأعمال الاختيارية، فإنّ قوة النفس تتوجّه نحو المقصد الصحيح. وإذا بقيت النفس في حالة العصيان والتمرّد على ربّ العالمين، فهذا يعني أنّ قوّتها تستخدم للوصول إلى غاية وخيمة.

أما الملكات والأخلاق والصفات، فهي مبادئ الأعمال والأفعال، ولا يمكن تحقيق حالة صلاح العمل إلا بإصلاح الخُلق. ولا تصلح الأخلاق إلا بصلاح القلب ورسوخ الإيمان بالله وحضوره فيه.

شواهد إضافية

* المحتجبون بحجاب الطبيعة، لا همَّ لهم سوى الآمال النفسانية والمطلوبات الطبيعية، لذلك فهم يتكالبون على جيفة الطبيعة، ويستهلكون قوّتهم الغضبية في هذا السبيل، فيسقطون في مستنقع الدنيا والطبيعة وشباكها بالوسائل نفسها التي وهبها الله لهم للتخلّص من هذه الشباك، فيخونون النعم والأمانات الإلهية ويسلّطون عليها الأيدي الملوّثة للنفس الأمارة بالسوء.[153]

* إنّ قوّة الشيطنة... وقوة الغضب... وقوّة الشهوة... ومعلوم أنّ كل مرتبة من مراتب اللذات النفسانية المرتبطة بهذه القوى الثلاث تحصل للإنسان، تشدّه بمقدارها إلى التعلّق بالدنيا والغفلة عن الروحانية والحقّ والحقيقة، فكل لذّة يتذوّقها الإنسان في هذا العالم خارج الحدود الإلهية تقرّبه إلى الدنيا وتزيد تعلّقه القلبي بها، وتنقص بالمقدار نفسه من تعلّقه بالروحانيّة والحقّ، وتضعف بالمقدار نفسه المحبّة الإلهية في قلبه. ولأنّ النفس تطلب بعد كلّ لذّة تحصل عليها لذّة أخرى بل ولذّات أخرى، وتحرّض النفس الأمارة بالسوء القوى الخاصّة بها على السّعي للحصول عليها، لذلك تظهر خلف كل حجاب حجب ظلمانيّة للإنسان، وبالتالي تظهر باستمرار من هذه المجاري والقوى الحسّية التي يمر عبرها شعاع النفس إلى عالم الطبيعة والدنيا الحجب التي تغلّف قلب الإنسان وروحه، وتصدّه عن السير إلى الله وطلب الحقّ جلّ جلاله. والخسران والحسرة بل العجب والحيرة من أنّ هذه الفطرة التي هي نفسها بُراق سير الأولياء في معراجهم إلى القرب من حضرة الباري جلّ وعلا ورأسمالهم للوصول إلى الكمال المطلق، هي نفسها التي توصل الإنسان الطاغي إلى نهاية الشقاء والبعد عن ساحة الكبرياء القدسية، وهذا هو الخسران الأشدّ كما يقول الحق تعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ}.

فيا عزيزي، بادر بهمّة عالية اليوم لفتح باب السعادة لنفسك، ما دامت حجب الطبيعة الكثيفة لم تخمد بعد نور الفطرة بالكامل، وما دام رجس المعاصي لم يذهب بصفاء باطن القلب بالكامل. ولم ترحل بعد عن

الدنيا وهي "مزرعة الآخرة" التي يمكن للإنسان فيها أن يجبر كل نقص ويغفر له كل ذنب.

واعلم أنّك لو تقدّمت خطوة في طريق السعادة وسرت فيه، ودخلت إلى حضرة الحقّ تعالى مجده، من باب الصلح، واعتذرت عمّا سبق منك؛ انفتحت أمامك أبواب السعادة وأخذت بيدك إمدادات من عالم الغيب، وتمزّقت عنك حجب الطّبيعة الواحد بعد الآخر، وتغلّب نور الفطرة على الظّلمات المكتسبة، وظهر صفاء القلب ونقاء الباطن، وانفتحت أمامك أبواب الرّحمة الإلهية، وجذبتك الجاذبة الإلهية إلى عالم الروحانية، وتجلّت في قلبك محبّة الحقّ تعالى تدريجيًّا، وأحرقت أنواع محبّة ما سواه.[154]

* اعلم أنّ الإنسان إذا أصبح مقهورًا لهيمنة الشهوة والميول النفسية، كان رقُّه وعبوديته وذلّته بقدر مقهوريّته لتلك السلطات الحاكمة عليه، ومعنى العبودية لشخص هو الخضوع التامّ له وإطاعته. والإنسان المطيع للشهوات المقهور للنفس الأمارة يكون عبدًا منقادًا لها. وكلّما توحي هذه السلطات بشيء أطاعها الإنسان في منتهى الخضوع، ويغدو عبدًا خاضعًا ومطيعًا أمام تلك القوى الحاكمة، ويبلغ الأمر إلى مستوىً يفضّل طاعتها على طاعة خالق السماوات والأرض، وعبوديتها على عبودية مالك الملوك الحقيقيّ، وفي هذه الحال تزول عن نفسه العزّة والكرامة والحريّة ويحل محلّها الذل والهوان والعبودية، ويخضع لأهل الدنيا، وينحني قلبه أمامهما وأمام ذوي الجاه والحشمة، ويتحمّل لأجل البلوغ إلى شهواته النفسية الذل والمنّة، ويستسيغ لأجل الترفيه عن البطن والفرج الهوان، ولا يتضايق من اقتراف ما فيه خلاف الشرف والفتوة والحرية حين يكون أسيرًا لهوى النفس والشهوة. وينقلب إلى أداة طيّعة أمام كل صالح وطالح، ويقبل امتنان كل وضيع عنده لمجرّد احتمال نيل ما يبتغيه حتى إذا كان ذلك الشخص أحط وأتفه إنسان، وذلك الاحتمال موهومًا، حيث يزعمون أنّ الوهم في دائرة الأطماع حجة. إنّ عبيد الدنيا وعبيد الرّغبات الذاتية،

والذين وضعوا رسن عبودية الميول النفسية في رقابهم، يعبدون كل من يعلمون أنّ لديه الدنيا أو يحتملون أنه من ذوي الدنيا، ويخضعون له، وإذا تحدثوا عن التعفّف وكبر النفس كان حديثهم تدليسًا محضًا، وإنّ أعمالهم وأقوالهم تكذّب حديثهم عن عفّة النفس ومناعتها. وهذا الأسر والرقّ من الأمور التي تجعل الإنسان دائمًا في المذلّة والعذاب والنَصَب. ويجب على الإنسان ذي النبل والكرامة أن يلتجئ إلى كل وسيلة لتطهير نفسه منها. ويتم التطهير من هذه القذارات، والتحرير من كلّ خفّة وهوان، بمعالجة النفس، وهي لا تكون إلّا بواسطة العلم والعمل الناجع. أمّا العمل فيكون بالرياضة الشرعية وبمخالفة النفس فترة يتم فيها الوازع للنفس تجاه حبّها المفرط للدنيا والشهوات والأهواء حتى تتعوّد النفس على الخيرات والكمالات. وأمّا العلم فيتم بتلقين النفس وإبلاغ القلب: بأنّ الناس الآخرين يضاهونه في الفقر والضعف والحاجة والعجز، وأنّهم يشبهونه أيضًا في الاحتياج إلى الغنيّ المطلق القادر على جميع الأمور الجزئية والكلية، وأنّهم غير قادرين على إنجاز حاجة أحد أبدًا، وأنّهم أتفه من أن تنعطف النفس إليهم، ويخشع القلب أمامهم، وأنّ القادر الذي منحهم العزّة والشرف والمال والوجاهة، قادر على المنح لكلّ أحد. ومن العار حقيقةً على الإنسان أن يتذلّل وينحطّ في سبيل بطنه وشهوته، ويتحمّل الامتنان من مخلوق فقير ذليل لا حول له ولا علم ولا وعي. إذا أردت - أيّها الإنسان - أن تقبل المنّة فلتكن من الغنيّ المطلق وخالق السماوات والأرض، فإنك إذا وجّهت وجهك إلى الذات المقدّسة، وخشع في محضره قلبك تحرّرت من العالَمين - ما سوى الله - وخلعت من رقبتك طوق العبودية. «العُبُوديَّةُ جَوْهَرَةٌ كُنْهُهَا الرُبُوبِيَّةُ». ونتيجةً لعبودية الحقّ والانتباه إلى نقطة واحدة مركزية، وإفناء كلّ القوى والسلطات - النفس وأهوائها - في السلطة الإلهية المطلقة، تنجم حالة في القلب تقهر العوالم الأخرى وتستولي عليها، وتظهر للروح حالة من الشموخ والعظمة تأبى الطاعة إلا أمام الربّ سبحانه وأمام من تكون طاعتهم طاعة ذات

الحقّ المقدّس، وإذا كان من جرّاء الظروف الطارئة محكومًا لأحد، لما تزلزل قلبه منه ولحافظ على حرية نفسه واستقلالها، كما كان الشأن في النّبيّ يوسف ولقمان حيث لم تنعكس سلبًا عبوديّتهما الظاهريّة على حريّة وانطلاقة نفسيهما. كم من أصحاب القدرة والسلطة الظاهريّة لم يستنشقوا نسمة حريّة النفس الشخصية والاعتداد بها ويكونون أذلّاء وعبيدًا للنفس وأهوائها، ويتزلّفون نحو المخلوق التّافه؟ نُقل عن الإمام علي بن الحسين عليه السّلام أنه قال في حديث: «إنِّي لآنَفُ أنْ أطْلُبَ الدُّنْيَا مِنْ خَالِقِهَا فَكَيْفَ مِنْ مَخْلُوقٍ مِثْلِي»؟[155]

* إنّ رضا صاحب الفطرة المحجوبة وفرحه وتعلّقه يكون بالأمور التي توهّم أنّ الكمال فيها، فهو ساخطٌ - بمقدار احتجابه - على الحقّ تعالى وعلى أفعاله، وهو يسخط - بحسب الفطرة والجبلّة - على من يضرّ بدنياه وآماله النفسانيّة الدائرة لأنّها محبوبته، فهو يسيء الظنّ به حتّى لو لم يفصح عن ذلك باللسان. وقد كان شيخنا الجليل حضرة العارف بالله الشيخ محمّد علي الشاه آبادي - أدام الله ظلّه على رؤوس مريديه - يقول: "إنّ الحبّ الشديد للدنيا يؤدّي بالإنسان - عند خروجه منها، وحين يرى عيانًا أنّ الحقّ تعالى وملائكته وسدنته ينتزعونه منها ويفصلونه عن محبوبته - إلى أن يغضب بالجبلّة والفطرة ويسخط عليهم، فيرحل عن الدنيا وهو في حال من العداء للحقّ تعالى وملائكته المقدّسين».[156]

* إنّ الشّيطان رأى نفسه ورأى ناريّته وقال {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ}،[157] وهذا الإعجاب بالنّفس صار سببًا لعبادة نفسه والتّكبّر، وتحقير آدم وإهانته، وقال {خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}،[158] وقاس قياسًا باطلًا ولم يرَ حُسنَ آدم وكمال روحانيّته، بل رأى ظاهره ومقام طينيّته وترابيّته، ورأى من نفسه مقام ناريّته، وغفل عن الشّرك وحبّ النّفس ورؤيتها، فصار حبّ النّفس حجابًا أمام رؤية نقصه وشهود عيوبه. وصارت هذه الرّؤية للنّفس وحبّها سببًا لعبادة النّفس والتّكبّر والتّظاهر والرّياء والاستقلال في الرّأي والعصيان، وأبعد عن معراج القدس إلى تيه الطّبيعة المظلمة.

فالمطلوب للسّالك إلى الله أنْ يطهّر نفسه من أمّهات الرّذائل والأرجاس الباطنيّة الشّيطانية عند تطهير الأرجاس الصّوريّة، وأنْ يغسل المدينة الفاضلة بماء رحمة الحقّ والارتياض الشّرعيّ، ويصفّي قلبه الذي هو محلّ تجلّي الحقّ، ويخلع نعلَي حبّ الجاه والشّرف، كي يليق للدّخول في الوادي المقدّس الأيمن، ويكون قابلًا لتجلّي الرّب. وما لم يحصل التّطهير من الأرجاس الخبيثة لا يمكن له التّطهير من الأحداث، لأنّ تطهير الظاهر مقدّمةٌ لتطهير الباطن. وما لم تحصل التّقوى المُلكيّة الدّنيويّة التّامّة على وفق دستور الشّريعة المطهّرة لا تحصل التّقوى القلبيّة. وما لم تحصل التّقوى القلبيّة من الأمور التي ذكرناها، لن تحصل التّقوى الرّوحيّة السّرية الحقيقيّة. وجميع مراتب التّقوى مقدّمةٌ لهذه المرتبة وهو ترك غير الحقّ. ومادام في السّالك بقيّةٌ من الأنانيّة، فلن يتجلّى الحقّ على سرّه.

نعم، ربّما ينال السّالك بمقتضى سبق الرّحمة وغلبة جهة «يلي اللّهي»، الإمداد الغيبيّ، ويحرق بالجذوة الإلهيّة ما بقي من الأنانيّة. ولعلّ في كيفيّة تجلّي الحقّ للجبل واندكاكه وصعق موسى إشارة لما ذكر. وهذا الفرق أيضًا موجودٌ بين السّالك المجذوب والمجذوب السّالك.

وأهل الحقيقة يلتفتون ممّا ذكر إلى نكتةٍ تعليميّةٍ ومطلبٍ مهمٍّ، حيث يكون الجهل به منشأً لكثيرٍ من الضّلالات والغوايات وللتّخلّف عن سلوك طريق الحقّ، ولا ينبغي لطالب الحقّ الجهل به ولا يجوز له الغفلة عنه؛ وهو أن السّالك وطالب الحقّ لا بدّ أنْ يبرئ نفسَه من الإفراط والتّفريط اللذين يكونان في بعض جهلة أهل التّصوّف وبعض الغافلين من أهل الظاهر حتى يمكنه السّير إلى الله. لأنّ بعضهم يعتقد أنّ العلم والعمل الظاهريّين القالبيّين حشوٌ وهما للجهّال والعَوام، وأنّ الذين هم أهل السّرّ والحقيقة وأصحاب القلوب وأرباب السّابقة الحسنى لا يحتاجون إلى هذه الأعمال! وأنّ الأعمال القالبيّة لأجل حصول الحقائق القلبيّة والوصول إلى المقصد. فإذا وصل السّالك إلى المقصد فالاشتغال بالمقدّمات

تبعيد والاشتغال بالكثرات حجاب!!

والطائفة الثّانية قامت في قبال هذه الطائفة فوقعوا في جانب التّفريط، وأنكروا جميع المقامات المعنويّة والأسرار الإلهيّة، وما خلا محض الظاهر والصّورة والقشر، أنكروا كلّ شيء، ونسبوها إلى التّخيّلات والأوهام.. ولا يزال النّزاع والمجادلة والمخاصمة بين الطائفتين. كلٌّ يرى الآخر على خلاف الشّريعة. والحقّ أنّ كلتا الطائفتين قد تجاوزت الحدّ ووقعت في الإفراط والتّفريط. ونحن أشرنا في رسالة سرّ الصّلاة إلى هذا الموضوع، وفي هذا المقام أيضًا نبيّن حدّ الاعتدال الذي هو الصّراط المستقيم.[159]

✷ اعلم أيّها العزيز أنّه مثلما يكون لهذا الجسد صحّة ومرض، وعلاج ومعالج، فإنّ للنّفس الإنسانيّة أيضًا صحة ومرضًا، وسقمًا وسلامة، وعلاجًا ومعالجًا. إنّ صحّة النفس وسلامتها هي الاعتدال في طريق الإنسانية، ومرضها وسقمها هو الاعوجاج والانحراف عن طريق الإنسانية، وإنّ الأمراض النفسية أشدّ فتكًا آلاف المرات من الأمراض الجسمية. وذلك لأنّ هذه الأمراض إنّما تصل إلى غايتها بحلول الموت. فما أن يحلّ الموت، وتفارق الروح البدن، حتى تزول جميع الأمراض الجسميّة والاختلافات المادية، ولا يبقى أثر للآلام أو الأسقام في الجسد. ولكنّه إذا كان ذا أمراض روحية وأسقام نفسية - لا سمح الله - فإنّه ما إن تفارق الروح البدن، وتتوجّه إلى ملكوتها الخاصّ، حتى تظهر آلامها وأسقامها.[160]

✷ أيّها الإنسان المسكين إنّ جهنّم وأشكال عذاب العالم الملكوتيّ والقيامة هي صور أعمالك وأخلاقك أنت. فلقد ألقيت وتلقي بنفسك في مستنقع الذلّة والعذاب بيدك، وتسير إلى جهنّم برجلك، بل إنّك تصنع لنفسك جهنّمًا بعملك، فجهنّم ليست سوى باطن أعمالك القبيحة؛ وليست ظلمات وأهوال البرزخ والقبر والقيامة سوى الظّل لظلم وأخلاق بني الإنسان الفاسدة وعقائده الباطلة: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}. يقول أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه الآية الكريم: إنّها "أحكم آية في القرآن"، وظاهرها أنّنا نرى أنفسنا خيرًا أو

شراً. ويقول تعالى في الآية 30 من سورة آل عمران: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نفس ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ}.[161]

* لو تأمّل الإنسان بدقّة في أحوال الأغنياء - غالبهم لا نوادرهم - لأدرك أنّ الغنى والثروة والصحة والسلامة والأمن والرفاهية إذا اجتمعت في أي إنسان عجز - إلا ما ندر - عن حفظ قلبه من أشكال الفساد والأمراض النفسانيّة، وعن حفظ نفسه من العصيان، ولعلّ هذا هو سبب قول جابر بن عبد الله - قدس سرّه - في جوابه عن سؤال الإمام باقر العلوم - صلوات الله عليه: "الفقر أحبَ إليّ من الغنى والمرض أحب إلي من الصحة"، فهو لم يكن واثقًا من قدرته على حفظ نفسه في المقام الذي يطلبه مع إحاطتها بالغنى والصحة، فلم يكن واثقًا من عدم طغيانها بسبب ذلك، أمّا الإمام الباقر عليه السلام فمقامه فوق ما تدركه عقول البشر، لذلك فقد أظهر مقام الرضا، وعرض جذوة من المحبّة الإلهيّة بما يتناسب وأفق جابر، وبهدف تعليمه وإعانته على السلوك إلى الله، فبيّن له أنّهم عليهم السلام يحبّون كل ما يأتي من الحبيب من البلايا والأمراض أو من أضدادها، فهي سواء في سنّة العاشقين ومذهب المحبّين.[162]

* التأثير السيئ للثناء الجميل في نفوسنا الملوّثة أساس تعاساتنا والإلقاء بنا نحن ضعفاء النّفوس بعيدًا عن المحضر المقدّس للحقّ جل وعلا.[163]

* فالمؤمن مثلما أنّه يفرغ نفسه من الأثقال والفضلات الطبيعية، ويريح المدينة الطّبيعيّة من أذاها، كذلك يريح قلبه من التّعلق والاشتغال بها، ويرفع عن القلب ثقل حبّ الدنيا، ويريح ويفرغ المدينة الرّوحانيّة الفاضلة منها. ويتفكّر كيف أنّ الاشتغال في الدنيا أذلّ النّفس الشّريفة بعد عدّة ساعات، وأحوجَها إلى أقبح الحالات وأفضحها، كذلك الاشتغال القلبي بالعالَم بعدما يرتفع حجاب المُلك والطّبيعة وما هو ببعيد، يذلّ الإنسان ويبتليه بالحساب والعقاب. وليُعلم أنّ التّمسّك بالتّقوى والقناعة موجبٌ لراحة الدّارَين. وأنّ الرّاحة في هوان الدّنيا وعدميّتها،

فلذلك لا يلتذّ ولا يتمتّع بها. وكما أنّه طهّر نفسَه من النّجاسات الصّوريّة، كذلك سيطهّر نفسه من نجاسات المحرّمات والشّبهات. وإذا عرف نفسه ووجد ذلّة احتياجها، وأغلق باب الكِبْر والتّعظيم عن نفسه، وفرّ من العصيان والذّنوب، وفتح على نفسه بابَ التّواضع والنّدامة، وجدّ واجتهد في إطاعة أوامر الحقّ واجتناب معصيته حتى يكون له حسن المآب إلى الحقّ، ويتقرب إلى مقام القدس بطهارة النّفس وصفائها. وليسجن هو نفسَه في سجن الخوف والصّبر والكفّ عن الشّهوات النّفسانية، كي يأمن من سجن العذاب الإلهيّ، ويلحق بالحقّ في دار القرار وفي كنف ذاته المقدّسة، فيذوق في تلك الحال طعم رضا الحقّ تعالى.. وهذا غاية آمال أهل السّلوك، وليس لغيره أيّ قيمة.[164]

* فتجسّم الأخلاق والأعمال، وما يستتبع ذلك من ملازمتها للإنسان إلى ما بعد الموت وإلى القيامة الكبرى، ثمّ إلى ما بعدها حتى الوصول إلى التنزيه وقطع الروابط بنزول الشدائد والعذاب بمختلف أشكاله في البرزخ وفي جهنم، وعدم التمكّن من الارتباط بالشفيع، ونيل الشفاعة، كلّها أمور يؤدّي التفكير فيها إلى إثقال كاهل الإنسان، ويدفع المؤمنين نحو الجدية في الإصلاح.

ولا يمكن لأي شخص أن يدّعي أنّه يقطع بخلاف هذه الاحتمالات، إلا إذا كان شيطان نفسه قد تسلّط عليه بدرجة عالية، حتى راح يتلاعب به، ويصده عن طريق الحقّ، فيجعله مُنكرًا لا يفرّق بين الضوء والظلام، وأمثال هؤلاء من عمي القلوب كثير. حفظنا الله من شرور أنفسنا.[165]

* ويذكر أهل المعرفة أنّ هذه المؤذيات التي تُسلّط على الإنسان في قبره هي ظهور ملكوت أخلاقه الذميمة التي تضغط على الإنسان وتؤذيه في الحياة الدنيا أيضًا، لكنّه يغفل عن ملكوتها بسبب احتجاب نفسه بغلاف الطبيعة، وبسبب غلبة خدر الطبيعة وسكرها عليه، وكذلك بسبب عدم ظهور القدرة الملكوتيّة التامّة في تلك الأخلاق الذميمة، لذلك يغفل عن أنواع هذه المؤذيات الموجودة في باطن نفسه ولا يُحسّ بها.

ولكن، عندما تُبدّل نشأة الملك بملكوت عالم القبر والبرزخ، ويُطوى

بساط الظاهر، وتظهر صفحة الباطن، ويصير غيب النفس شهادة، وتظهر الملكات الباطنة للعيان والحسّ، وتتجلّى بالصّور المناسبة لها، عندها يرى الإنسان نفسه محاصرًا ومبتلًى بأنواع البليّات والمؤذيات، تحيط به أنواع الظلمات والأرجاس والمخاوف الموحشة.

وإذا أزيلت الأرجاس والكدورات النفسانيّة بهذه الشدائد والضغطات والأهوال، وأشكال العذاب البرزخيّ في القبر، وطهرت الفطرة من الأمور الأجنبيّة والغريبة عنها، فإنّ الإنسان سيحظى بالسعادة يوم القيامة، ويصل إلى المقام الكريم الموعود به في ظلّ ألطاف شفعاء يوم الجزاء عليهم السلام.

ولكن إذا لم تنقطع بذلك جذور الأخلاق الفاسدة والظلمات والأرجاس النفسانيّة بالكامل، لا سمح الله، فإنّه سيعرّض لأهوال يوم القيامة وعذابها ومواقفها الخمسين، وتنزل به شدائد أشدّ وعذاب أمضى، عسى ألّا يحتاج الأمر إلى إلقائه في عذاب جهنّم.

ولكن إذا لم يتغلّب نور الفطرة حتّى بعد المرور بهذه المواقف المهولة فإنّ أمره سيؤول إلى جهنّم إذ إنّ "آخر الدواء الكيّ"، كما قالوا؛ فيُحبس في طبقات جهنّم وتنزل به أنواع العذاب حتّى يتخلّص باطن النفس من الغلّ والغش، وتتطهّر الفطرة، ويظهر الذهب الخالص لفطرة الله؛ وبذلك تتأهّل للإقامة في دار كرامة الحقّ تعالى؛ بعد نقائها من كل غريب منها: {وَنَزَعْنا ما في صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوانًا عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ}.

وكيفية هذا النّزع لما في الصدور تختلف في الأشخاص باختلاف مراتب كمال الملكات ونقصها.[166]

✳ المؤمنون الذين يتصرّف الحقّ تعالى بظاهرهم وباطنهم، ويتولى سرّهم وعلانيّتهم، خالصون مِنْ تصرّفات الشّيطان وداخلون في سلطان الرّحمن، ويخرجهم من جميع مراتب الظلمات إلى النّور المطلق، فينتقلون من ظلمة المعصية والطغيان، ومن ظلمة كدورات الأخلاق الرّذيلة وظلمة الجهل والكفر والشّرك ورؤية النّفس وحبّ النّفس والعجب، إلى نور

الطاعة والعبادة وأنوار الأخلاق الفاضلة ونور العلم وكمال الإيمان والتّوحيد ورؤية الله وطلب الله وحبّ الله.[167]

* فإزالة أخباث الأوهام الفاسدة المانعة من القرب إلى الله ومعراج المؤمنين هي إحدى مراتب إزالة الخبث. وإنّ من معاني جامعيّة النّبوّة الخاتمة ومقاماتها، بل من أدلة الخاتمية، أنّه في جميع المقامات النّفسيّة قد أعطى جميع حقوقها وحظوظها من جميع شؤون الشّريعة.[168]

* وبالجملة لباس الشّهرة، سواء من جهة الإفراط أو التّفريط، من الأمور التي تزلزل القلوب الضّعيفة وتخلعها من مكارم الأخلاق، وتؤدي إلى العُجُب والرّياء والكِبْر؛ وكلّها من أمّهات الرذائل النّفسانية.[169]

* إنّ إبليس اللعين هو عدّو الله، وتصرّفاته وكلّ تصرّف إبليسيّ في عالَم الطّبيعة جورٌ وغصبٌ؛ فالسّالك إلى الله إنْ أخرج نفسَه من تصرّفات ذلك الخبيث، يصبح تصرّفه تصرّفًا رحمانيًّا ويباح ويطهر مكانه وملبسه ومطعمه ومنكحه. وبمقدار ما يقع تحت تصرّف إبليس، يخرج عن الحلّيّة ويكون فيه شرك الشّيطان. فإذا وقعت الأعضاء الظاهرة للإنسان في تصرّف إبليس، تصبح أعضاؤه إبليسيّةً ويكون غاصبًا لمملكة الحقّ، كما أنّ عكوف القوى الملَكوتيّة في مسجد البدن يكون مباحًا وعدلًا إذا كانت القوى من الجنود الرّحمانيّة؛ وإلّا فجنود إبليس ليس لها الحقّ بأنْ تتصرّف في مملكة البدن الإنسانيّ التي هي مُلكٌ للحقّ تعالى. فإذا قصّر يد تصرّف الشّيطان عن مملكة القلب الذي هو منزلٌ خاصٌ للحقّ تعالى، وخلّص قلبه لتجلّيات الحقّ، ولم يدع أحدًا غير الحقّ يتطرّق إليه - فإنّ غير الحقّ إبليس الطّريق - يباح له المساجد الظاهرة والباطنة والأمكنة المُلكيّة والملَكوتيّة، وتصبح صلاته صلاة أهل المعرفة. وتتّضح بهذا الميزان طهارة المسجد أيضًا.[170]

* لا يمكن العروج إلى الكمالات الروحانية ومشاهدة جمال الجميل المطلق مع وجود هذا التعلّق القلبي بغير الحقّ تعالى، ومع اتّباع شهوات البطن والفرج، بل أنّ جميع الحجب ترجع في أحد المعاني إلى الإنسان نفسه:

«أنت نفسك حجاب نفسك يا حافظ فتنحّ عن الطريق»،

بيني وبينك "إنّي" ينازعني فارفع بلطفك "إنّي" من البين.[171]

* إنّك لمّا أحسست في نفسك الحاجة، ورأيت النّاس حلًّا لعقدتك، احتجت إلى جلب القلوب، وحين ظننت نفسك متصرّفًا في القلوب بإظهار القداسة، احتجت إلى الرّياء؛ ولو كنت ترى الحقّ حلّال العقد، ونفسك غير متصرّفة في الكون، لما احتجت إلى هذه الأنواع من الشّرك. أيّها المشرك المدّعي للتوحيد، وأيّها الإبليس المتلبّس بصورة ابن آدم، لقد ورثت هذا من الشّيطان اللعين الذي يرى نفسه متصرّفًا، ويهتف لَأُغْويَنَّهُمْ. فذلك المنحوس الشّقيّ واقعٌ في حُجُبِ الشّرك ورؤية النّفس، والذين يرون العالَم وأنفسَهم مستقلّة لا مستَظلّة، ومتصرّفة لا مملوكة، فإنّهم ورثوا الشّيطنة من إبليس.[172]

* حبّ الدنيا، هو الذي يُنتج معظم أو جميع الأمراض النفسانية، ولذلك وصفته الأحاديث الشريفة بأنّه "رأس كل خطيئة"؛ فإنّ حبّ المال والجاه، وحبّ السيطرة والنفوذ، وحبّ المطعم والمنكح والملبس وأمثالها، هي جميعًا من فروع حبّ الدنيا وحبّ النفس.[173]

15

كيف نستمرّ في تفعيل قوانا النفسيّة فلا نتوقّف عند حد؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«إنّ النّفس ما دامت ملوّثة بالمحرّمات، لا تكون داخلة في الإنسانيّة، ولا سالكة طريقها، وما دامت تميل إلى المشتهيات واللذائذ النّفسيّة وتستطيب حلاوتها، لن تصل إلى أوّل مقامات الكمال الإنساني، وما دام حبّ الدّنيا والتّعلّق بها في القلب، فلا يمكن أن يصل إلى مقام المتوّسطين والزاهدين، وما دام حبّ الذات باقيًا في دخيلة ذاته. لن ينال مقام المخلصين والمحبّين، وما دامت الكثرة المُلكيّة والملكوتيّة ظاهرة في قلبه، لن ينال مقام المنجذبين، وما دامت كثرة الأسماء متجليّة في باطنه، لن يصل إلى الفناء الكليّ، وما دام القلب يلتفت إلى المقامات، لن يبلغ مقام كمال الفناء، وما دام هناك تلوين، لن يصل إلى مقام التمكين ولن تتجلّى في سرّه الذاتُ في مقام الاسم الذاتي تجليًّا أزليًّا وأبديًّا.»[174]

يذكر الإمام الخمينيقدس سره أهم مقامات ومراتب الإنسانية التي هي مراتب قوّة النفس في عروجها نحو الروح الإلهي. ويحدّد بعض خواص هذه المقامات من خلال علامات واضحة ترتبط بعلاقة النفس بما سوى الله تعالى. وما دام الإنسان غير ملتفت إلى هذه الجنبة السوائية والجهات المغايرة المتضادّة مع الذات الإلهية، فمن الصعب أن يكتشف طريق كمال الإنسانية.

ويُعلم من هذا الكلام العميق أنّ الإنسان الكامل الذي وصلت نفسه إلى غايتها هو

الــذي يكون مرضيًا عنــد الله باعتبار صيرورته أعلى مظهر لــذات الله تعالى. وقد مرّت الإشــارة إلى أنّ الشيء الوحيد المرضيّ عند اللــه هو الذي يعبّر عن أعلى مراتب الصفات وأكملهــا، لأنّ أي نقص في هــذه الصفات لا يكون من الله تعالى. فلو أراد الإنســان أن يكون مظهرًا لقدرة اللــه تعالى، فلا ينبغي أن يكــون في قدرته أي عجــز، ولو أراد أن يكون مظهرًا لعلم الله تعالى، فلا ينبغي أن يكون في علمه أي جهل، وهكذا..

ما دام الإنســان غير ملتفــت إلى هذه الجنبــة الســوائية والجهــات المغايرة المتضادّة مع الذات الإلهية، فمن الصعب أن يكتشف طريق كمال الإنسانية.

وتكمن عظمة الدراســات التوحيدية في العرفان في كشــفها عن أي نوع من النقص في الصّفات والمراتب. وها هو الإمام يتدرّج معنا من أسفل المراتب حيث يكون الإنسان معرضًا بالكامل عن صراط الإنسانية وعن لقاء الله ورضوانه، حين يكون متلبسًا بالمعصية والتمرّد على ربّه. ولهذا، لم يعتبر الإمام مثل هذه الحالة من المراتب، بل قال أنّ صاحبها لا يكون داخلًا في الإنسانية.

أمّــا نقطة الصفر في الانطلاق فهي الإقلاع عــن المعصية مع وجود توجّه إلى الملذات الجســمانية والحسية والدنيوية. فهذا الإنســان يكون عالقًا في بداية الطريق، وإذا أراد أن يحرّر نفسه لتنطلق على ذاك الصراط الذي هو صراط الربّ المتعال، فما عليه إلّا أن يتحرّر من غلبة هذه المشــتهيات على نفسه، حيث تكون في غلبتها محل توجيه القوى النفســانية وتســخيرها. وحين لا تبقى المشتهيات الحســيّة هي الدافع والمحرّك، يخطو السالك الخطوة الأولى وعليه أن يكملها بخطوات، هي:

التخلّص من حبّ الدنيا والانعتاق من عالم الاعتبار وبذلك يبلغ مقام المتوسّطين.

التخلّص من حبّ النفس والأنا وبذلك يبلغ مقام المخلصين والمحبّين.

التخلّص من التوجّه القلبي إلى الكثرة الدنيوية والملكوتية وبذلك يبلغ مقام المجذوبين.

التخلّص من التعلّق بكثرة التجلّيات الأســمائية الإلهيّة وبذلك يبلغ مقام الفناء الكليّ في ذات الله.

التخلّص من النّظر إلى التخلّص وبذلك يبلغ مقام كمال الفناء.

التخلّــص من أي تلوين حتى يبلغ مقام التمكين في البقاء بالله حيث يتجلى في سرّه الأسماء الذاتية.

شواهد إضافية

✹ اعلم أنّ للسّالك إلى الله بحسب النشآت الوجوديّة أمكنةً، ولكلٍّ منها آدابٌ خاصة...

الأوّل: النّشأة الطّبيعيّة والمرتبة الظاهريّة الدّنيويّة؛ ومكانها أرض الطّبيعة. قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا». فأدب السّالك في هذه المرتبة أنْ يفهّم قلبَه أنّ نزوله من النّشأة الغيبيّة وهبوط النّفس من المحلّ الأعلى الأرفع إلى أرض الطّبيعة السّفلى وردّه من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين إنّما هو لأجل سلوكه الاختياريّ إلى الله وعروجه إلى معراج القرب ووصوله إلى فناء الله وجناب الرّبوبيّة، الذي هو غاية الخلقة ونهاية مقصد أهل الله ـ رَحِمَ اللهُ امْرَءًا عَلِمَ مِنْ أَيْنَ وَفِي أَيْنَ وَإِلَى أَيْنَ.

المقام الثاني: مرتبة القوى الظاهرة والباطنة التي هي جنود ملكية وملكوتية للنفس ومحلّها أرض طبيعة الإنسان، وهي هذه البنية والبدن. وأدب السالك في هذا المقام أن يفهّم باطن قلبه أنّ أرض طبيعة نفسه هي مسجد الربوبية، ومحل سجدة جنود الرحمان؛ فلا ينجسها بقاذورات تصرّف إبليس ولا يجعل الجنود الإلهية تحت تصرّف إبليس كي تشرق أرض الطبيعة بنور الربّ، وتخرج من ظلمة وكدورة البعد عن الساحة الربوبية. فيرى قواه الملكية الملكوتية معتكفة في مسجد البدن، ويعامل بدنه معاملة المسجد، ويتصرّف بقواه بنظر العكوف بفناء الله. وتكليف السالك في هذا المقام أكثر، لأنّ تنظيف المسجد وطهارته أيضًا على عهدته، وعليه أيضًا أن يتكفّل بتأديب المعتكفين في هذا المسجد.

المقام الثالث: النّشأة الغيبيّة القلبيّة للسّالك، ومحلّها البدن البرزخيّ الغيبيّ للنّفس الذي يتكوّن بإنشاء النّفس وخلّاقيّتها. والأدب للسّالك في هذا المقام أنْ يذيق نفسه أنّ التّفاوت بين هذا المقام والمقامات الأخرى كثيرٌ وحفظ هذا المقام من مهمّات السّلوك، لأنّ القلب هو إمام المعتكفين في هذا الجناب، وبفساده يفسد الجميع، إذا فسد العالِم فسد العالَم. فقلبُ العالِم عالَمٌ صغيرٌ، والعالِمُ قلبُ العالَم الكبير. وتكليف

السّالك في هذا المقام أكثر من ذينك المقامين. لأنّه قد كُلّف ببناء المسجد أيضًا بنفسه. ومن الممكن لا سمح الله أنْ يكون مسجده مسجد ضرارٍ وكفرٍ وتفريقٍ بين المسلمين. ولا يجوز في هذا المسجد عبادة الحقّ، بل يجب تخريبه. فإذا أسّس السّالك المسجد المَلَكوتيّ الإلهيّ بيد التّصرّف الرّحمانيّ ويد الولاية، وطهّر بنفسه هذا المسجد من جميع القذارات والتّصرّفات الشّيطانية، واعتكف فيه، فلا بدّ له أنْ يجاهد حتّى يخرج نفسه من العكوف في المسجد ويعتكف بفِناء صاحب المسجد.

فإذا تطهّر عن التعلّق بالنّفس وخرج عن قيد الإنّيّة، يصير هو بنفسه منزلًا للحقّ، بل مسجدًا للرّبوبيّة ويثني الحقّ على نفسه في ذاك المسجد بالتّجلّيات الفعليّة ثمّ الأسمائيّة ثمّ الذّاتيّة. وهذا الثناء هو صلاة الرّبّ يقول: سبّوحٌ قدّوسٌ ربُّ الملائكة والرّوح.

وللسّالك إلى الله في جميع مقامات السّلوك مهمّة أخرى لا يجوز له الغفلة عنها مطلقًا، بل هذه المهمّة هي غاية السّلوك ولبّ لبابِه. وهي أنْ لا يغفل في جميع الحالات والمقامات عن ذكر الحقّ ويطلب في جميع المناسك والعبادات معرفة الله، ويطلب الله في جميع المظاهر، ولا تمنعه النّعمة والكرامة عن الصّحبة والخلوة فإنّه نوعٌ من الاستدراج. وبالجملة، يرى روح العبادات والمناسك وباطنها معرفة الله ويطلب فيها المحبوب، فلعلّه تستحكم في قلبه علقة المحبّة والمحبوبيّة ويكون موردًا للعنايات الخفيّة والمراودات السّرّيّة.[175]

✷ اعلم أنّ السّالك بقدم المعرفه إلى اللّه لا يصل إلى الغاية القصوى ولا يستهلك في أحدية الجمع ولا يشاهد ربّه المطلق إلّا بعد تدرّجه في السّير إلى منازل ومدارج ومراحل ومعارج من الخلق إلى الحقّ المقيّد، ويزيل القيد يسيراً يسيراً، وينتقل من نشأة إلى نشأة ومن منزل إلى منزل حتى ينتهي إلى الحقّ المطلق، كما هو المشار إليه في الكتاب الإلهي لطريقة شيخ الأنبياء عليه وعليهم الصلوة والسلام بقوله تعالى: {فَلَمّا جَنَّ عَلَيه الليلُ رَأى كَوْكَبًا قالَ هذا رَبِّي. إلى قوله: {وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذيْ فَطَرَ

السموات وَالأَرْضَ حَنيفًا مُسْلِمًا وما أنا مِنَ المُشْركِيْنْ} (الأنعام 76_79). فتدرّج من ظلمات عالم الطبيعة متدرّجًا مرتقيًا إلى عالم الربوبيّة. فطلوع ربوبيّة النفس متجلّية بصورة الزهرة.[176]

* هيّئ نفسك للحضور بقدمي الخوف والرّجاء والرّهبة والرّغبة بقلب خجلٍ وفؤادٍ وجلٍ واستشعارِ الانكسار والذّلّة والضّعف والمسكنةً، ولا ترَ لنفسك أيٍ لياقة للحضور في هذا المحضر ولا تعدّ نفسَك لائقًا للعبادة والعبوديّة. واعتبر أنّ الإذن للدّخول في العبادة والعبوديّة هو من شمول الرّحمة وعميم لطف حضرة الأحديّة جلّت قدرته؛ فإنّك إذا جعلت ذلّتك نصب عينيك، وتواضعت لذات الحقّ المقدّسة بروحك وقلبك، وعددت نفسك وعبوديّتك لا شيء، يتلطّف الحقّ تعالى ويرفعك ويخلّعك بخلع كراماته.[177]

* إنّما تكون حقيقة العرفان والشهود ونتيجة الرياضة والسلوك رفع الحجاب عن وجه الحقيقة، ورؤية ذلّ العبوديّة وأصل الفقر والتّدلي في النفس وفي جميع الموجودات.[178]

* إنّ المقام الخاصّ لكمّل أهل الله لا يتيسّر لأحد، ولكنْ للمقامات المعنويّة والمعارف الإلهيّة مدارج غير متناهية، ولها مراتب كثيرة يتيسّر للنّوع أكثر تلك المقامات والمعارف والحالات والمدارج، فيما إذا تركوا البرودة والتهاون الموجود في أنفسهم، وصدّوا يد العناد والتّعصّب من أهل الجهل والعناد عن قلوب عباد الله، ولم يكن لهم شيطانٌ على طريق سلوكهم.[179]

* اعلم أنّ الأذان حيث إنّه إعلان الحضور لقوى النّفس الظاهرة والباطنة في محضر الربوبيّة لأجل الثّناء على الذّات المقدّسة بحسب جميع الأسماء والصّفات والشؤون والآيات - لأنّ الصّلاة، كما أشير إليها، ثناءٌ جامعٌ، وموردُ هذا الثناء هو الذّات المقدّسة بحسب تجلّيها بالاسم الأعظم الذي هو مقام أحديّة جمع الأسماء في الحضرة الواحديّة، ومقام التّجلّي

بالجمع والتفريق، والظهور والبطون في حضرات الأعيان والأسماء العينيّة - فالسّالك يتوجّه في بدء الأمر إلى كبرياء الذّات المقدّسة على حسب هذا الشّأن الجامع، فيعلن عظمتها وكبرياءها أوّلًا على قوى مملكة نفسه الملَكوتيّة والملكيّة، وثانيًا على ملائكة الله الموكلة بملَكوت القوى المنتشرة في مَملكة النّفس، وثالثًا على موجودات عوالم الغيب والشّهود، ورابعًا على ملائكة الله الموكلة بملَكوت السّماوات والأرضين.

فيعلن، بحسب التكبيرات الأربعة، كبرياء الاسم الأعظم على جميع سكنة عوالم الغيب والشّهادة في المملكة الداخلية والخارجية؛ وهذا نفسه إعلان عجزه عن القيام بالثناء على الذّات المقدّسة، وقصوره عن إقامة الصّلاة؛ ويُعدّ هذا من الأمور الشاملة في السّلوك والآداب المتعلقة بالثناء والعبادة، الذي لا بدّ أنْ يكون في جميع أحوال الصّلاة نصب عين السّالك. ولهذا يُكرّر في الأذان والإقامة، ويكرّره دائمًا في الصّلاة، ويعاد عند الانتقال من حال إلى حال آخر حتى يتمكّن في قلب السّالك القصورُ الذّاتيُّ لنفسه، والعظمةُ والكبرياءُ للذات المقدّسة.[180]

✹ عن الإمام الصّادق عليه السّلام: "إِذَا اسْتَقْبَلْتَ الْقِبْلَةَ فَآيِسْ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَالْخَلْقِ وَمَا هُمْ فِيه، وَاسْتَفْرِغْ قَلْبَكَ عَنْ كُلِّ شَاغِلٍ يَشْغَلُكَ عَنِ اللَّه تَعَالَى، وَعَايِنْ بِسِرِّكَ عَظَمَةَ اللَّه تَعَالَى، وَاذْكُرْ وُقُوفَكَ بَيْنَ يَدَيْه يَوْمَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِ، وَقِفْ عَلَى قَدَمِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاء".

وهذا الحكم الشّريف حكمٌ جامعٌ لأمثالنا نحن المحجوبين الذين لا نستطيع أنْ نحافظ دائمًا على حالاتنا القلبيّة ونجمع بين الوحدة والكثرة، ونتوجّه إلى الحقّ والخلق. فحينئذ لا بدّ لنا أنْ نيأس من الدّنيا وما فيها عند التّوجّه إلى الحقّ واستقبال القِبلة، ونقطع طمعنا عن الخلق وشؤونهم، ونُخرج من روحنا وقلبنا المشاغل القلبيّة والشّواغل الرّوحيّة لِنصيرَ لائقين للحضور في الحضرة، ويتجلّى في سرِّ روحِنا جلوةٌ من جلوات العظمة. فإذا وجدنا نور العظمة بقدر استعدادنا، نتذكّر رجوعَنا إلى

الحقّ ووقوفَنا في محضره المقدّس {هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ}،[181] ويُخطّ خطّ البطلان على جميع الأهواء النّفسانيّة والمعبودات الباطلة.[182]

* فلا بدّ له(للسالك) أنْ يوصلَ الشّهادةَ بالألوهيّة إلى القلب بكامل الرياضة، ويحطّم الأصنامَ الصغيرةَ والكبيرةَ المنحوتةَ بتصرّفِ الشّيطانِ والنّفسِ الأمّارةِ في كعبة القلب ويُسقطَها، حتى يصيرَ لائقًا لحضور حضرة القدس.[183]

* لا بدّ للسالك أيضًا أنْ يخرق، بهذه الشّهادة الحجابَ الظّلمانيّ لنفسه، ويفتح أبواب السّماء لنفسه، ويجتنب هذا الحجاب العظيم وهو الاستقلال ليقترب من طريق العروج إلى معراج القرب. ولا تحصل هذه الحقيقة بلقلقة اللسان والذكر القولي؛ ولهذا، لا تتجاوزُ عباداتُنا حدَّ الصّورة والدنيا، ولا يفتح لنا الباب، ولا يرفع لنا الحجاب.[184]

* اعلم أنّه لا يمكن طيُّ هذا السّفر الرّوحانيّ، والمعراج الإيمانيّ بهذه الرِّجلِ المكسورة والعنان المرخيّ والعين العمياء والقلب الذي هو بلا نور. {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}.185 فمن المحتوم واللازمِ لسلوك هذا الطريق الرّوحانيّ وعروج هذا المعراج العرفانيّ التّمسّكُ بمقام روحانيّة هداة طرق المعرفة وأنوار سبل الهداية، الذين هم الواصلون إلى الله والعاكفون على الله. ولو أراد أحدٌ أنْ يطوي هذا الطريق بقدم أنانيّة نفسه من دون التّمسّك بولايتهم، فسلوكه إلى الشّيطان والهاوية.[186]

* إذا أعلن السّالك إلى الله، بالتكبيرات، عظمة الحقّ تعالى عن التّوصيف، وبالشّهادة بالألوهيّة، قصر التّوصيف والتّحميد، بل كل تأثير، على الحقّ، وأسقط نفسه عن لياقة القيام بالأمر، واختار الرّفيق والمصاحب بالشّهادة بالرّسالة والولاية، وتمسّك بمقام الخلافة والولاية المقدّس، كما قيل: الرّفيق ثم الطّريق، فعليه بعد ذلك أنْ يهيّئ القوى المُلكيّة

والملَكوتيّة بصريح اللهجة للصّلاة، ويعلن لها الحضور بقوله حيّ على الصّلاة، وتكراره للتّنبيه الكامل والإيقاظ التّامّ؛ أو أنّ أحدهما لقوى المَملكة الدّاخليّة، والآخر لقوى المَملكة الخارجيّة، لأنّهما أيضًا سلّاك هذا السفر مع الإنسان.

... فالوصول إلى فِناء الله، والاتّصال بالبحر الوجوبيّ غير المتناهي، وشهود جمال الأزل، والاستغراق في بحر النور المطلق، يحصل في الصّلاة. وفيها أيضًا تحصل الراحة المطلقة والاستراحة التّامّة والطّمأنينة التّامّة، ويحصل فيها ركنا السّعادة. فالصّلاة هي الفلاح المطلق، وهي خير الأعمال. وعلى السّالك أنْ يفهّم القلب هذه اللطيفة الإلهيّة، بالتكرار والتذكر التّامّ، ويوقظ بها الفطرة. فإذا وردت هذه اللطيفة في القلب، فالفطرة من حيث إنّها طالبة للكمال والسّعادة، تهتمّ بها وتحافظ عليها وتراقبها. وفي تكرارهما أيضًا النكتة التي ذكرناها. فإذا وصل السّالك إلى ذلك المقام، يعلن الحضور، فقد قامت الصّلاة. فلا بدّ أنْ يرى نفسه في حضور مالك الملوك في العوالم الوجوديّة، وسلطان السلاطين، والعظيم المطلق، ويفهّم قلبه خطر الحضور الذي يرجع كلّه إلى القصور والتقصير الإمكانيّ، ويَرِدُ المحضر بغاية الخجل من عدم القيام بالأمر، وبقدمَي الخوف والرجاء، ويفد على الكريم، ولا يرى لنفسه زادًا وراحلة، ويرى قلبه فارغًا من السّلامة، ولا يحسب عمله من الحسنات، ولا يعدّه شيئًا يذكر. فإذا استحكمت هذه الحال في القلب، فالمرجوّ أنْ يقع موردًا للعناية، أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ.[187]

* القيام إشارةٌ إلى قيام العبد بالحقّ، ومقام قيّوميّة الحقّ، وهو التّجلّي بالفيض المقدّس والتّجلّي الفعلي. وتظهر في هذا المقام فاعليّة الحقّ، وتستهلك جميع الموجودات في التّجلّي الفعليّ، وتضمحلّ تحت كبريائه الظهوري. والأدب العرفانيّ للسّالك، في هذا المقام، أنْ يتذكّر بقلبه هذه اللطيفة الإلهيّة، ويترك التّعيّنات النّفسية ما استطاع، ويذكّر القلب بحقيقة الفيض المقدس، ويوصل إلى باطن القلب، نسبة قيّوميّة الحقّ

وتقوّم الخلق بالحقّ.[188]

* قال تعالى: {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}.[189]

... فحاصل معنى الآية الشّريفة، بحسب هذا الاحتمال، هو أنّه من هاجر بالهجرة المعنويّة، وسافر بالسّفر القلبيّ العرفانيّ وخرج من بيت النّفس ومنزل الأنانيّة وهاجر إلى الله، من دون رؤية نفسه ونفسانيته وحيثيّته، فجزاؤه على الحقّ تعالى. وإذا كان السّالك في سلوكه إلى الله طالبًا لحظٍّ من الحظوظ النّفسانيّة، ولو كان الوصول إلى المقامات، بل ولو كان الوصول إلى قرب الحقّ بمعنى وصول نفسه إلى الحقّ، فليس هذا السّلوك سلوكًا إلى الحقّ، بل السّالك لم يخرج بعد من البيت، بل هو مسافرٌ في جوف البيت، من ركنٍ إلى ركنٍ، ومن زاويةٍ إلى زاويةٍ. فالسّفر، إذا كان في مراتب النّفس وللوصول إلى الكمالات النّفسانيّة، ليس بسفرٍ إلى الله، بل هو سفرٌ من النّفس إلى النّفس. ولكن لا بدّ للسّالك من هذا السّفر في سفره إلى الله، ولا يقدر أحدٌ أنْ يسافر السّفر الرّبّانيّ، من دون السّفر النّفساني، غير الكمّل من أولياء الله. وهذا الشّأن للكمّل فقط؛ ولعلّ الآية الشّريفة: {سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}،[190] تشير إلى هذه السّلامة من التّصرّفات الشّيطانية والنّفسانية في جميع مراتب السّير، في الليالي المظلمة الطبيعيّة التي هي ليلة القدر للكمّل، حتّى طلوع فجر يوم القيامة، الّذي هو، للكمّل، رؤية جمال الأحديّة. وأمّا غيرهم فليسوا سالمين في جميع مراتب السّير. بل في أوائل الأمر، لا يخرج أيّ سالك من التّصرّفات الشّيطانية.[191]

* أنت، إذا أخلصت الصّورة المُلكيّة الإنسانيّة لله، وجعلت الجيوش الظاهرة الدّنيويّة للنّفس - التي هي عبارة عن قوى مُلك البدن المتعددة - في ملاذ الحقّ، وطهّرت الأقاليم السّبعة الأرضيّة - أي البصر والسّمع واللسان والبطن والفرج واليد والرّجل - من قذارات المعاصي، وجعلتها تحت تصرّف ملائكة الله التي هي جنود إلهيّة، فتصير هذه الأقاليم

بالتّدريج حقّانية، وتتصرّف بتصرّف الحقّ حتّى يصبح هو نفسه أيضًا من ملائكة الله، أو مثل ملائكة الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. فتحصل المرتبة الأولى من الاستعاذة، ويرحل الشّيطان وجنوده عن المملكة، ويتوجّهون إلى الباطن، ويهجمون على القوى الملَكوتيّة النّفسانيّة. فمن هذه الجهة، يصير عمل السّالك أصعب وسلوكه أدقّ. ولا بدّ له أنْ يجعل قدمَ سيره أقوى ومراقبته أكمل، ويستعيذ بالله المتعال من المهالك النّفسانية، من العُجْب والرّياء والكِبْر والخيلاء وغيرها، ويقوم بتصفية الباطن تدريجيًّا من الكدورات المعنويّة والقذارات الباطنيّة.[192]

* ما دام السالك في بيت النّفس وحجاب الطّبيعة، تكون غاية سيره حصول الكمالات النّفسانية والسّعادات الطبيعية الخسيسة، وهذا في مبادئ السّلوك. فإذا خرج من بيت النّفس وذاق شيئًا من المقامات الرّوحانيّة والكمالات التّجرّديّة، يصير مقصده أعلى ومقصوده أكمل؛ فيلقي المقامات النّفسانية وراء ظهره، وتكون قبلة مقصوده حصول الكمالات القلبيّة والسّعادات الباطنيّة. فإذا أفلت عنان السّير في هذا المقام ووصل إلى منزل السّر الرّوحيّ، تبرز في باطنه مبادئ التّجلّيات الإلهيّة، ويكون لسان باطنه في بادئ الأمر: وجّهت وجهي لوجه الله، ثمّ بعد ذلك وجّهت وجهي لأسماء الله أو لله، ثم بعد ذلك وجّهت وجهي له. ولعلّ الجهة في وجّهت وَجْهِي لِلَّذي فَطَرَ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ راجعة إلى المقام الأوّل، بمناسبة الفاطريّة.[193]

* إذا تطهّر السالك من القذارات الشّيطانيّة، يتجلّى في مرآته من تلك الأنوار الإلهيّة بحسب ما يتناسب بمقدار تطهير الباطن والظاهر. وفي أوّل الأمر تكون الأنوار مشوبة بالظلمات، بل تكون الظلمة غالبة: خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيّئًا. وبالتّدريج، كلّما قوي السّلوك، يغلب النّور على الظلمة، وتظهر سمات الرّبوبيّة في السّالك، فتصير تسميتُه تسميةً حقيقيّةً إلى حدٍّ ما. وشيئًا فشيئًا، ترتحل العلامات الشّيطانية بالتّدريج؛ وهي في الظاهر عبارة عن مخالفة نظام المدينة الفاضلة، وفي الباطن

هي العُجْبُ والاستكبار وأمثالها، وفي باطن الباطن رؤية النّفس وحبّها وأمثالها. وهكذا ترتحل العلامات الشيطانية عن مملكة باطن السّالك وظاهره، وتحلّ محلّها سمات الله؛ وهي في الظاهر حفظ نظام المدينة الفاضلة، وفي الباطن العبوديّة وذلّة النّفس، وفي باطن الباطن حبّ الله ورؤية الله. فإذا صارت المملكة إلهية، وخلت من شياطين الجنّ والإنس، وظهرت فيها السّمات الإلهيّة، يتحقّق السّالك بمقام الاسميّة.[194]

* بما أنّ الصّلاة معراجٌ كماليٌّ للمؤمن ومقرّبٌ لأهل التّقوى، فهي متقوّمة بأمرين، أحدُهما مقدّمة للآخر:

الأوّل: ترك رؤية النّفس وإرادتها، الذي هو باطن التّقوى.

الثّاني: إرادة الله وطلب الحقّ، وهو حقيقة المعراج والقرب؛ ولهذا ورد في الرّوايات الشّريفة: «الصَّلَاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ»، كما أنّ القرآن، أيضًا نورُ الهداية، ولكن للمتّقين: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}.[195]

وبالجملة، هذان المقامان يحصلان في هذه المقامات الثّلاثة بالتّدريج: ففي حال القيام تركٌ لرؤية النّفس بحسب مقام الفاعليّة، ورؤيةُ فاعلية الحقّ وقيّومية الحقّ المطلق، وفي الرّكوع تركٌ لرؤية النّفس بحسب مقام الصّفات والأسماء، ورؤيةُ مقام أسماء الحقّ وصفاته، وفي السّجود ترك لرؤية النّفس مطلقًا، وحبّ الله وطلبه مطلقًا. وجميع منازل السّالكين من شؤون هذه المقامات الثلاثة، كما هو واضح لأصحاب البصيرة ولأهل العرفان والسّلوك.[196]

* نؤدي الصلاة عمرًا كاملًا ـ الصلاة التي هي أكبر تذكرة لله - مولّين ظهورنا للحقّ وبيته جلّ وعلا ومستقبلين أنفسنا وبيت النفس. وأي شيء أكثر إيلامًا من أن تؤدّي بنا الصلاة التي يجب أن تكون معراجًا لنا والتي يجب أن تنقلنا إليه وإلى جنّة لقائه، إلى أنفسنا وإلى المنفى الجهنّمي.[197]

* اعلم أنّ في السّجود، كسائر الأوضاع الصّلاتيّة، هيئةً وحالةً وذكرًا وسرًّا. وهذه الأمور بالنسبة للكمّل هي على نحوٍ ذكرناه في هذه الرّسالة إشارةً؛

وأمّا بيانها تفصيلًا فغير مناسب. وأمّا للمتوسّطين، فهيئتُه إراءةُ المَترَبةِ وتركُ الاستكبار والعُجْب وإرغامُ الأنف، وهو من المستحبّات المؤكّدة، بل تركُه خلاف الاحتياط إظهارًا لكمال التّخضّع والتّذلّل والتّواضع. وهو أيضًا عبارة عن التّوجّه إلى أصله والتّذكّر لنشأته. أما وضعُ رؤوس الأعضاء الظاهرة - التي هي محال الإدراك وظهور التّحريك والقدرة، وهي الأعضاء السّبعة أو الثّمانية - على أرض الذّلّة والمسكنة علامة التّسليم التّامّ، وتقديم جميع قواه، والخروج من الخطيئة الآدمية.

فإذا قوي تذكّر هذه المعاني في القلب، ينفعل القلب بها تدريجًا، وتحصل له حالة الفرار من النّفس وترك رؤية النّفس. ونتيجةُ هذه الحالة حصولُ حالة الأنس، وتعقبُها الخلوة التّامّة وانبعاث المحبّة الكلّيّة. [198]

✷ أمّا ذكر السّجدة فمتقوّم بالتّسبيح، وهو التّنزيه عن التّوصيف وعن القيام بالأمر، أو التّنزيه عن التّكثير الأسمائيّ، أو التّنزيه عن التّوحيد، لأنّ التّوحيد تفعيل، وهو الذّهاب من الكثرة إلى الوحدة؛ وهذا لا يخلو من شائبة التّكثير والتّشريك، كما أنّ التّوصيف بالعلوّ الذّاتي، والتحميد أيضًا، لا يخلو من شائبة هذه المعاني. والعليّ من الأسماء الذّاتيّة، وبحسب رواية الكافي، هو أوّل اسم اتّخذه الله لنفسه، أي هو أوّل تجلٍّ للذّات. والعبد السّالك إذا فَنِيَ عَن نفسه في هذا المقام، وترك العالَم وما فيه، ينال فخر هذا التّجلّي الذّاتي. [199]

✷ سجدة الغشي والصّعق، كما في حديث المعراج، هي نتيجة مشاهدة أنوار عظمة الحقّ. فإذا صار العبد مغشيًّا عن نفسه، وحصلت له حالة المحو والصّعق، فتشمله العناية الأزليّة، ويلهم بالإلهام الغيبيّ. وذكر السّجود وتكراره هو لحصول حالة الصّحو والإفاقة. فإذا أفاق تشتعلُ في قلبه نارُ الشّوق لمشاهدة نور الحقّ، ويرفع الرّأس عن السّجدة. فإذا رأى في نفسه بقايا من الأنانيّة، فيشير باليد إلى رفضها، فيتجلّى له نور العظمة ثانيًا، ويحرق بقيّة الأنانيّة، ويفنى من الفناء، وتحصل له حالة المحو الكلّيّ المطلق، والصّعق التّامّ الحقيقيّ، وهو

يكبّر. فالمساعدة الغيبيّة بإلهام الأذكار، تمكّنه في المقام، وتعرض له حالة الصّحو في هذا المقام، وهو صحو مقام الولاية المنزّه عن كل احتجاب وشائبة خَلقيّة، وتحصل حالة التّشهّد والسّلام، وهما من أحكام الكثرة. وعند الوصول إلى هنا تتمّ دائرة السّير الإنسانيّ وتكتمل.[200]

* التشهّد ثناء على الحقّ جل وعلا، بل قد أشرنا سابقًا، أيضًا، أنّ مطلق العبادات ثناء على الحقّ، إمّا باسم أو بأسماء أو بتجلٍ من التّجلّيات، وإمّا بأصل الهويّة. ويشير، عليه السّلام، إلى عمدة الآداب، وهي أنّه كما أنّك تعبد الله في الظاهر، وتدّعي العبوديّة، فاعبده في السّر أيضًا، حتّى تسري العبوديّة السّرّيّة القلبيّة إلى الأعمال الجوارحيّة أيضًا، ويكون العمل والقول نقشًا على الباطن والسّرّ، وتسري حقيقة العبوديّة إلى جميع أجزاء الوجود الظاهريّ منها والباطنيّ، ويحظى كلٌ من الأعضاء بحظ من التّوحيد، ويوصل اللسان الذّاكرُ الذّكرَ إلى القلب، وينقل القلبُ الموحّدُ المخلصُ التّوحيدَ والإخلاصَ إلى اللسانِ، ويطلب العبدُ الرّبوبيّة من حقيقة العبوديّة، ويخرج من عبادة النّفس، ويوصل ألوهيّة الحقّ إلى القلب[201].

* يقول، عليه السّلام: معنى السّلام عقيب الصّلاة هو الأمان، بمعنى أنّ مَن أدّى الأوامر الإلهيّة والسّنن النّبويّة بالخشوع القلبيّ، فيأمن من بلاء الدّنيا وعذاب الآخرة، أي يأمن من التّصرّفات الشّيطانيّة في الدنيا، لأنّ أداء الأوامر الإلهيّة، بالخشوع القلبيّ، موجبٌ لقطع تصرّف الشّيطان: إنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ.. ثمّ يشير، عليه السّلام، إلى سرٍّ من أسرار السّلام، ويقول: السَّلاَمُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى أَوْدَعَهُ المَوْجُودَاتِ، وهذه إشارة إلى مظهريّة الموجودات للأسماء الإلهيّة، ولا بدّ للعبد السّالك أنْ يظهر هذه اللطيفة الإلهيّة، التي أودعت واختفت في باطن ذاته وخميرته، ويستعملها في جميع المعاملات والمعاشرات والأمانات والارتباطات، ويشير بها إلى مَملكة باطنه وظاهره، ويستعملها في المعاملات مع الحقّ ودين الحقّ تعالى، لئلّا يخون الوديعة الإلهيّة،

فتسري حقيقة السّلام إلى جميع قواه المُلكيّة والملَكوتيّة، وفي جميع عاداته وعقائده وأخلاقه وأعماله، لتَسْلَم نفسُه من جميع التّصرّفات. وعرّف، عليه السّلام، التّقوى كطريق لتحصيل هذه السّلامة.[202]

* أيا روحي.. حيث إنّك الآن بعدتَ عن وطنك وهجرتَ مجاورة الأحرار، وابتليتَ بهذه الدّار المظلمة المليئة بالتّعب والمحن، فلا تنسج حول نفسك كما يفعل دود القزّ.[203]

* فاعلم أنّ إزالة الحدث كما مرّ، هي في الخروج من الإنّيّة والأنانيّة والفناء عن النّفسية؛ بل هي الخروج من بيت النّفس مطلقًا. وما دام في العبد بقايا من نفسه فهو محدثٌ بالحدث الأكبر والعابد والمعبود فيه هو الشّيطان والنّفس. وإنّ منازل سير أهل الطّريقة والسّلوك إذا كانت لأجل الوصول إلى المقامات وحصول المعارج والمدارج فلا تخرج عن تصرّف النّفس والشّيطان، فيكون السّير والسّلوك عليلًا. ويدور هذا السّلوك في منازل النّفس، ويكون السّير في جوف البيت. ومثل هذا السّالك ليس بمسافرٍ ولا سالك، وليس مهاجرًا إلى الله ورسوله، وما طهر من الحدث الأكبر الذي هو عين العبد. فإذا تطهّر من هذا الحدث تمامًا، يكون العابد والمعبود هو الحقّ تعالى وتحصل نتيجة قرب النّوافل أي: كنت سمعه وبصره.. ومن هذه الجهة يلزم غسل البدن كلّه عند الطّهارة من الحدث الأكبر، لأنّه مادامت عين العبد باقيةً بوجه من الوجوه، لم يرتفع الحدث. فإنّ تحت كلّ شعرةٍ جنابةً.. فالتّطهير من الحدث هو التّطهير من الحدوث والفناء في بحر القدم. وكماله الخروج من الكثرة الأسمائيّة التي هي باطن الشّجرة. ويخرج بهذا الخروج من خطيئة آدم السّارية، وقد كان أصل الذّرّيّة.[204]

* فعلى السّالك إلى الله أنْ يبدّل أوصافه وأخلاقه السيّئة إلى الأوصاف الكاملة، ويفنى في بحر الأوصاف الكماليّة للحقّ، هذا البحر المتلاطم غير المتناهي، ويبدّل الأرض المظلمة الشّيطانية بأرضٍ بيضاءَ مشرقـةٍ، ويجد

في نفسه {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا}،[205] ويحقّق في مملكة وجوده مقام أسماء الجمال والجلال للذات المقدّسة، فيقع في هذا المقام في ستر الجمال والجلال، ويتخلّق بأخلاق الله، ويستر قبائح التّعيّنات النّفسية والظلمات الوهميّة بشكل كامل. فإذا تحقّق هذا المقام يقع موردًا للعنايات الخاصّة للحقّ جلّ جلاله ويؤيّده الحقّ بلطفه الخفيّ الخاص ويستره تحت حجاب كبريائه على نحو لا يعرفه غيره وهو أيضًا لا يعرف غير الحقّ «إِنَّ أَوْلِيَائِي تَحْتَ قِبَابِي لَا يَعْرِفُهُمْ غَيْرِي»؛ وفي الكتاب الإلهيّ المقدّس إشاراتٌ كثيرةٌ في هذا الموضوع لأهلها كما في قوله تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}.[206] إنّ أهل المعرفة وأصحاب السّابقة الحسنى يعلمون أنّ جميع التّعيّنات الخَلقيّة والكثرات العينيّة ظلماتٌ، والنّور المطلق لا يحصل إلا بإسقاط الإضافات وكسر التّعيّنات التي هي أصنام طريق السّالك. فإذا اضمحلّت ظلمات الكثرات الفعليّة والوصفيّة وانطمست في عين الجمع، تصبح جميع العورات مستورةً، ويتحقّق الحضور المطلق والوصول التّامّ.[207]

* حيث إنّ العبد في بدء السّلوك إلى الله محجوبٌ في الحجب الظّلمانيّة لعالَم الطّبع، والحجب النّورانيّة لعالَم الغيب، ومحبوسٌ فيها، والسّفر إلى الله هو الخروج من هذه الحجب بقدم السّلوك المعنوي، وفي الحقيقة المهاجرة إلى الله هي الرّجوع من بيت النّفس وبيت الخلق إلى الله، وترك الكثرات، ورفض غبار الغيريّة، وحصول التّوحيدات، والغيبة عن الخلق، والحضور لدى الرّبّ، فإذا رأى في الآية الشّريفة {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} الكثرات منطوية تحت سطوع نور المالكيّة والقاهريّة، فتحصلَ له حالة المحو عن الكثرة، ويحصل له الحضور في الحضرة، ويقدّم العبوديّة بالمخاطبة الحضوريّة ومشاهدة الجمال والجلال، ويعرض مشاهداته لله، وطلبه على محضر القدس ومحفل الأنس.[208]

* فاعلم أيّها العزيز.. حيث إنّ في باطن ليلة القدر الحقيقيّة - أي في البُنيَة والصّورة المُلكيّة، أو في العين الثّابتة المحمّديّة - جلوةَ الاسم الأعظم والتّجلّي

الأحديّ الجمعيّ الإلهيّ، فلهذه الجهة، ما دام العبد السّالك إلى الله - يعني الرّسول الخاتم صلى الله عليه وآله - في حجاب نفسه، فإنّه لا يتمكّن من مشاهدة ذلك الباطن وتلك الحقيقة، كما ورد في القرآن الشّريف في حقّ موسى بن عمران على نبيّنا وآله وعليه السّلام: لَنْ تَرَانِي.. مع أنّ التّجلّي الذّاتي أو الصّفاتي قد حصل له عليه السّلام بدليل: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا}،[209] وبدليل فقرات دعاء السّمات الشّريف العظيم الشّأن، كما هو واضح جدًّا. والنّكتة في هذا أيضًا أنّه: يَا مُوسَى ما دمت في الحجاب الموسويّ والاحتجاب الذّاتيّ، لا يمكنك المشاهدة، لأنّ مشاهدة جمال الجميل لِمَن خرج عن نفسه. فإذا خرج عن نفسه، فيرى بعين الحقّ؛ وعين الحقّ ترى الحقّ لا محالة. فجلوة الاسم الأعظم - التي هي الصّورة الكماليّة لليلة القدر - لا تُرى مع الاحتجاب بالنّفس، فهذا التّعبير، بناءً على هذا التحقيق، يكون صحيحًا وفي مورده.[210]

* خوف الخاصة، وهو الخوف من العتاب فأصحابه يخافون الابتعاد عن ساحة المولى القدسية فيُعاتبون على ذلك ويُحرمون اللطف الإلهي بسببه. لقد تنزّه هؤلاء عن اللذات الحيوانية والشهوات الطبيعية، لكنّ أرواحهم ما تزال تتطلّع إلى اللذات المعنوية، فهم يطلبون قرب المنزلة والمقام، وما دام هذا الطلب من أجل أنفسهم، فهو لا يخلص من دين الله الذي ينبغي أن يكون خالصًا من الشوائب: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصِ﴾.[211]

16

لماذا تتصارع النفوس وتتصادم؟ وكيف يؤثّر ذلك على قوانا؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«إنّ كلّ الخلافـات الموجـودة في البشر هـي لأنّ النفوس لم تُزكّ. فغاية البعثة هي تزكية الناس، فبواسـطة التزكية يتعلمون الحكمة ويتعلّمون القـرآن والكتاب أيضًا، وإذا تزكّـت النفوس فلن يحدث الطغيان. فالشّخص الذي زكّى نفسه، لا يعتبر نفسه مستغنيًا أبدًا {إنّ الإنسـان ليطغى * أن رآه اسـتغنى}، حين يرى نفسه ويعتبر لنفسه مقامًـا ويقول بعظمة نفسـه، فإنّ هذه الرؤية لنفسـه هي سـبب الطغيان».[212]

إنّنـا أمام تحدٍّ كبـير يكمن في صناعة الرأي العام الذي يعرف طبيعة المشـاكل التي تواجه المجتمعات البشرية والكرة الأرضية. فما أكثر ما تصرف وسـائل الإعلام الناس عن المشـاكل الجوهريّة التي تهدّد بقاءهم في هذا العالم وتتسبّب لهم بالكثير من المعاناة. وتحفل الأدبيات الفنية والسـينمائية بكل أنواع الحلول والـرؤى المنقذة، ونادرًا ما يتم الإشارة إلى أصل جميع المشاكل، فلا تنجح الحلول في إقناعنا بالتحرك وبتحمّل المسؤولية.

نقف اليوم على أعتاب مرحلة جديدة يتزايد فيها الوعي الجماهيريّ تجاه القضايا الحقيقية والمصيرية على مستوى العالم حيث تترابط مصائر الشعوب والمجتمعات وتتداخل المؤثّرات، وما نحن بحاجة إليه هو إنتاج الوعي العميق بأصل المشكلة ليتبيّن الحل.

حين نقرأ تاريخ الإسلام ونشـاهد العديد من المسلسلات التلفزيونية التي تستعرض

أحداثــه ووقائعه، من الصّعب أن نضع أيدينا على العامل الجوهريّ الذي تســبّب بكل ما جــرى من فظائع وكوارث نزلت بالمســلمين جرّاء إعراضهم عــن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام! فما هو الشيء الذي تسبّب بكل تلك المعاناة لأمير المؤمنين عليه الســلام حتى قال أنّه صبر وفي العين قذى وفي الحلق شــجى؟ وما هو الأمر الذي أوصل جماعات المسلمين إلى أن يقتلوا حفيد النبيّ الأكرم وســبطه ويسبوا حرم رسول الله ﷺ بتلك الطريقة الفجيعة؟ ولماذا بقيت هذه المأســاة واســتمرّت تلك المعاناة إلى يومنا هذا؟ وما هو سبب كلّ المشاكل التي نعاني منها في تجاربنا العملية ومؤسّســاتنا؟ هل هو نقــص الإمكانات والمــوارد الذي يحكي عنه الكثيرون؟ أم هو شيءٌ آخر؟

> **الخلافــات منبتهــا حــبّ النفــس، والإنسان الذي يظن أنّه يخالف الآخر لأجل الله، عليه أن يجلس مع نفســه ويفتّــش بصدق ليرى مــن أين ينبع هذا الخلاف وليسيء الظنّ بنفسه ولا يحسن الظنّ بها. فإنّ الجذر هو هذا الجذر الشيطانيّ المتمثّل بحبّ النفس.**
>
> الإمام الخميني

وهنا يأتي الإمام قدّس سرّه وفي تصريحٍ واضــحٍ ينطلــق من فهم عمــق القضية والتاريــخ، ويؤكّد على أنّ أصل وســبب جميع المشــاكل هو عدم تزكية النفوس. وإنّما حصل ذلك في التجربة الإســلامية لأنّ المســلمين أعرضوا عن الدور الأســاسيّ الذي بُعث من أجله رســول ربّ العالمين والذي يُعدّ مقدّمة ضروريّــة للعلم والحكمة. ألا وهو التزكية. لهذا يجب أن تنطلق الأقلام والأعمال الفنّيّة لنــشر هذه الثقافة التي تســلّط الضوء على أهمية النفس وقيمتهــا ودورها في صناعة المستقبل وتقرير المصير.

شواهد إضافية

✵ إنّ التوجّـه إلى "الأنـا" والإقبال على الأنانيّة وفروعهـا - ومنها النّظر إلى العمل - هي من الأخطاء الجهليّة للفطرة المحجوبة التي تتميّز بالعجب وحبّ النفس واتّباع هواها.[213]

✵ ففي الكافي عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: «رَأْسُ كُلِّ خَطِيْئَةٍ حُبُّ الدُّنْيَا»... فبقليل من التّأمّل يُعلم أنّ جميع المفاسد الخُلقيّة والعمليّة تقريبًا من ثمرات هذه الشّجرة الخبيثة. فما أسّس في العالَم دِينٌ كاذبٌ ولا مذهبٌ باطلٌ، وما حدث في هذه الدّنيا من فساد إلّا بواسطة هذه الموبقة العظيمة. وإنّ القتل والنّهب والظلم والتّعدّي هي نتائج هذه الخطيئة. وإنّ الفجور والفحشاء والسّرقة وسائر الفجائع وليدة جرثومة الفساد هذه. والإنسان الذي فيه هذا الحبّ مجانبٌ لجميع الفضائل المعنويّة، وإنّ الشّجاعة والعفّة والسّخاء والعدالة التي هي مبدأ جميع الفضائل النّفسانيّة لا تجتمع مع حبّ الدّنيا. وإنّ المعارف الإلهيّة والتّوحيد في الأسماء والصّفات والأفعال والذّات وطلب الحقّ ورؤية الحقّ متضادة مع حبّ الدّنيا؛ وإنّ طمأنينة النّفس وسكون الخاطر واستراحة القلب التي هي روح السّعادة في العالَمين لا تجتمع مع حبّ الدّنيا؛ وإنّ غنى القلب والكرامة وعزّة النّفس والحرّيّة كلّها من لوازم عدم الاعتناء بالدّنيا؛ كما أنّ الفقرَ والذّلّة والطمع والحرص والاستعباد والتّملّق من لوازم حبّ الدّنيا. وإنّ العطف والرّحمة والتّواصل والمودّة والمحبّة متعارضة مع حبّ الدّنيا؛ وإنّ البُغض والحقد والجَور وقطع الرّحم والنّفاق وسائر الأخلاق الفاسدة وليدة أمّ الأمراض هذه.[214]

✵ لو اجتمع الأنبياء كلّهم في مكانٍ واحد، لما تنازعوا فيما بينهم قط. إن فرضتم أنّ جميع الأولياء والأنبياء جاءوا إلى الدنيا، فإنهم لن يتنازعوا أبدًا. لأنّ النزاع منشؤه حبّ الذات. وهذه الظاهرة تبدأ من النفس، وهم قضوا على هذه النفس، إذ جاهدوها وجميعهم يتوق لله، ومن يريد الله لا يتنازع. منشأ جميع النزاعات والخلافات هو أن هذا يريد شيئًا لنفسه، والآخر يريد شيئًا آخر لنفسه، وهذان الشيئان يشكّلان تزاحمًا

بينهما. هذا يريد أن تكون السلطة لنفسه، وذلك أيضًا يريد أن تكون له. فيتزاحمان، وتنشأ الحرب. ولو تخلّق الناس بأخلاق الأنبياء، التي نزلت جميع الكتب السماوية لتربية الإنسان وتوطينه على هذا الخلق، لما ظهر خلاف، ولحلّ ما ظهر منه، وعاد الجميع أخوة. كما وصف القرآن الكريم الجميع بالأخوّة، {إنّما المؤمنون إخوة}.[215]

* إنّ أول آية نزلت على الرسول الأكرم ﷺ بحسب الروايات والتواريخ كما ورد هي آية: {اقرأ باسم ربك} فهذه الآية هي أوّل آية وبناءً على ما نُقل قرأها جبرائيل على الرسول الأكرم ﷺ وقد دُعي فيها منذ البداية إلى القراءة والتعلّم {اقرأ باسم ربّك الذي خلق} وفي نفس هذه السورة {كلا إن الإنسان ليطغى* أن رآه استغنى}. فهذه السورة هي أوّل ما نزل من الوحي وفي أوّل نزول للوحي وردت هذه الآية في هذه السورة، {كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى}. فيُعلم من ذلك أنّ وجود الطغيان والطاغوت من الأمور التي هي على رأس الأمور ومن أجل سحق الطاغوت يجب تعليم الكتاب والحكمة وتعلم الكتاب والحكمة والتزكية. فالإنسان هو بهذا الشكل، والوضع الروحي لكلّ الناس هو بهذا الشكل، فبمجرّد أن يستغني أحد ما يطغى. فلو استغنى ماليًّا يطغى بهذا المقدار، ولو استغنى علميًّا يطغى بهذا المقدار، ولو حصل على مقام يطغى بهذا المقدار. ففرعون الذي يسمّيه الله تبارك وتعالى طاغية لأنّه حصل على المقام ولم يكن فيه غاية إلهية جرّه هذا المقام إلى الطغيان. الأشخاص الذين يحصلون على أشياء مرتبطة بالدنيا بدون تزكية النفس، ومهما حصلوا فإنّ طغيانهم سوف يزداد وإنّ وبال هذا المال وهذا المنال وهذا المقام وهذا الجاه وهذا المنصب من الأشياء التي تؤدّي إلى تعرّض الإنسان للمتاعب والصعوبات في الدنيا وهي في الآخرة أكثر. فإنّ غاية البعثة هي أن تخلّصنا من هذا الطغيان وأن نزكّي أنفسنا، ونصفّي نفوسنا ونخلّصها من هذه الظّلمات. فلو حصل هذا التوفيق للجميع، ستصبح الدنيا نورًا واحدًا كنور القرآن وتجليًّا لنور الحقّ. فكل الخلافات الموجودة

بين البشر، الخلافات الموجودة بين السلاطين، الخلافات الموجودة بين الأقوياء، هي بسبب الطغيان الموجود في النفس. ومردّ هذا إلى أنّ الإنسان رأى نفسه في منصبٍ ما فطغى، ولأنّه لم يقتنع بذلك المنصب، فكان هذا الطغيان سبب تجاوزه، وحين يتجاوز يحصل الخلاف ولن يختلف هذا في مرتبة الطغيان الصغيرة إلى تلك المرتبة العالية منه. من المرتبة الصغيرة حيث يحصل الخلاف في قرية ما بين الأفراد بسبب الطغيان، إلى المرتبة الأعلى، وكلما علا كان الطغيان أكثر. ففرعون الذي طغى قال {أنا ربكم الأعلى}، هذه الغاية موجودة في الجميع لا في فرعون وحده. فلو وضعوا الإنسان فوق رؤوسهم فسوف يقول: {أنا ربكم الأعلى}. فغاية البعثة هي السيطرة على نفوس العُصاة ونفوس الطغاة ونفوس المتمرّدين من العصيان والطغيان والتمرّد ودفعها إلى التزكية.[216]

* الخلافات منبتها حبّ النفس، والإنسان الذي يظن أنّه يخالف الآخر لأجل الله، عليه أن يجلس مع نفسه ويفتّش بصدق ليرى من أين ينبع هذا الخلاف وليسيء الظنّ بنفسه ولا يحسن الظنّ بها. فإنّ الجذر هو هذا الجذر الشيطانيّ المتمثّل بحبّ النفس.[217]

* اعلموا أنّ الأنبياء عليهم السلام لو اجتمعوا في عصرٍ واحد لما اختلفوا أبدًا. تنشأ جميع الخلافات من هوى النفس. حين يريدُ المرء القيام بعملٍ ما، ويظن أنّ صديقه سوف يسبقه إليه، والآخر يحمل نفس هذه الفكرة فيقع الخلاف.[218]

* إنّ كل الاختلافات والنزاعات مصدرها هوى النفس. وأينما شاهدتم خلافًا نشب بينكم فاعلموا يقينًا أنّه نابع من هوى النفس. وبالطبع، إنّ الخلافات بين الأنبياء ومعارضيهم وبين الإسلام والكفر، كانت موجودة دومًا لكن ذلك الاختلاف كان ناجمًا عن العبودية. عليكم معالجة وإزالة كل الخلافات النابعة من حبّ النفس وأطمئنكم بأنّه إذا لم تكن أعمالكم مستلهمة من التوحيد وابتعدتم عن الوحدة الإسلامية، فإنكم ستخذلون وتهزمون.[219]

* إنّ حبّ النفس هو أساس المشكلات وجميع أنواع الفساد والظلم والحروب والاعتداءات التي يتعرّض لها الإنسان منذ آدم صفيّ الله وحتى اليوم ومن اليوم وحتى القيامة، لأن حبّ النفس يجرّ الإنسان إلى الضلال، وقد أرسل الأنبياء لإصلاح ذلك، ولكنّهم لم ينجحوا بالشكل المطلوب ولا أعتقد أنّ أحدًا يستطيع تحقيق ذلك. ومن فروع حبّ النفس حبّ الرئاسة والجاه والمنصب، وكان ذلك يدفع أصحاب السلطة المتجبّرين إلى ظلم الناس. وإنّ حبّ السلطة والمنصب والرئاسة هو أساس ما يجري على بلاد المسلمين والدول المظلومة. وإنّ حبّ السلطة هو الذي يدفع أيضًا الاتّحاد السوفييتي إلى أن يتعامل بهذا الأسلوب مع شعوب العالم والمظلومين، وإنّ حبّ النفس هو الذي يدفع زعماء الدول الإسلامية إلى السكوت أمام الجرائم التي يرتكبها السلطويّون والقوى العظمى. ولولا حبّ النفس والجاه والمنصب لما جلسوا متفرّجين على ما يجري على إيران ولبنان ولكنّهم يخشون هذه القوى الوهمية التي لا قيمة لها وخضعوا أمام أميركا، والأسوأ من ذلك أنّهم خضعوا لإسرائيل ويريدون الاعتراف بها وتقوية معاهدة كمب ديفيد. ولولا حبّ الرئاسة والسلطة يستطيع كلّ إنسان أن يدرك بأنّ إسرائيل بتعاملها هذا مع البلدان الإسلامية وهذه الإهانة الكبيرة الموجّهة للمجتمع قد تركت وصمة عار على جبين جميع هذه البلدان ممّا لا يمكن إزالته ما لم ينتبهوا ويوجدوا التحوّل في أنفسهم.[220]

* تنشأ جميع الحروب والنزاعات في هذا العالم، سواء ما وقع منها في نفس العائلة أم الواقع في العالم بأسره، والذي يمثل عائلة أيضًا، تنشأ من طغيان وتمرّد النفس.[221]

* لا تمت بعض النزاعات للإسلام ولله بصلة تذكر، فلا يرضى الله بإهانة المؤمن وإراقة ماء وجهه، وإن حصل ذلك فلإرضاء النفس البشرية.[222]

* أعرضوا أيّها السادة عن عبادة النفس، وهذه الأنانيات: {إنما أعظكم

بواحدة أنا تقوموا لله}. لتكن نهضتكم لله، فلو كانت لغيره لما حقّقت شيئًا. ليكن قيامكم لله، لا للأهواء النفسانية التي تجعل كل طرف يجرّ البساط لنفسه. اتّحدوا في سبيل الله، وكفّوا أيديكم عن هذا التشتت والتنازع والتفاخر بأني من الحزب الفلاني، وذاك من الحزب الكذائي، وذاك من الجبهة الفلانية.[223]

* اعلم أنّه ما دام الإنسان يرزح في قيود النفس والشّهوات، وما دامت سلاسل الشهوة والغضب الطويلة على رقبته لا يستطيع أن يبلغ المقامات المعنوية والروحانية، ولا تظهر فيه السلطة الباطنية للنفس وإرادتها الثاقبة، ولا يحصل له مقام استقلال النفس وعزّتها، الذي هو أرقى مقام لكمال الروح، بل إنّ هذا الأسر والرق يقيّده ولا يسمح له بالتمرّد على النفس في جميع الأحوال. ولمّا قويت هيمنة النفس الأمارة والشيطان في الباطن، وانقادت القوى جميعها لهما في العبودية والطاعة وأبدت لهما الخضوع والتسليم التامّين، لما اقتصرتا على المعاصي بل دفعتا بالإنسان من المعاصي الصغيرة رويدًا رويدًا إلى المعاصي الكبيرة، ومنها إلى ضعف في العقائد، ثمّ إلى الأفكار المظلمة، ثمّ إلى الطريق المغلق للجحود، ثمّ إلى بغض وعداوة الأنبياء والأولياء.[224]

* إنّ الرواية التي تقول: «حبّ الدنيا رأس كل خطيئة» حقيقة واقعة، وإنّ أساس وجذور حبّ الدنيا هي حبّ النفس وهو بدوره حبّ الدنيا. فإنّ جميع الفساد التي ظهرت في البشرية منذ قيام البشرية تعود إلى حبّ النفس، ومنه ينشأ حبّ الجاه والمنصب والموقع وحبّ المال وحبّ جميع الدوافع الشهوانية. لذلك كان أساس مهمّة الأنبياء هي قمع وضبط حبّ النفس قدر الإمكان، لكن الأنبياء لم ينجحوا بالشكل الذي أرادوا، ولم يستطيعوا أن يحقّقوا هدفهم كما أرادوا ذلك، وسيبقى حبّ النفس لدى الكثير من الناس حتى في حكومة العدل التي يقيمها الإمام صاحب الزمان. وهذا الحبّ للنفس الوارد في الروايات هو الذي يقوم بتكفير الإمام المهدي - سلام الله عليه. وفي الحقيقة إنّ أساس جميع الخطايا هو

هذه الأنانيات الموجودة في البشر، وهذه الحروب وهذه المفاسد والمظالم وأعمال الجور.[225]

17

كيف يتحوّل العلم من وسيلة لتكميل النفس إلى وسيلة لتسافلها؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«إنّ أساس كلّ الخلافات التي بين كل البشر، الخلافات التي في كلّ الدنيا بين البشر هو الطغيان الموجود في النفس وهذه المشاكل التي تواجه الإنسان هي تقيده بنفسه وبالأهواء النفسانية.

لو تزكّى الإنسان وتربّت نفسه سوف تنتهي هذه الخلافات. فلو اجتمع كل الأنبياء العظام في مدينةٍ ما وفي بلدٍ ما لن يختلفوا مع بعضهم أبدًا، لأنّهم تزكّوا، فهم يملكون العلم والحكمة بعد التزكية في النفس. فكل مشاكلنا جميعًا لأنّنا لم نُزكّ، لم نربّ. أصبحوا علماء ولكن لم يتربوا، تفكرهم عميق ولكنّهم لم يتربوا. وإنّ الخطر الناشئ عن العالِم، الذي لم يربّ ولم يزكّ، على البشر أكبر من خطر المغول. فغاية البعثة هذه التزكية، فغاية مجيء الأنبياء هي التزكية وبعدها التعليم. فلو أنّ النفوس لم تزكّ ولم تربّ ثمّ دخلت أي ساحة، في ساحة التوحيد، في ساحة المعارف الإلهية، في ساحة الفلسفة، في ساحة الفقه، في ساحة السياسة، في أي ساحة دخلت، فإنها إن لم تُزكّ ولم تصفُ ولم تتحرّر من هذا الشيطان الباطنيّ، فإنّ خطرها على البشر سيكون عظيمًا. فيجب على الأشخاص الذين يريدون أن يربّوا آخرين في هذا العالم، أن يكونوا قد زكّوا أنفسهم سابقًا وربّوها. وإذا لم يرد الأشخاص الذين يأخذون بزمام الأمور أن يطغوا ويقوموا

بأعمالٍ شـيطانية، عليهم أن يزكّوا أنفسـهم، فالبعثة كانت من أجل هذه التزكية.

... إنّ هـذا التهذيب ضرورة لرجال الدولة وللسـلاطين ولرؤسـاء الجمهوريات وللدول وللمسـؤولين أكثر مـن الناس العاديين. فلو أنّ الأفراد العاديين لم يزكّوا أنفسهم وطغوا فإنّ الطغيان يكون محدودًا جدًّا. فلو أنّ شخصًا في السوق أو شخصًا في القرية طغى فمن الممكن أن يسبّب فسادًا في نقطة محدّدة، لكن لو كان الطغيان في يد شخص قبلـه الناس، ولو حصـل في عالِم قبله الناس، وفي سـلطان ما وقبل الناس ذلك السـلطان، وفي رؤساء قبلتهم الناس، فهذا أحيانًا قد يجر بلدًا إلى الفسـاد وأحيانًا قد يجر عددًا من البلدان إلى الفسـاد. فهذا الطغيان يؤدّي إلى جرّ البلاد إلى الفسـاد والخراب لأنّ الشخص الذي يمسك بزمام الأمور لم يزكّ نفسه».[226]

ويتفرّع من هذه القضية تحدٍّ آخر، وهو أنّه كيف يمكن أن نتعامل مع مشكلة العلم بلا تزكية؟ ففي بداية الإسـلام، كان العرب في جاهليةٍ عمياء، ولم يجنهم العلم كغيرهم من الأمم والملل، ولم يرثوا شـيئًا من آبائهم سـوى تلك العادات والأعراف البائدة. وقد استطاع رسول الله صلى الله عليه وآله أن يحدّ من تدفّق العلم في المرحلة الرسالية من خـلال إجـراءات محكمة ما تزال إلى الآن خافية على المؤرّخين الذين لم يشـيروا إليها في كتاباتهم ولم يجعلوها موضوعًا لدراساتهم. ولهذا، لم يظهر النبيّ الأعظم في تلك الأعمال الفكريـة والتأريخية كعالمٍ عظيم له قدرة الاتّصال والاسـتمداد من بحر العلم المطلق. وطغت على وصف شخصيّته تلك الصفات الأخلاقية الحميدة والقدرة السياسية العالية. وقد اسـتمرّ هذا الأمر إلى عهد الملوك العبّاسـيّين الذين تفطّنوا إلى ما يمكن أن يشـكّله العلم الموجود بين المسلمين من تهديدٍ لعروشهم، فسعوا إلى السيطرة عليه وتأطيره ومن ثمّ توجيهه وتقويته ضمن مراحل محدّدة، وكانت النتيجة بروز ظاهرة العلم بعيدًا عن

التزكية، هذه الظاهرة التي كان يخشاها رسول الله الأكرم باعتبارها السبب الأساسيّ وراء انحراف الملل السابقة واندثار قوّتها: {**فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْم**}.[227]

لقد مرّت الإشارة إلى أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام كان يدعو ببعث نبيٍّ في آخر الزمان يعلّم ويزكّي. فقدّم العلم على التزكية لأنّ زمانه كان زمان النفوس الطيبة التي لم تتحجّر في مستقنع الطغيان والعصيان. وحين قست القلوب وترسّخت العصبيات ووضعت تيجان الاستكبار، لم يعد تعليم الكتاب والحكمة إلا سببًا للمزيد من الاختلاف فيما لم تسبقه عملية التزكية. وإلى هذا المعنى إشارة واضحة في وصف الأعراب بقوله تعالى: {**الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْرًا ونِفاقًا وأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ**}.[228]

> **ذا كان تحصيلكم العلمي لغير الله والعياذ بالله، وبدافع الأهواء النفسية والاستحواذ على المراكز الاجتماعية والوجاهة الدنيوية، فإنكم لن تجنوا غير الوزر والويل والوبال.**
>
> **الإمام الخميني**

شواهد إضافية

* علـم التوحيد بحـدّ ذاته إذ اقترن بهوى النفس فإنه سـيصبح وبالًا على الإنسـان، وما أكثر أولئك الذين أتقنوا علـم التوحيد، ثم أضلوا الخلائق! وحرفوا الآخرين، في حـين أنّهم كانوا علماء بعلم التوحيد! ما أكثر أولئك الذيـن فاقوكم علـمًا، لكنّهم تسـبّبوا في انحراف المجتمـع كليًّا- بمحض اتّصالهم به - لما كانوا يحملونه من الانحراف في داخلهم.[229]

* إذا كان تحصيلكم العلمي لغير الله والعياذ بالله، وبدافع الأهواء النفسية والاستحواذ على المراكز الاجتماعية والوجاهة الدنيوية، فإنّكم لن تجنوا غير الوزر والويل والوبال.. إنّ هذه المصطلحات إن لم تكن لوجه الله تعالى، فستكون وزرًا ووبالًا. إنّ هذه المصطلحات مهما كثرت وعظمت، إذا لم تكن مقرونة بالتهذيب والتقوى فإنّها سوف تنتهي بضرر حياة المسلمين وآخرتهم..

إنّ مجرّد تعلم هذه المصطلحات لا يجدي نفعًا. كما أنّ علم التوحيد إذا لم يقترن بصفاء النفس سيكون وبالًا. فما أكثر الأشخاص الذين كانوا علماء في علم التوحيد ولكنهم كانوا سببًا في انحراف جموع غفيرة من الناس.. فكم من الأشخاص كانوا يتقنون هذه الدروس التي تدرسونها بنحوٍ أفضل منكم، ولكن نظرًا لأنّهم كانوا منحرفين ولم يصلحوا أنفسهم ويهذّبوها، فإنّهم حين نزلوا إلى المجتمع أضلّوا الناس وأفسدوا كثيرين.

فإذا تجرّدت هذه المصطلحات الجافّة من التقوى وتهذيب النفس، فإنّها كلّما تكدّست في الذهن أكثر، تعاظم التكبّر والغرور في دائرة النفس أكثر فأكثر. وإنّ عالم السوء الذي سيطر عليه الغرور والتكبّر، لم يتمكّن من إصلاح نفسه والمجتمع، ولم يجلب غير الضّرر للإسلام والمسلمين. وسوف يصبح بعد سنين من طلب العلم وإنفاق الحقوق الشرعية والتمتّع بالحقوق والمزايا الإسلامية، عقبة في طريق تقدّم الإسلام والمسلمين، ووسيلة في تضليل الشعوب وانحرافها؛ وتصبح ثمرة كل هذه الدروس والبحوث والانشغال في الحوزات، أن يحول دون نشر الإسلام واطّلاع العالم على حقائق القرآن. بل قد يصبح وجوده حائلًا دون تعرّف

المجتمع على حقيقة الإسلام وواقع علماء الدين.

أنا لا أقول: لا تدرسوا، لا تكسبوا العلم؛ بل ينبغي أن تلتفتوا إلى أنّكم إذا أردتم أن تكونوا أبناء مفيدين وفاعلين للإسلام والمجتمع، وأن تتولّوا قيادة الأمّة وتوعيتها بالإسلام، وإذا أردتم أن تدافعوا عن حمى الإسلام وتذودوا عن حياضه؛ ينبغي لكم أن تعزّزوا قواعد الفقاهة وأن تصبحوا من أصحاب الرأي فيها. فإذا لم تدرسوا فإنّه يحرم عليكم البقاء في المدرسة، ولا يمكنكم الاستفادة من الحقوق الشرعية المخصصة لدارسي العلوم الإسلامية. بالطبع، إنّ كسب العلم واجب، ولكن مثلما تجدّون وتجتهدون في المسائل الفقهية والأصولية يجب أن تسعوا في طريق إصلاح أنفسكم أيضًا. فأي خطوة تخطونها على طريق كسب العلم، ينبغي أن تقابلها خطوة أخرى على طريق استئصال الأهواء النفسيّة الخبيثة، وتنمية القوى الروحية واكتساب مكارم الأخلاق وتحصيل التقوى.

إنّ تحصيل هذه العلوم هو في الواقع مقدّمة لتهذيب النفس واكتساب الفضائل والآداب والمعارف الإلهية. وحاذروا أن تبقوا إلى آخر العمر تراوحون في هذه المقدمة من دون أن تحقّقوا النتيجة المرجوة.

إنكم تبغون من وراء كسب هذه العلوم هدفًا ساميًا ومقدّسًا يتمثّل في معرفة الله تعالى وتهذيب النفس وتزكيتها. ولا بدّ لكم من التفكير بثمرة عملكم ونتيجة جهدكم. وابذلوا كل ما بوسعكم لتحقيق هدفكم الأصليّ والأساس.

فأنتم حين تنتسبون إلى الحوزات العلمية ينبغي لكم أن تفكّروا بإصلاح أنفسكم قبل كلّ شيء. وما دمتم في الحوزة يجب أن تكونوا بصدد تهذيب أنفسكم وإصلاحها، حتى إذا تركتم الحوزة وأخذتم على عاتقكم هداية أبناء مدينة أو محلّة ما، ليتسنّى للناس أن يستفيدوا من الفضائل الأخلاقية التي تتحلّون بها ويتّعظوا ويصلحوا أنفسهم بالتأسي بها.

حاولوا أن تصلحوا أنفسكم وتهذبوها قبل النزول إلى المجتمع. فإذا

لم تهتموا الآن - حيث تمتلكون متّسعًا من الوقت والطاقة - بتهذيب أنفسكم، فسوف لا تقدرون على إصلاح أنفسكم عندما يلتف الناس حولكم وتصبح مسؤولياتكم جسيمة.

فثمة أشياء كثيرة يُبتلى بها الإنسان وتحول دون التهذيب واكتساب العلم. وإنّ أحد هذه الموانع - لبعض الناس - هي هذه اللحية والعمامة! فإذا كبرت عمامة أحدكم وطالت لحيته، يصعب عليه - إذا لم يكن قد هذّب نفسه - أن يواصل تحصيل العلوم الدينية ويكون مفيدًا، ويكون من الصعب عليه كبح جماح النفس الأمارة، وحضور دروس أحد. فالشيخ الطوسي (رحمه الله) كان يذهب إلى الدرس كتلميذ وهو في سن الثانية والخمسين، في حين كان قد صنّف بعض مؤلفاته ما بين سن العشرين والثلاثين. ويبدو أنّه صنف كتاب "التهذيب" في هذا السن. وفي سن الثانية والخمسين كان يحضر دروس السيد المرتضى (رحمه الله) وهذا ما أهّله لأن يصل إلى ما وصل إليه.

فلا قدر الله أن تصبح لحية طالب العلوم الدينية بيضاء بعض الشيء وتكبر عمامته، قبل أن يتمكن من اكتساب الملكات الخلقية الفاضلة وتنمية قواه الروحية؛ لأنّه والحال هذه سوف يبقى محرومًا من الاستفادات العلمية والمعنوية وجميع البركات.

اغتنموا الفرصة وجدّوا واجتهدوا قبل المشيب، فإذا لم تحظوا باهتمام الناس وتوجّههم، فقد تتوافر لكم الفرصة لأن تفعلوا شيئًا لأنفسكم. فلا قدّر الله تعالى أن يهتم المجتمع بشخص ما قبل أن يتمكّن ذلك الشخص من تربية نفسه، ويصبح ذا نفوذ ومنزلة بين الناس؛ فعندها سوف يضيع نفسه ويخسرها. فابنوا أنفسكم وأصلحوها قبل أن يفلت الزمام من أيديكم. تحلّوا بالأخلاق الفاضلة وتخلّصوا من الأخلاق الذميمة. وليكن الإخلاص رائدكم في درسكم وبحثكم لكي يقرّبكم من الله تعالى. فإذا لم تتوافر النية الخالصة في الأعمال، فسوف يبتعد الإنسان عن عرش الربوبية.

حاذروا أن تكونوا بنحو إذا ما فتحت صحيفة أعمالكم بعد سبعين سنة من العمر، يرى فيها - والعياذ بالله - أنكم أضحيتم سبعين سنة بعيدين عن الله عز وجل.

لا شك أنكم سمعتم حكاية ذلك "الحجر" الذي ألقي في جهنم وسمع صداه بعد سبعين سنة. وقد نقل عن رسول الله ﷺ قوله: إنه رجل هرم كان في السبعين من عمره، وخلال هذه السبعين عامًا كان يسير نحو جهنم.[230] فحاذروا أن تكون عاقبة أحدكم أن يقضي خمسين عامًا - أو أكثر أو أقل - في الحوزات العلمية مع كدّ اليمين وعرق الجبين ولا يجني غير جهنّم.. يجب أن تتّعظوا. عليكم أن تضعوا برنامجًا لتهذيب نفوسكم وإصلاح الفاسد من أخلاقكم. وليتّخذ كلّ واحد منكم مدرّسًا للأخلاق، وشكّلوا مجالس الوعظ والنصح والإرشاد. فالإنسان وحده يعجز عن تهذيب نفسه. فإذا ما بقيت الحوزات العلمية هكذا خالية من مدرّسي الأخلاق ومجالس الوعظ والإرشاد فستكون محكومة بالفناء.

فكما يحتاج علم الفقه والأصول إلى أستاذ ودرس وبحث، وكل علم وصناعة في الدنيا لا بدّ لها من أستاذ ومدرّس. والشخص المغرور والعنيد الذي لا يتّخذ لنفسه مرشدًا وموجّهًا لا يصبح فقيهًا وعالمًا؛ فكذلك العلوم المعنوية والأخلاقية التي هي هدف بعثة الأنبياء ومن ألطف العلوم وأدقّها، بحاجة إلى تعليم وتعلّم. إنّ بناء الإنسان لا يتحقّق بدون معلم. لقد سمعت مرارًا أنّ الشيخ الأنصاري (رحمه الله)، وهو أستاذ الفقه والأصول، كان يحضر درس الأخلاق والمعنويات لدى سيد جليل. لقد بعث أنبياء الله لبناء الإنسان وتربيته، وإبعاده عن القبائح والخبائث والنقائص والرذائل، وترغيبه بالفضائل والآداب الحسنة: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».[231]

إنّ علمًا اهتم به الله تعالى كل هذا الاهتمام وبعث من أجله الأنبياء، أصبح الآن مهملًا في حوزاتنا ولا نجد أحدًا يهتم به الاهتمام الذي يستحقّه. وقد وصل الأمر بسبب ضعف العلوم المعنوية والمعارف في

الحوزات، إلى أن تنفذ الأمور المادية والدنيوية إلى أوساط علماء الدين وأبعدت الكثيرين عن الأجواء المعنوية والروحية بدرجة باتوا يجهلون ماذا يعني عالم الدين أصلًا؟ وما هو واجبه؟ وما هي المهام التي ينبغي له الاضطلاع بها؟ -

فبعض ليس لهم غير تعلّم بضع كلمات ثمّ الرجوع إلى مناطقهم أو أي مكان آخر للحصول على الجاه والمنصب والمقام والتملق للآخرين؛ مثلما كان أحدهم يقول: دعني أدرس "اللمعة" وحينها سوف أفهم كيف أتصرّف مع مختار القرية.

يجب أن لا يكون الأمر بنحو تتلخّص نظرتكم وغايتكم من الدراسة منذ البداية في الحصول على المنصب الفلاني وكسب المقام الكذائي، أو أن تصبحوا رؤساء المدينة الفلانية أو شيوخ القرية الفلانية.. فمن الممكن أن تحقّقوا هذه الأهواء النفسية والأماني الشيطانية، ولكن لن تكسبوا لأنفسكم ولأمّتكم ولمجتمعكم الإسلاميّ غير التعاسة والشقاء. فمعاوية ترأس وتأمّر لفترة طويلة إلا أنّه ما جنى لنفسه سوى اللعن والذم وعذاب الآخرة.

لا بدّ لكم من تهذيب أنفسكم، حتّى إذا ما أصبح أحدكم رئيس قوم أو فئة، اشتغل بتهذيب نفوسهم أيضًا. حاولوا أن تخطوا على طريق إصلاح المجتمع وبنائه. ليكن هدفكم خدمة الإسلام والمسلمين. فإذا خطوتم من أجل الله تعالى، فإن الله مقلّب القلوب، يجعل القلوب تهفو إليكم: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًّا}.[232]

فإذا ما جاهدتم في سبيل الله وضحيتم من أجله تعالى، فإنه سبحانه لن يترككم دون أجر وثواب. وإن لم يكن ذلك في هذه الدنيا فستحصلون عليه في الآخرة. وإذا لم تنالوا أجركم وثوابكم في هذه الدنيا فذلك أفضل لكم، لأنّ الدنيا لا تعني شيئًا ولا قيمة لها. فكل هذا الصخب والضجيج وهذه الاعتبارات سوف تنتهي خلال أيام معدودات وتمر من أمام عين الإنسان كالحلم؛ بيد أن الأجر الأخروي خالد ليس له نهاية أو حد.[233]

* أنتم الذين تدرسون اليوم في هذه المراكز العلمية وتتطلّعون لأن تتسلّموا في الغد زمام قيادة المجتمع وهدايته؛ لا تتصوّروا أنّ كل واجبكم أن تحفظوا حفنة من المصطلحات، بل تقع على عاتقكم مسؤوليات أخرى أيضًا. ينبغي لكم أن تبنوا أنفسكم وتربوها في هذه الحوزات بحيث إذا ما ذهبتم إلى مدينة أو قرية وفقتم إلى هداية أهاليها وتهذيبهم. يؤمل منكم عند مغادرتكم الحوزات العلمية أن تكونوا قد هذبتم أنفسكم وبنيتموها بنحو تتمكنون من بناء الإنسان وتربيته وفقًا لأحكام الإسلام وتعاليمه وقيمه الأخلاقية. ولكن إذا ما عجزتم - لا سمح الله - عن إصلاح أنفسكم خلال مراحل الدراسة، ولم تكتسبوا الكمالات المعنوية والأخلاقية، فإنكم أينما ذهبتم ستضلون الناس - والعياذ بالله - وتسيئون إلى الإسلام وإلى علماء الدين.

تقع على عاتقكم مسؤولية ثقيلة وجسيمة. فإذا لم تعملوا بمسؤولياتكم في الحوزات العلمية ولم تفكروا بتهذيب أنفسكم، واقتصر همّكم على تعلّم عدد من المصطلحات وبعض المسائل الفقهية والأصولية، فإنّكم ستكونون في المستقبل عناصر مضرّة - لا سمح الله - للإسلام والمجتمع الإسلامي، ومن الممكن أن تتسبّبوا - والعياذ بالله - في إضلال الناس وانحرافهم. فإذا ما انحرف إنسان وضلّ بسبب سلوككم وسوء عملكم، فإنّكم ترتكبون بذلك أعظم الكبائر، ومن الصعب أن تُقبل توبتكم. كما لو أنّ شخصًا اهتدى بكم فإنّ ذلك خيرٌ لكم ممّا طلعت عليه الشمس، كما ورد في الحديث الشريف.[234]

* إنّ مسؤوليتكم جسيمة للغاية.. وواجباتكم غير واجبات عامّة الناس. فكم من الأمور هي مباحة لعامّة الناس إلا أنّها لا تجوز لكم، وربما تكون محرّمة عليكم. فالناس لا تتوقّع منكم أداء الكثير من الأمور المباحة، فكيف إذا ما صدرت عنكم - لا سمح الله - الأعمال القبيحة غير المشروعة، فإنّها ستعطي صورة سيّئة عن الإسلام وفئة علماء الدين. وهنا يكمن الداء. فإذا شاهد الناس عملًا أو سلوكًا من أحدكم خلافًا لما يُتوقّع منكم،

فإنّهم سينحرفون عن الدين ويبتعدون عن علماء الدين، وليس عن ذلك الشخص. وليتهم ابتعدوا عن هذا الشخص وأساءوا الظن به فحسب.

إذا ما رأى الناس تصرّفًا منحرفًا أو سلوكًا لا يليق من أحد المعمّمين، فإنّهم لا ينظرون إلى ذلك بأنّه من الممكن أن يوجد بين المعممين أشخاصًا غير صالحين، مثلما يوجد بين الكسبة والموظفين أفرادًا منحرفين وفاسدين. لذا فإذا ما ارتكب بقال مخالفة، فإنّهم يقولون إنّ البقال الفلاني منحرف. ولو ارتكب عطّار عملًا قبيحًا، فإنّهم يقولون: إنّ العطّار الفلاني شخصٌ منحرف. ولكن إذا ما قام أحد المعمّمين بعملٍ لا يليق، فإنّهم لا يقولون: إنّ المعمّم الفلانيّ منحرف، بل يقولون إنّ المعمّمين سيّئون.

إنّ واجبات علماء الدين جسيمة للغاية، وإنّ مسؤوليّاتهم أعظم من مسؤوليّات سائر الناس، فإذا ما رجعنا إلى (أصول الكافي)[235] وكتاب (الوسائل)،[236] وتصفّحنا الأبواب المتعلّقة بواجبات علماء الدين فسوف نواجه بواجبات عظيمة ومسؤوليات خطيرة ذكرت لأهل العلم. ففي الحديث: «عن جميل بن درّاج قال: سمعت أبا عبد الله الصّادق يقول: إذا بلغت النفس ههنا (وأشار بيده إلى حلقه) لم يكن للعالِم توبة. ثمّ قرأ: {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة}».[237] وجاء في حديثٍ آخر: عن حفص بن قياس عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: "يا حفص، يغفر للجاهل سبعون ذنبًا قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد".[238] لأنّ معصية العالم تسيء كثيرًا للإسلام والمجتمع الإسلامي. فإذا ارتكب العامي والجاهل معصية، فإنّه يسيء إلى نفسه فحسب ويضرها. ولكن إذا ما انحرف العالم وارتكب عملًا قبيحًا فإنّه سيحرف عالمًا، ويسيء إلى الإسلام وعلماء الدين،[239] وإنّ ما ورد في الحديث من أنّ «أهل النار ليتأذّون من ريح العالم التارك لعلمه»،[240] هو لأنّه يوجد فرق كبير في الدنيا بين العالم والجاهل بالنسبة لنفعهم وضررهم للإسلام والمجتمع الإسلامي.

فإذا ما انحرف العالم فمن الممكن أن يضل أمّة بأسرها ويجرّها إلى الهاوية. وإذا كان مهذّبًا يراعي الأخلاق والآداب الإسلامية، فإنّه يعمل

على هداية المجتمع وتهذيبه.

فقد كنت أرى في بعض المدن التي كنت أذهب إليها في فصل الصيف، أهالي تلك المدن ملتزمين بآداب الشرع إلى حدٍّ كبير. والسبب في ذلك كما اتّضح لي، هو أنّه كان لديهم عالم صالح ومتّق. فإذا كان العالم الورع والصالح يعيش في مجتمع أو مدينة أو إقليم ما، فإنّ وجوده يبعث على تهذيب أهالي تلك المدينة وهدايتهم، وإن لم يكن يمارس الوعظ والإرشاد لفظًا.[241]

لقد رأينا أشخاصًا كان وجودهم يبعث على الموعظة والعبرة.. إنّ مجرّد النظر إليهم كان يبعث على الاتّعاظ والاعتبار. وأنا أعلم الآن إجمالًا أنّ مناطق طهران تختلف عن بعضها. فالمنطقة التي يقطنها عالم ورع ومتّقٍ، يكون أهاليها مؤمنين صالحين. وفي محلّة أخرى حيث أصبح أحد المنحرفين الفاسدين معمّمًا وأصبح إمامًا للجماعة وفتح دكانًا له، تراه يخدع الناس ويلوّثهم ويحرفهم.

إنّ هذا التلوث هو الذي يتأذّى من رائحة تعفّنه أهل جهنم.. إنّ هذا التعفّن والأعمال السيّئة التي يجترحها عالم السوء والعالم غير العامل والعالم المنحرف في هذه الدنيا، هي التي تتحوّل إلى روائح كريهة تؤذي مشام أهل جهنّم في الآخرة، من دون أن يُضاف لها شيء في تلك الدنيا. فالذي يحدث في عالم الآخرة الشيء ذاته الذي كان في هذه الدنيا؛ فلا يُضاف شيء إلى أعمالنا وإنّما تتحقّق ذاتها.

فإذا ما اتّصف العالم بالإفساد والخبث فإنّه سيجرّ المجتمع إلى الانحطاط والتعفّن؛ غاية الأمر أنّ حاسة الشم في هذه الدنيا لا تُشم رائحة تعفّنه، ولكن في الآخرة تُشم. بيد أنّ الشخص العامي ليس باستطاعته أن يوجد مثل هذا الفساد والتلوّث في المجتمع الإسلامي. الشخص العامي لم يسمح لنفسه أبدًا أن يدّعي الإمامة والمهدوية والنبوة والألوهية. العالم الفاسد هو الذي يجرّ العالم إلى الفساد: "إذا فسد العالم فسد العالم"[243].[242]

✷ إنّ غالبية الذين تظاهروا بالتدين وتسبّبوا في انحراف كثيرين وإضلالهم،

كانوا من أهل العلم. فبعض هؤلاء درسوا في المراكز العلمية الدينية ومارسوا الرياضات النفسية، حتى إنّ مؤسّس إحدى الفرق الضالة قد درس في حوزاتنا العلمية هذه، ولكن نظرًا لأنّ دراسته لم تكن مقترنة بتهذيب النفس وتزكيتها، لم يخطُ على الصراط المستقيم، ولم يتمكّن من إبعاد نفسه عن الرذائل، فكانت عاقبته كل تلك الفضائح. فإذا لم يتخلّص الإنسان من الخبائث، فإنّ دراسته وتعلّمه لا تجديه نفعًا بل تلحق به أضرارًا أيضًا.

العلم حين يكون في أرضية غير صالحة، سوف ينبت نبتًا خبيثًا ويصبح شجرة خبيثة. وكلّما تكدّست هذه المفاهيم في القلب المظلم غير المهذّب، ازدادت الحجب أكثر فأكثر: "العلم هو الحجاب الأكبر". ومن هنا كان شرّ العالم الفاسد بالنسبة للإسلام أخطر وأعظم من كلّ الشرور.

العلم نور، إلّا أنّه في القلب المظلم والقلب الفاسد، يجعل الظلمة أكثر عتمة. كما أنّ العلم يقرّب الإنسان من الله تعالى، إلّا أنّه في النفس الطالبة للدنيا يبعث على الابتعاد أكثر عن محضر ذي الجلال. وعلم التوحيد أيضًا إذا لم يكن خالصًا لله فإنّه يتحوّل إلى حجب ظلام، لأنّه انشغال بما سوى الله. ولو أنّ شخصًا حفظ القرآن بالقراءات الأربع عشرة لغير وجه الله تعالى وتلاها، فإنّه لن يجني سوى الحجاب والابتعاد عن الحقّ تعالى. فلو درستم وتحمّلتم الصعاب في هذا السبيل، فقد تصبحون علماء، ولكن ينبغي أن تعلموا أنّ ثمّة فرقًا كبيرًا بين "العالم" و "المهذّب".

كان أستاذنا المرحوم الشيخ الحائري (رحمه الله) يقول: "يقولون: من السهل أن تصبح معممًا - رجل دين - ولكن كم هو صعب أن تكون إنسانًا". إلا أنّ هذا القول غير صحيح، إذ ينبغي القول: «من الصعب أن تصبح عالمًا ومن المستحيل أن تكون إنسانًا».

إنّ اكتساب الفضائل والمكارم الإنسانية والمعايير الآدمية أصعب وأشق بكثير من التكاليف الملقاة على عاتقنا. فلا تتصوّروا أنّكم بانشغالكم الآن بطلب العلوم الشرعية ودراسة الفقه الذي هو أشرف العلوم، قد ارتحتم

وعملتم بواجبكم وتكليفكم. فإذا لم يتوافر الإخلاص وقصد القربى، فإنّ هذه العلوم لا تنفع شيئًا.[244]

* ما ذكر في الحديث الشّريف في الوسائل عن الشيخ الصدوق رضوان الله عليه قال: وبإسناده قال: "جَاءَ نَفَرٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ص- فَسَأَلَهُ أَعْلَمُهُمْ عَنْ مَسَائِلَ وَكَانَ فِيمَا سَأَلَهُ أَنْ قَالَ: لِأَيِّ شَيْءٍ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالاغْتِسَالِ مِنَ الْجَنَابَةِ وَلَمْ يَأْمُرْ بِالْغُسْلِ مِنَ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ص إِنَّ آدَمَ ع لَمَّا أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ دَبَّ ذَلِكَ فِي عُرُوقِهِ وَشَعْرِهِ وَبَشَرِهِ فَإِذَا جَامَعَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ خَرَجَ الْمَاءُ مِنْ كُلِّ عِرْقٍ وَشَعْرَةٍ فِي جَسَدِهِ فَأَوْجَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ الاغْتِسَالَ مِنَ الْجَنَابَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ". الخبر.كلما أصبحت المعلومات أكثر، فإذا إن لم نكن على الطريق المستقيم، وإذا لم نستطع السيطرة على علمنا وأنفسنا، وإذا لم نستطع كبح جماح النفس في هذا الطريق المستقيم، فإنّ بعدنا عن الإنسانية سيصبح أكبر، ويصبح من الصعب على الإنسان أن يرجع إلى الإنسانية.[245]

* إنّ الانشغال بالعلوم، وحتى العرفان والتوحيد، إن كان بهدف جمع المصطلحات، وهو كذلك، وبهدف هذه العلوم نفسها، فإنها لن توصل السالك إلى هدفه بل تبعده عن ذاك. العلم هو الحجاب الأكبر. وإذا كان الهدف طلب الحق وحبّه وهو نادر جدًا، فإنّه سيكون سراجًا للطريق ونورًا للهداية، "العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء»، وإنّ بلوغ جزء منه يتطلّب التهذيب والتطهير والتزكية. تهذيب النفس وتطهير القلب من غيره، فما بالك بالتهذيب من الأخلاق المذمومة، التي يتطلب الخلاص منها جهادًا كبيرًا، وكذلك تهذيب العمل مما يخالف رضاه - جل وعلا، والمواظبة على الأعمال الصالحة نظير الواجبات التي هي في المقدمة، والنوافل قدر المستطاع، حتى لا يُصاب الإنسان بالغرور والتكبر.[246]

* تُعتبر مسألة التربية أعظم وأكثر أهمية من مسألة التّعليم، ولهذا نجد الآية الشريفة تذكر أوّلًا تلاوة آيات القرآن الكريم {يتلوا عليهم آياته}

لتبيين التعليمات اللازمة على طريق التربية والتعليم، ثمّ بعدها تأتي مسألة التزكية {ويزكّيهم} قبل مسألة التعليم مما يدل على أنّ مسألة تزكية النفس أكثر أهمية من مسألة تعليم الكتاب والحكمة، وهي مقدّمة لأن يقع الكتاب والحكمة في نفس الإنسان. فلو قام الإنسان بتزكية وتربية نفسه حسب توصيات الأنبياء عليهم السلام التي جاؤوا بها للبشر كافّة، فإنّه بعد التزكية سيرتسم في نفس الإنسان الكتاب والحكمة أيضًا بمعانيها الحقيقية، وسوف توصل الإنسان إلى الكمال المطلوب. ولذلك يقول في آية أخرى {مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارًا}، يريد الله سبحانه وتعالى أن يقول بأنّ العلم وحده ليس له أي فائدة. فالعلم الذي لا يرتبط بالتربية والتزكية ليس له فائدة، فكما أنّ الحمار لا يستفيد من الكتب التي في خرجه، سواء كانت كتب التوحيد أو الفقه أو كتبًا علمية. فكذلك حال الذين يخزنون شتى أنواع العلوم والمعارف في باطنهم دون أن يقوموا بتربية نفوسهم وتزكيتها، فهؤلاء علومهم ليست لها أي فائدة، بل إنّها في جميع الأحيان مضرّة، وفي كثير من الأحيان فإنّ ذلك الشخص العالم الذي يعرف كل شيء إلّا أنه لم يقم بتزكية وتصفية نفسه حسب التربية الإلهية، فإنّ علمه سيكون وسيلة لدمار البشرية، والعلماء الذين يجلبون الدمار للبشرية هم أسوأ من الناس العاديين وضررهم أكثر من أي شخص آخر، وهو قوله تعالى {كمثل الحمار} بل أسوأ منه، لأنّ علمهم يؤدي إلى تدمير الآخرين.[247]

* يجب أن تكونوا أمينين على علمكم من جهة، ومزكّين لنفوسكم ومتحكّمين بها من جهة أخرى، لأنّ النفس متمرّدة وتمرّدها يسقط الإنسان على الأرض كما لو أنّه ممتطٍ حصانًا متمردًا جامحًا، فإنّ هذا الحصان يقضي على فارسه. ونفس الإنسان متمرّدة أكثر من أي شيء آخر، وتمرّد النفس يقضي على الإنسان. ولتكن كل خطوة تخطونها في طريق العلم مترافقة مع خطوة أخرى لكبح جماح أنفسكم ومنعها من التمرّد، لأنّه حين يفلت عنانها تفقد السيطرة عليها آنذاك. لذلك عليكم كبح جماح أنفسكم

بأنفسكم. وحين يتحقّق هذا النوع من التربية والتعليم في بلدٍ ما سيكون هذا البلد حرًّا مستقلًا، قادرًا على تأمين احتياجاته وإصلاحٍ ثقافته وكل ما يلزم، وتكون حكومته قادرة على مواجهة الانحراف، ولن يكون جيشها متسلّطًا على الشعب وشرطتها لن تستطيع استغلاله، وإدارتها المحلية حريصة على عدم ارتكاب الأخطاء. إنّ مقدرات كل بلد في يد جامعاته سواء كانت جامعات العلوم الحديثة أو جامعات العلوم القديمة، لذا فالمهم أن يكون الذي سيتخرج من هذه الجامعات بنوعيها، إنسانًا وليس دابة تحمل على ظهرها بعض الكتب. وحاولوا أن لا تكونوا أنتم والعلوم الطبيعية في طرف، ودارسو العلوم الفقهية والإلهية في طرفٍ آخر، بل ابحثوا في دقائق العلوم، ولكن لا تغفلوا عن جهل أنفسكمٍ وعن تمرّد النفس، لأنكم إن غفلتم، فإنّ كل خطوة تخطونها على طريق العلم ستبعدكم عن الإنسانية أكثر فأكثر، فالإنسانية طريق مستقيم وإذا سار أحدكم على هذا الطريق معوجًا فإنه سيبتعد عن الإنسانية، وكل من وجد الخط المستقيم ولم يسرِ عليه فإنه حتمًا سيبتعد عن الإنسانية. كما لو أنّنا فرضنا خطا مستقيما وانطلقنا من نقطة عموديًا عليه، فكلّما قطعنا مسافة أكبر ابتعدنا أكثر عن الخط المستقيم.[248]

* إنّ على الشبان اليافعين ذوي الستة عشر عامًا أو العشرين، الموجودين في المدارس العلمية، أن يبدأوا من الآن بتعويد أنفسهم على أن يكونوا كما أرادهم الله تعالى، وكما حثّت عليه الأوامر الإلهية، وأن يخطوا خطوة في سبيل تهذيب النفس وتحصيل الأخلاق الحميدة مع كل خطوة يخطونها في سبيل تحصيل العلم. فإنّ الواحد منكم إذا أصبح عالمًا ولم يكن مهذبًا كما أراد له الإسلام - لا سمح الله - فإنّ ضرره سيكون أكثر من نفعه. فجميع مبتدعي الأديان والمذاهب الباطلة كانوا في الأساس أشخاصًا متعلمين، تعلّموا في حوزات علمية دينية إلا أنّهم لم يكونوا مهذّبين. وتأمّلوا في أرباب المذاهب الباطلة، ستجدون أنّهم جميعًا كانوا أشخاصًا متعلّمين، وطلبة علوم دينية، غير أنهم لم يكونوا مهذبين.[249]

18

ما الذي يفعّل قوانا أكثر: الانخراط في القضايا الكبرى أم الاهتمام بشؤوننا الخاصّة؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«إنّ منشــأ كل المتاعب التي تتعرّض لها الأمــم هو عدم التزكية. فلو كان قادة وحكّام هذا الشــعب، أولئــك الذي يديرون البلاد، قد تمّت تربيتهم وتزكية نفوســهم لما وجدت كل هذه المتاعب والمعاناة لشعبنا ولا لأنفسهم. إنّ منشأ كل هذه المعاناة والآلام في كلّ مكان، هــو أنّ القائمــين على أمور الشــعوب لم يزكّوا أنفســهم. فإنّ وجود شــخص واحد على رأس السلطة لا يملك نفسًــا زكية أوجد كل هذه المتاعب لهذا الشــعب على مدى خمســين عامًا. فــإذا كان مثل هذا الشخص مزكّيًا لنفسه وعادلًا ومتبنّيًا للعدالة، سيكون جهازه الحاكم متبنّيًــا ومربّيًا للعدالة في المجتمع وســوف تتبعــه كافّة الفئات إلى العدالة، بما في ذلك دوائر الدّولة التي ســوف لا تجد لنفسها مخرجًا إلا بالعدالــة. فإذا زكّيت أنفس أبناء الشــعب، فســوف يعيش هذا الشّــعب في جنّة من النعيم وسوف تزول كلّ العقبات من طريقهم للوصــول إلى السّــعادة. ومن هذا المنطلق ونظرًا إلى أنّ الشــاه كان يفتقر إلى النفس الزكية والأخلاق المزكّاة أو العقائد المزكّاة، فقد عمل على تضييع شــعب بأكملــه. وقد رأيتم كيف أنّــه كان يقتدي بأبيه حيث جمع من حوله مَنْ هم على شاكلته».[250]

مرّة أخرى يطرح الإمام قدس سره قضية الاهتمام بتربية النفس وتكميلها على المستوى الاجتماعي ويخرجها من إطارها الأخلاقي الضيّق الذي انحصرت فيه عبر العصور. وهنا يجري قاعدة مهمّة أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام حين قال: «فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوُلَاةِ".[251] والولاة هم المسؤولون وأصحاب القرار والممسكون بالسّلطة والحكم. فما دامت القدرة الأولى بيد أشخاص غير مهذّبين، فلا يمكن أن تؤثّر الدّعوات الطيّبة للصالحين، ولن يكون للتعليم ذاك الأثر المرجوّ. لأنّ الناس يتأثّرون بأصحاب القرار والحكّام. حتّى قيل أنّ الناس على دين ملوكهم.

فكيف يمكن مواجهة هذا التحدّي الذي يأتي بعد تحدّي انفصال التزكية عن التعليم؟ وهل يمكن للنّفوس أن تجد طريقًا إلى القوّة الحقيقية في ظلّ سلوك طريق الروحانيّة بعيدًا عن التحدّيات والابتلاءات الاجتماعية؟

إذا لم يهتم الناس بأنفسهم ولم يجاهدوا شيطانهم الذي بين جنبيهم، لا أنّهم لن يتمكّنوا من إصلاح المجتمع فحسب، بل سيفسدون فيه.

هل يجب أن نعمل على إيجاد منعزلات يلجأ إليها الناس الذين يريدون أن يهربوا من كل أشكال الظلم والمعاناة التي تتسبّب بها الحكومات والمسؤولين؟ أم أنّه لا بدّ من المواجهة؟ وفي ظلّ المواجهة تنبعث الطّاقات الكامنة فينا، ويؤيّدنا الله تعالى بهدايةٍ منه وتزكية.

وقد استفدنا من تجربة الإمام (قدس سره) أنّ السبيل الوحيد لإنقاذ المجتمعات من براثن المعاناة الأخلاقية والروحية التي تحدث بسبب الظلم والفساد الحكوميّ هو أن يتحمّل العلماء مسؤولية الإصلاح كما فعل الإمام الحسين عليه السلام بالغًا ما بلغ. فهذا هو سبيل الانعتاق وهو سبيل الحرية الكبرى.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «إنّ بلادنا وشعبنا بحاجة للبناء، وبناء النفس والروح يحتل الأولوية بين جميع عمليات البناء. جهاد البناء يجب أن يبدأ من الأنفس، يجب على الناس أن يبنوا أنفسهم، ويجاهدوا شيطانهم الداخليّ، لأنّ هذا الجهاد منشأ جميع أنواع الجهاد الذي يحدث فيما بعد. وإذا لم يهتم الناس بأنفسهم ولم يجاهدوا شيطانهم

الذي بين جنبيهم، لا أنّهم لن يتمكّنوا من إصلاح المجتمع فحسب، بل سيفسدون فيه، فجميع المفاسد التي تحدث في العالم مردّها إلى انعدام هذا الجهاد، وهو الجهاد الأكبر. جميع المشكلات التي يعانيها البشر هي من قبل أنفسهم، البشر هم الذي يقومون بالجرائم. فسائر الموجودات وكل الحيوانات حتّى السباع لا تقوم بجرائم يقوم بها الإنسان. هذا الإنسان، الذي لم يتم إصلاحه ولم يقم ببناء الذات هو أشرّ من الحيوانات الوحشية الأخرى، فلا وحش مثله، ولا يصل حيوان إلى مستوى هذا الحيوان».[252]

شواهد إضافية

* عالم المُلك هذا الذي نعيشه هو عالم الطبيعة وهو أحد مخلوقات الله وعالم الطبيعة هذا تجلٍّ من تجلّيات الله. التعلّق بعالم الطّبيعة هذا والتعلّق بالدنيا يؤدّي إلى انحطاط الإنسان. من الممكن أن يتعلّق إنسان بمسبحة تعلّقًا لا يتعلّقه آخر بمملكة. فالأوّل أكثر التصاقًا بالدنيا من الثاني. كان سليمان بن داوود سلطانًا يحكم كل شيء ولكن سلطنته لم تكن مسيطرة على قلب السلطان - على قلب سليمان بن داوود. الرّسول الأكرم أيضًا كان رئيسًا لأمّة وحاكمًا لأمّة ولكن هذه الرّئاسة لم تكن لتأسره. كانت السّلطة تحت سيطرته ولم يكن هو تحت سيطرتها. إذا وجد الإنسان مجالًا للسيطرة على النفس وعلى كلّ شيء فلا يكون من أهل الدنيا حتى ولو ملك الدنيا كلّها مثل سليمان النبيّ وأمثاله. وإذا لم تتوفّر هذه السيطرة وكان الإنسان غارقًا في الغفلة التي نحن فيها، فإنّ هذا الإنسان من أهل الدنيا الدنيّة... إنّنا حين نتعلّق بالدنيا فإنّ عالم الملك يصبح دنيا وهذه الدنيا دنياي. حين أكون متعلّقًا بها وتحت سيطرتها وتحت رئاستها وحين أكون تحت سيطرة الرّئاسة وتحت سيطرة المنصب، كل هذه الأمور هي دنيا وأنا الأسير. وكلّما زادت السيطرة أكثر فإنّ الأسر يزداد أكثر وأكون أسيرًا من دون أن أكون منتبهًا. وإذا وُفّق الإنسان للعمل بما أراده الأنبياء وهو الخروج من تحت سيطرة ونفوذ النفس - أعدى عدوٍّ للإنسان - وإذا وُفّق الإنسان لتحرير نفسه من رقّ الأسر وأغلاله يصبح هذا الإنسان إنسانًا مسيطرًا على كلّ شيء ولا شيء يسيطر عليه حتّى السيطرة التي له على كلّ شيء فإنّه لا يهتم بها ولا يراها شيئًا، وكما يريد لأصحابه الخير والصّلاح فإنّه يريد لأعدائه الخير والصلاح. الأنبياء كانوا بهذا الشكل. الأنبياء كانوا يتألّمون من أجل الكفّار والمنافقين لكونهم كفّارًا ومنافقين. الأنبياء بذلوا كلّ جهودهم من أجل تحرير الكفّار والمنافقين والمنحرفين والناس الرّاسخين في أغلال أنفسهم وفي أغلال التعلّق بالدنيا- وجميع المفاسد ناجمة عن ذلك. كان الأنبياء يريدون تحريرهم وكانت هذه المهمّة صعبة جدًّا. وهذه المهمّة

لم تتمكّن من أن تشـــمل الجميع وتصير عامّة ولن تكون بعد ذلك أيضًا. ولن يصبح الإنسان إنسانًا حتى النهاية. هناك مثل معروف يقول كم من السهل أن تصبح عالمًا، ولكن كم من الصّعب أن تصبح إنسانًا. شيخنا كان يقول: من الصعب أن تصبح عالمًا ومن المحال أن تصبح إنسانًا.[253]

* لقد حدثت لي قصّة في باريس وهي أنّ أحد المسؤولين الكبار حضر عندي وتحدّث عن اضطراب وقع سابقًا في الصين لا أتذكّر تفصيله. لقد كانوا قلقين على ما سيحدث لسفارتهم هناك، فقال المترجم وهو يترجم حديث هذا المسؤول: إنّنا لم نهتم بموظّفي سفارتنا كاهتمامنا بالأثاث الخشبيّ الراقي والثمين الذي كان في السّفارة. كنّا نخاف أن يُنهب أو يُحطّم. أمّا الموظّفون فلم نفكّر بهم. هذا هو حال هؤلاء. إنّ هؤلاء الذين لم يتربّوا تربية إسلامية ولم يُهذّبوا تهذيبًا صحيحًا، ولم يعملوا بالأوامر السماوية، لا يرون إلّا أنفسهم، لذلك يريدون جميع المنافع لأنفسهم. والسيد كارتر هو من أولئك الذين لم يتربّوا تربية سماوية. وهل سمعتم بأنّه ذهب في هذه الأيام مرّة إلى الكنيسة، ودعا للإفراج عن الرهائن، ودعاؤه هذا هو مثل دعاء محمد رضا بهلوي حينما كان يذهب إلى مدينة مشهد ويدعو. إنّ هؤلاء ينطبق عليهم المثل الذي قاله أحد حكمائنا وهو أبو عبيد الزاكاني وهو: «أبشروا فإنّ القطّ صار عابدًا". هذه هي المسألة، واستنادًا إلى ذلك كلّه لا نحتمل أن يكون الشعور بحبّ الإنسانية هو الذي دفع كارتر إلى تقديم خدمة لمحمد رضا، والاحتفاظ به وحمايته.[254]

* على الأخوة المحترمين أن يراقبوا أنفسهم. يراقبوا أنفسهم من الصباح إلى المساء، فإنّ نفس الإنسان منفلتة بطبيعتها، وإذا غفلنا عنها، نعوذ بالله، فإنّها تجرّنا لا إلى الفسق فحسب، بل إلى الكفر! هذا إذا غفل الإنسان! والشيطان لن يقنع منّا بالفسق وحده، إنّه يريد أن ينتهي بنا الأمر إلى الكفر، إنّه يريد للجميع أن ينتهي بهم الأمر إلى الكفر، وغاية ما في الأمر أنّه يدفع الإنسان نحو ارتكاب المعاصي الصغيرة، ويلج به نحو الأكبر والأكبر والأشدّ، حتّى يصل به، لا سمح الله، إلى الانحراف التام عن الإسلام.

عليكم أن تراقبوا أنفسكم أيّها الإخوة. يجب أن تراقبوا أنفسكم من أوّل الصباح، حينما تنهضون من النوم، بل من أوّل أذان الفجر، وحتّى الليل، أو من قبل أذان الفجر حين تنهضون. يجب أن تراقبوا أنفسكم. يجب مراقبة النفس في التجمّعات، الثنائية منها والرّباعية أو حتى المئوية، يجب مراقبة النفس والحرص على احترام الكبار واحترام الرفقاء، واحترام المؤمنين بصورة عامّة. على الإنسان تحاشي الدخول في النقاشات والكلام غير المجدي. فلو فرضنا أنّ أحدًا قام بعمل أو امتنع عن عمل، وكان بذلك مسيئًا في نظركم، فليُحمل على الصّواب، فينبغي بالإنسان عدم التجاسر هكذا وبدون تدبّر على أحد المؤمنين أو أحد المسلمين، أو أحد طلبة العلوم الدينية، أو أحد أهل العلم، فضلًا عن أن يكون أحد العلماء أو أحد المراجع.

هذه أمور يجب مراعاتها، على الإنسان أن يراقب النفس، وأن يحفظ هذه الحدود حتى ينال التوفيق.

إنّكم ستحملون مسؤولية خطيرة، فإن أصبح أحدكم عالم مدينةٍ ما، فسيكون مسؤولًا عن تلك المدينة، وقد يصبح أحدكم عالم بلاد بأسرها، فيتحمّل بذلك مسؤولية تلك البلاد، وقد يصبح مرجعًا لأمّة بكاملها، فيكون بذلك مسؤولًا عن تلك الأمّة. عليكم إذن وضع الأساس لذلك من الآن كي تستطيعوا أداء دوركم في تحمّل تلك المسؤولية بالشكل المشرّف أمام أنفسكم، وأمام دينكم. عليكم الاهتمام بهذا الأمر منذ الآن.

أمّا أن تقولوا: «دعنا نقرأ دروسنا الآن، وبعدما نبلغ سنّ المشيب نهتم حينها بتهذيب أخلاقنا إن شاء الله!" فهذا لا يمكن، لن تستطيعوا ذلك، لن يتحقّق حينها للإنسان إلا ذلك القدر من التهذيب الذي حصل عليه في سنّ الشباب، وإذا لم يهذّب نفسه في أيّام شبابه، لا سمح الله، فمن الصعب جدًّا أن يستطيع ذلك حينما يصبح شيخًا عجوزًا، فحينها ستضعف الإرادة ويقوى العدوّ. ففي زمن المشيب تضعف إرادة الإنسان، ويقوى جنود إبليس داخل النّفس، ولن يمكن حينها تحقّق التهذيب، وإن أمكن فإنّه سيكون أمرًا صعبًا جدًّا.[255]

* فالــذي يتطلّــع لتهذيــب المجتمع عليــه أولًا أن يهذّب نفســه. وهكذا الجماعة التي تســعى إلى إصلاح مركز معين وتجعله إسلاميًّا، فإذا لم يكن أفراد هذه الجماعة أنفســهم صالحين فلن يتســنّى لهم إصلاح الآخرين. إنّ الذي يرتكب مخالفة تتعارض مع التوجّهات الإســلاميّة لا يستطيع أن ينهــي الآخرين عن ارتكابها، ولذلــك لا بدّ من الحيطة والحذر والتدقيق في الجوانب التي سبق الإشارة إليها، كي يتسنّى لنا امتلاك جمعية سليمة مؤثّرة بوسعها أن تحقّق أعمالًا كثيرة نافعة.[256]

* إنّنا نتصوّر أنّ القرآن الكريم، في قصّة آدم التي يجب القول بأنّها قصّة رمزيّة ولكنّها تعليمية بشكل كبير، قد وجّه إلينا أوامر بحيث لو عمل بها البشر لشكّلت حلًا لجميع المشكلات. لقد قال الله للملائكة، قبل أن يخلق آدم، سأقوم بهذا العمل، فالملائكة ينظرون ناحيتهم التقديسية من جهة وينظرون ناحية فساد آدم من جهة أخرى فيقولون: {أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَك}؟ فينظرون إلى أنفسهم بمنظار التقدّس، وينظرون إلى آدم بمنظار الفساد، فيرون في أنفسهم الناحية الإيجابية وفي آدم الناحية السلبية فيقول الله لهم: {إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ} أنتم لا ترون إلّا أنفسكم فأنتم أنانيّون، ولا ترون الكمالات في آدم. وبعد ذلك يُكمل القصّة بأنّ الله علّم آدم «الأسماء» التي هي في حقيقتها أسماء الله، وكل شيء هو أسماء الله {ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُوني بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ} فلمّا رأوا أنّهم عاجزون تراجعوا، وبعد خلقه آدم أمرهم بالسجود {فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُون * إِلَّا إِبْليسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدينَ} والسبب في عدم سجود إبليس هو الأنانية حيث يقول: {خَلَقْتَني مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طينٍ}، إنّه أدنى مني وأنا أرفع منه. في هذا أيضًا الوجهة الأنانية ولهذا السبب لم يسجد. لذلك طرد، ثمّ هدّد الله بعد أن طلب الإمهال فقال: {أَنْظِرْني إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} وبعد أن مُنح الفرصة واطمأنّ نراه ينذر الله بالقسم بعزّته إذ {قالَ فَبِما أَغْوَيْتَني لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقيمَ* ثُمَّ

لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ}.

من هنا نفهم أنّ قضية الأنانية إرث الشيطان، إذ كانت هذه القضية منذ بدء العالم حين وسوس لآدم وأغواه بأنّهم يريدون حبسك هنا، فلو قبلت مشورتي ونصحي لكان لك أكثر من هذا. ومن الجهة الأخرى نجد آدم يقبل بذلك. إنّ هذا تعليم عام باق لحدّ الآن حيث يجب أن يكون لنا عبرة. اعلموا أنّ الأنانية وحبّ الذات إرثٌ شيطانيّ، وكل المفاسد التي تحصل في العالم سواء كانت مفاسد أفراد أو مفاسد حكومات أو مفاسد مجتمعات ناتجة عن هذا الإرث الشيطاني، وكلّ المفاسد التي تحصل في العالم تنشأ من مرض الأنانية سواء كان الشخص جالسًا في زاوية بيته ومشغولًا بالعبادة وأُعجب بذاته، أو كان داخل المجتمع وعلى اتّصال مباشر بالناس وظهر منه الفساد فذلك من أنانيته، وحتّى الحكومات منذ أوّل حكومة ظهرت في الدنيا وإلى اليوم فإنّ كل فساد ظهر فيها كان من هذه الخصيصة. هذا الداء لا يداوى إلّا بزوال هذه الخصيصة الشيطانية.

فلو أراد شخص معالجة نفسه بنفسه فعليه التخلّص من هذه الخصيصة، فيجب أن يروّض نفسه ولا يرى نفسه كبيرًا فلا يقول إنّي عالم وإنّي مقدّس - كما قالت الملائكة - ولا يقول إنّي ثري ولا زاهد ولا عارف، ولا يقول إني موحّد، فلو كانت هذه الخصيصة الشيطانية واحدًا من هذه الأمور - ولو كان من أعلى العلوم كالفلسفة والعرفان - لكانت حجابًا «العلم الحجاب الأكبر». ولو أراد شخص معالجة نفسه فعليه أن يتنبّه إلى هذه الخصيصة إذ إنّ مقاومتها أمرٌ صعب، فلو أراد شخص أن يتهذّب فالعلم لا يهذّبه، لأنّ العلم لا يهذّب الإنسان، بل قد يبعث به إلى جهنّم، وعلم التوحيد قد يرسل الإنسان كذلك إلى جهنّم، وعلم العرفان قد يرسل الإنسان إلى جهنّم أحيانًا، وأحيانًا يرسل علم الفقه الإنسان إلى جهنّم، وقد يرسل علم الأخلاق الإنسان إلى جهنّم.

فالإنسان لا يصلح بالعلم بل بالتزكية، فالتزكية مقدّمة على كل شيء.

فالطالب الذي يدرس في المدرسة يجب أن تكون التزكية عنده مقارنة للدرس غير منفكّة عنه، وإمام الجمعة الذي يريد أن يهدي الناس عليه أن يزكّي نفسه أوّلًا ليتمكن من هداية الناس، والدولة التي تدعو الناس إلى القيام بالأعمال الحسنة يجب عليها أن تزكي نفسها أوّلًا. والعارف الذي يريد أن يدعو الناس إلى المعارف الإلهية فلن يمتلك القدرة على ذلك ما لم يزكّ نفسه أوّلًا. والفيلسوف الذي يريد أن يعلّم الناس التوحيد لا يستطيع ذلك ما دامت هذه الخصيصة الشيطانية في داخله، يعني أنّ اللسان لسان شيطان لكنّه ينطق بالتوحيد، والضمير ضمير شيطان تلقّى التوحيد، والقلب قلب شيطان تعلّم الفقه ويعلّمه، وما دامت هذه الخصيصة قائمة فكل الأمور معاقة في الأشخاص الذين يريدون تهذيب أنفسهم أو الذين يريدون تهذيب المجتمع.

من المسؤول عن تهذيب المجتمع؟ هل هم العلماء؟ هل هم الفضلاء؟ هل هم المفكّرون؟ هل هم أئمة الجمعة؟ هل هم الأساتذة؟ هل هم علماء البلاد؟ الكل مسؤولون. أما من يتزيّا بهذا الزيّ ويظهر نفسه بمظهر المعلّم والأستاذ والمدرس والفقيه والمفكّر وأمثال هؤلاء فعليه أن يهذب المجتمع بعد أن يبدأ بتهذيب نفسه أوّلًا ثم يؤدّي واجبه في تهذيب المجتمع، فإن لم يتهذّب هو فلا يتمكّن من تهذيب المجتمع. فإذا كان الشخص فاسدًا في نفسه فلا يستطيع أن يتكلّم كلامًا يصلح الناس أو يؤثّر فيهم، الكلام المؤثّر هو الذي يصدر عن قلبٍ مهذّب طاهر، فإن صدر عن قلب غير طاهر، أو عن قلب شيطاني وبلسان شيطاني فلا يمكن أن يؤثّر في قلوب الأشخاص. فإن صار القلب رحمانيًّا وإلهيًّا وتوجّه إلى الله وطلب منه كل شيء وعلم أنّ كل شئ بيده، عند ذلك يتمكّن من تهذيب الناس. وهذا الأمر مسؤولية ملقاة على عاتق علماء البلاد أينما كانوا، ومفكّري البلاد أينما كانوا، والمدرّسين والخبراء أينما كانوا. هذه وظيفة كل شخص وفي كل مكان. فالمسؤولية تتوجّه إلى هؤلاء أوّلًا، والناس كلّهم ملزمون بذلك لكنّ هؤلاء قد وضعوا أنفسهم في هذا الموضع. فإن أردتم تهذيب

المجتمع بحيث لو ذكر أحدهم اسم الإسلام في مكان من العالم لا يعارضه أحد فعليكم بتهذيب الناس وتعريفهم بحقيقة الامور.[257]

* الفرصة اليوم سانحة لكم أيها السادة علماء الإسلام في إيران والطريق مفتوح لتهذيب الناس ودعوتهم إلى الصلاح. بناء على ما قيل فإنّ أهم شي لنا جميعًا هو تهذيب النفس وتهذيب الناس من خلاله، لأنّه إذا لم يكن الإنسان مهذّبًا لا يمكنه أن يهذّب الآخرين فلا يؤثّر كلامه فيهم. فحين يهذّب السّادة نفوسهم. عليهم أن يدعو الناس إلى هذا الأمر خاصّة أئمّة الجمع الذين يتعاملون مع الشرائح الشعبية الكبيرة وكذلك أئمّة الجماعات إلّا أنّ الاهتمام اليوم أكثر بأئمّة الجمع. إنّ جميع المسائل الواردة في الإسلام وحتى قضاياه السياسية تهدف إلى التهذيب ولبناء الإنسان يجب ألا نسيّس اليوم جميع الأمور بل يجب أن نضع الأمور كلّها بعد المسائل الإسلامية وبخاصّة التهذيب. إنّكم تلاحظون بأنّ القرآن يؤكّد على هذا الموضوع أكثر من غيره من المواضيع، فهناك عدّة آيات يأتي فيها بعد القسم {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها * وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها}، وهذا يجعلنا ندرك أنّ أساس المسائل التي تصلح الأمور بها هو التهذيب، وأنّ أساس جميع الانحرافات هي من عدم التهذيب، وإنّ تعبير دسّ هو في نفس الإنسان وهو الشيطان. لذلك يجب أن نضع هذا الأمر على رأس أولوياتنا.[258]

* إنّ الوضع هكذا فما أصعب أن يكون السّاسة غير مهذّبين. فإذا لم يكن أحد الساسة مؤمنًا بالأخلاق الإنسانية فإنّه سيكون أحد الأشقياء ولكنّه سوف لا يقف على شوارع الحارة بل سيكون شقيًّا في منطقة واسعة بل في العالم. فما جاء في الرواية «إذا فسد العالِم فسد العالَم» ينطبق بشكل أوسع على رجال السياسة الفاسدين حيث أفسدوا العالم. إنّ العلماء الذين أفسدوا العالم هم الذين يصنعون أسلحة الدمار، وإنّ رجال السياسة المنحرفين هم الذين يستخدمون هذه الأسلحة. إنّ العالم يشهد الفوضى والاضطراب بسبب هؤلاء فإذا حذفناهم من العالم فإنّ الناس سيعيشون في هدوء وسلام.[259]

* إنّ على الأخوة من باقي البلدان - والمتواجدين هنا- المرابطة في خنادقهم، ومواصلة التحصيل العلمي وتهذيب النفس، حتى لو ذهب المراجع من هنا، وذهبت أنا - باعتباري أحد الطلبة - فإنّ على سائر الأخوة البقاء هنا، وأداء مسؤولياتهم.[260]

* إذا نظرتم إلى أدعية الإمام السجّاد ترون بأنّها محاولة لبناء الذات لما هو أهم مما يتصوّره عامّة الناس. إنّ دعوات من قبيل الدعوة إلى التوحيد وإلى تهذيب النفس وإلى الإعراض عن الدنيا والدعوة إلى مناجاة الله تبارك وتعالى، كلّها لا تعني أن يجلس الناس في بيوتهم غافلين عن مصالح المسلمين لينشغلوا بالذكر والدعاء. كما أنهم لم يكونوا كذلك. إنّ الرسول الأكرم رغم قيامه بواجباته الشخصية ومناجاة الله تبارك وتعالى في خلواته إلّا أنّه أسّس الحكومة وأرسل رسلًا إلى أنحاء العالم ودعا الناس إلى الدّين وإلى الوحدة. فلم يكن يريد الجلوس في منزله يومًا لذكر الله. كان يذكر الله ولكن بهدف تهذيب النفس، كان يدعو الله ولكن بهدف تهذيب النفس وتهذيب الناس وتربيتهم، وكان يجهّز الناس للمقاومة. إنّ جميع الأدعية التي رُويت عنه - صلّى الله عليه وآله - وعن أئمّة المسلمين، كانت تهدف إلى الدعوة للمعنويّات التي تسبّب إصلاح أمور المسلمين، ولكن حصل اعوجاج أو سبّبوا الانحراف في صدر الإسلام وربّما كان للعباسيين الدور الأكبر في ذلك فحصل انحراف في مصالح الإسلام وشؤونه.[261]

19

ما الذي يجعلنا نُصاب بالوهن النفسيّ؟

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«إنّ من كبريات مكايد الشـيطان والنّفس الأمّارة بالسّـوء، أنّهما يمنيان الشـباب بوعـود الصّلح والإصـلاح عند حلول الشـيخوخة، فيُخسرانهم شـبابهم الـذي يضيع بالغفلة. وأمّا الشـيبة، فيُمّنيانهم بطول العمر حتّى اللحظات الأخيرة، ويصدّان الإنسـان - بوعودهما الكاذبـة - عن ذكر اللـه والإخلاص له، إلى أن يـأتي الموت، وعندها يأخـذان منه الإيمـان، إن لم يكونا قـد أخذاه منه كامـلًا قبل ذلك الحين.»[262]

في بحثـه عن جميـع عناصر القوّة، لا بدّ للإنسـان من معرفة كل أسـباب الضعف والنقص. فحين يهزل الجسد ويُصاب بالوهن، فإنّ الطبيب المعالج يبحث أوّلًا عن وجود مرض ما، لعلّه يفتك بأحد الأجهزة التي يحتاجها الجسد لبناء القوّة والصحّة.

هكـذا الأمر في النفـس إذا مرضت بداء الإقبال الشـديد على السـيّئات والخبائث. فالنفس الأمّارة هي المسـبّب الأوّل لكلّ أشكال الوهن النفسيّ الذي يظهر أحيانًا بصورة التسويف وتأجيل الإصلاح والخمول والتباطؤ الذي يُعدّ من مظاهر الإثم.

شواهد إضافية

* إنّ - الإقبال لا يتحقّق في الحقيقة الجهليّة، لأنّه يقوم على أصلين شريفين: الأوّل: الإعراض الكامل عن أنانيّة هذا العالم وإنيّته، وهو يشتمل على ترك أنانيّة نفسه أيضًا، في حين أنّ التّوجّه للنّفس والأنانية والإنيّة والعجب تشتدّ في الجهل كلّما تقدّم في المراقي الجهلية، ولذلك لم تثمر صلاةُ الشيطان على مدى أربعة آلاف سنة سوى ترسيخ الأنانية والعجب والتفاخر فيه؛ حتّى آل به الحال إلى التجرّي وإطلاق قول: "خلقتني من نار وخلقته من طين"، في الإجابة عمّا أمر به الحقّ تبارك وتعالى، فعمي عن رؤية نورانية آدم عليه السلام بسبب غرقه في غاية الجهل والعجب وحبّ النّفس، ووقع بسبب ذلك في قياس المغالطة.[263]

* بالجملة، ما كان في هذا السّلوك الإلهيّ والسّير إلى الله مانعًا من السّير وشوكًا في الطريق فهو الشّيطان أو مظاهره التي تكون أعمالها أيضًا من عمل الشّيطان. وما كان من عوالم الغيب والشّهود والعوارض الحاصلة للنّفس وحالاتها المختلفة حجابًا لجمال المحبوب، سواء أكان من العوالم المُلكيّة الدّنيويّة، كالفقر والغنى والصّحّة والمرض والقدرة والعجز والعلم والجهل والآفات والعاهات، وغيرها، أو كان من العوالم الغيبيّة التّجرّديّة والمثاليّة كالجنّة وجهنّم والعلم المتعلّق بها، حتّى العلوم العقليّة البرهانيّة الرّاجعة إلى توحيد الحقّ وتقديسه، كلّ ذلك من حبائل إبليس التي تمنع الإنسان عن الحقّ والأنس به والخلوة معه، وتشغله بها، بل حتى الاشتغال بالمقامات المعنويّة والوقوف في المدارج الرّوحانيّة، الذي ظاهره الوقوف في الصّراط الإنسانيّ، وباطنه الوقوف في صراط الحقّ - الذي هو الجسر الرّوحانيّ لجهنم الفراق والبعد، وينتهي إلى جنّة اللقاء وهذا الجسر مخصوص بطائفة قليلة من أهل المعرفة وأصحاب القلوب - هو من الحبائل العظيمة لإبليس الأبالسة، ولا بدّ من الاستعاذة منه بذات الحقّ المقدّسة جلّ شأنه.[264]

* اعلم أنّ خدع النفس الأمّارة والشيطانين الداخلي والخارجي كثيرة، وما أكثر ما تحوّل الإنسان عن الله باسم الله واسم خدمة خلق الله وتسوقه

باتّجاه نفسه وآمال نفسه.[265]

* ما أكثر ما يخدعنا شيطان النفس، نحن الشيّب وأنتم الشبان، بوسائل مختلفة، فنحن الشيوخ يواجهنا بسلاح اليأس من الحضور وذكر الحاضر فينادي: لقد فاتكم العمر، وتصرّم وقت الإصلاح ومضت أيام الشباب التي كان ممكنًا فيها الاستعداد والإصلاح، ولا قدرة لكم في أيام ضعف الشيخوخة هذه على الإصلاح، فقد استحكمت جذور شجرة الأهواء والمعاصي في جميع أركان وجودكم وتشعّبت فروعها، فأبعدتكم عن اللياقة لمحضره جلّ وعلا، وضاع كلّ شيء! فما أحرى أن تستفيدوا من هذه الأيام الباقية من أعماركم أقصى ما يمكن من الاستفادة من الدنيا.[266]

* من مكائد الشيطان الكبرى والنفس الأخطر منه أنّهما يعدان الإنسان بالإصلاح في آخر العمر وزمان الشيخوخة، ويؤخّران التهذيب والتوبة إلى الله إلى الزمان الذي تصبح فيه شجرة الفساد وشجرة الزقوم قوية والإرادة والقدرة على التهذيب ضعيفتين بل ميتتين.[267]

* بني: أتحدث إليك الآن وأنت ما زلت شابًّا، عليك أن تنتبه إلى أن التوبة أسهل على الشبان، كما أنّ إصلاح النفس وتربيتها يتم بسرعة أكبر عندهم. في حين أنّ الأهواء النفسانية والسعي للجاه وحبّ المال والغرور أكثر وأشدّ بكثير لدى الشيوخ منه لدى الشبان. أرواح الشبان رقيقة شفافة سهلة القياد، وليس لدى الشبان من حبّ النفس وحبّ الدنيا بقدر ما لدى الشيوخ. فالشاب يستطيع بسهولة ـنسبيًّاـ أن يتخلص من شرّ النفس الأمّارة بالسوء، ويتوجّه نحو المعنويات. وفي جلسات الوعظ والتربية الأخلاقية يتأثر الشبان بدرجة كبيرة لا تحصل لدى الشيوخ - فلينتبه الشبان، وليحذروا من الوقوع تحت تأثير الوساوس النفسانية والشيطانية، فالموت قريب من الشبان والشيوخ على حدٍّ سواء وأيّ من الشبان يستطيع الاطمئنان إلى أنّه سيبلغ مرحلة الشيخوخة؟ وأيُّ إنسان مصون من حوادث الدهر؟ بل قد يكون الشبان أكثر تعرضًا لحوادث

الدهر من غيرهم. لا تضيّع الفرصة من يديك، واسعَ لإصلاح نفسك في مرحلة الشباب.[268]

* بني! إنّني أتحدث الآن معك أنت الشاب. عليك أن تلتفت أنّ التوبة أسهل على الشباب وأنّ إصلاح النفس وتربية الباطن يتمّان بسرعة أكبر. فالأهواء النفسية وطلب الجاه وحب المال والعجب يكون عند الشيوخ أكثر بكثير من الشباب، وروح الشباب لطيفة ومرنة ولا يوجد في الشباب حبّ النفس وحبّ الدنيا بمقدار ماهو موجود عند الشيوخ. والشاب يستطيع بسهولة نسبية أن يحرّر نفسه من شرّ النفس الأمّارة ويميل إلى المعنويات. وفي جلسات الموعظة والأخلاق يتأثر الشباب أكثر من الشيوخ. فليلتفت الشباب ولا ينخدعوا بالوساوس النفسية والشيطانية. إنّ الموت قريب من الشباب والشيوخ بنفس النسبة. فأي شاب يستطيع أن يضمن بلوغه الشيخوخة؟ وأي إنسان مصون من حوادث الدهر؟ إنّ الحوادث اليومية أقرب من الشباب.[269]

* إنّ أيام الشباب أنسب لإصلاح النفس، فـالإرادة تكون أقوى فيها، والكدورة والظلمة أقلّ انتشارًا في النفس، ونحن فيها أقرب إلى الفطرة السليمة، وثقل المعاصي لم يزدد إلى الدرجة التي يصعب معها تلافي الأمر.

ليعرف الشباب قدر هذه الأيام، فهي نعمة عظيمة لا ينبغي لهم تضييعها بالغفلة، فإنّ إصلاح النفس أيام الشيخوخة صعبٌ للغاية، حيث تحيط بالإنسان في أيام شيخوخته مشاكل كثيرة لا أثر لها في أيام الشباب.[270]

* يا أيّها العزيز يا من تقرأ هذه الوريقات، خذ العبرة من حال هذا الكاتب الذي يرزح الآن أو مستقبلًا تحت الثرى، وهو في العالم الآخر مبتلًى بأعماله وأخلاقه البشعة. لقد ضيّع الفرصة الثمينة التي كانت عنده بالبطالة والأهواء، فأتلف ذلك الرأسمال الإلهي وأباده. فانتبه إلى نفسك لأنك ستكون يومًا مثلي من دون أن تعلم متى يكون ذلك. فلعلّك الآن

وأنت مشغول بالقراءة، إذا تباطأت ذهبت الفرصة من يدك. يا أخي، لا تؤجّل هذه الأمور لأنّها لا تحتمل التأجيل، فكم من إنسانٍ سليم وقوي فاجأه الموت في لحظة وأخرجه من هذه الدنيا إلى العالم الآخر ولّا نعلمّ عن مصيره شيئًا. إذًا، لا تضيّع الفرصة، بل اغتنم اللحظة الواحدة، لأنّ القضية عظيمة الأهمية، والرحلة شديدة الخطورة. فإذا قصّر الإنسان في هذه الدنيا التي هي مزرعة الآخرة، يكون السيف قد سبق العذل، ولن تستطيع إصلاح فساد النفس، ولا يكون نصيبك سوى الحسرة والندم والذل. إنّ أولياء الله لم يخلدوا إلى الراحة أبدًا، وكانوا دائمي الخوف من هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر. إنّ حالات علي بن الحسين عليه السلام، الإمام المعصوم، تثير الحيرة. وأنين أمير المؤمنين علي عليه السلام، الوليّ المطلق، تبعث على الدهشة. ما الذي جرى لنكون على هذا القدر من الغفلة؟! من الذي جعلنا نطمئن؟! إنّه لا يغرينا أحد بتأجيل عمل اليوم إلى الغد إلا الشيطان.[271]

* من مكايد الشيطان وأحابيله التي يصطاد بها عادةً الشباب، أن يسوّل للشاب عمل المنكر واقتراف الذنب بتبريرات كالقول إنك لا تزال شابًّا، وهذه أيامك عشها، وإن شاء الله حين تصبح شيخًا تعوّض ما فاتك وهذا ما لن يحصل أبدًا. فإن ربّى الإنسان نفسه منذ أيام الشباب تربّى، ولكن إن انتظر إلى الشيخوخة فلن يقدر على شيء لأنّ قواه تكون قد ضعفت، وتلك الشجرة التي زرعها الشيطان في قلبه قد قويت وشجرة قوية لا يمكن للإنسان أن يقتلعها بهكذا إرادة ضعيفة .. هذه من الأمور التي تقلقني، كما يجب أن تُقلِقَ السادة أيضًا وتدعوهم أينما كانوا إلى توصية أهل العلم بها وتحذيرهم من الدنيا. فلا تتخيّلوا أنّ الدنيا هي هذه الطبيعة، فإنّ الله تبارك وتعالى لم ينفِ شيئًا من هذه الطبيعة، بل هناك روايات كثيرة مدحتها وتحدّثت عنها فهي مظهرٌ من المظاهر الإلهية. فالدنيا هي تلك الساكنة فينا وتبعدنا عن مبدأ الكمال، وتشغلنا بنفسنا ونفسياتنا. الدنيا المذمومة هي تعلّق الإنسان وانشغاله بشيء

غير الحقّ، حتّى ولو كان مسبحةً أو كتابًا، وليس ببعيد أن يكون من تعلّق قلبه بالمسبحة والكتاب، هو أكثر انشغالًا واهتمامًا بالدنيا ممّن تعلّق قلبه بحديقة أو بستان، فعلى الإنسان أن ينتبه دائمًا إلى أنّه راحل، وغير مكتوبٌ علىً جبينه كم يعمّر، فإنّ القليلين من يصلون إلى سنّ الشيخوخة.[272]

20

كيف نجعل خروج أنفسنا من هذه الدنيا سهلًا؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«وليُعلـم أنّه لا يمكن تمثّل الجبروتيّـين والملكوتيّين في قلب البشر وصدره وحسّه إلّا بعد خروجه من الجلباب البشريّ وحصول المناسبة بينه وبين تلـك العوالم، وإلّا فما دامت النفس مشـتغلة بالتدبيرات الملكيّـة وغافلـة عـن تلك العـوالم، لا يمكـن أن تحصـل لها هذه المشاهدات أو التمثّلات.»[273]

للنفس جلباب تسـتعمله في هذا العالم الطبيعي لأجل مآرب طبيعية، فإذا التحمت به صارت نفسًا طبيعية تتبع الجسد في أحواله. فإذا جاء وقت خلع هذا اللباس، فسوف ترفض أشدّ الرفض الخروج منه. ولا بدّ من أن تتآزر ملائكة الموت لتوفية النفس بالقوّة القاهرة: {**فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ**}.[274] أمّا من عرف سرّ وجود الجلباب البشريّ في هذا العالم فإنّه سيعمل على أن يتمكّن من الخروج منه متى ما شاء. فهو مجرّد جلباب يرتديه لأجل القيام بمهام عالم الطبيعة، وهو يعلم أنّ حقيقته هي التي تتّصل بالملكوت والجبروت، وأنّ شـأنه أن يكون من سكان تلك العوالم العليا، فلا يشـغل النفس بالاهتمام بعالم الطبيعة إلّا بما يتناسـب مع السـفر واللحاق بموطنه الأصلي وهو يطبّق موعظة أمير المؤمنين عليه السلام: «فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُم».[275]

شواهد إضافية

* إنّ حبّ الدنيا والنّفس بمثابة الجذر الأصلي لشجرة الإنسان، ومنه يتفرّع الحرص والطمع وحبّ الزوجة والبنين والمال والجاه وأمثالها، فإن كانت هذه الفروع ضعيفة في نفس الإنسان مثل النبتة الفتيّة. لم يكن من الصّعب فصل الإنسان عنها ونقله إلى العالم الآخر؛ فلا يحتاج الأمر في هذه الحال إلى شدّة الضغط من قبل ملائكة الله الموكلين بقبض الروح؛ ولا إلى شدّة الضغط على روح الإنسان ونفسه. ولكن إذا امتدّت، لا سمح الله، جذور تلك الفروع الخبيثة في أرض عالم الطبيعة وترسّخت وانتشرت فيها، فإنّ رسوخها وانتشارها لن يكون مثل رسوخ جذور الشجرة وانتشارها، لأنّه سيمتد إلى جميع أرجاء عالم الطبيعة؛ كما أنّ الشجرة مهما كبُرت لا تمتد جذورها في الأرض لأكثر من بضعة أمتار، ولكن جذور شجرة حبّ الدنيا تمتدُ في جميع أرجاء عالم الطبيعة الظاهرة منها والباطنة فتخضع جميع العالم لشهوات فروع هذه الشجرة الخارجية، ولهذا لن يكون ممكنًا قلع هذه الشجرة بسلام![276]

* نفوسنا متعلقة بالدنيا إلى هذا الحد، وإذا كنا كذلك ولم نهذب أنفسنا فإنّه لن تكون لدينا الاستقامة وسنكون منكوسين، فإنّ هذا الإخلاد إلى الأرض والاهتمام بها والنظر إلى المرتبة الدنيا وترك الجانب الروحي ستكون نتيجته أنّ الإنسان سيتحوّل في ذلك العالم إلى حيوان منكوس الرأس. كل ما قام به الإنسان سيكون موجودًا هناك، لكلّ شيء يحدث هنا صورة هناك. إذا فرضنا أنّ الإنسان مستقيم القامة فإنّه عندما يركّز اهتمامه على الجانب المادّي سوف ينحني نحوه ويفقد الاستقامة هذه، مثل الحيوانات التي يميل رأسها نحو الأرض.[277]

* وبما أنّ حبّ البقاء فطري في الإنسان، فهو يكره الزوال والفناء، ويظن أنّ الموت، فناء. ولو أنّه آمن بعقله بأنّ هذه الدنيا دار فناء ودار ممر، وأنّ العالم الآخر عالم بقاء سرمدي، فما دام إيمانه العقليّ هذا يكون موجودًا، ولم يدخل الإيمان قلبه، بل ولم يحصل الاطمئنان الذي هو المرتبة الكاملة للإيمان القلبي. فهو لا يزال يميل فطرةً، إلى الدنيا والبقاء فيها كما طلب

إبراهيم خليل الرحمن من الحقّ المتعال هذا الاطمئنان، فأنعم به عليه.
إذًا، إمّا أنّ القلوب لا تؤمن بالآخرة، مثل قلوبنا، وإن كنّا نصدّق بها تصديقًا عقليًّا، وإما أنّها لا اطمئنان فيها، فيكون حبّ البقاء في هذا العالم، وكراهة الموت والخروج من هذا العالم في القلب موجودًا. ولو أدركت القلوب أنّ هذه الدنيا هي أدنى العوالم، وأنّها دار الفناء والزوال والتصرّم والتغيّر، وأنّها دار الهلاك ودار النقص، وأنّ العوالم الأخرى التي تكون بعد الموت عوالم باقية وأبدية، وأنّها دار كمال وثبات وحياة وبهجة وسرور، لحصل فيها بالفطرة حبّ تلك العوالم، ولنفرت من هذه الدنيا.[278]

* فلا بد أن نعرف بأنّ كراهتنا للموت، وخوفنا منه نحن الناقصين، لأجل... أنّ الإنسان حسب فطرته التي فطرها الله سبحانه، وجبلّته الأصيلة، يحب البقاء والحياة، ويتنفر من الفناء والممات، وهذا يرتبط بالبقاء المطلق والحياة الدائمية السرمدية، أي البقاء الذي لا فناء فيه والحياة التي لا زوال فيها. إن بعض الكبار قد أثبتوا المعاد يوم القيامة مع هذه الفطرة التي تحب الحياة والبقاء، حسب بيان يوجب ذكره هنا الخروج عن المقصود. وحيث أنّ في فطرة الإنسان هذا الحب وذاك التنفر، فإنّه يحب ويعشق ما يرى فيه البقاء، ويحب ويعشق العالم الذي يرى فيه الحياة الخالدة، ويهرب من العالم الذي يقابله. وحيث إننا لا نؤمن بعالم الآخرة، ولا تطمئن قلوبنا نحو الحياة الأزلية، والبقاء السرمدي لذلك العالم، نحب هذا العالم، ونهرب من الموت حسب تلك الفطرة والجبلة.[279]

* إنّ من المفاسد الكبيرة لحبّ الدنيا - كما كان يقول شيخنا العارف (روحي فداه) - هو أنّه إذا انطبع حبّ الدنيا على صفحة قلب الإنسان، واشتدّ الأنس بها، انكشف له عند الموت أنّ الحقّ المتعال يفصل بينه وبين محبوبه، ويفرّق بينه وبين مطلوبه، فيغادر الدنيا ساخطًا مغتاظًا على وليّ نعمته. إنّ هذا القول القاصم للظهر يجب أن يوقظ الإنسان أيّما إيقاظ للحفاظ على قلبه. فالعياذ بالله من إنسان يسخط على وليّ نعمته، مالك الملوك الحقّ، إذ ليس أحد يعرف صورة هذا السخط والعداء، غير الله تعالى.

ويقول شيخنا المعظم - دام ظله - نقلًا عن أبيه المعظّم، إنّه كان في أواخر عمره خائفًا بسبب المحبة التي كان يكنّها لأحد أولاده، ولكنّه بعد الانهماك بالرياضات النفسية تخلّص من ذلك الخوف، وانتقل إلى دار السرور مسرورًا، رضوان الله عليه.

جاء في «الكافي» بإسناده عن طلحة بن زيد، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: «مَثَلُ الدُّنيا كَمَثَلِ ماءِ البحرِ كُلَّما شَرِبَ مِنْهُ العطشانُ ازدادَ عَطَشًا حَتَّى يقتل».[1]

إنّ حبّ الدنيا ينتهي بالإنسان إلى الهلاك الأبدي، وهو أصل البلايا والسيّئات الباطنية والظاهرية وقد نقل عن رسول الله صلّى الّه عليه وآله وسلّم قول: «إِنَّ الدِّرْهَمَ وَالدِّينَارَ أَهْلَكَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَهُمَا مُهْلِكَاكُمْ».

وعلى فرض أنّ الإنسان لم يرتكب معاصي أخرى - على الرغم من أنّ هذا الفرض بعيد، أو من المستحيل عادة - فإنّ التعلّق بالدنيا نفسه معصية، بل إنّ مقياس طول بقاء الإنسان في عالم القبر والبرزخ هو أمثال هذه التعلّقات. فكلّما كان التعلّق بالدنيا أقل كان البرزخ وقبر الإنسان أكثر نورًا وأوسع، ومكثه فيه أقصر. لذلك فقد ورد في بعض الروايات: إنّ عالم القبر لأولياء الله لا يزيد عن ثلاثة أيام، وإنّما كان هذا لأجل التعلّق الطبيعيّ والعلاقة الجِبِلّية لأولياء الله تجاه العالم.

وإنّ من مفاسد حبّ الدنيا والتعلّق بها هو أنه يجعل الإنسان يخاف الموت. وهذا الخوف الناشئ من حبّ الدنيا، والتعلق القلبي بها المذموم جدًّا. غير الخوف من المرجع - مآل الإنسان بعد الموت - المعدود من صفات المؤمنين. إنّ أهم صعوبة في الموت هي ضغوطاته لرفع هذه العلائق، والخوف من الموت. يقول المحقق المدقق الإسلامي البارع، السيد العظيم الشأن، الداماد، كرّم اللّه وجهه، في كتابه «القبسات» الذي يعد من الكتب النادرة: «لاَ يُخيفنك الموتُ، فإنَّ مَرارَته في خوفه».[2](الأربعون حديثًا)

1 - أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب ذم الدنيا ح 54.

2 - قبسات ميرداماد، ص 72.

21

كيف يكون الإيمان عاملًا لتقوية نفوسنا؟

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«إذا سـمحنا لحـبّ الدنيا وحـبّ النفس أن يطغـى فينا هكذا، ويحول بيننا وبين رؤية الحقائق وإدراك الواقع، فسـيصبح سـدًّا في طريق هدايتنا، وسـوف تزداد هذه الحالـة تدريجيًّا إلى الحدّ الذي يطمح فيه الشـيطان بسلبنا إيماننا، فكل هذه الأمور وسائل يتوسّل بها الشيطان ليسلب الإنسان الإيمان. وسيسلبنا الشيطان إيماننا آخر الأمر، وليس لدى أحدنـا ضمانة ببقاء إيمانه على صفائه، فقد يكون إيمانًا مستودعًا».[280]

إحدى خصائـص النفس المعروفة أنّها قد تنال كمالًا أو مقامًا ولا يكون لها بالأصالة. أي أنّ هذا الكمال يكون بمنزلة الوديعة التي توضع فيها عسى أن تستأنس بها وتستقبلها فتّتحد بها.

ويكون هذا الكمال المسـتودع بمنزلة الاختبار الذي يجب أن يعرف الإنسـان كيفيّة المحافظة عليه. ولا شـك بأنّ أهم عنصر لحفظ الأمانة أن يلتفت المسـتأمن أنّ الوديعة عنده هي ليست له.

وللأسف فإنّ حبّ النفس يجعلنا نرى ما لدينا من ودائع وكرامات أنّها من صناعة أنفسنا ومستحقّاتها. فإذا نسينا معنى الأمانة، لن نقدر على حفظ الوديعة وسرعان ما تزول.

وإنّ من أعظم الأمانات التي تودع في قلب الإنسـان هو الإيمان. فلا ينبغي أن ننسى

إنّ مــن أعظم الأمانات التي تودع في قلب الإنســان هو الإيمــان، ولا يمكن حفظ هــذه الوديعة مع وجود حبّ النفس والدنيا.

أنّ أي درجة من الإيمان ليست سوى وديعة إلهية علينا أن نحفظها إلى يوم القيامة، ولا يمكن حفظ الوديعة مع وجود حبّ النفس والدنيــا. فلا خطر على الإيمــان أعظم من هذه الحالة السلبية التي حذّر منها الإمام.

شواهد إضافية

* الإنسان الخائف لا يتجاسر في محضر الكبرياء على مقامه المقدّس، ولا يهتك الحرمات الإلهيّة في حضور الحقّ. وإذا قوي الإيمان، بتلاوة الآيات الإلهيّة، يسري نور الإيمان إلى المَمْلكة الظاهريّة أيضًا. فمن غير الممكن أنْ يكون القلب نورانيًّا ولا يكون اللسان والكلام والعين والنّظر والأذن والاستماع نورانيًّا. فالبشر النّورانيّ هو الذي تكون جميع قواه المُلكيّة والمَلَكوتيّة منيرة، فمضافًا إلى هداية نفسه إلى السّعادة والطريق المستقيم، يكون مضيئًا لسائر الخلق أيضًا، ويهديهم إلى طريق الإنسانيّة. كما أنّه إذا توكّل أحدٌ على الله تعالى واعتمد عليه، يقطع الطمع عمّا في أيدي الآخرين، ويحطّ رحل حاجته وفقره عند باب الغنيّ المطلق، ولا يرى الذين هم مثله فقراء ومساكين حلّالين لمشاكله.[281]

* واحذر من الخطر الذي يحل في اللحظات الأخيرة من الانفصال عن هذا العالم والرحيل إلى المستقر الأبديّ، وهو أنّ الإنسان المبتلى بحبّ النفس وحبّ الدّنيا- بأبعادها المختلفة- على أثر ذلك من الممكن أن يكتشف ويدرك في حال الاحتضار أنّ مأمور الله سيفصله عن محبوبه ومعشوقه، ليرحل وقد عادى الله - جلّ وعلا - وغضب عليه وتنفّر منه وهذه هي عاقبة حبّ النفس والدنيا وقد وردت الإشارة إليها في الروايات. نقل شخص متعبّد وموثوقٌ به أنّه وقف عند سرير شخص كان يحتضر فقال المحتضر: «إن الظلم الذي يمارسه الله عليّ لم يفعله أحدٌ آخر، إنّه يريد أن يفصلني عن أطفالي هؤلاء الذين ربّيتهم بدم قلبي. فقمت وغادرت ثمّ مات». بالطبع، من الممكن أن تختلف روايتي بعض الاختلاف عمّا قاله ذلك العالم المتعبّد، وعلى أي حال فإنّ ما قلته على فرض صحّته، مهم إلى درجة بحيث أنّ الإنسان يجب أن يفكّر في حلٍّ له.[282]

* الرغبة في الدنيا وزخرفها والتوجّه لزينتها وحبّها، من أعظم جند إبليس والجهل، ومن أدقّ مكائد النفس التي توقع الإنسان في أسر البلاء، وتضلّه عن طريق الهداية والرشد، وتحرمه من ثمرة الإنسانية وتمنعه من التمتّع بثمار شجرة الولاية.[283]

* عليك أن تنتبه! فهناك خطر قد يعترض الإنسان في اللحظات الأخيرة من عمره، وهو يهمّ بمغادرة هذا العالم، والانتقال إلى مستقرّه الأبديّ. فإنّ ذلك قد يجعل المبتلى بحبّ النفس وما يولّده من حبّ الدنيا. بأبعادهما المختلفة - يرى وهو في حال الاحتضار، وحيث تنكشف للإنسان بعض الأمور فيراها عيانًا، أن "مأمور الله" جلّ وعلا يريد فصله عن محبوبه ومعشوقه! فيرحل عن هذه الدنيا وهو غاضب على الله جل وعلا متنفرٌ منه! وهذه عاقبة وثمرة حبّ النفس والدنيا، وقد أشارت إلى ذلك الروايات المختلفة.[284]

* في مستدرك الوسائل عن كتاب الجعفريات مسندًا لأمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «الإيمان له أركان أربعة: التوكّل على الله، والتفويض إليه، والتسليم لأمر الله تعالى، والرّضا بقضاء الله".

ينبغي التنبّه إلى أنّ الإيمان هو من جهة ركنٌ لمثل هذه الملكات النفسانيّة والأحوال القلبيّة الفاضلة... كما أنّ هذه الملكات والأحوال هي من جهة أخرى أركان للإيمان الذي تبقى حقيقته محفوظة بها، أي أنّ الإيمان - في إحدى مراتبه - يثمر هذه الملكات والفضائل، فإذا ظهرت في النفس وترسّخت فيها، نقلته إلى مرتبة إيمانيّة أكمل، تثمر بدورها مرتبة أكمل من تلك الملكات والفضائل، وهكذا فإنّ كل مرتبة تستند إلى المرتبة الأخرى. وبهذا يمكن الجمع بين الكثير من الآيات الكريمة، وكذلك الجمع بين الكثير من الأحاديث الشريفة.[285]

22

كيف يكون
القرآن الكريم
عاملًا لتفعيل طاقاتنا؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«غايــة تلاوة القرآن عــلى البشر هي أن تحــدث التزكية وتصفى النفــوس من هــذه الظّلمات الموجــودة فيها حتى تكــون أرواحهم وأذهانهــم بعد أن تُصفّى قادرة على فهم الكتاب والحكمة. فالغاية هي التزكية من أجل فهم الكتاب والحكمة. فلا تســتطيع النفس أن تدرك هذا النور المتجلّي والمتنزّل من الغيب الذي وصل إلى الشهادة. فــإنّ تعليــم الكتاب والحكمة غــير ميسّر طالما أنّــه لا توجد تزكية، فيجــب تزكية النفوس من كلّ التلوّثــات، فأكبر تلوّث هو عبارة عن تلوّث النفس بأهوائها النفسانية. ما دام الإنسان في حجاب نفسه، لا يستطيع أن يدرك هذا القرآن الذي هو نور، وطبقًا لما ورد في القرآن فهو نور ولا يســتطيع الغارقون في حجابهم وخلف حجبهم وهم كثر أن يدركوا هذا النور. يظنّون أنّهم يستطيعون، ولكنّهم لا يستطيعون. فلا يكون الإنســان أهلًا لكي ينعكس هذا النور الإلهيّ في قلبه ما دام غير قادر أن يخرج من حجابه الشــديد الظلمة، ما دام أسيرًا لأهوائه النفســية، ما دام أســيرًا للأنانية، وما دام أسيرًا لأشياء قد أوجدها في باطن نفســه من ظلمات بعضها فــوق بعض. فإنّ الذين يريدون أن يفهموا القرآن ومحتواه، وليس صورته النازلة الصغيرة، ويريدون أن يفهموا محتوى القرآن بحيث أنهم كلما قرأوا أكثر ارتفعوا أكثر، وكلّما

قرأوا أكثر اقتربوا من مبدأ النور والمبدأ الأعلى، فهذا لا يمكن إلّا برفع الحجب ورفع حجاب النفس من الداخل حتّى تستطيع أن تدرك هذا النور كما هو. إذاً، فإحدى الغايات هي أن يعلم الكتاب بعد التزكية، والتعليم والحكمة بعد التزكية.»[286]

القرآن مهد التّجربة الرّوحيّة الكبرى. بل لا يوجد ما هو أعظم من هذه التجربة. حين نتحدّث عن مشـاعر النفس وإدراكاتها، وعن لذّاتها الحقيقية وبهجاتها، فنحن نتحدّث عن تجربة روحية مميّزة. وإذا أردنا أن ننال حظًّا من هذه التجربة، فما علينا سـوى أن نقرأ القرآن ونتبع تلاوته.

القرآن مهد التّجربة الرّوحيّة الكبرى، وشرط نيـل صفاء القـرآن ولذّته أن تكـون النفـس طاهرة مـن الرجس وخالية من الرذيلة.

لكـن، ألا يبـدو أنّ معظمنـا يعاني من ضعف هذه التجربة. ورغم أنّنا نقرأ القرآن ليل نهـار، لكنّنا قلّما نشـعر بذلك الأنس الذي يتحدّث عنه أولياء الله تعالى.

وهنا يأتي الإمام ليكشـف عن السـبب الجوهـريّ وراء هذا الإخفـاق. ويقول بأنّ شرط نيـل صفاء القرآن ولذّتـه أن تكون النفس طاهرة من الرجس وخالية من الرذيلة. فهو نورٌ طاهر لا يمكن أن يشـوبه أي شيء سـوى الله. وإنّما نُحرم من هذا الطهر لأنّنا نريد أن نضع ذلك النور في وعاء غير نظيف وغير طاهر.

شواهد إضافية

* فوظيفة السّالك إلى الله، هي أنْ يعرض نفسه على القرآن الشّريف، فكما أنّ الميزان في صحة الحديث وعدم صحته، واعتباره وعدم اعتباره، أنْ يعرضه على كتاب الله، فما خالف كتاب الله فهو باطل وزخرف. كذلك الميزان في الاستقامة والاعوجاج والشّقاء والسّعادة، هو أنْ يكون مستقيمًا وصحيحًا في ميزان كتاب الله. وكما أنّ خُلق رسول الله هو القرآن، فعليه أنْ يجعل خُلقه موافقًا للقرآن، حتّى يكون مطابقًا لخُلق الوليّ الكامل أيضًا. والخُلق الذي يكون مخالفًا لكتاب الله فهو زخرف وباطل.

وكذلك جميع المعارف، وأحوال قلبه، وأعمال الباطن والظاهر، لا بدّ أنْ يطبّقها على كتاب الله ويعرضها عليه، حتى يتحقّق بحقيقة القرآن، ويكون القرآن صورته الباطنيّة.

وأنتَ الكتابُ المبينُ الذي   بأحرفِهِ يظهرُ المضمرُ.[287]

* من الحجب المانعة من فهم القرآن الشّريف، ومن الاستفادة من معارف هذا الكتاب السّماويّ ومواعظه، حجاب المعاصي والكدورات الحاصلة من الطغيان وعصيان ساحة رب العالمين المقدّسة؛ فتحجب القلب عن إدراك الحقائق.[288]

* من الحجب الغليظة التي هي ستر سميك بيننا وبين معارف القرآن ومواعظه: حجاب حبّ الدّنيا، حيث يصرف القلب بسببه تمام همّته في الدّنيا، وتصبح وجهة القلب مقبلة على الدنيا بالكامل، ويغفل القلب بواسطة هذه المحبّة عن ذكر الله، ويعرض عن الذكر والمذكور. وكلّما ازداد التعلّق بالدنيا وأوضاعها، ازداد حجاب القلب وساتره ضخامة. وقد يتغلّب هذا التعلّق على القلب، ويتسلّط سلطان حبّ الجاه والشّرف عليه، بحيث يطفىء نور فطرة الله بالكامل، وتُغلق أبواب السّعادة على الإنسان. ولعلّ المراد من أقفال القلوب المذكورة في الآية الشّريفة {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}،289 أغلال العلائق الدّنيويّة. ومن أراد أنْ يستفيد من القرآن، ويأخذ نصيبه من المواعظ الإلهيّة، لا بدّ وأنْ يطهّر القلب من هذه

الأرجاس، ويزيل لوث المعاصي القلبيّة - وهي عبارة عن الاشتغال بالغير - عن القلب، لأنّ غير المطهّر ليس محرمًا لهذه الأسرار. قال تعالى: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ}.[290] فكما أنّ غير المطهّر الظاهريّ ممنوعٌ عن ظاهر هذا الكتاب ومسّه في العالَم الظاهر تشريعًا وتكليفًا، كذلك ممنوع من معارفه ومواعظه وباطنه وسرّه، مَنْ كان قلبُه متلوّثًا بأرجاس التعلّقات الدّنيويّة؛ قال تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}،291 إلى آخره. فغير المتّقي وغير المؤمن، بحسب تقوى وإيمان العامّة، محرومٌ من الأنوار الصّوريّة لمواعظه وعقائده الحقّة. وغير المتّقي وغير المؤمن، بحسب سائر مراتب التّقوى، الخاصّ منها وخاص الخاصّ وأخصّ الخواص، محرومٌ من سائر مراتبها. والتّفصيل حول تلك المراتب، وذكر سائر الآيات الدّالّة على المقصود موجب للتّطويل، ولكنْ نختتم هذا الفصل بذكر آية شريفة إلهيّة تكفي لأهل اليقظة، بشرط التدبّر فيها، قال تبارك وتعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.[292] [معراج السالكين]

* الهدف الأصلي لجميع الشرائع الإلهية هو نشر المعارف، وهذا ما لا يتحقّق إلّا بمعالجة النفوس وإبعادها عن ظلمة الطبيعة، وتحريرها منها ونقلها إلى عالم النور.[293]

* من الحجب العظيمة: حجاب رؤية النّفس، حيث يرى المتعلّم نفسه بسبب هذا الحجاب، مستغنٍ أو غير محتاج للاستفادة. وهذا الأمر هو من أكبر مكائد الشيطان، حيث يزيّن للإنسان دائمًا تلك الكمالات الموهومة، ويُرضيه ويُقنعه بما هو فيه، ويُسقط من عينه كلّ ما ليس بحوزته. فمثلًا، يُقنع أهلَ التّجويد بذاك العلم الجزئي، ويزيّنه في أعينهم، ويُسقط سائر العلوم من أعينهم، ويُطبّق معنى "حَمَلَة القرآن" عليهم، ويحرمهم من فهم الكتاب الإلهيّ النّورانيّ والاستفادة منه؛ ويُرضي أصحاب الأدب [اللغوي] بتلك الصّورة الفاقدة للّب، ويُمثّل جميع شؤون

القرآن بما عندهم؛ ويُشغل أهلَ التفاسير المتعارفة بوجوه القراءات والآراء المختلفة لأساطين اللغة، ووقت النزول وشأن النزول، وكون الآيات مكيّة أو مدنيّة، وتعدادها وتعداد الحروف، وأمثال تلك الأمور. ويُقنع أهل العلوم، أيضًا، بعلم فنون الدلالات ووجوه الاحتجاجات وأمثالها، حتّى أنّه يحبس الفيلسوف والحكيم والعارف الاصطلاحي، في الغليظ من حجاب الاصطلاحات والمفاهيم، وأمثال ذلك.

فعلى المستفيد أنْ يخرق جميع هذه الحجب، وينظر إلى القرآن منْ ورائها، ولا يتوقّف عند أيٍّ منها، لئلّا يتأخّر عن قافلة السّالكين، ويُحرم من الدّعوات الإلهيّة الجميلة.. ويُستفاد حُكمُ عدم الوقوف وعدم القناعة عند حدّ معيّن من القرآن الشّريف نفسه.[294]

* بالجملة، فإنّ الله تبارك وتعالى، لسعة رحمته بعباده، أنزل هذا الكتاب الشّريف من مقام قربه وقدسه، وتنزّل به على حسب ما يناسب العوالم، حتى وصل إلى هذا العالَم الظلمانيّ وسجن الطّبيعة، وصار على كسوة الألفاظ وصورة الحروف، لخلاص المسجونين في سجن الدنيا المظلم، ونجاة المغلولين بأغلال الآمال والأماني، وإيصالهم من حضيض النّفس والضعف والحيوانية إلى أوج الكمال والقوّة الإنسانيّة، ومن مجاورة الشّيطان إلى مرافقة الملَكوتيّين، بل الوصول إلى مقام القرب، وحصول مرتبة لقاء الله، التي هي أعظم مقاصد أهل الله ومطالبهم.[295]

* ذكر قصص الأنبياء عليهم السّلام، وكيفيّة سيرهم وسلوكهم، وكيفيّة تربيتهم عبادَ الله، وحكمهم مواعظهم ومجادلاتهم الحسنة هي من أعظم أبواب المعارف والحِكَم، وأعلى أبواب السّعادة والتّعاليم، وقد فتحها الحقّ تعالى وجلّ مَجده على عباده. فكما أنّ لأرباب المعرفة وأصحاب السّلوك، منها حظًا وافرًا ونصيبًا كافيًا، كذلك لسواهم أيضًا، نصيبٌ وافٍ وسهمٌ غيرُ محدود. فمثلًا، أهل المعرفة يدركون من الكريمة الشّريفة {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا}[296] إلى آخر الآيات، كيفيّة سلوك إبراهيم عليه السّلام وسيره المعنويّ، ويتعلّمون طريق السّلوك إلى الله

والسّير إلى جنابه، ويتعرفون إلى حقيقة السّير الأنفسيّ والسّلوك المعنويّ، من منتهى ظلمة الطّبيعة، التي عبّر عنها في ذلك المسلك بـ {جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ} إلى التّخلّص من مطلق الإنّيّة والأنانيّة، وترك النّفسانيّة وعبادة النّفس، والوصول إلى مقام القدس، والدّخول في محفل الأنس؛ حيث أشير في هذا المسلك إليه بقوله {وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}[297] .[298]

* فأي خسران أعظم من أن نقرأ الكتاب الإلهيّ مدّة ثلاثين أو أربعين سنة ونراجع التّفاسير، ثمّ نحرم من مقاصده! {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[299] .[300]

* فلا بدّ للإنسان أنْ ينال المقصود والنتيجة الإنسانيّة، وهي السّعادة، في الآيات الشّريفة للكتاب الإلهيّ وفي قصصه وحكاياته. وحيث إنّ السّعادة هي الوصول إلى السّلامة المطلقة وعالَم النّور والطريق المستقيم، فلا بدّ للإنسان أنْ يطلب من القرآن المجيد الشّريف سبل السّلامة ومعدن النور المطلق والطريق المستقيمة، كما أشير إليها في الآية الشّريفة السّابقة. فإذا أدرك القارئ المقصد، صار بصيراً في تحصيله، وانفتح له طريق الاستفادة من القرآن الشّريف، وفتحت له أبواب رحمة الحقّ، ولم يصرف عمره القصير العزيز ورأسمال تحصيل سعادته على أمور ليست مقصودة لرسالة الرّسول صلّى الله عليه وآله، ويكفّ عن فضول البحث والكلام، في مثل هذا الأمر المهمّ. فإذا أشخص بصيرته مدّة ما إلى هذا المقصود، وصرف نظره عن سائر الأمور، تتبصّر عينُ قلبه، ويكون بصره حديدًا، ويكون التفكّر في القرآن للنفس أمرًا عاديًّا، وتنفتح طرق الاستفادة، وتفتح له أبوابٌ لم تكن مفتوحة لحينها، ويستفيد مطالب ومعارف من القرآن ما كان لينالها بأيّ شكل. فحينها يفهم كون القرآن شفاء للأمراض القلبيّة، ويدرك مفاد الآية الشّريفة {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}،[301] ومعنى قول أمير المؤمنين صلواتَ الله عليه «وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ،

فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ». ولا يطلب من القرآن شفاء الأمراض الجسمانيّة فقط، بل يجعل عمدة المقصد شفاء الأمراض الرّوحانيّة الذي هو مقصد القرآن. فإنّ القرآن ما نزل لشفاء الأمراض الجسمانيّة، وإنْ كان يحصل به، كما أنّ الأنبياء، عليهم السّلام، لم يبعثوا للشفاء الجسمانيّ، وإنْ كانوا يشفون؛ فهم أطبّاء النّفوس والشّافون للقلوب والأرواح.[302]

* وبالجملة، مَنْ أراد أنْ ينال من القرآن الشّريف الحظَّ الوافر والفائدةَ الكافية، فلا بدّ له أنْ يطبّق كلّ آية شريفة من الآيات على حالات نفسه، حتّى تحصل له الاستفادة الكاملة.[303]

* أنا القائل الغافل وغير العامل أقول لابنتي تدبري القرآن الكريم، هذا المنبع للفيض الإلهي، ورغم أنّ صرف قراءته باعتباره رسالة المحبوب إلى السامع المحجوب له أثار محببة، لكنّ التدبر فيه يهدي الإنسان إلى المقامات الأعلى والأسمى {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}،[304] وما لم تُفتح هذه الأقفال والأغلال وتتحطم لا يحصل من التدبر ثمرته... يقول الله المتعال بعد قسم عظيم: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لاَ يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ}،[305] وطليعة أولئك هم الذين نزلت فيهم آية التطهير، أنتِ أيضًا لا تيأسي لأنّ اليأس من الأقفال الكبرى، اسعي قدر الميسور في رفع الحجب وكسر الأقفال للوصول إلى الماء الزلال ومنبع النور. ما دام الشباب في يدك فجدّي في العمل وفي تهذيب القلب وكسر الأقفال ورفع الحجب، فإنّ آلاف الشباب الذين هم أقرب إلى أفق الملكوت يوفقون لذلك ولا يوفق هرم واحد.[306]

* فيا عزيزي! استيقظ من هذه النومة الثقيلة وعالج هذه الأمراض المتنوعة بالقرآن والحديث، وتمسّك بالحبل الإلهي وبأذيال أوليائه المكرمين، فقد ترك فينا نبيُّ الله، صلّى الله عليه وآله، هاتين النعمتين الجميلتين لكي ننقذ أنفسنا بالتمّسك بهما من مستنقع الطّبيعة المظلم، ونتحرّر بهما من الأغلال، ونقتدي بسيرة الأنبياء والأولياء.[307]

23

كيف نزيد من إمكانات النفس وقدراتها؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«أولئــك الذين ينكرون مقامات العارفين ومنازل الســالكين لأنّهم أنانيــون مغرورون. فكل ما لا يعرفونــه لا يحملونه على جهلهم (لا يقولون قد يكــون صحيحًا ولكنّا نجهلــه) فينكرونه حتى لا تخدش أنانيتهم ويخدش عُجبهم (بأنفسهم). «أمّ الأصنام، صنم نفسك».»[308]

تبــدو مقامات العارفين الروحانيّين مثــل الخوارق التي لا ترتبط بحياتنا اليوميّة. بيد أنّها ليســت ســوى تنزّل الفيض والرحمة في نفوس الأولياء. فمن عرف الله وأدرك سعة رحمته يســتحيل أن ينكر أي ظهور لقدرته وفيضه. ولهذا، فإنّ إنكار المقامات يرجع إلى مشكلة واقعية في العلاقة مع الله تعالى والإيمان بحضوره في الحياة وتدبيره للكائنات.

أجل قد ينكر الإنســان اتّصاف الشخص الفلانيّ بالمقام العرفانيّ. وهنا تكون مشكلته مع هذا الشــخص بالذات؛ أمّــا إنكار المقامات من أصلها والقول باســتحالة تحقّقها في الإنسان فهو مشكلة مع الله تعالى.

وبدل أن تتّســع النفس بسعة رحمة الله والإقبال على فيضه والثّقة بعطائه وفضله، تضيق حين تصبح وجهتها الأنا وحبّ الذّات والأنانية. وبسبب هذا الضيق يتنكّر الإنسان لأيّ مظهرٍ عظيم للكمال والمقام، وقد يصبح العالم بالنســبة له مجرّد أحداث عشــوائيّة لا حكمة فيها ولا قيمة.

وعلى هذا الأســاس، فإنّ التوجّه إلى مقامات العظمة والاعتقــاد بإمكانية تجلّيها في الحياة هو الذي يوسّــع وعاء النفس. ولا شيء أولى وأهم لاســتقبال الفيض والكمال من تأمين الوعاء الواسع.

شواهد إضافية

* إنّ إخراج مملكة الظاهر من موطن العبوديّة، وإرسالها على رسلها هو من غاية الجهل بمقامات أهل المعرفة ومن تسويلات الشّيطان الرجيم. فإنّه يصدّ كلّ طائفة عن الحقّ تعالى بطريق خاصّ. كما أنّ إنكار المقامات وسدّ طريق المعارف، التي هي قرّة عين أولياء الله عليهم السّلام، وتحديد الشّرائع الإلهيّة بالظاهر الذي هو حظّ الدّنيا ومُلك النّفس ومقام حيوانيتها، والغفلة عن الأسرار والآداب الباطنيّة للعبادات التي توجب تطهير السّر وتعمير القلب وارتقاء الباطن، من غاية الجهالة والغفلة.. وكلّ من هاتين الطائفتين بعيدٌ عن طريق السّعادة والصّراط المستقيم للإنسانية، ومطرودٌ من مقامات أهل المعارف. والعارف بالله والعالِم بالمقامات لا بدّ له أنْ يراعي جميع الحقوق الباطنيّة والظاهرية، ويوصل إلى كل صاحب حقٍّ حقّه، ويطهّر نفسه من الغلوّ والتّقصير والإفراط والتفريط، ويزيل عن نفسه قذارة إنكار صورة الشّريعة الذي هو في الحقيقة تحديدٌ، ويزيل عن نفسه خباثة إنكار باطن الشّريعة الذي هو تقييدٌ. وكلاهما من الوساوس الشّيطانية، ومن خبائث ذلك اللعين، حتى يتيسّر له طريق السّير إلى الله والوصول إلى المقامات المعنويّة.[309]

* إنّ أعظم القذارات المعنويّة التي لا يمكن تطهيرها بسبعة أبحر، وقد أعجزت الأنبياء العظام هي قذارة الجهل المركّب، الذي هو منشأ ذاك الدّاء العضال ألا وهو إنكار مقامات أهل الله وأهل المعرفة ومبدأ سوء الظنّ بأصحاب القلوب. وما دام الإنسان ملوّثًا بهذه القذارة، لن يتقدّم خطوةً واحدةً نحو المعارف. بل ربّما تطفىء هذه الكدورة نور الفطرة الذي هو مصباح طريق الهداية، وتنطفئ بها نار العشق التي هي براق العروج إلى المقامات وتخلّد الإنسان في أرض الطّبيعة.

فاللازم على الإنســان أنْ يغسل هذه القذارة من باطن القلب بالتّفكّر في حــال الأنبياء والأولياء الكمّل صلوات الله عليهم وتذكّر مقاماتهم، وألّا يقنع بأي حدّ هو فيه. فإنّ التّوقّف عند الحدّ والقناعة بالمعارف هما من

التّلبيسات العظيمة لإبليس والنّفس الأمّارة نعوذ بالله منهما. [310]

* ولدي: أوّل ما أوصيك به هو عدم إنكار مقامات العارفين، فإنّ هذا أسلوب الجاهلين؛ واجتناب معاشرة منكري مقامات الأولياء، فإنّ هؤلاء قطاع طريق الحقّ. [311]

24

ما هي الخطوة لنعيش إنسانيّتنا على حقيقتها؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«أينبغـــي أن أتحدّث إليكم الآن عن الأخــلاق؟ إنّهم يقضون على أســس الإســلام ويدمّرون المســلمين، وأقعد أنا الآن لأتحدّث إليكم حــول تهذيب النفس؟ إنّنا غــير مكترثين لأنّنا غير مهذّبــين، ولو كنّا مهذّبين لاكترثنا لما يحصل».[312]

كمال النّفس الأوّل يظهر في تهذيب أخلاقها وتحســين ملكاتها. وأوّل مراتب حســن الخلــق وصفــاء الباطن هي مرتبة الإنســانيّة الأولى. وهكذا تظهــر الرّابطة بين النّفس والأخلاق والإنسانية. وبعبارةٍ أخرى إنّ الإنسانية هي صراط تتكامل فيه النفس ويكون الخلق الحسن أوّل مقاماتها.

أمّا أوّل درجات الإنســانية، فهو أن يكون الإنســان مكترثًا لمــا يحدث من حوله وما يصيب الناس، وأن يستشــعر معاناتهم ويدرك مشــاعرهم؛ الأمر الذي يســمّيه البعض بالذكاء العاطفيّ. فلو فقد المرء الإحســاس بمعاناة أخيه الإنســان، لما كان إنسانًا؛ ولكان بذلك فاقدًا لإمكانيّة التكامل.

وهــا هو العالم يضجّ بالمعاناة والمآسي، وخصوصًا بتلك التي تنزل بالمســلمين. فكيف يكون أحدنا طالبًا للرّوحانيّة وهو لا يستشعر كل هذه المصائب ولا يتألّم قلبه لها.

شواهد إضافية

* المسلم من يهتم ويتألّم حينما يسمع أنّهم قتلوا شبابنا. أينبغي ألّا نكترث لذلك؟ قتلوا علماءنا، ثم لا نكترث؟! قتلوا المؤمنين والمسلمين، ثمّ لا نكترث؟! يجب أن نغيّر أنفسنا.[313]

* قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى}.[314] بيّن الله سبحانه في هذه الآية الشريفة المسيرة الإنسانية من المبدأ الأوّل للطبيعة المظلمة حتى المنتهى. وقد اختار إله العالم، من بين كل المواعظ، أفضل المواعظ ليضع إزاء الإنسان كلمة تمثّل طريق الإصلاح الوحيد للعالمين: القيام لله، الذي أوصل ابراهيم خليل الرحمن إلى مقام الخلّة، وحرّره من أسر المظاهر المختلفة لعالم الطبيعة.

أطرق كالخليل باب علم اليقين أصرخْ بنداء (لا أحب الآفلين).

القيام لله هو الذي نصر موسى الكليم بعصاه على الفراعنة وألقى بتيجانهم وعروشهم في مهب الريح، وهو الذي أوصله أيضًا إلى ميقات المحبوب وأحلّه مقام الصعق والصحو.

القيام لله هو الذي نصر خاتم الأنبياء ﷺ بمفرده، على كلّ عادات الجاهلية وتقاليدها، وطهّر بيت الله من الأصنام وأحلّ محلّها التوحيد والتقوى، وهو الذي أوصل هذه الذات المقدّسة أيضًا إلى مقام قاب قوسين أو أدنى.

إنّ الأنانية وترك القيام لله، هما اللذان أوصلانا إلى هذا اليوم الأسود، وسلّطا علينا كلّ بني الدنيا، وجعلا البلدان الإسلامية تحت هيمنة الآخرين.

القيام من أجل المنافع الشخصيّة، هو الذي قضى على روح الوحدة والأخوّة لدى أبناء الأمّة الإسلامية.

القيام للنفس (الذات) هو الذي فرّق بين أكثر من عشرة ملايين شيعي وباعد بينهم بنحو أضحوا فريسة لشلة من عبدة الشهوات المتربعين على كراسي السلطة.

... القيام للمنفعة الشخصية، هو الذي سلّط علينا الآن عددًا من

الأطفال المتسكّعين، ومكّنهم من التحكّم بأموال المسلمين ونفوسهم وأعراضهم في كل أنحاء البلاد.

القيام للنفس الأمارة، هو الذي سلّم مدارس العلم والفكر لشلّة من الأطفال السذّج، ليحوّلوا مراكز تعليم القرآن إلى مراكز للفحشاء.

القيام للذات، هو الذي سلّم موقوفات المدارس والمراكز الدينية بالمجان إلى شلّة من الزناة العديمي الشرف، ولم يجرؤ أحد على التفوّه بكلمة.

... القيام من أجل المصالح الشخصية، هو الذي صيّر الصحافة وسيلة لنشر الفساد الأخلاقي، وهي اليوم تواصل أيضًا ممارسة القضايا ذاتها التي تفتق عنها الذهن المتحجّر لرضا خان العديم الشرف، وتنشرها بين الناس.

القيام من أجل الذات، هو الذي سمح لبعض هؤلاء النواب المزيفين، بالتفوّه في البرلمان بما يحلو لهم ضدّ الدين ورجاله، من دون أن يعترض عليهم أحد.

يا علماء الدين الإسلامي! أيها العلماء الربانيون! أيها المفكّرون المتديّنون! أيّها الوعّاظ المؤمنون! أيّها المتدينون الموحدون! أيها الموحّدون طلاب الحقّ! يا أنصار الحقّ الشرفاء.. أيّها الشرفاء الوطنيون! أيّها الوطنيون الغيارى. اقرأوا موعظة إله العالم، وتمسكوا بطريق الإصلاح الوحيد الذي اقترحه لكم، وتخلوا عن المنافع الشخصية لتنالوا سعادة الدارين، واحتضنوا العالمين من خلال الحياة الحرة الشريفة.[315]

✷ هذا الادّعاء من الجهل هو مثل ادّعاء إبليس أنّه أفضل من آدم عليه السلام حيث قال: «خلقتني من نار وخلقته من طين»، والسبب هو محجوبية الجهل عن مقام العقل وإعجابه بنفسه وعبادته وحبّه لها وهذا من الحجب الكثيفة كما هو معلوم، يحجب كل من يبتلى به عن جميع الحقائق، وفهم محاسن الآخرين وكمالاتهم، وقبائح نفسه ونقائصها، وهذا الحجاب من إرث إبليس، ومن يترسّخ فيه يصير من

ذرّيته، وإن كان في الصورة الظاهرية والولادة الملكية من ذرية آدم، فالميزان في عالم الإنسانية والملكوت - الذي به تكون شيئيّة الأشياء - هي الولادة الملكوتية، كما يشير لذلك قول الوليد الملكوتيّ عيسى المسيح "لن يلج ملكوت السماء من لم يولد مرّتين».[316]

25

هل يمكن للنفس أن تتبدل وتتحول بعد انتقالها من هذا العالم؟

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«مـن المحال في العالم الآخر تغيير أي حـال من أحوال النفس، فلا يمكن هناك اكتسـاب الإيمان الذي لم يكتسـبه هنـا. إذن يجب على الإنسـان أن يغتنـم هذه الأيـام المعدودة من عمـره في هذا العالم لاكتساب الإيمان، وترسيخه في القلب مهما كان الثمن.»[317]

لطالما سمعنا أنّ الدنيا هي مزرعة الآخرة، وأنّ الدنيا دار العمل والآخرة دار الحصاد. فالآخرة هي كالثمرة بالنسبة للدنيا التي هي الشجرة. فما معنى استحالة تغيير أي حال من أحوال النفس في العالم الآخر؟ وما هو سرّه؟

يمكـن أن يُقال بأنّ الدنيا هي الفرصة الأكثر سـهولةً ويـسرًا مقارنةً بالآخرة، ومن لا يستفيد من الفرصة الأسهل، فكيف له أن يستفيد من الفرصة الأصعب! فالخير والثّواب والكمال هي نتائج النفوس، وجواهر النفوس هي النوايا. أمّا الأعمال فهي ترجمة النوايا حيث يمكن. ولهذا، فإنّ من لا يقدر على التعبير عمّا في نيّته لمانعٍ خارجيّ، يُؤجر ويُثاب على نيّته من دون عمل. فما يحدّد المصير الأساس في النهاية هو ما يتضمنه قلبه من نيّة وطلب وتمنٍّ. وعلى هذا الأساس قد نتساءل: ألا يمكن أن يحمل الإنسان السيّئ الذي لم يستفد من فرصة الحياة الدنيا نيّة طيّبة إلى آخرته تكون سببًا لنجاته؟ ولماذا لا يمكن أن يُثاب مثل هذا الشخص؟

ولهـذا، نحن بحاجة إلى معرفـة أعمق بحقيقة الدنيا في علاقتها بالمصير. فالإنسـان

سيُحشر يوم القيامة كما كان مختارًا وحرًّا في إرادته، بمعزل عن خياراته الممكنة هناك! وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي سيمنعه من تغيير نيّته وخصوصًا حين يعاين الحقيقة الكبرى، ويدرك خواء ظنونه وبطلان عقائده؟ وكيف لا يتغيّر الإنسان وهو يرى انتصار الحقّ وزهوق الباطل وعلوّ منزلة الأبرار الذين كان يعاديهم، وخزي الأشرار الذين كان يتولّاهم ويمجّدهم؟

إنّه مشهد الحقيقة الصافية المحضة التي لا يمكن أن يخالطها أي باطل أو زيف، كما قد يحدث في الدنيا.

أجل لو كانت القضية في إدراك الحقيقة واكتشاف الحقّ، لكان الأمر كما قد يتصوّر، بيد أنّ القضية أعمق بكثير. فالأمر ليس في المعرفة، ولن يكون يومًا كذلك، بل في شيءٍ آخر وهو قبول الحقيقة والتسليم للحقّ. وهذا ما يتطلّب شاكلة نفسية تنسجم مع الحقّ وتنفر من الباطل. الأمر الذي قد لا يوجد في الكثير من أهل الحشر والحساب.

فلكي يكون الإنسان مستعدًّا للإيمان، يجب أن يمتلك مجموعة من الصّفات النفسيّة، وأن يكون خاليًا من صفات أخرى كالعصبيّة والكبر اللذين هما أخطر ما يبعد عن قبول الحقّ.

إذا كان الإيمان بمعنى المعرفة واليقين، فسوف يكون جميع أهل الآخرة مؤمنين؛ لأنّه لن يبقى أي مخلوق إلّا ويعرف ويدرك ويشهد. ولكن الملفت أنّ عدّة من الناس لا نعرف نسبتهم، سيرجعون كما كانوا رغم ادّعائهم الإيمان أو حصول الإيمان لهم بمعنًى من المعاني. ولعلّ قوله تعالى: {**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ**}،[318] إشارة إلى هذه القضية. فإنّ حالة الإيمان ستُعرض على الجميع، لكنّ قسمًا منهم سيعودون كفّارًا كما انتقلوا من الدنيا، وذلك لسببٍ أساسيّ وهو أنّ نفوسهم لم تكن مستعدّة لحمل الإيمان وتحمّله. ولا يحمل الإيمان سوى النفوس التي تحلّت بالفضيلة.

فمن هذه الجهة كانت مهمّة تهذيب النفس أولى الأولويات. ومن هذه الجهة كان تحسين الخلق مساوقًا لعبور جسر جهنّم بثبات واطمينان كما جاء في خطبة الرسول

الأكرم صلى الله عليه وآله في استقبال شهر رمضان.

إنّ ساحة الدنيا هي الفرصة السانحة الميسّرة لتهذيب النفس، لما فيها من حياة اجتماعية وتحدّيات لا يوجد مثلها في العالم الآخر. وحين ينتقل الإنسان من هذا العالم فربّما لن يجد أي مجال لتعديل أخلاقه أو تغيير أحواله. وإذا لم يكن مستعدًّا للثبات على الإيمان الحاصل من شهود الحقيقة العظمى، فلن يبقى عليه.

أمّا الفكرة الأعمق في هذا المجال، فهي أن نعلم بأنّ العالم الآخر ليس عالمًا ممتدًّا في طول الزّمان الأرضيّ؛ بل هو ظهور حقيقة ما كان يجري في هذا العالم الذي نشير إليه بالشهادة والدنيا. فتكون الآخرة وفق هذه الرؤية ظهور البطون وانكشاف السرائر.

وفي جميع الأحوال، فإنّ أصل القضية يكمن في بقاء الاستعداد الذي يعبّر عنه ببقاء عرش الإنسانية لتلقّي نقوش الإلهيّة.

شواهد إضافية

* لا بد من معرفة أنّه ليس المقصود من قولنا إنّ الخلق النفسـية، طبيعية وفطريـة، بأنّها ذاتية وغير خاضعة للتغيير، بل إنّ جميع الملكات والخُلق النفسـانية، قابلة للتبدّل والتحوّل، ما دامت النفس تعيش في هذا العالم، عـالم الحركة والتغيير، وتخضـع للزمان والتجدّد، وتملـك الهيولى والقوّة، ويستطيع الإنسان أن يُغيّر خُلُقه النفسيّ ويحوّله إلى أضداده. وإضافة إلى البراهين والتجربة، تدل على ذلك أيضًا دعوة الأنبياء والشرائع الحقّة الناس للتخلّق بالصفات الحميدة، والابتعاد عما يقابلها من الخلق السيّئ.[319]

* اعلم انّ تعديل القوى النفسانيّة - الذي يرتهن به تحقّق غاية الكمال الإنساني ومنتهى السير الكمالي بل هو تحقّق هذا الكمال بعينه في أحد معانيه - هو من مهمّات الأمور التي تؤدّي الغفلة عنها إلى خسران عظيم، وضرر جسيم، وشقاء لا يمكن جبره.

وما دام الإنسان في عالم الطبيعة فإنّه قادرٌ على أن يعدّل قواه الجانحة إلى الإفـراط والتفريط، وأن يُخضع النفس الشـموس العاصية لسـيطرة العقـل والشرع، وهذا الأمر في غاية اليسر والسـهولة في أوّل الشـباب، لأنّ نـور الفطرة لم يُغلب بعد، وصفاء النفـس لم يذهب بعد، والأخلاق الفاسدة والصفات القبيحة لم تترسّخ في النفس بعد.[320]

* في مرحلة الشيخوخة، تضعف الإرادة، والعزم يشيخ، لذا تكون السيطرة على القوى أصعب على الإنسان، ولكن - مع ذلك - لا ينبغي للشيوخ أن يغفلوا عن السعي لإصلاح نفوسهم وتزكيتها، فلا ينبغي لهم أن ييأسوا، لأنّ الإنسان - رغم كل ذلك - يستطيع أن يصلح نفسه ما دام في هذا العالم - وهو دار التبدّل والتغيّر، ومنزل الهيولى والاستعداد، ويمكنه بالجهد والاجتهاد أن يقتلع جذور الأمراض النفسانيّة المزمنة مهما بلغت درجة رسوخها، فلا يوجد مرض نفسانيّ لا يمكن للإنسان معالجته في هذا العالم حتى وإن تجذّر في النفس، واستقوى فيها وأصبح ملكة لها، غاية الأمر أنّ الفرق هو في كثرة وشدّة الرياضات النفسانيّة، ومهما كان

الأمر صعبًا وشاقًا ومستلزمًا للمتاعب البدنيّة والرياضات الروحيّة، فإنّه جديرٌ بإقبال الإنسان عليه، والإنسان - رغم كل ذلك - يبقى قادرًا على القيام به بممارسة الأعمال العباديّة وأمثالها ما دام في هذه النّشأة. أمّا إذا رحل عن هذا العالم، وانتقل إلى العالم الآخر وهو على هذه الملكات الفاسدة والأوصاف الخبيثة، لا سمح الله، فإنّه يُسلب القدرة الاختياريّة على العمل للإصلاح وتزكية النفس؛ حتّى لو كان نور الفطرة والإيمان ما يزال محفوظًا في باطنه.[321]

* جميع موجودات عوالم الغيب والشهادة مخلوقة لإيصال هذا الموجود الشريف إلى مقامه، وقد ورد في الأحاديث القدسيّة: "يا بن آدم! خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي"، نقول: إذا عرف المؤمن ذلك، وعرف كيف يستفيد من المخلوقات في إصلاح نفسه وإيصالها إلى الكمال اللائق بها؛ وأدرك أنّ الحقّ جلّ وعلا هو العالم بكيفيّة تسخير المخلوقات في إصلاحه؛ وعرف بقيّة أركان التوكّل بنور الإيمان، حينئذ يتوكّل على الحقّ تعالى ويتّخذه وكيلًا عنه للوصول إلى هذه الغاية السّامية.[322]

* أجل؛ يبدو صعبًا في البداية الدخول في أيٍّ مقام من مقامات العارفين وفي أي مرحلةٍ من مراحل السلوك، والنفس تسعى لتقوية هذا التصوّر بهدف صدِّ الإنسان عن الدخول في طريق السلوك، ولكنّ الأمر يتيسّر وسلوك الطريق يسهل بعد أن يدخل الإنسان فيه، فمع كل خطوة يخطوها في طريق الحقّ تعالى والآخرة يضيء نور الهداية الإلهيّة له الطّريق، ويسهّل له السّلوك لكي يخطو الخطوة اللاحقة.[323]

* فعالية الحيوانات محدودة جدًّا، وحدود تعدِّيها ضئيلة جدًّا أيضًا فالحيوان يكتفي بما يناله من طعام يأكله ولا يدّخر إلّا بعضًا منه. وإذا شبع ذهب فنام. والإنسان أي: هذا الحيوان الذي لم يبلغ حدَّ الإنسانية، هذا الحيوان الذي ندعوه الإنسان، لأنّه ربّما يكون بعد حين إنسانًا لا حدَّ له لا في الشهوة، ولا في الأمل والأماني. افرضوا أنّ إنسانًا تمنّى أن

يكون له دار، فإذا حصل عليها، رآها غير كافية، فتمنّى أن يكون إلى جانبها حديقة، فلمّا نالها رآها لا تكفي، وقال: لو كان لي مزرعة، فلمّا حظي بها تمنّى أن تكون له ضيعة، وحين صارت له طلب غيرها، وكلّما ارتفع طلب أكثر. في البدء يطلب يسيراً، وكلّما ارتفع تعاظم طلبه، وازداد طعم المطلوب، وتكاثرت أمانيه. فأولئك الذين لهم بلاد ترونهم يتحرّكون على بلاد أخرى، يستولون عليها، ولو استولى أحد على بلدان العالم كلّها لفكّر حينئذ بالاستيلاء على القمر والتحكّم به، وبعده يفكّر بالذهاب إلى المريخ ليستولي عليه، وينطلق منه فيما بعد إلى أماكن أخرى لا نهاية لها. فهذا الكائن خلقه الله في حدّ الحيوانية، أي في دائرة ما يطلبه الحيوان، وهو يطلب بنهم، ولا حدّ لطلبه. الحيوانات تهيج شهوتها في موسم معيّن هو موسم تناسلها، وليست كذلك دائمًا. والإنسان ليس هكذا، فلا حدّ لشهوته، فلا هي محدودة، ولا هي ذات إشباع خاصّ ما عدا ما جاء به الأنبياء لحدِّها حَدًّا ما، ولا يعبأ الإنسان بمثل هذا، ولا يحترم أحسن محارمه، ولا فرق عنده بين ابنته وأجنبيّة. إنّه لحيوان غير محدود في كلّ شيء. فأنتم موجود غير محدود. فإذا اتّجه صوب الحيوانية كان حيوانًا لا حدّ له يختلف عن سائر الحيوانات، فالحيوانات محدودة الشهوة، محدودة الآمال، والإنسان غير محدود. فإذا كان في حال الحيوانية هذه، ومقبلًا على هذه الأعمال الحيوانية، على هذه الشهوات وهذه الآمال والمطامح الحيوانية، المرتبطة بالطبيعة، وكلّ الآمال والأمانيّ المرتبطة بالأمور المادّية حيوانية وبقي على هذا الحدّ إلى النهاية بقي حيوانًا إلى الأبد، وصورته هنا صورة إنسان. وإذا انكشف الحجاب، وظهر ذلك العالم تبدّلت صورته إلى صورة أخرى، ولا يُحشر في صورة إنسان. فإذا صار هنا إنسانًا حُشِرَ إنسانًا. فمن استطاع أن يصلح نفسه تجلّت إنسانيته في مظهر الكَمال الذي لا يتسنّى للعيون في هذا العالم أن تراه، ويتحقّق لها جوهر هذا الكمال. وإن لم يستطع أنْ يفعل هذا الأمر يَدَعه.[324]

✵ أيّها العزيز! افتح سمع قلبك وشدّ حزام الهمّة على وسطك وارحم حال

مسكنتك لعلك تستطيع أن تجعل من نفسك إنسانًا وتخرج من هذا العالم بصورة آدمية لتكون عندها من أهل الفلاح والسعادة. وحذارِ من أن تتصوّر أنّ كل ما تقدّم هو موعظة وخطابة. فهذا كلّه نتاج أدلة فلسفية توصل إليه الحكماء العظام، وكشف انكشف لأصحاب الرياضيات، وإخبار عن الصادقين والمعصومين.[325]

* إذًا فمن اللازم المتعيّن على سالك طريق الحقّ وطالب السّعادة والنجاة أن يجتهد في السّعي للإصلاح بجدّ في هذه الأصباح المتبقية من أيام المهلة القليلة من عمره الدنيوي - الذي يمكن فيه التغيير والتبديل لأنّها نشأة الاختيارية ونفوذ الإرادة، فيعرض صحيفة نفسه على كتاب الله وصحيفة المعصومين عليهما السلام فهي موازين تمييز الحقّ والباطل والسّعادة والشقاء، لكي يعرف أوّلًا نفسه وحقيقة باطنها، وفي أيّ حزب هي، وفي أيّ جبهة هي؟ هل هي من حزب الرّحمن وجند العقل، أم من حزب الشيطان وجند الجهل؟

فإذا عرض نفسه على هذا الحديث الشريف - الذي نسعى هنا لشرحه - وعرّفها من جنود العقل؛ بمعنى أنّ جنود العقل غالبة في مملكة روحه، نشكر الله تعالى على ذلك، وجعل العقل وجنوده حاكمة فيها دون أن يقع فيها في الغرور بسبب ما يراه فيها من كمال وجمال باطني، فإنّ - الغرور من أخطر شباك إبليس الذي يعترض بها طريق السّالك ويصدّه عن الحقّ جلّ وعلا، بل ويسوقه القهقرى. فليعلم أنّ الإنسان ما دام في هذه الدّنيا وهي دار الغرور، فهو معرّض للتغيّر والتراجع والسّقوط في عاقبة الشقاء والخذلان، مهما كانت مرتبة الكمال والجمال الروحاني التي وصل إليها أو مرتبة العدالة والتقوى التي بلغها... أمّا إذا أحسّ بأنّ الغلبة في باطن ذاته ومملكة روحه لجنود الجهل وحزب الشيطان، فعليه أن يبادر بكل جدّية وبأي رياضة ومجاهدة لطرد الجنود الشيطانية من مملكته الباطنية، ويمنع إبليس الخبيث من التصرّف فيها.

ولكن ينبغي هنا التنبّه لحقيقة أنّ كل شخص يجب أن يكون نفسه

معالجًا لقلبه وطبيبًا لروحه فإنّ (الحاضنة لن تكون أشدّ شفقة من الأم) فعليــه ألّا يضيّع أيام الفرصة والمهلة والفــراغ، إذ لن ينفعه أي دواء إذا استيقظ من نوم الغفلة في أيام الضعف والضيق والإبتلاء.

يــا عزيــزي، قم بهمة عالية، مــا دمت ترفل في هــذه النعمة الإلهية الكبرى وهــذا العمر الذي وهبه الله لك للعمــل من أجل أيام الضعف والمسكنة، وخلّص نفسك من تلك الصعاب والشدائد التي تنتظرك، فأنت اليــوم في دار التغيير والتبديل، ودار أيام الــزرع فيمكنك العمل فيها بما تحصل معه على الثمار الطيبة.[326]

* أقسم بالله أنّ خسران الإنسان هو من العمق بحيث لو اطّلع على حقيقته ومقداره لما قرّ له قرار؛ وليعرف أنّه لا يضيع بنفسه جميع وسائل سعاداته الأخروية السرمدية وحسب، بل إنّه يصرفها من أجل إعداد الشقاء الأبدي لنفسه، فهو يعدُّ لنفسه بعرق جبينه وكدِّ يمينه النار وجهنم؛ ويستهلك كل أوقاته التي ينبغي أن يستثمرها لإعداد متطلبات حياته الأبدية، ويضيعها من أجل حياة دنيا لا تدوم سوى بضع سنين، ويربط قلبه بدار سيغادرها بعد أيام قليلة دون أن يأخذ منها شيئًا سوى الحسرات والندم: «اطرقْ مثلما فعل الخليل باب علم اليقين وأهتف بنداء "لا أحب الآفلين"».[327]

26

كيف نربّي قوانا لتنمو وتقوى بالشكل الصحيح؟

يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه:

«اعلـم أنّ كلًّا من القــوى الظاهرية والباطنية مــن النفس قابل للتربية والتعليم بارتياضٍ خاص. فعين الإنســان مثلًا لا تقدر أن تنظر إلى نقطة معيّنة أو إلى نور شديد كنور عين الشمس مدة طويلة من دون أن تغمــض. ولكن إذا درّبها، كبعض أصحاب الرياضات الباطلة لأغراض ما، فيمكن أن تنظر إلى عين الشــمس لســاعات مديدة من دون أن تغمض أو يجد فيها تعبًا. وكذلك يمكن له أن ينظر إلى نقطة معيّنة ســاعات عــدّة من دون أي حركة، وكذلك ســائر القوى حتى حبْــس النفس، فــإنّ في أصحاب الرياضات الباطلة أفرادا يحبســـون أنفاسهم مدّة زائدة عمّا هو متعارف عليه.

ومن القوى التي تَقبل التّربية قوّةُ الخيال وقوّةُ الواهمة. فإنّهما قبل التّربية مثل طائرٍ فرّار يتحرّك بلا توقّف، ويطير من غصنٍ إلى غصنٍ وينتقل من شيءٍ إلى شيءٍ آخر بحيث أنّ الإنسان إذا تابعَه دقيقةً واحدةً يرى أنّه انتقل متسلسلًا إلى أشياء لمناسباتٍ ضعيفةٍ جدًّا وأسبابٍ غير مترابطة، حتى ظنّ الكثيرون أنّ حفظَ طائر الخيال وترويضه من الأمور الخارجة عن حيّز الإمكان والملحقة بالمحالات العاديّة. ولكنّ الأمر ليس كذلك، ويمكن تطويعه بالرّياضة والتّربية وإعطائه الوقت، بحيث يصبح طائر الخيال في قبضته لا يتحرّك إلا

بإرادته واختياره فيحبسه متى ما أراد في أيّ مقصدٍ أو أيّ مطلبٍ بحيث يبقى في ذلك المقصد عدّة ساعات. والطريق العمدة لهذا التطويع هو العمل على الخلاف (المخالفة).»[328]

لا ننسى أنّ المبدأ الأوّل في معرفة النفس هو أنّنا نحن الذين نصنع نفوسنا. وقد يطلق الكثير من علماء الإســلام على هذه الصناعة عنوان التربية، لما يحمله هذا المصطلح من مفهوم النموّ والتكامل. فنحن نربّي أنفســنا باستجلاب كل ما يزيدها كمالًا. بيد أنّ هذه التربية تعتمد في البداية على جعل هذه النّفوس مســتعدّة للكمال. وما دامت نفوســنا منحرفة أو واقعة في أسر المحدوديّة وسجن المادّة، فمن الصّعب بل المستحيل أن يستقر فيها أي كمال.

وأحــد قوى النفس ومراتبها التي يجدها الكثيرون مســتعصية على التربية التهذيبية هي قــوّة الخيال الذي هــو محل انعكاس العلم الإلهيّ النّازل في أرض الطّبيعة. ومن النــادر أن نجد بحثًا تفصيليًّــا حول تربية الخيال وتكميله رغم حساســيّته وموقعيّته المؤثّرة جــدًّا في النفس. وبمعــزل عن هذا النّقص المؤســف، فإنّ الإمام (قدّس سرّه) يؤكّد على أنّ تهذيب الخيال أمرٌ ممكن من خلال الرّياضة، بشرط الإصرار عليها والمواظبة. فما معنى الرّياضة لولا المواظبة!

المبــدأ الأوّل في معرفــة النفــس هو أنّنا نحن الذين نصنع نفوسنا. فنحن نربّي أنفسنا باستجلاب كل ما يزيدها كمالًا، إلّا أنّ هذه التربية تعتمد على جعل هذه النّفوس مستعدّة للكمال.

وقــد ركّز الإمام (قــدّس سرّه) على الجانب الأوّل من ترويــض الخيال وهو الجانب السّــلبيّ، لأنّ محنــة أكثريّة النفوس في تفلّــت الخيال وفرّاريته وجموحــه. ولا بدّ من الإمســاك به أوّلًا حتى يصبح من قوى النّفس المشــتاقة إلى الروح، فتجعلها مركبًا لها في رحلة العروج إليه.

أجــل إنّ قوّة الخيال أمرٌ مطلــوب وخصوصًا أثناء العبور إلى عــالم الملكوت أو عند

الرّجوع منه. فالكثير من الفوائد التي تنتظر البشر تقوم على قوّة الخيال التي أشير إليها في بعض الكتب العرفانيّة بالوهم. بل إنّ عمارة الأرض وإحياءها والتي تُعدّ من أهم مسؤوليات الخلافة الإلهية تعتمد على قدرة الخيال العالية.

ما دامت نفوسنا منحرفة أو واقعة في أسر المحدوديّة وسجن المادّة، فمن الصّعب بل المستحيل أن يستقر فيها أي كمال.

فالترويض ليس لأجل الكبت، بل من أجل أن تصل هذه القوّة المهمّة إلى أعلى درجاتها فتستقبل كل ما ينزل من العلم الرّوحيّ المجرّد في قوالب الصورة الخياليّة الهادية.

ومرّة أخرى، نجد أنّ التفريط بأهميّة الخيال عند المسلمين أدّى إلى تراجعهم في مجال العلوم والفنون التي أصبحت في الغرب العنصر الأوّل في صناعة القيم والعقائد والأفكار والسلوكيات والعادات.

شواهد إضافية

* أنت إذا أخلصت الصورة الملكية الإنسانية لله، وجعلت الجيوش الظاهرة الدنيويـة للنفس التي هي عبارة عن القوى المتشـتتة في ملك البدن في ملاذ الحقّ، وطهّرت الأقاليم السبعة الأرضية، أي البصر والسمع واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، من قذارات المعاصي وجعلتها تحت تصرّف ملائكـة الله التي هي الجيـوش الإلهيّة، فتصير هـذه الأقاليم بالتدريج حقّانيـة وتتصرّف بتصرّف الحقّ حتى يكون هو نفسـه أيضًا من ملائكة اللـه أو مثل ملائكة اللـه لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. فتحصـل المرتبة الأولى من الاسـتعاذة ويرحل الشـيطان وجيوشـه عن المملكة ويتوجّهون إلى الباطن ويهجمون على القوى الملكوتية النفسانيّة، فمن هذه الجهة يصير عمل السـالك أصعب وسلوكه أدق، ولا بدّ له أن يجعل قدم سيره أقوى ومراقبته أكمل ويستعيذ بالله المتعال من المهالك النفسانية، من العجب والرّياء والكبر والخيلاء وغيرها، ويشتغل بالتدريج بتصفية الباطن من الكدورات المعنوية والقذارات الباطنية.[329]

* إنّ الأساس هو المعنويات، هذا هو الأصل، وليس من تعليم ولا تربية في الدنيا، وما من نظام في العالَم من بين كل أنظمته التي تعهدونها يهتم بمعنوية الإنسان. ويُتوهَّم أنّ الفرق ما بين النظام الإسلامي والإنساني وسائر الأنظمة هو أنّ في الإسلام عدالة، وهذا صحيح، لكن ليس هو الفرق الوحيد. فهناك فروق منها قضية العدالة الإجتماعية، فما من نظام في هذه الدنيا ما عدا نظام الأنبياء التوحيدي يعبأ بمعنويات الإنسان، فهذه الأنظمة لا ترى المعنويات تترقّى، وكلها دائبة على تنمية الماديات والاستفادة منها لإيجاد نظام ماديّ محض في هذا العالم.

بينما جاء الأنبياء أصلًا لتزّكية النفوس الإنسانية وتعليم البشر الكتاب والحكمة وتربيته عليهما وتمكينه من السـيطرة عـلى غرائزه، وهو قبل تحقيق هذه السـيطرة يكون يريد كل شيء. فهـو واحد من موجودات العالم. وحَيْوان كسائر الحيوانات سوى أنّه قابل للتربية. ولا قوّة من قواه

محدودة، فشــهوته غير محدودة بنظام يضبطها مثل ســائر الحيوانات، بل أســوأ منها، وغضب الإنســان غير محدود بنظــام يتيح له أن يغضب في هذا الشــأن، ولا يغضب في ذاك، أجل غير محدود الغضب. والتســلّط على البلدان والجماعات غير محدود أيضًا بنهج يسمح له بغلبة هذا، ولا يســمح له بغلبة ذاك. إنّه مطلق. ومثلما أنّ شهوة الإنسان غير محدودة ولا حــدّ لها، لا فرق بين أفراده فيما هو غير محدود من طباعِه وخِصاله، فحــين يغضب ليــس لغضبه حدّ، ولا تمكن الســيطرة عليــه. فلا بدّ من أُناس يســتطيعون الســيطرة على هذه الطبيعة وبقيــة الطباع المطلقة غــير المحدودة، وهؤلاء هم الأنبياء عليهم الســلام الذيــن جاؤوا ليحدّوا هذه القوى المطلقة العنان بتزكيــة النفوس وتعليمها الكتاب والحكمة، وتربيتها تربية إلهيّة.[330]

* إذا غفل الإنسان كانت قواه قوى شيطانية. عينه شيطانية، ويده شيطانية. أمّا إذا هذّب نفسه فتصير كلها إلهية. تتحوّل كل قواكم قوّةً إلهية، والقوّة الإلهية ستنتصر.[331]

* الإسلام رسالة نزلت للتربية الإنسانية. ويجب أن نرى ما هي أبعاد هذا الإنسان، الذي يقول البعض عنه أنّه ذو الماهية المجهولة، وما هي احتياجاته؟ وهل جاء الإسلام لتربية جوانبه الحيوانية فقط؟ أم جوانبه المعنويّة فحسب؟ أم يريد تربية الإنسان؟ ليس الإنسان كسائر الموجودات، فإدراك الحيوان عمّا وراء الطبيعة هو إدراكٌ ناقص، ولكنّ الإنسان يستطيع أن يسير من الطبيعة، إلى ما وراء الطبيعة وممّا وراء الطبيعة إلى الألوهية، إلى أن يصل إلى فهم ذلك.

الإنسان كائنٌ جامع، كائنٌ ذو أبعاد متعدّدة. الكائنات الأخرى بعضها ذات بعــد واحد. وبعضها الآخر ذات بعديــن أو أكثر. غير أنّ كافّة أبعاد الوجــود غــير موجودة في بقيّة الكائنات .. الإنســان وحــده من بين كلّ الكائنات كائنٌ متعدّد الأبعاد، ولكلّ بعد من أبعاده حاجات. أمّا المدارس

الفكرية الموجودة في العالم، باستثناء الإسلام، فهي ماديّة تصوّرت الإنسان حيوانًـا وأن جميع أموره تتحرك ضمن هذه الحدود، وتكامله يتم ضمن الاعتبـارات الماديّة وقد أطلقوا عليها اسـم (الأمور العينية). يتخيّلون أنّ الأمـور العينيّة هي عبـارة عن نفس عالم الطّبيعة هذا! في حين أنّ هناك عوالم أخـرى لم يدركوها، ولتلـك العوالم حظٌ أكبر من العينية بالنسـبة إلى عـالم الطبيعـة. إنّ عالم الطبيعة يقع في آخـر مراتب موجودات عالم الوجـود، أي إنّ عـالم الطّبيعة هو نهاية عالم الوجـود وهو أدنى العوالم. ليس صحيحًا أنّ الإنســان وحده الموجود وله هذه الطّبيعة فقط، وليس ثمّة مراتب أخرى بعد ذلك.

فللإنســان مراتب، والذي طلب المرتبة العليا للإنسان وغفل عن هذه المراتب، فقد أخطأ. ومن تمسّـك بعالم المادّة فشهد مرتبة الطبيعة وغفل عـمّا وراء الطبيعة فقد أخطأ أيضًا. الإســلام يـولي اهتمامًا بجميع أبعاد الإنســان. إنّ للإســلام منهجًا ومسلكًا لهذا الإنســان الذي له مراتب من الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة، وممّا وراء الطّبيعة إلى الألوهية. إنّ الإسلام يريـد أن يربّي إنســانًا جامعًا، أي يربّيه بالصورة التــي هو عليها: له بعدٌ طبيعــيّ فينمّي فيه البعد الطبيعيّ. وله بعــدٌ برزخيّ فينمّي فيه البعد البرزخــيّ. وله بعــدٌ روحيّ فينمّي فيــه البعد الروحيّ. ولــه بعدٌ عقليّ فينمّي فيــه البعد العقليّ. وله بعدٌ إلهي فينمّي فيــه البعد الإلهيّ.. إنّ جميع الأبعاد التي يمتلكها الإنسان هي بصورة ناقصة ولم تصل إلى درجة الكــمال. وقد جاءت الأديان لإنضاج هذه الثمــرة غير الناضجة، وإكمال هذه الثمرة الناقصة.

وعلى المقيمين في الغرب، الغرب الغارق في الطبيعة الدنيوية والغافل تمامًا عــمّا وراء الطبيعة، ألّا يُخدعوا بهذه المــدارس الفكرية، ويتصوّروا بأنّ الإنســان ليس ســوى ما هو عليه من الطعام والشراب وما عدا ذلك لا شيء.. إنّ ذلــك وليد الفهم الخاطئ للإســلام. لا بدّ من وضع كلّ شيء في موضعــه، أي أنّ للإنســان نموًّا طبيعيًّا إلى الحــدّ الممكن. وإنّ له بعدًا

طبيعيًا بما هو طبيعيّ وسليم. وهكذا ينمو ويتكامل في مختلف الأبعاد حتى يصبح إنسانًا متكاملًا.

فمن الصّعب أن يصبح الفرد إنسانًا، لا تظنّوا أنّ الإسلام جاء ليربّي حيوانًا. الإسلام يريد أن يربي الإنسان ليكون كائنًا متكاملًا يمتلك جميع الأبعاد. ولدى الإسلام تعليمات لكلّ بعد من أبعاد الإنسان.[332]

* هذه ضيافة الله، وما هي إلّا ظل للضيافات المتحقّقة في عالم الوجود، وكل ما في الأمر أنّها تظهر في عالم المادّة بشكل ترك الشهوات الطبيعية والجسمانية، وفي عالم المثل بشكل ترك الشهوات الخيالية، وفي عالم بعد المثل بشكل ترك الشهوات العقلانية والروحانية.

تتحقّق الشهوة في كلّ مكان بشكل معيّن؛ ففي هذا العالم تتحقّق بالشكل الذي تعلمون، وفي العالم المثاليّ تكون شهوات الإنسان أكبر بكثير من شهواته في عالم الطبيعة، وكبح جماحها أكثر مشقة وعسرًا أيضًا؛ فضيافة الله هناك هي أن يدع الإنسان الشهوات، كالشهوات النفسية التي ينهمك بها عالمنا.

أمّا الشهوات العقلانية التي هي أرفع درجة من هذه الشهوات فيجب التخلّي عنها هناك أيضًا. والشيطان موجود في جميع هذه المراتب، من أجل صدّكم عن استثمار هذه الضيافة؛ يصدّكم في عالم الطبيعة وفي عالم الخيال والمثل وفي عالم العقل أيضًا، والتخلّي عن الآمال العقلانية أصعب من التخلّي عن غيرها؛ الآمال النفسانية الأوطأ درجة من الآمال العقلانية أضرمت النار في العالم. تنشأ جميع الحروب والنزاعات في هذا العالم، سواء ما وقع منها في نفس العائلة أم الواقع في العالم بأسره، والذي يمثّل عائلة أيضًا، تنشأ من طغيان وتمرّد النفس.

إنّ ضيافة الله هناك التي دعينا إليها هي أن نتخلّى عن شهواتنا النفسية، وهذا أمرٌ عسير جدًّا.

هذا العالم ظلّ لذاك العالم، وذاك روح لهذا، والشهوات العقلانية التي

ألقت بظلالها في أغلب أنحاء العالم أرفع درجةً من الشـــهوات الروحانيّة والنفســيّة والجســمانيّة، وضيافة الله الموجودة هناك أيضًا تتحقّق بترك الشّهوات.[333]

* الإنسان مبتلى بهوى النفس على مدى عمره وهو بحاجة إلى الرياضة دائمًا.[334]

27

ما الذي يجعل قوانا تخور؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«التوجّه إلى النّفس وحبّها واتّباع الشّهوات والأغراض الحيوانيّة، وشيطان الواهمة الداخليّ، والشّيطان الخارجيّ؛ كل ذلك خلاف الفطرة الأوّلية السليمة. ولا ريب في كون جميع أشكال العجلة والتسرّع والتذبذب وعدم الاستقرار ناشئة من خوف عدم الحصول على المآرب النفسية، واللذات والشهوات الحيوانية، أو من فقدان هذه المآرب الحيوانيّة».[335]

التسرّع أحد مظاهر ضعف النفس. وينبغي أن نعرف منشأه حتى نتمكّن من معالجته. وقد أشار الإمام قدس سره إلى أنّ خوف عدم الوصول إلى المآرب النفسية هو الذي يتسبّب بحالة الضعف النفسي هذه. فلماذا يخاف المرء من عدم إدراك ما يشتهي أو يحزن لفقدانه، فيصبح متسرّعًا أو مضطربًا؟

إنّ تعلّق القلب بما يمكن أن يزول يجعله تابعًا، فإذا اقترب زواله أو أوشك، فيصاب بحالة من الذعر والخوف ويضطرب أشد الاضطراب. أمّا لو تعلّق بما لا يمكن أن يزول، فلا يمكن أن يعاني من هذه الأحوال المؤسفة. ولهذا كان أولياء الله آمنين من جميع أنواع الاضطرابات النفسية الناشئة من التعلق بالأمور الدنيوية، كما قال عزّ من قائل: **{أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}**.[336]

شواهد إضافية

* التسرّع من الملكات القبيحة ويؤدّي إلى عدم استقرار الإنسان وخفّته في كل حال وسرعة انهياره وإفلات زمام الأمور من يديه، فلا هو يثبت في تحمّل الصعاب الروحية ولا يثبت في مواجهة الشدائد الجسميّة. كما يؤدّي هذا الخلُق القبيح إلى ظهور الكثير من المفاسد الفردية والاجتماعية في المدينة الفاضلة. فما أكثر ما يدفع المُبتلى به إلى الانهيار والإعراض عن القيام بالواجبات الإلهيّة والروحانيّة عند تعرّضه لأدنى الصعوبات. فتغلبه النفس والشيطان، ويبعدانه عن سلوك طريق الحقّ تعالى، ويصير إيمانه لعبة بأيديهما؛ فيفقد بالكامل شعار دينه ومذهبه وكرامته.[337]

* إذا احتجبت هذه الفطرة بالحجب النفسانية الطبيعية وتلوّثت مرآة القلب بالتوجّه للنفس وحبّها؛ أصاب صاحبها الجزعُ ممّا ينزل به، ولم يصبر على فقدان طلباته الطبيعية.[338]

* إنّ الذين يعتمدون على الأسباب الظاهرية، يعيشون دائمًا عند طلب الرزق في حالة من القلق والاضطراب، ولو اصطدموا بمشكلة، لعظمت عندهم وضاقت الحياة في أعينهم لأنّهم لا يجدونها محفوفة بالمصالح الغيبية التي يعلمها الله ويجهلها الإنسان. وخلاصة الكلام، إنّ من يرى سعادته في تحصيل هذه الدنيا، يواجه في طلبها هذه الآلام والعَناء وتُسلب منه الراحة والبهجة وتُستنزف قواه وطاقاته في هذا الطلب. كما نرى أنّ أهل الدنيا في تعب ونصب دائمين، وأنّهم لم يتمتعوا باطمئنان في الروح واستقرار في الجسم، وإذا حلّت بهم مصيبة خارت قواهم وحيويتهم وزال جلدهم وصبرهم أمام الحوادث التي تداهمهم. وهذا لا يكون إلّا نتيجة شكّهم وعدم إيمانهم بالقضاء الإلهي وعدله، فتكون هذه الأمور من الحزن والهم والتعب نتيجة لهذا التزلزل.[339]

* أما الفزع والجزع فمضافًا على أنّهما عيب، وكاشفان عن الضعف في النفس، فإنّهما يجعلان الإنسان مضطربًا، والإرادة ضعيفة والعقل

موهونًا. يقول المحقّق الخبير الخواجة نصير الدين الطوسي: «وهو - أي الصَّبْرُ - يَمْنَعُ البَاطِنَ عَنِ الاضْطِرَابِ، وَاللِّسَانَ عَنِ الشِّكَايَةِ، والأَعْضَاءَ عَنِ الحَرَكَاتِ الغَيْرِ المُعْتَادَةِ». وعلى العكس فإنّ الإنسان غير الصابر، قلبه مضطرب، وباطنه موحش ونفسه قلقة ومهزوزة. وهذا بنفسه بليّة فوق جميع البلايا، ومصيبة من أعظم المصائب التي تحل بالإنسان وتسلب منه الراحة والقرار. ولذا نجد الإنسان غير الصابر، يشكو عند من هو أهل للشكاية، ومن هو ليس أهل للشكاية، وهذا الأمر زائدًا على أنّه يؤدي إلى الفضيحة لدى الناس والاشتهار بالضعف بينهم وعدم الجلادة، فإنّه يسقطه من أعين الناس ويحطّ من كرامته لدى ملائكة الله، وأمام جلال القدس الربوبيّ.[340]

- المحتجب عن الحقّ تعالى، والمتوجّه إلى الأسباب العاديّة والذي يراها مستقلّة في فاعليّتها، يتشبّث بها - عمليًّا وقلبيًّا - فينقطع عن الحقّ، وتزول الطمأنينة والثقة بالله من نفسه، ويحل محلّها الاضطراب والتزلزل. ولأنّ الأسباب العاديّة لا تحقّق له ما يطمح إليه ولا تطفئ نار حاجته، لذا فإنّ حال الاضطراب والتوقان، والتمسّك والتشبّث بالدنيا وأهلها تشتد فيه كل يوم حتّى تغرقه بالكامل في بحر الدنيا.[341]

- رئيس الجمهورية في أمريكا لم يعد قانعًا ببلد أو اثنين أو عشرة بلدان. أنتم ترضون أن يعطوكم إدارة أخرى لأنّكم الآن لا تعلمون. ولكن لو أنّ أيًّا منكم جُعل مكان رئيس أمريكا أو رئيس الاتّحاد السوفياتي فإنّ الاضطراب الذي في قلبيهما، وهو كثير، سينتقل إلى قلبكم الذي اضطرابه الآن أقل ممّا في قلبيهما. وإذا أعطيتم الدنيا بكاملها فإنّ الاضطراب يزداد في قلبكم ويزداد التزلزل... إذًا تسعون وراء أي شيء أنتم؟ تسعون بقلمكم وبلسانكم لتحصلوا على شيء آخر. تتخيّلون الحصول عليه. حين تحصلون عليه هل تطمئنون؟ لا! حين تحصلون عليه يزداد تزلزلكم

ويزداد قلقكم. مثلًا، ذلك الدرويش الذي جلس في زاوية ووجد لقمة عيشه فرضًا؛ انشغال باله أقل من رئيس الجمهوريّة الأمريكي؛ فبال هذا الرئيس أكثر اضطرابًا من ذاك، ليس أكثر راحة، بل أكثر تزلزلًا؛ وأكثر قلقًا. اعملوا على إزالة القلق، لا أن تزيدوا منه.[342]

28

هل أنّ قيام الإنسان بالأفعال يعزّز قدراته النفسيّة أم يضعفها؟

يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه:

«الآداب القلبية للغسل بالنسبة للسالك هي ألا يتوقّف حين غسله عند تطهير الظاهر وغسل البدن الذي هو القشر الأدنى والحظ الدنيويّ، ويتوجّه إلى جنابة باطن القلب وسرّ الروح، ويرى غسله منها أهم فيجتنب غلبة النفس البهيمية والشأن الحيوانيّ على النفس الرّحمانية والشؤون الرحمانية، ويتوب من رجز الشيطان وغروره، ويطهر باطن الرّوح الذي هو نفخة إلهية - وقد نفخ فيه بالنفس الرّحماني - من الحظوظ الشيطانية؛ وهي التوجّه إلى الغير الذي هو أصل الشجرة المنهية، حتى يليق بهذا التطهير للدخول إلى جنة أبيه آدم عليه السلام.»[343]

للاتّصال الجنسيّ معنًى بارز عند أهله وهو أنّه مبدأ الإنجاب، وقد كان هذا المبدأ حاضرًا بقوّة حين لم تكن موانع الحمل مستعملة وشائعة كما هي اليوم. فغالبًا ما كان احتمال انعقاد النطفة ونشوء الجنين واردًا عند الوقاع. وبسبب ذلك، كان الخلق بهذا المعنى جزءًا أساسيًا من هذه العملية. ولا شيء أعلى وأقوى من خلق الإنسان من بين جميع الأفعال التي تجري بواسطة الإنسان.

أجل إنّ كل فعل يقوم به الإنسان هو ظلّ الفاعلية الإلهية. {**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ**}؛[344] فإذا بنينا بيتًا فالله هو الباني ونحن واسطته، وإذا زرعنا زرعًا فهو الزارع ونحن نشاهده، وهكذا. لكن لو تفكّرنا لحظة لوجدنا أنّ العمل الذي ينتهي بخلق

إنسان هو أعظم الأعمال. وإنّما يستقلّه الناس لكثرته وتكرّره، ويستحقره آخرون لمتاعبه ومسؤولياته (كما هو منتشر في الثقافة الغربية).

ومـا الـذي يمكن أن يحدث في مثل هذه الحال، إذا غاب التوحيد عن فكر الإنسـان وقلبه؟

هنـا ينبّه الإمام إلى خطرٍ عظيم يظهر كلّما كان الإنسـان مشـغولًا بفعلٍ من أفعال النفس، لأنّ الأفعال هي ظهور سـلطنة النفس، ولا يخرج الإنسـان من وهم السـلطنة الذاتيّة والتأثير الاستقلاليّ إلّا إذا كان مستعيذًا بحصن الله الحصين الذي هو كلمة «لا إله إلا الله» بشرطها وشروطها. ولأجل ذلك كان الخطر في الوقاع من جهة اسـتحكام الشرك أكبر من أيّ فعل آخر. ولهذا سُمّي بالحدث الأكـبر، مع أنّ قذاراته هـي أقل بكثير من قذارة الحدث الأصغر بحسب الظّاهر. وفي بعض الأحيان قد يخلو من القذارة! ولأجل ذلـك كان لا بدّ من الاغتسـال منه. ونحن نعلم ما في الغسل من عناء أو تكلّف.

في الغسل يتوجّه الإنسان إلى طغيان عـالم الطّبيعة الذي هو ظاهر الشرك وتكـثّر الأسـباب الوهميـة، ويطهّر باطـن قلبـه مـن قذارتـه الباطنية بالتوجّـه إلى أصل الرحمـة المطلقة الظاهرة في الماء. وبواسـطة هذا الماء الصافي ينال الإنسـان توفيق شـهود التوحيد.

ففي الغسـل يتوجّه الإنسان إلى طغيان عـالم الطّبيعة الذي هو ظاهر الشرك وتكثّر الأسـباب الوهمية، ويطهّر باطن قلبه من قذارته الباطنيـة بالتوجّه إلى أصل الرحمة المطلقة الظاهرة في الماء. وبواسطة هذا الماء الصافي ينال الإنسان توفيق شهود التوحيد. فما أكرم ربّنا حين جعل في جميع أفعالنا الطبيعية سبيلًا إليه.

شواهد إضافية

* يقول أهل المعرفة أنّ الجنابة هي الخروج من وطن العبوديّة، والدّخول في الغربة، وإظهار الرّبوبيّة ودعوى الإنّيّة، والدّخول في حدود المولى والاتّصاف بوصف السّيادة. والغسل هو للتّطهير من هذه القذارة والاعتراف بالتّقصير. وقد ذكر بعض المشايخ في ضمن عشرة فصول، مئةً وخمسين حالًا لا بدّ للعبد السّالك التّطهير منها خلال الغسل، يرجع أغلبُها أو كلُّها إلى العزّة والجبروت وكبرياء النّفس وحبّ النّفس ورؤيتها.

يقول كاتب هذه الأوراق: الجنابة هي الفناء في الطّبيعة والغفلة عن الرّوحانيّة والغاية القصوى لكمال السّلطنة الحيوانيّة والبهيميّة، والدّخول في أسفل سافلين، والغسل هو التّطهير من هذه الخطيئة والرّجوع عن حكم الطّبيعة والدّخول في سلطان الرّحمانيّة وتصرّف الألوهيّة بغسل كلّ مملكة النّفس التي فنيت في الطّبيعة وابتليت بغرور الشّيطان.[345]

* في رواية ما ذكر في الحديث الشّريف في الوسائل عن الشيخ الصدوق رضوان الله عليه قال: وبإسناده قال: "جَاءَ نَفَرٌ مِنَ الْيَهُود إِلَى رَسُول اللّه ص- فَسَأَلَهُ أَعْلَمُهُمْ عَنْ مَسَائِلَ وَكَانَ فِيمَا سَأَلَهُ أَنْ قَالَ: لأَيِّ شَيْءٍ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالاغْتِسَالِ مِنَ الْجَنَابَة وَلَمْ يَأْمُرْ بِالْغُسْلِ مِنَ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ص إِنَّ آدَمَ ع لَمَّا أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَة دَبَّ ذَلِكَ فِي عُرُوقِه وَشَعْرِه وَبَشَرِه فَإِذَا جَامَعَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ خَرَجَ الْمَاءُ مِنْ كُلِّ عِرْقٍ وَشَعْرَةٍ فِي جَسَدِه فَأَوْجَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى ذُرِّيَّته الاغْتِسَالَ مِنَ الْجَنَابَة إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة". الخبر...وفي رواية أخرى عن الرّضا عليه السّلام: "إِنَّمَا أُمِرُوا بِالْغُسْلِ مِنَ الْجَنَابَةِ وَلَمْ يُؤْمَرُوا بِالْغُسْلِ مِنَ الْخَلَاء وَهُوَ أَنْجَسُ مِنَ الْجَنَابَة وَأَقْذَرُ، مِنْ أَجْلِ أَنَّ الْجَنَابَةَ مِنْ نَفْسِ الإنسان وَهُوَ شَيْءٌ يَخْرُجُ مِنْ جَمِيعِ جَسَدِه وَالْخَلَاءُ لَيْسَ هُوَ مِنْ نَفْسِ الإنسان وَإِنَّمَا هُوَ غِذَاءٌ يَدْخُلُ مِنْ بَابٍ وَيَخْرُجُ مِنْ بَابٍ». وظاهر هذه الأحاديث وإنْ كان عند أهل الظاهر أنَّ النّطفة لَمّا كانت تخرج من جميع البدن وجب غسل جميعه؛ وهذا مطابق لرأي جمع من الأطبّاء والحكماء الطّبيعيّين، ولكن تعليله عليه السّلام بأكل

الشّجرة كما في الحديث الأوّل، ونسبة الجنابة إلى النّفس كما في الحديث الثّاني، يفتح طريقًا إلى المعارف لأهل المعرفة والإشارة. لأنّ قضيّة الشّجرة وأكل آدم منها من أسرار علوم القرآن وأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السّلام، حيث أنّ الكثير من المعارف مرموز فيها؛ ولذا جعلوا عليهم السّلام في الأحاديث الشّريفة قضيّة آدم والأكل من الشّجرة علّةً لتشريع الكثير من العبادات؛ ومن جملتها باب الوضوء والصّلاة والغسل وصوم شهر رمضان وكونه ثلاثين يومًا وكثير من مناسك الحج.[346]

29

هل للحكومات تأثير على تكامل قوانا النفسيّة؟

يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه:

«إنّ إقامة الحـــدود والتعزيرات والسياســـات الإلهيّة التي تحفظ نظام العالم، تتحقّق في ظلّ القدرة والقوّة الإلهيّة، بل وفي ظلّ تأثيرها تتحقّق مجاهدة النفس وحمايتها من جنود الجهل وإبليس».[347]

إنّ القــوّة الوحيــدة التي يمكن أن تزيــد النفوس قوّة هي قوّة اللــه تعالى. فلا قوّة في الوجود ســوى قوّته تعالى: {**أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًــا**}.[348] ولهذه القدرة الإلهيّة تجلّيات في عــوالم الوجــود، وهي في عالم الطّبيعة بصورة كل هذه الكائنــات الطّبيعيّة والنفوس البشريــة، وفي عالم الاجتماع بصــورة الدولة العادلة. فلا شيء يظهر قــوّة الله في الحياة الاجتماعيّة مثل الحكومة القائمة على أساس شريعة الله تعالى.

ولهذا، يســتمد المســلم الواقعيّ من هذه الحكومة والقدرة السياسية الإلهية أفضل المدد للتغلّب على نفسه التي يمكن أن تجمح نحو السيّئات أو تتبع الشهوات. ولهذا قال أمير المؤمنين عليه الســلام عن الســلطان أنّه «وَزَعَةُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»،[349] فهو الذي يقيم حدود الله ويقف مقابل الإفســاد والعــدوان والظّلم الذي يمثّل طريق الفجور للنّفوس الضّعيفة. وفي ظلّ هذه الحكومات يستشعر الضّعفاء قوّة الله، فيتوجّهون إليه وينالون منه قوّة التغلّب على النفس الأمّارة.

شواهد إضافية

* الإسلام وسائر الحكومات والدعوات الإلهيّة تعتني بجميع شؤون الإنسان بـدءًا من أدناها حتى أعلاها، لا مثل الحكومات الأخرى التي تهتم فقط بساسـة الملك. فكما أنّ الإسـلام ذو سياسة للبلاد، وأغلب أحكامه أحكام سياسـيّة، فهو ذو أحكام معنويّة، فيه حقائـق ومعنويّات وأمور تبعث الإنسان على الرشد وتحكمه. والأشياء الداخلة في تربية الإنسان محكومة بضوابـط معنويـة، وفي درجة أدنى منها هي درجـة الأخلاق ولها أحكام أخلاقية.

أقول: تعتني أحكام الإسلام بالرشد المعنوي للإنسان، وبتربية الإنسان روحيًّا في العشرة، فالإسلام يحدّد أحكام العلاقة بين المسلمين والآخرين، للإسلام أحكام لعلاقة الإنسان مع نفسه، وأحكام لعلاقة الإنسان مع زوجته، ومع ولده وجيرانه ومحلّته وأصحابه، ولعلاقته مع مواطني بلده، ولعلاقته مع من يعتنقون نفس ديانته، ومن يعتنقون غير ديانته، أحكام تشمل كل الحياة حتّى ما بعد الموت.

فلدى الإسلام أحكام لحياة الإنسان من قبل ولادته وزواج والديه، ومرورًا بالحمل به حتّى الولادة والتربية في الطفولة والصبا والبلوغ والشباب والشيخوخة، بل تتبع الإنسان إلى القبر وما بعد القبر.

فوضع الإنسان في رمسه لا ينهي الأمر، بل ذلك أوّل الأمر، فجميع هذه الحياة البشرية هنا. وكل ما يتعلّق بتربية الإنسان، وجعله عقلانيًّا وأخلاقيًّا وغيرهما إلى أن ينفصل عن هذا العالم ويبلغ مرتبة الكمال ومرتبة التجرّد - المرتبة الأصلية - ثمّ بعد تسليمه إلى القبر وبدء حياته الروحانيّة، حياة القبر، الحياة الروحية والمعنوية والبرزخية، وما هو أرقى من الحياة الروحية والبرزخية، وكل هذه من اختصاص الإسلام. فالإسلام وأحكامه التي بعث الله تعالى بها الأنبياء والرسل لا تقتصر على هذا العالم فقط، ولا بالعالم الآخر فقط.[350]

* إنّ الأحكام الإلهية تختلف عن القوانين الدنيوية، فقد لوحظ في القوانين الدنيوية ما يتولّى تنظيم بُعد أو بُعدين من الحياة في هذا العالم فقط،

وحتى ليس من المعلوم أن يوفقوا في معالجة جميع هذه الأبعاد ويضعوا ما يناسبها من القوانين. أمّا الإسلام والقوانين الإلهيّة فقد تناولت حياة الإنسان من قبل أن تنعقد نطفته فترى نور الحياة إلى أن يحين وقت موته، خطوة فخطوة.[351]

* إنّ سيادة الأحكام الإلهيّة في مكانٍ ما، هي كفيلة بإجبار الباطل على الرحيل عن ذلك المكان، ولو امتثلت جميع الشعوب الإسلامية بشكلٍ تام للأحكام الإلهيّة والقيم الأخلاقيّة، التي أكّدت عليها الشّريعة، لزال الباطل وزهق.[352]

* جميع التكاليف الإلهية هي ألطاف إلهية، ونحن نتصوّرها تكاليف لكنّها كلّها ألطاف، سواء التكاليف الفردية - الرامية إلى تربية كل إنسان على حدة من أجل إكماله، ولا طريق للتكامل والرقيّ غير هذا الطريق، وهناك درجات لا يمكن الوصول إليها إلّا بسلوك هذا الطريق - أو التكاليف الاجتماعية التي تجب تأديتها لتنظيم المجتمع. وقد بيّن لنا الأنبياء الأمور التي تتعلّق بالروح، والتي تتعلّق بالمقامات العقلية، والتي تتعلّق بالغيب.

وبيّن القرآن ذلك أيضًا، وأهله يعلمون، وقد بينت السنة والكتاب تلك الأمور التي هي من الوظائف الخاصّة الداخلة في رقيّ الإنسان وتكامله، وبيّنت الأمور المتعلّقة بالمجتمع والسياسة والأمور الاجتماعية وما يتعلّق بتنظيم وتربية المجتمع. ونحن وجميع البشر مكلّفون بالاهتمام بكل هذه المراتب، وكل هذه المقامات، وأن لا يحصروها في جانبٍ واحد.[353]

* الإسلام ليس كسائر الأديان الأخرى التي وصلت لنا ظواهرها، بل إنّه يربّي الإنسان بمختلف أبعاده، في عقله وتهذيب أخلاقه وفي آدابه الظاهريّة وله حكم بشأن جميع احتياجاته.

كما أنّه ليس مثل الأنظمة الحاكمة الأخرى التي تهتم بالجوانب الاجتماعية والسياسة فقط أو لا علاقة لها بما يجري داخل المنزل، فليفعل كلّ شخص في

بيته ما يشاء حتى لو كان يلعب القمار فلا شأن للحكومة بذلك.

أمّا الإسلام فهو يهتم بأمركم حتّى وأنتم تختلون بأنفسكم في منازلكم وبسلوككم مع عوائلكم وبعلاقتكم مع جيرانكم وأبناء وطنكم وأبناء دينكم وأتباع الأديان الأخرى. فلكلّ ذلك آداب في الإسلام فهو ليس حكمًا مجرّدًا بل إنّ الحكم وشؤون السياسية أحد مجالاتها، ومنها أيضًا اهتمامه بتربية الجانب المعنويّ في الإنسان إذ يحدد له العقائد الصحيحة التي يجب أن يؤمن بها، والأخلاق التي يجب أن يتحلّى بها والآداب العملية وغيرها.

فالإسلام يهتم بها جميعًا في حين أنّ الأنظمة الأخرى تتجاهلها، فما من حكومة تنبري لتقول لكم: اجتنبوا العمل الفلاني في منزلكم، هذا ما لا علاقة للحكومات به، وليفعل المرء داخل بيته ما يشاء، أمّا الإسلام فهو ينظم شأنك حتى وأنت في بيتك وحيدًا، بمعنى أنّه يحدّد سلوكك هناك أيضًا، ويبيّن الأخلاق التي يجب أن تتحلّى بها وكيف يجب أن تستفيد من قوّتك العقلية وطبيعة سلوكياتك والآداب التي ينبغي أن تتعامل على ضوئها مع أطفالك وكيف يتعامل الابن مع أبيه وأمه وبالعكس، والأخ مع أخيه، وأفراد العائلة فيما بينهم ومع العوائل الأخرى، فقد حدّد الإسلام آدابًا لكلّ هذه الشؤون.

الإسلام للبشرية جمعاء. كما أنّ الإسلام يهتم بالقضايا الاجتماعية التي ترتبط بكافة أفراد بني الإنسان من دون تمييز بين بلدٍ وآخر، إذ لا ينحصر الإسلام في بلدٍ معيّن - مثل إيران أو العراق أو غيرهما - بل يهتم بالعالم أجمع، بمعنى أنّه يسعى إلى تربية جميع بني الإنسان فلا يرتبط بقطر دون آخر، أو بشرق، أو غرب، أو شمال، أو جنوب، إنّه دينٌ إلهيّ، والله تبارك وتعالى إله الجميع وليس إله الشرقيين وحدهم أو المسلمين أو الغربيين أو المسيحيين أو اليهود وحدهم، بل هو إله الجميع ورازق وخالق الجميع. وكذلك حال الإسلام، فهو دين الجميع بمعنى أنّه جاء لتربية كل البشر وفقًا للصورة التي يريد من العدالة، بحيث لا يعتدي

إنسان على آخر ولا بمقدار أُنملة، لا يعتدي إنسان على ولده أو زوجته، ولا تعتدي الزوجة على زوجها، ولا أحد الأخوين على الآخر، ولا الرفاق بعضهم على بعض، إنّه يريد تربية إنسان عادل بكل معنى الكلمة، يكون تفكيره وعقله عقل إنسان، وكذلك ظاهره ظاهرًا إنسانيًا ومؤدّبًا بالآداب الإنسانية وهذا ما يريد الإسلام تحقيقه.[354]

30

ما معنى إفناء إرادة النفس في إرادة الله؟ هل هو تعطيل لقواها؟

يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه:

«إنّ مـن أسرار العبادات وفوائدها المهمّة التي تكون بقيّة الفوائد مقدّمة لها، أنْ تصبح مملكة البدن بكلّها، ظاهرها وباطنها، مسخّرةً تحت إرادة الله ومتحرّكة بتحريك الله تعالى، وتكون القوى المَلَكوتية والمُلْكِيّـة للنّفـس من جنود الله، وتكون كلّهـا كملائكة الله. وهذه مـن المراتب النّازلة لفناء القـوى والإرادات في إرادة الحقّ. ويترتّب على هذا بالتّدريج النّتائج العظيمة ويصبح الإنسـان الطبيعيّ إلهيًّا؛ وتكون النّفس مرتاضةً بعبادة الله، وتنهزم جنودُ إبليس بشكلٍ نهائيّ وتنقرض، ويكون القلب مع قواه مسلّمًا للحقّ، ويَبرز الإسلام ببعض مراتبه الباطنيّة في القلب، وتكون نتيجة هذا التّسليم لإرادة الحقّ في دار الآخـرة أنّ الحقّ تعالى ينفذ إرادة صاحب هذا القلب في العوالِم الغيبيّـة، ويجعله مثلًا أعلى لنفسـه. فكما أنّه تعـالى وتقدّس يوجد كلّ مـا أراد بمجرّد الإرادة، يجعل إرادة هـذا العبد أيضًا كذلك؛ كما روى بعـض أهل المعرفة عـن النبيّ صلّى الله عليـه وآله في وصف أهل الجنّة أنّه يأتيهم ملكٌ فيستأذن للدخول عليهم وبعد الاستئذان يدخل فيبلّغ السـلام من الله تعالى عليهم ويعطي كلًّا منهم رسـالةً مكتوبًا فيها:

«مـن الحَيِّ القَيُّومِ الَّذِي لَا يَمُوْتُ إِلَىْ الحَـيِّ القَيُّومِ الَّذِي لَا يَمُوْتُ

أَمَّــا بَعْدُ فَإِنِّي أَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُــوْن وَقَدْ جَعَلْتُكَ تَقُوْلُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُــوْن، فَقَالَ صَلَّى الله عَلَيْــهِ وَآلِهِ: فَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِــنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لِلــشَّيْءِ كُنْ إِلَّا وَيَكُــوْن». وهذه هي السّــلطنة الإلهيّة التي تُعطى للعبد لأجل تركه إرادة نفسه وترك سلطنة الأهواء النّفسانيّة وإطاعة إبليس وجنوده». [355]

النفــس في كمالها الأعلى هي المثل الأعلى للحقّ تعالى. فما الذي تعنيه هذا الكلمات التــي وردت في القــرآن الكريــم بقوله عزّ من قائل: {**وَلِلَّــهِ الْمَثَلُ الْأَعْــلى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**}. [356]

مــا من مخلوقٍ إلّا وهو يدلّ على خالقه. وكل ما دلّ على الخالق فهو يحمل صفاته. فــما تراه صغيراً حقيراً سرعان مــا يتبيّن أنّه عالمٌ عظيم عجيب مذهل. ولهذا، يســتيقن الذين آمنوا بمثال البعوض التي تُعتبر من أحقر مخلوقات الله، {**إِنَّ اللَّهَ لا يَسْــتَحْيي أَنْ يَــضْرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذينَ آمَنُــوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذيــنَ كَفَــرُوا فَيَقُولُونَ ماذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثيراً ويَهْدي بِهِ كَثيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقين**}. [357]

بيــد أنّ الإنســان هو أظهر وأجلى آية عــلى هذه العظمة. ولهــذا كان غاية لجميع المخلوقــات. فتكمن منزلة الإنســان في العالمين في قدرته على إظهــار صفات الله تعالى كلّها. ولعلّ هذا هو أحد معاني {**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْــماءَ كُلَّها**}. [358] وبسببها أصبح خليفة لله في الأرض. فكل كائن يظهر بعض الصفات ويخفي أخرى، إلّا الإنســان الكامل، فله هذه الجامعية. وبفضلها صار قريبًا من أفق الاسم الأعظم، واستعدّ لما هو أعلى وأسمى.

يكمن سرّ الخلق بالنســبة لله تعالى في أنّه محل ظهور إرادته التامّة. فلا شيء يمكن أن يمنع من تحقّق هذه الإرادة. وتكمن فضيلة الإنســان في إمكانية فنائه في إرادة الله تعــالى، بحيث تصير إرادته عين إرادة الله عزّ وجل. وعلى هذا الأســاس، فإنّ أولياء الله الذيــن فنــت إراداتهم في إرادة الله تعالى، ينفّذون في العــوالم كل ما يريده الله. وهذه

الحقيقة ســتظهر جلية لكلّ إنسٍ وجنّ وملك مقرّب ونبيٍّ مرسل وشيطانٍ مريد وخلق بين ذلك شهيد، حيث سيعرفون في الآخرة عظمة هذا الإنسان الكامل، وإن تمرّد البعض منهم وأنكروه.

ولأجل فناء الإرادة كانت العبادة التي هي وســيلة الذوبان المســتديم في إرادة الله. فالعابد الحقيقي هو الذي يتوجّه أثناء عبادته إلى ما يريده الله منه، ويعمل عليه. حتى تصبح كل حياته عبادة ويصبح عبدًا بالحقيقة ليس له من نفسه إرادة.

وأوّل آثــار العبــادة - كما ذكر الإمام - أن تصبح القوى النفســانية المختلفة فانية في إرادة النفس الواحدة. وبدل أن تكون فاعلة فيها، تصبح منفعلة بها ومنها. وهكذا تخرج النفس من حالة التشــتّت إلى وحدة التوجّه وتصبح مستعدّة بفضل المرحلة الثانية من العبادة للتوجّه التام إلى الله. فلا شيء أقرب إلى الوحدة من النفس الروحانية.

شواهد إضافية

- فأنت أيّها العزيز، اغتنم وقت المناجاة هذا بالقدر الميسور والمقدار المقدور وقم بآدابه القلبيّة، وفهّم قلبك أنّ أساس الحياة الأبديّة الأخرويّة ومنبع الفضائل النّفسانيّة ورأسمال الكرامات غير المتناهية هو المراودة والمؤانسة مع الحقّ ومناجاته؛ وخصوصًا الصّلاة فإنّها مرهمٌ روحانيٌّ، قد أُعدَّ بيدي جمال الحقّ وجلاله، وهي أجمع وأكمل من جميع العبادات.[359]

- من إحدى الجهات المهمّة للتّقوى والتّجنّب عن المشتهيات النّفسانيّة وترك أهوائها والرّياضات الشّرعيّة والعبادات والمناسك الإلهيّة تقويةُ العزمِ وانقهارُ القوى المُلْكيّة تحت مَلَكُوت النّفس.[360] -

- قد ورد في صلاة المعراج لرسول الله صلّى الله عليه وآله، بعد الرّكوع، أنّ العزيز خاطبه "فَانْظُرْ إلى عَرْشِي». قال رسول الله: «فَنَظَرْتُ إلى عَظَمَة ذَهَبَتْ لَهَا نَفسي، وَغُشِيَ عَلَيَّ، فَأُلْهِمْتُ أَنْ قُلْتُ سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، لعظَمِ مَا رَأَيْتُ. فَلَمّا قُلْتُ ذَلكَ، تَجَلّى الغشْيُ عَنِّي حَتّى قُلْتُهَا سَبْعًا، أُلْهِمُ ذَلكَ، فَرَجَعَتْ إِلَيَّ نَفْسي كَمَا كَانَتْ».

فانظر أيّها العزيز إلى مقام عَظمة سلوك سيّد الكلّ وهادي السّبل صلّى الله عليه وآله، حيث رأى في حال الرّكوع - وهو حال النّظر إلى ما دون نفسه - نورَ العرش. وحيث أنّ نور العرش في نظر الأولياء عبارةٌ عن تجلّي الذّات بلا مرآة، فالتّعيّن النّفسيّ (للمخلوق) يزول، وتحصل حينها حالة الغشي والصّعق، لهذا أدركَت الذّات المقدّسة بالعنايات الأزليّة وجودَه الشّريف، ولقّن سبحانه الذّات النبويّة المقدّسة التسبيحَ والتّعظيمَ والتّحميدَ بالإلهام الحبّيّ، حتّى أفاق بعدما قالها سبعًا بعدد الحجب، وعدد مراتب الإنسان، وحصلت له حالةُ الصّحو. وهذه الأحوال كانت تداومه في صلاة المعراج كلّها.

وحيث إنّه لا سبيل لنا إلى خلوة الأنس، ولا مكان لنا في مقام القدس، فالجدير أنْ نجعل رأسمالنا للوصول إلى المقصد وعروتنا لحصول المطلوب عجزَنا وذلّتَنا، ولا ندع التّمسّك بذيل المقصود حتّى يرتوي القلب. وإذا لم نكن من رجال هذا الميدان، فعلى الأقلّ نطلب الهداية من أهله ونستعين

بروحانيّة الكمّل، فلعلّ رائحة من المعارف تصل إلى مشامّنا، ويهبّ نسيم لطف على قالبنا الميّت، وذلك لأنّ عادة الحقّ تعالى الإحسانُ وشيمتَه التّفضّلُ والإنعامُ.[361]

* الذين تركوا أنفسهم وأعمالهم وهاجروا من منزل كيانهم وبيت الأنا والأنانية، وداسوا على رأس مملكة وجودهم، وتحرّروا من كلا النشأتين، فتطلّعت عيونهم للحبيب وعميت عن نفوسهم وأعمالهم، فأحيت تجلّيات الرّحمة الإلهيّة قلوبهم، فكسروا قدم السير والسلوك، ومدّوا أيدي طمعهم إلى الحقّ تعالى ورحمته، وانقطعوا عن كل ما سواه وتعلّقوا به.[362]

* الله، تبارك وتعالى، يقول للنبيّ: إنك أنت الذي رميت السهم، لكنك لم ترمه بنفسك، بل الله الذي رمى، أي أنّ يدك هي يد الله، ورميك هو رمي الله، لأنّك اتّصلت به تعالى، ولم تعد شيئًا بنفسك، فكلّ الموجود هو- تبارك وتعالى - وفي هذه الحالة يكون الحال {ما رميت إذ رميت}، أي إنّك رميت، لكنّك لم ترمِ في الواقع، وإنّما رميت في الظاهر، والرامي يد الله، والذين بايعونك {إنما يبايعون الله}، فالبيعة هي مع الله، لأنه ﷺ متّصل بالله، وهو القوّة المطلقة، ولذلك فإنّ البيعة لهذه اليد هي بيعة لله تبارك وتعالى لأنّ هذه اليد ليست يد (النفس) بل هي يد الله. وهذا بالطبع مقام سام لا يتيسّر لي ولكم الوصول إليه، لكنّ العمل في سبيل الله ممكن لنا.[363]

* يا ليتنا نصحو من نومتنا ونلج أوّل منزل وهو اليقظة! ويا ليته جلّ وعلا يأخذ بأيدينا بألطافه وعناياته الخفية فيرشدنا إلى جماله الجميل، ويا ليت فرس النفس الجموح تهدأ قليلًا، فتنزل عن مقام الإنكار، ويا ليتنا نُلقي هذا العبء الثقيل من على كواهلنا إلى الأرض، فننطلق مخفّين نحوه تعالى![364]

* لا يمكن الوصول بهذه الحقائق إلّا مع العبور عن ملابس الرقائق ولا

يتيسّر إلّا بسلب العلائق الدنيوية وشدّ الرحال إلى باب الأبواب الإنسانية، والخروج عن جميع مراتب الأنانية وترك الشهوات النفسانية فإنّ شهود مقام الإطلاق لا يمكن إلا بترك القيود، والوصول إلى باب الإرسال لا يتيسّر إلا بإلقاء الحدود.[365]

* فارجع إلى نفسك قليلًا، وعد إلى الله، فالله رحيم، وهو يبحث عن ذريعة لإفاضة الرحمة عليك. إذا أنبت إليه، فإنّه يستر بغفرانه معاصيك وعيوبك الماضية، ولن يطلع عليها أحدًا ويجعلك صاحب فضيلة، ويظهر فيك الأخلاق الكريمة، ويجعلك مرآة لصفاته تعالى ويجعل إرادتك فعّالة في ذلك العالم كما أنّ إرادته نافذة في جميع العوالم. كما ورد في حديث منقول: إنّ أهل الجنّة حين يستقرّون في الجنّة، تبلغهم رسالة من الحقّ تعالى خلاصتها: من الحيّ الأبديّ الذي لا يموت، إلى الحيّ الأبدي الذي لا يموت إذا أردتُ شيئًا قلتُ له كن فيكون، جعلتك هذا اليوم في مستوىً إذا أردتَ شيئًا قلت له كن فيكون.

لا تكن محبًّا لنفسك، سلّم إرادتك للحقّ تعالى، فإنّ الذات المقدّسة يتفضّل عليك بجعلك مظهرًا لإرادته، ويجعلك متصرّفًا في كافّة الأمور. ويخضع لقدرتك مملكة الإيجاد. وهذا هو غير التفويض الباطل، كما هو معلوم في محلّه.[366]

* إنّ مبدأ السفر الروحاني إلى الله سبحانه هو بيت النفس المظلم. ومنازل هذه الرحلة، المراتب الآفاقية والمراحل الأنفسية. ونهاية هذا السفر الذات الحقّ المقدّس حيث يكون للإنسان الكامل في المرحلة الأولى الذات مع جميع الصّفات والأسماء. وفي المرحلة الأخيرة الذات مضمحلًا فيه الأسماء والصفات. ولغير الإنسان الكامل الذّات المقدّس مع اسم وصفة وتعيّن من الأسماء والصفات والتعيّنات.

وبعد أن يطأ الإنسان السالك برِجْلِهِ على هامة إنّيّته وأنانيّته، ويغادر البيت المظلم ويتجاوز المنازل ومراحل التعيّنات عند بحثه عن المقصد الأصليّ وطلبه لله سبحانه ويطأ بقدميه على رأس كل ذلك، ويخرق

الحجب الظلمانيّة والنورانيّة ويقطع آماله من كلّ الموجودات والكائنات، ويحطّم الأصنام من كعبة قلبه بيد قدرة ولايته، وتغيب الكواكب والأقمار والشموس من أفق قلبه ويغدو قلبه إلهيًّا ذا وجهة واحدة من دون أن يعكّر صفوها التعلّق بالغير، ويبلغ مستوى {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}[367]. ويفنى في الأسماء والذات والأفعال. وبعد هذه المراحل التي يجتازها، ينسلخ عن نفسه ويحصل له المحو الكلّيّ وتظهر له حالة الصعق، ويصير الحقّ المتعالي فيه فعّالًا. حيث يسمع بسمع الحقّ ويبصر بعين الحقّ ويبطش بيد قدرة الحقّ وينطق بلسان الحقّ، ويرى الحقّ ولا يرى غيره، ويتكلّم بالحقّ من دون غيره فيكون تجاه غير الحقّ أعمى وأصم وأبكم وتجاه الحقّ بصيرًا وسميعًا وناطقًا.

ولا يحصل هذا المقام إلا مع الجذب الربوبيّ وجذوة نار العشق، حيث يتقرّب بها إلى الحقّ بصورة مستمرّة، ويُسْعف بواسطة الجذبة الربوبية التي تحصل إثر حبّ الذات المقدّس، حتى لا ينزلق في وادي الحيرة، ولا يُبتلى بالشطحات وغيرها التي تكون من رواسب الأنانية. وقد أشير إلى هذين الأمرين في قوله «وَإِنَّهُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتَّى أُحِبَّهُ».

فإنّ تقرّب العبد إلى الله من آثار جذوة العشق. وإنّ الجذبة الإلهية للحقّ سبحانه من نتائج الحب:

إذا لم تكن جذبة من طرف المعشوق * * * لما أفلحت مساعي العاشق المسكين فيوجب التقرّب بالنوافل، الفناء الكليّ والاضمحلال المطلق والانصهار التام وتكون نتيجته «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ - إلخ» وبعد هذا الفناء التام، والمحو الكليّ، والمحق المطلق، والصعق التام، قد تشمله العناية الأزلية ويرجع إليه وعيه، ويعيده إلى عالمه ويعتريه الصحو، وتحصل له حال الأنس والطمأنينة، وتنكشف له سُبُحات الجمال والجلال، وفي هذه الحال من الصحو تتجلّى في مرآة الذات الصفات، وفيها تنكشف الأعيان الثابتة ولوازمها، ويكون وضع أهل السلوك في هذا المقام مثل المقام الأوّل في أنّ عينه الثابتة تفنى في الاسم الذي تتبعه وتبقى معه

وينكشف عليه حين الصحو الاسم نفسه والعين الثابتة التابعة لذلك الاسم.

إذن، تنكشف عن الإنسان الكامل، المنطوي تحت الاسم الجامع الأعظم، مطلق الأعيان الثابتة مع لوازمها أزلًا وأبدًا، وتنكشف له حالات الكائنات واستعداداتها، وكيفية سلوكها وطريقة وصولها وتليق به زينة الخاتمية والنبوّة الخاتمة اللتان تكوّنتا نتيجة الكشف المطلق، وتنكشف على بقية الأنبياء كلٌّ حسب مظهريّته لاسمٍ من الأسماء الإلهية، وحسب إحاطة وسعة ذلك الاسم، تنكشف الأعيان التابعة لذلك الاسم، وتنطلق منها سعة دائرة الدعوة وضيقها، والكمال والنقص، والأشرفية وغيرها، وتعود إلى التبعية للأسماء الإلهية.[368]

31

كيف تقوى نفوسنا بالمؤمنين؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«دعائم الأخوّة الإيمانية والمودّة الإسلاميّة هي من أصول بل أمّهات أسباب حصول الصفاء الباطنيّ وتصفية النفس وتزكيتها».[369]

وقد مرّت الإشارةً إلى أنّ من أعظم تجليات القوّة الإلهيّة في عالم الطّبيعة بل في جميع عوالم الوجود هي النفوس الطيّبة والأرواح الطّاهرة. فمن اتّصل بهذه النفوس برابطة الأخوّة العميقة والعلقة الحبيّة الإيمانية اتّحد مع أرواحها وسرت فيوضاتها في باطن نفسه وصارت نفسه متّصلة بمعدنها. ولهذا كانت الأخوّة الإيمانيّة من أعظم أسباب تقوية النفوس وتزكيتها وحصول الصفاء الباطني بواسطة انتفاء الأنانيات.

إنّ حقيقة الأخوّة الإيمانية ترجع إلى تعظيم حقّ الأخ في الإيمان لظهور شخصيته في الارتباط بالله تعالى. ففي هذه الرابطة ينظر الأخ إلى أخيه المؤمن من جهة اتّصاله بالله تعالى، ويستحضر دومًا هذ الاتّصال. فهو في الحقيقة متّصل بالله عبر هذا الأخ. ولأنّ للمؤمن عند الله منزلة وحرمة هي أعظم عنده من حرمة بيته العتيق، كان الاتّصال به أكثر تأثيرًا في النفس من الحج إلى بيت الله الحرام.

شواهد إضافية

* إنّ مـن الأهداف الكبيرة للشرائـع الإلهية والأنبياء العظام - سـلام الله عليهـم - مضافًـا إلى كونه - الهدف الذي نذكره - هدفًا مسـتقلًا وليس مجرّد أداة وواسـطة وإنّما هي الوسـيلة التي تبعث على إنجاز الأهداف الأساسية الكبيرة، وشرطٌ ضروريّ لتحقيق المدينة الفاضلة. ولا يتحقّق هذا الهدف الكبـير المصلح للمجتمع والفرد إلا في ظلّ وحدة النفوس واتّحاد الهمـم والتآلف والتآخي، والصداقة القلبية والصفاء الباطنيّ والظاهريّ، وتربية أفراد المجتمع على نمطٍ يساهم كلّهم في بناء شخصٍ واحد، ويحوّل المجتمع إلى فرد، ويجعل الأفراد بمنزلة الأعضاء والأجزاء لذلك الفرد وتُدار كافّة الجهود والمسـاعي حول الهدف الإلهـيّ الكبير، والأمر الهامّ العقليّ العظيـم - الوحدة والأخوّة - الذي فيـه مصلحة الفرد والمجتمع. ولو أنّ مثل هذه الوحـدة والأخوّة ظهرت في طائفة أو نوع، لتغلّبوا على جميع الطوائـف والأمـم التي لا تحظى بالأخوّة والوحـدة كما يتّضح ذلك من مراجعة التاريخ وخاصّة دراسـة الحروب الإسلامية والفتوحات العظيمة، حيث تمتّع المسـلمون لـدى بزوغ القانون الإلهيّ - الإسـلام - بشيءٍ من الوحدة والاتّحاد، واقترنت مساعيهم بشيء من الخلوص في النيّة، فحقّقوا في فترة قصيرة إنجازات عظيمة، وهزموا القوى الجبّارة آنذاك المتمثّلة في إيـران والروم وانتصروا رغم قلّة عددهم وعُدّتهم على الجيوش المدجّجة بالسـلاح وعلى المجتمعات الكبيرة. إنّ نبيّ الإسلام قد أجرى عقد الأخوّة في الأيام الأولى بين المسـلمين، فسـادت الأخوّة حسب الآية الكريمة {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}.[370] بين جميع المؤمنين.

وفي الـكافي الشريف: عَنْ العَرْقُوفي قالَ: سَـمِعْتُ أبا عَبْـدِ اللهِ عليه السَّـلام يقول لأصْحابه: «اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا إِخْوَةً بَـرَرَةً فِي اللهِ مُتَواصِلينَ مُتَراحِمينَ. تَزاوَرُوا وَتَلاقَوْا وَتَذاكَرُوا أمْرَنا وَأحْيُوهُ».[371]

وَعَنْ أبي عَبْدِاللهِ عليه السَّـلام قالَ: يَحِقُّ عَلَى المُسْـلِمِينَ الإجْتِهادُ فِي التواصُلِ وَالتَّعاوُنَ عَلَى التَّعاطُفِ وَالمُواسَاةِ لأَهْلِ الحاجَةِ وَتَعاطُفِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ حَتَّى تَكُونُوا كَما أمَرَكُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {رُحَماءُ بَيْنَهُمْ}.[372]

وعنه عليه السّـلام: «تَواصَلُوا وَتَبارُّوا وَتَراحَمُوا وَكُونُوا إِخْوَةً بَرَرَةً كَما أَمَرَكُـمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ».[373] ومن المعلوم أنّ كل ما يبعث على ازدياد هذه الصفـات يكون محبوبًا ومرغوبًا فيه، وكل ما ينقض هذه الأخوّة ويفرط عقد التواصل ويدفع نحـو التمزّق، يُعتبر مبغوضًا عند صاحب الشريعة ومناقضًا لأهدافه الكبيرة.[374]

* اعلم أنّ الإيمان أيضًا من الكمالات الرّوحية، التي قلّما يدرك أحد حقيقتها النوريّة، حتّى أنّ المؤمنين لم يعرفوا شيئًا عن نورانيّة إيمانهم، والكرامات التي تنتظرهم لدى ساحة قدسه المتعالي، ما داموا في عالم الدنيا، وظلام الطبيعة... وفي هذا الحديث الشريف، ذُكر كرامة من كرامات المؤمنين التي لا تُقاس لدى أصحاب المعرفة وأرباب القلوب، بأيّ شيء آخر، ولا تدخل في أي ميزان ومقياس، وهي: «وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَلْقى أخاهُ فَيُصافِحُهُ، فَلا يَزالُ اللهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِما».

وفي الروايات الكثيرة إشارة أيضًا إلى هذا المضمون، ففي الكافي بإسناده عن أبي جعفر عليه السّلام قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَيْنِ إِذَا الْتَقَيا فَتَصافَحا، أَقْبَلَ اللهُ تَعالى عَلَيْهِما بِوَجْهِهِ وَتَساقَطَتْ عَنْهُمَا الذُّنوبُ كَما يَتَساقَطُ الْوَرَقُ مِنَ الشَّجَرِ».[375]

إنّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما ينجم من توجّه الحقّ المتعالي وإقباله سـبحانه بوجهه الكريم عـلى المؤمن عند مصافحتـه لأخيه المؤمن من النّـور والكرامة، ومن ارتفاع الحجـب التي بين العبد المؤمن ونور جمال ذاتـه المقدّس، ومن العنايـات الربّانية التي تنزل عـلى المؤمن وتنجده. كان لا بـد من معرفة السرّ الواقعيّ والنكتـة الحقيقيّة التي تبعث على هـذه الكرامات وعدم الغفلـة عنها كي ينتبه القلـب إليها ويصير عمله كامـلًا ونورانيًا بها، وتُنفخ في العمل الروح والنفخة الإلهيّة. وتلك، النكتة الحقيقيّة والسرّ الواقعيّ هـو: تحكّم الودّ والمحبّة في الله، وتجديد عهد الأخوّة في الله. كـما أبدت أحاديث مباركة اهتمامًا كبيرًا بهذا السّر. وقد أشير إلى هذا الموضوع في الأحاديث الواردة في المصافحة أيضًا. ففي الكافي

بإسناده عن أبي جعفر عليه السّلام قالَ: «إنَّ الْمُؤْمِنَيْنَ إذا الْتَقَيا وَتَصافَحا، أدْخَلَ اللهُ يَدَهُ بَيْنَ أيْدِيهما فَصافَحَ أشَدَّهُما حُبًّا لِصاحِبِه».[376]

وفي رواية أخرى عن إسـحاق بن عمّار قَـالَ: دَخَلْتُ عَلى أبِي عَبْدِاللهِ عَلَيهِ السّـلام - إلى أن قال - أومَا عَلِمْتَ أنَّ المُؤْمِنـينِ إذا الْتَقَيا فَتَصَافَحا أنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ الرَحْمَةَ عَلَيهِمَا فَكانَتْ تِسْـعَةٌ وَتِسْـعِينَ لأَشَدِّهِما حُبًّا لَصاحِبه فَإذا تَوافَقا غَمَرَتْهُما الْرَّحْمَة.[377] والحمد لله أولًا وآخرًا.[378]

✷ القرآن يقول: {إنّما المؤمنون إخوة} ولا شيء غير الأخوّة بين المؤمنين. فليس المؤمنون إلا إخوة. فإذا لم نلاحظ إلا جهة الأخوّة فيما بيننا، فهذا يكفي لانسجامنا. القرآن يريد المؤمنين إخوة، ولا شيء غير الإخوة، فلا يصيبهم بعد ذلك ضرر... أمير المؤمنين عليّ عليه السلام كان أخًا للجميع، كان مسلمًا وكان مؤمنًا وكان أخًا وكان قائد المؤمنين وأخًا لهم. وكان عقيل أخًا لعليّ عليه السلام، أكان من حقّ عقيل أن يقول لعلي: أنا وأنت أخوان، ولكني أعصي لكَ أمرًا؟ هذا خلاف الأخوّة. فلأنهم إخوة يجب أن يرفعوا راية الإسلام معًا. هذه هي الأخوّة. لقد وُضعت الأخوّة كي يكون الانسجام، ويسيروا قدمًا بهتافٍ واحد.[379]

✷ {إنّما المؤمنون إخوة}، لاحظوا جميعًا هذه الآية، {واعتصموا بحبل الله جميعًا} كونوا إخوة حتى تكونوا في الجنة إخوانًا على سررٍ متقابلين - كونوا إخوة. إذا لم تكن الأخوّة هنا فلا يُعلم هل توجد هنالك جنّة لكم أم لا.[380]

32

كيف يؤثّر العمل الصالح في تنمية طاقاتنا وزيادة استعداداتنا؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«ليُعلـم كما أنّ لكلّ عمل من الأعمال الصّالحة أو السـيّئة صورة في عالم الملكوت تتناسـب معه، فله صـورة أيضًا في ملكوت النّفس، تحصل بواسـطتها في ملكـوت النّفس: إمّا النورانيـة ويكون القلب مطهّرًا ومنوّرًا وفي هذه الحالة تكون النفس كالمرآة المصقولة صافية، ويليـق للتجليات الغيبيـة وظهور الحقائق والمعـارف فيه؛ وإمّا أن يصـير مَلَكوت النّفس بهـا ظلمانيًّا وخبيثًا، وفي هـذه الصّورة يكون القلب كالمرآة المريّنة والمدنّسـة، لا تنعكس فيها المعارف الإلهيّة ولا الحقائق الغيبيّة».[381]

أعمالنا تفعّل اسـتعدادتنا. ونحن نمتلك الاسـتعداد والقابليـة لنكون في أعلى عليين حيـث التجليات الإلهيـة الغيبية السرية التي أعظمها التجلّي باسـم الله الأعظم، أو في أسـفل سافلين حيث التنزّلات الشـيطانية: {**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطينُ * تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثيم**}.[382]

فالنفس في بدو الأمر تكون قابلة للتشـكّل بأي شـاكلة، وأعمالنـا توجد فيها المحل والقابل. ولهذا كان العمل الصالح وسـيلة السّـالكين الذين أدركوا سنن الله في الكونين. ولا يخفى أنّنا نصنع ملائكتنا كما نصنع شـياطيننا بواسـطة أعمالنا. وقد ورد الكثير من الإشـارات الروائيـة في هذا المعنى. ولغرابـة المطلب أعرض الكثيرون عـن التفكّر فيه،

وتصوّروا عملية الصناعة أو الخلق كنوعٍ من الألوهة.

إنّ أحد معاني خلق الشياطين هو إيجاد الموانع المختلفة في حياتنا أمام سيرنا إلى الله. ولهذا فإنّ حقيقة الشـيطنة هي كل ما يصدّ عن الله سـواء كان بصورة الإنس أو الجن أو الدنيا. وإنّ أغلب موانع سـيرنا تكمن في هذه العلاقـات الاجتماعية التي تقوم على أسـاس الطغيان والعدوان والتي ستلاحقنا إن لم نتحرّر مـن تبعاتها إلى ما بعد الموت وتتسبّب لنا بعذابات وخيمة تكاد تخرجنا من طلب رحمة الله والشعور بروحه. «فَبِئْسَ الزَّادُ إِلَى الْمَعَادِ الْعُدْوَانُ عَلَى الْعِبَادِ»،[383] كما قال أمير المؤمنين عليه السلام.

حقيقة الشيطنة هي كل ما يصدّ عن الله سواء كان بصورة الإنس أو الجن أو الدنيا.

وإنّ أحـد معاني خلـق الملائكة هو إيجاد العوامل المسـاعدة لنا في السـير إلى الله تعالى. فالملكوت هو سـبيل الله الأسـهل والأيسر وبوابة الدخول إلى جنانه ومقام قربه. ومـن خلال العمل الصالـح الذي يصب في إطار إيجـاد البيئـة الاجتماعية المناسـبة للسير إلى الله والتسابق في الفضائل نسهّل سـيرنا المعنوي وارتقاءنا الروحيّ. - فكل ما كان من الطّبيعة عاملًا لذكر الله والشـعور بحضوره فهو من عالم الملكوت. وكل ما كان في عالم الطبيعة ممّا يصعّب حياتنا ويجعلها نكدًا، فهو من الملكوت السـفليّ الذي هو محل سكن الشياطين والنفوس الشرّيرة. وإذا أردنـا لملكوتنا أن يزدهر في دنيانـا فعلينا أن نوجّه أعمالنا الصالحة باتّجاه عمارة الأرض بما يتناسـب مع خطّة الاسـتخلاف الإلهيّ التي تحقّق محل ذكر الله وشهود آياته. قال الله تعالى: **{يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْسًـا إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً}**.[384]

من خلال العمل الصالح الذي يصب في إطـار إيجـاد البيئـة الاجتماعية المناسـبة للسـير إلى الله والتسـابق في الفضائـل نسـهّل سـيرنا المعنوي وارتقاءنا الروحيّ.

شواهد إضافية

* العمل الصالح إذا كان لله لا يمكن أن تكون الدنيا كلها له عوضًا. حاولوا أن تكون أعمالكم لله بحيث إنكم إذا ذهبتم إلى هناك حصلتم على أجرٍ وفير.[385]

* لئن دُعي إلى العمل الصالح، ولئن دُعي إلى تهذيب النفس، ولئن دُعي إلى العلوم والمعارف، فانّ كل ذلك يعود إلى تلك النقطة الرئيسية الموجودة في فطرة كافّة الناسّ، كانوا يهدفون إلى كشف النقاب عنها، ألا وهي معرفة الحقّ تعالى، ذلك هو الهدف السامي. لم يشأ الأنبياء أن يضرموا نار الحرب ولم يرغبوا بدعوة غير تلك الدعوة، لم يدعوا للهمينة على البلدان ونظائر ذلك بتاتًا. نحن لم ننحرف عن طريق الأنبياء برغم كل تلك الانتصارات الهائلة التي نلناها وبحمد الله.[386]

* الغاية من إرسال الأنبياء هي تربية هذا الإنسان الذي يمكن تربيته وهو أسمى من الحيوان، وهذا هو عطاء منحه الله تبارك وتعالى للبشر. وتربية الأنبياء هي بيان الأمور التي تربط بين هذا العالم وذلك العالم، والتي إن أدّيناها تساعد على تربيتنا المعنوية.

إنّنــا لا نعلم ما هي العلاقة بين الصلاة والســعادة في ذلك العالم، كما أنني وإياكم، ونحن لسنا أطباء، لا نعلم ما العلاقة بين هذا القرص الذي يعطيه الطبيب وبين ذلك المرض، ويدرك ذلك من له علم به. مثلما يعلم الأنبياء العلاقة بين الأعمال الصالحة وذلك العالم.

وإذا أكل الإنسان شيئًا مسمومًا يُسمّ ويهلك، والأمر هو كذلك في عالم ما وراء الطبيعة والروح، بحيث إن عمل ببعض الأمور أو اعتقد بها يكون ذلك كالســمّ الزعاف، من الطبيعيّ أن يســم هذا السم الإنسان ويمكن علاجه أحيانًا ولا يمكن علاجه بعض الأحيان.

لقــد قالوا لنا لا تقومــوا بهذا العمل ولا تفعلــوا ذلك، وبعض الأمور التي فهمها أولئك (من الأوامر والنواهي) هو لتنظيم عالم الطبيعة أيضًا، ولكن هناك أمور كثيرة لا تعود إلى تنظيم الأمور الاجتماعية، بل تعود إلى ما وراء الطبيعة. لأنّ الإنســان يحتاج إلى كلّ شيء. وبعث الأنبياء ليبيّنوا

جميع احتياجات الإنسان، فإن عمل الإنسان بها نال السعادة الكاملة.[387]

* إنّ الطفل حين يأتي إلى الدنيا يكون مهيأً لقبول الملكات الصالحة، وكذلك الملكات الرّذيلة. فإذا سعى باتّجاه الملكات الرذيلة، فإنّها تتحقّق تدريجيًّا، ويصبح باطن ذات الإنسان موجودًا رذيلًا. إنّ الإنسان يقوم أحيانًا بأعمال تناسب أعمال بعض الحيوانات، كأن يكون مفترسًا، ولو افتراسًا لفظيًّا حيث يتعرّض للناس ويعتدي على كرامتهم بالسبّ وأمثال ذلك، وهذا افتراس. أو أن يكون لديه أنواع أخرى من الافتراس، فتظهر في الإنسان ملكة الافتراس. وحين ينتقل الإنسان من هنا إلى العالم الآخر فإنّ نفس ملكة الافتراس هذه تصبح صورة حيوانية مطابقة لصورة مناسبة لها! تتحوّل إلى صورة حيوان من الحيوانات المفترسة بحسب تناسبها معه، ويقولون إنّه قد يكون للإنسان هناك أحيانًا عدّة صور مختلفة. وفي الأعمال الصالحة يكون الأمر كذلك أيضًا.

إنّ الأعمال الصالحة هي التي تكون منسجمة مع نفس الإنسان. إنّ نفس الإنسان خُلقت سعيدة، أي أنّ استعداد السعادة موجود فيها، وفطرة الإنسان فطرة سعيدة. والعمل الصالح هو المنسجم مع هذه الفطرة. (صالح) يعني سالم، مسالم مع هذه الفطرة. العمل غير الصالح هو الذي لا يكون منسجمًا مع فطرة الإنسان... إنّ فطرة الإنسان فطرة الحبّ لإخوانه، والعداوة فطرة ثانوية توجد في الإنسان. الحبّ فطرة أوّلية للإنسان. فحين يولد الطفل تكون الرحمة والمحبّة ظاهرة فيه. وتدريجيًّا ووفقًا للعوامل المحيطة فإمّا أن تتلاشى وتنتهي وإمّا أن تشتد قوّةً بعمله الصالح. لا تتصوّروا أنّ هذه الأعمال التي قمتم بها خدمةً لإخوانكم قد ذهبت سدىً! لا، بل هي مكاسب لكم، إنّها الأعمال التي سترون صورها غدًا، وأيّ صورٍ جميلة! وسوف ترون آثارها، وأيّ آثارٍ جميلة هي! سوف ترون يومئذٍ كيف هو حال أولئك الذين قاموا بالتعذيب. ويشير القرآن إلى أنّ هؤلاء يرون أولئك، حيث تكون لهم أحيانًا إحاطة فيرونهم، وأولئك أيضًا يرون هؤلاء. فيقول أولئك لهؤلاء: أعطونا قليلًا من الماء أو الطعام،

إنّهم الذين ربّما تركوا شـبابنا عطاشى، لا بد أنهم فعلوا ذلك، هؤلاء أيضًا سوف يرون عملهم. إنّ جهنم تُصنع من أعمالنا، وكذلك الجنة تُصنع من أعمالنا أيضًا. كلّه من عملنا. اسـعوا أن يكون عملًا صالحًا منسـجمًا مع الطبيعة والفطرة.[388]

* أمّا العمل الصّالح النافع في تغيير أحوال النفس، واستبدال حال الظلمة والجحود بالنّورانية والتصديق، فهو على نوعين: الأعمال القلبية، والأعمال القالبية [الظاهرية]، والمقصود من الأعمال القلبية هنا؛ الأعمال التي ترجع الفطرة إلى حالها الأولى وتسترجع روحانية الفطرة، وأهمّها وعمادها التوبة بشروطها الباطنية والظاهرية.

... ويـأتي بعـد التوبة الاجتهـاد في العمـل لتزكية القلـب وتطهيره وتصفيتـه وتخليصه من غواشي الطبيعة وحجبها، وأصلها هو حبّ الدنيا وحبّ النفس والعجب بهـا، واتّباع الهوى، فهذا العمل من مهمّات باب السّـلوك إلى الله، ولذلك يوليه أهل المجاهدة والسّلوك أهميّة تزيد عن كلّ ما سـواه... وأمّا الأعمال القالبية [الظاهرية] المقصودة في هذا المقام، فهي الأعمال التي تذكّر النفس بأحوالها وتوقظها من نومة الغفلة الثقيلة ومن سـكر الطبيعـة، وهي المواظبة عـلى الأذكار المروية عن أهل بيت الوحـي والطهارة مع رعاية شروطها، وأهمها حضور القلب وتوجهه عند الذكر، بهدف تذكير النفس وإيقاظها، وليكن الاشـتغال بذلك في الأوقات التي يقل فيها انشـغال النفس بالكثرات والدنيا مثل أواخر الليل وما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.[389]

* من المفاسد الكبيرة لحبّ الدنيا أنّه يمنع الإنسان من الرياضات الشرعية العبادات والمناسك، ويُقوّي جانب الطبيعة في الإنسان بحيث يجعلها تعصي الروح وتتمرّد عليها ويوهن عزم الإنسان وإرادته، مع أنّ من أكبر أسرار العبادات والرياضات الشرعية هي أن تجعل الجسم وقواه الطبيعية تابعة ومنقادة للروح بحيث يكون للإرادة دورًا مؤثّرًا في الجسم ويخضع الجسم لأوامر الإرادة فيعمل ما تشاء، ويمتنع عمّا تشاء، ويصبح

مُلك الجسم وقواه الظاهرة مقهورًا ومسخّرًا للملكوت بحيث أنّه يقوم بما يريد من دون مشقة ولا عناء.

إنّ من الفضائل والأسرار الشاقة والصعبة للعبادات تحقّق هذا الهدف - تسخير مُلك الجسم للملكوت أكثر بحيث يصير الإنسان بذلك ذا عزم، ويتغلّب على الطبيعة والملك. فإذا اكتملت الإرادة وقوي العزم واشتدّ، أصبح كمَثَل الجسم وقواه الظاهرة والباطنة مَثَل ملائكة الله الذين لا يعصون الله وإنما يطيعونه في كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه، من دون أن يعانوا في ذلك عنتًا ولا مشقّة.

كذلك إذا أصبحت قوى الإنسان مسخّرة للروح، زال كلّ تكلّف وتعب وتحوّل إلى الراحة واليسر، واستسلمت أقاليم الملك السبعة للملكوت وأصبحت جميع القوى عمّالًا له.

فاعلم، يا عزيزي، أنّ العزم والإرادة القوية لذلك العالم ضروريان وذات فعالية. إنّ المقياسّ لبلوغ أفضل مراتب الجنة هو العزم والإرادة. فالإنسان الذي ليست له إرادة نافذة ولا عزم قوي لا ينال تلك الجنة ولا ذلك المقام الرفيع.

جاء في الحديث، أنّ أهل الجنة حين يستقرّون فيها، تنزل عليهم رسالة من ساحة القدس الإلهيّ جلّت عظمته بهذا المضمون: «هذه رسالة من الحيّ الثابت الخالد إلى الحيّ الثابت الخالد. أنا الذي أقول للشيء: كن، فيكون. وقد جعلتك اليوم أيضًا في مستوًى إذا أمرت الشيء وقلت له كن، فيكون».

فلاحظ أيّ مقام وسلطان هذا؟ وأيّ قدرة إلهية هذه التي تجعل إرادة الإنسان مظهرًا لإرادة الله! فيُلبس العدم لباس الوجود؟ هذه القدرة وهذا النفوذ هما أفضل وأرفع من كلّ النعم الجسمانية. وبديهيّ، أنّ تلك الرسالة لم تُكتب عبثًا وجزافًا. إنّ من كانت إرادته تابعة للشهوات الحيوانية، وعزيمته ميّته خامدة، لا يصل إلى هذا المقام. إنّ أعمال الله منزّهة عن العبث. فكما أنّ هذا العالم قائم على النظام والترتيب، على

الأســباب والمسبّبات، كذلك هو الحال في العالم الآخر، بل إنّ العالم الآخر أليَق بالنظام والأسـباب والمسبّبات، وإنّ جميع نظام عالم الآخرة ينبعث من المناسبات والأسباب، وإنّ نفوذ الإرادة يجب أن يتهيأ من هذا العالم، فإنّ الدنيا مزرعة الآخرة وإنّ هذا العالم مادّة لكلّ نعم الجنة ونِقم النار.

إذًا، كل عبادة من العبادات وكل منســكٍ من المناسك الشرعية، فضلًا عن أنّ لهــا صورة أخروية وملكوتية، وبها يتم عمارة الجنة الجســمانية وقصورها، وتهيئة الغلمان والحور - طبقًا للبراهين والأحاديث - فإنّ لكلّ عبــادة من العبادات أيضًا أثرًا يحصل في النفس، مما يقوّي الإرادة شــيئًا فشيئًا ويصل بقدرتها إلى حدّ الكمال.

لذلــك كلّــما كانت العبادات أشــق كانت أرغــب: «أَفْضَــلُ الأَعْمَالِ أَحْمَزُهَا».[390] فالتنازل عن النوم اللذيذ في ليل الشــتاء البارد، والانصراف إلى عبادة الحقّ المتعال، يزيد من قوّة الرّوح وتغلّبها على قوى الجســم، ويقوّي الإرادة. وإذا كان هذا في أوّل الأمر على شيءٍ من المشــقّة والعناء، فــإنّ ذلك يخف تدريجيًا كلّــما واصل العبادة، وازدادت طاعة الجســم للنفس. إذ إنّنا نلاحظ أنّ أهل العبادة يقومون بالأعمال من دون مشقّة وتكلّف. أمّا نحن فشــعورنا بالكســل وبالمشــقّة ناشــئ من أنّنا لا نبدأ بالعمــل. فلو أنّنــا بدأنا العمل وكرّرناه عدّة مرّات، لتبدّلت مشــقّته إلى راحة، بل إنّ أهلها يلتذون بها أكثر مما نلتذ نحن بمشــتهيات الدنيا. إذًا، الأمر يصبح عاديًّا بالتكرار. والخير عادة.

ولهــذه العبادة ثمرات، منها: أنّ صورة العمل نفســه تصبح على قدر من الجمال في ذلك العالم لا يكون له نظير في هذا العالم، ونكون عاجزين عن تصور مثلها.

ومنها: أنّ النفس تصبح ذات عزم واقتدار، فتكون لها نتائج كثيرة، وقد سمعت واحدة منها.

ومنها: أيضًا أنّها تجعل الإنســان يأنس بالذكــر والفكر والعبادة، فإنّ المجاز قد يقرّب الإنســان إلى الحقيقة، فيتوجّــه القلب إلى مالك الملوك،

وتحلّ المحبة لجمال المحبوب الحقيقي، ويخفّ تعلّق القلب وحبّه للدنيا والآخرة. إذ لو حصلت الجاذبيــة الربوبية والحال الخاصّة، لأمكن إدراك حقيقــة العبادة والسر الحقيقيّ للتذكّر والتفكّر، ولســقط كِلا العالمين - الدنيا والآخرة - مــن نظره، ولأذهب تجلّي الحبيب غبار الرؤية الإثنينيّة مــن القلب ولا يعرف أحد ســوى الله الكرامة المعطــاة لمثل هذا العبد! وكما يقوى عزم الإنســان بالرياضات الشرعية والعبادات والمناسك وترك الرغبــات ويصبح الإنســان ذا عــزم وإرادة، فكذلــك في المعاصي تتغلّب الطبيعة لدى الإنسان وتضعف إرادته وعزمه.[391]

* يلزم للإنسان السّالك أوّلًا السّلوك العلمي كي يشخّص ببركة أهل الذكر عليهم السلام مراتب العبادات، ويرى العبادات الصّورية مرتبة نازلة للعبادات القلبية والروحية. ثمّ يشرع في السلوك العمليّ الذي هو حقيقة السلوك. وغاية هذا السّلوك هي تخلية النفس من غير الحقّ، وتحليتها بالتجليّات الأسمائيّة والصّفاتيّة والذّاتيّة، فإذا حصل للسّالك هذا المقام فحينئذ ينتهي سلوكه، وتحصل له الغاية في السير الكمالي، فينال أسرار النسك والعبادات ولطائف السلوك؛ وهي التجليات الجلالية التي هي أسرار الطهارات، والتجليات الجمالية التي هي غاية العبادات الأخرى.[392]

33

هل أنّ الثقة بالنفس دليل على قوّتها؟

يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه:

«لا ينبغي للمرء أن يغفل عن نفسه أبدًا، أو أن يغتر بكماله فينسى نفسه ومراقبة أحوالها وتهذيبها، وعليه ألّا يغفل في جميع أحواله عن التمسّــك بالألطاف الإلهيّة الخفية، فلا يتّكل أبدًا على نفسه وسلوكه ورياضتــه وعمله وتقــواه، فهذه أكبر مهالك الإنســانية، ومن أخطر الوســاوس الشــيطانيّة، فهي تؤدّي إلى أن ينسى السّالك حتّى نفسه، كما يشــير لذلك قوله تعالى: {ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون}».[393]

في ظلّ التربية الغربية الحديثة ومبادئها الفلسفية التجريبية، يكثر الحديث عن الثقة بالنفس ودورها في تكميل الشــخصية وبنائها وتوازنهــا. ويعرض في المقابل تمامًا فقدان الثقة بالنفس وضعف الشخصية وافتقاد التوازن النفسيّ والروحيّ. وهكذا يقف المربّون أمام خيارين لا ثالث لهما. فلا شــك أنّهم ســيختارون الأوّل وخصوصًــا للأطفال الذين يُفترض أن يكبروا ويواجهوا تحدّيات الحياة وصعوباتها وأجواء المجتمع الذي لا يرحم و..

ولا يخفــى أنّ لهذيــن الخيارين خيارًا آخــر أو طريقًا ثالثًا وهو الثّقــة بالله تعالى. لكنّه في ظلّ غياب التوحيد واستبعاد الحضور الإلهيّ من الحياة والتربية والتعليم وبناء الــذات، يصعب تصــوّر كيفيّة الاعتماد على الله تعالى، وتصبح هــذه المقولة أمرًا مثاليًّا بعيدًا عن الواقع والتحقّق كما يُقال.

فهل يكفي أن نعلم أنفسنا أهمية التوكّل على الله من دون أن نعرف كيفيّة ممارسته

أو معنـى ظهـوره في تصرّفاتنا وفي حياتنـا؟ وهل أصبح الاعتماد عـلى الله مجرّد فكرة جميلة أو ذكرًا يجري على اللسان؟ أم أنّ له تفاصيل سلوكية وظهورات حقيقية؟

إنّ فقدان الثّقة بالنفس يعني في التربية عدم الشـعور بالقوى والقابليات الموجودة فيها، حيث يغلب النظر إلى ضعفها وعجزها وفشـلها وسلبياتها. أمّا الثقة بالنفس فهي عبارة عن الانطلاق من إمكانية القوّة ووجود القدرة والنجاح.

فإذا سـألنا من أين تأتي القوّة والقدرة والفوز والفلاح. فلا شكّ أنّ ذلك كلّه من عند الله تعـالى. وهذا يعنـي أنّ الثّقة بالنفس الحقيقية هي الثقة بالله تعالى، لأنّ النفس بما هي لا تملك شيئًا من ذاتها، وفاقد الشيء لا يعطيـه. فمن اعتمد على نفسـه ونسي ربّـه، يكون قد اعتمد عـلى العجز والفقر ومصيره الفشـل. أمّا من اعتمد على ربّه بما أراه في نفسـه ووهبه فيها من قوّة وعلم وإبداع، فسـيكون مصيره النجاح، لأنّه اتّصل بواسطة نفسه بمصدر الفلاح والعطاء.

من اعتمد على ربّه بما أراه في نفسـه ووهبه فيها من قـوّة وعلم وإبداع، فسـيكون مصيره النجاح، لأنّه اتّصل بواسطة نفسه بمصدر الفلاح والعطاء.

الثقة بالله تعني أن يكون الإنسـان شـديد الملاحظة لمواهب الله في نفسـه، لكنّها أيضًا عبارة عن مشـاهدة العطاء الإلهيّ ورؤية أصل هذا العطاء والاطمئنان إلى مصدره والرّجوع إليه دومًا. ولهذا كانت الثقة بالله والاعتماد عليه عبارة عن فتح باب الاستمداد على مصراعيه والاعتقاد بالنجاح والفلاح في أعلى مراتبه. فلا مستحيل بين يدي الله تعالى.

شواهد إضافية

* العجب والغرور نتيجتان لغاية الجهل بحقارة النفس وعظمة الخالق، إذا فكّر (الإنســان) قليلًا في عظمة الخلقة بالمقدار الذي وصل البشر - رغم كل هذا التقدم العلميّ - إلى شيء يسـير منه، يدرك حقارة وضآلة نفسه وكل المنظومـات الشمسـية والمجرات، ويفهم قليلًا مـن عظمة خالقها ويخجل من عُجبه وأنانيته وغروره ويشعر بالجهل.[394]

* إذا أراد [الإنسان] أن يسلك هذا الطّريق بقَدَم الاعتماد على نفسه وعلى عمله فهو هالكٌ لا محالة، لأنّه من الممكن ألّا يؤخَذ بيده؛ فمثله كالطفل الذي يتجاسر على المشي ويغتر بمشيه، ويعتمد على قوّته، فلا يكون موردًا لعناية أبيه ويَكِله الأب إلى نفسه. وأمّا إذا عرض اضطراره وعجزه على جناب الأب الشّفيق وخرج عن الاعتماد على نفسه وعلى قوّته بالكامل، فيصير حينئذ موردًا لعناية الأب ويأخذ الأب بيده، بل يأخذه في حضنه ويمشي به بقدمه. فالأحرى بالسّالك إلى الله أنْ يكسر رجل سلوكه وأنْ يتبرأ من الاعتماد على نفسه وارتياضه وعمله تمامًا، ويفنى عن نفسه وقدرته وقوّته، ويجعل فناءه واضطراره دائمًا نصب عينيه، حتى يقع موردًا للعناية، ويطوي طريق المئة عام بجذبة ربوبيّة في ليلة واحدة، ولسان باطنه وحاله ينادي محضر القدس الرّبوبيّ بعجزٍ وافتقار: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ}[395].[396]

* من الوظائف المهمّة للسّالك إلى الله والمجاهد في سبيل الله أنْ يرفع اليد تمامًا أثناء مجاهدته وسلوكه عن الاعتماد على نفسه، ويتوجّه بجبلّته إلى مسبّب الأسباب، ويتعلّق بفطرته بمبدأ المبادئ، ويطلب من ذاته المقدّسة العصمة والحفظ، ويعتمد على تأييد ذاته الأقدس ويتضرّع في خلواته إلى حضرته، ويطلب إصلاح حاله مع كمال الجدّ في الطلب منه تعالى، فإنّه لا ملجأ دون ذاته المقدّسة؛ والحمد لله.[397]

* اعلم أنّ إحدى الحقائق اللطيفة المسجّلة بقلم القدرة الأزليّة في فطرة كل إنسان أي أنّها من مقتضيات الفطرة المخمّرة السليمة، هي فطرة

الافتقار، ومعناها أنّ كل إنسان - دون استثناء، ومن دون مخالفة أي صاحب رأي من الآراء بهذا الخصوص - يرى نفسه محتاجًا ومفتقرًا، ويرى حقيقته الوجوديّة متعلّقة ومرتبطة بغيره؛ وكل ذلك بحسب الهويّة الذاتيّة وبحسب أصل الوجود وكمال الوجود.

ولو فرضنا تشكيل سلسلة لا نهاية لها من أفراد النّوع الإنساني، لأعلنوا جميعًا افتقارهم وفاقتهم، بل إنّ هذا الحكم يسري ويجري على جميع الموجودات الممكنات في هذا العالم، أي صفوف غير متناهية من الحيوانات والنباتات والجمادات والمعادن والعناصر في العالم، ثمّ سألها سائل: هل أنتم مستقلّون ومستغنون في الوجود وفي كمال الوجود وآثاره؟ لقالوا جميعًا - بلسان الفطرة الذاتيّة: بل نحن محتاجون ومفتقرون ومرتبطون.

ولو سألها سائل بعد ذلك على نحو الإحاطة والاستغراق؛ فقال: أيّتها الصفوف غير المتناهية من السعداء، ومن الأشقياء، ومن الحيوانات، والنباتات، والمعادن، والعناصر، والجنّ، والملائكة - ونظائرها ممّا يخطر ذكره في الوهم والخيال والعقل من سلسلة الممكنات؛ سألها: إلى أي موجود أنتم مفتقرون؟ لأجابوا جميعًا باللسان الفطري البليغ الواحد الذاتي: نحن مفتقرون لموجود ليس محتاجًا ولا مفتقرًا مثلنا، ونحن مستظلّون بكاملٍ لا يستظل مثلنا - نحن الممكنات - بغيره، بل هو مستقلّ وتام وكامل.

فإنّ الذي لا يملك شيئًا من عنده، بل ولا استقلال له في ذاته وصفاته وأفعاله، محتاجٌ ومفتقرٌ لغيره في جميع شؤونه الوجوديّة، لذلك لا يمكنه أن يلبّي حاجاتنا ويسدّ خلّتنا ويطرد الأعدام عنّا.

... ولو فصّلنا الحديث في هذه الحقيقة الفطريّة وبيّنّا أحكامها ومقتضياتها، لاتّضح ثبوت جميع الأسماء والصفات - الموجودة في دار التحقّق والتي هي من الكمالات المطلقة - للذّات المقدّسة، للغنيّ المطلق عزّ وجل... إذن اتّضح أنّ توجّه الناقص للكامل المطلق بهدف

رفع النقص وسدّ الاحتياج هو من الأمور الفطريّة والجبلية.

... أمّـا المحتجب عـن الحقّ تعـالى، والمتوجّه إلى الأسـباب العاديّة ويراها مسـتقلّة في فاعليّتها، يتشـبّث بها - عمليًّـا وقلبيًّا - فينقطع عن الحقّ، وتزول الطمأنينة والثقة بالله من نفسـه، ويحل محلّها الاضطراب والتزلزل: ولأنّ الأسـباب العاديّة لا تحقّق له ما يطمح إليه ولا تطفئ نار حاجته، لذا فإنّ حال الاضطراب والتوقان، والتمسّـك والتشـبّث بالدنيا وأهلها تشتد فيه كل يوم حتّى تغرقه بالكامل في بحر الدنيا.[398]

34

كيف نحوّل عيوبنا من عامل ضعف إلى عامل قوّة؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«علينا بالتنبّه والحذر. علينا ألّا نغتر بأنفسنا ونحسن الظنّ بها كثيراً ونسيء الظنّ بالآخرين، علينا أن نحسن الظنّ بالآخرين ونحمل أعمالهم على محمل الصحّة وأن نسيء الظنّ بأنفسنا ونحاسبها ونفتّش عن الأسباب الحقيقية الكامنه وراء أفعالنا فيما ننتقد ونقول ونفعل، أكانت لله خالصة أم هي من هوى النفس؟»[399]

ما الذي يقصده الإمام من حصر سوء الظنّ بالنفس وتشديده، وإحسان الظنّ بالآخرين والتغافل عن عيوبهم؟

هل هو أمرٌ أخلاقيّ بحت بعيدًا عن العقلانية والواقعية والسيرة العقلائية؟ أم يجب التعرّف إلى أبعاده وأسراره من خلال العقل والمنطق السليم؟

إنّ أحد أهم طرق التعامل مع النفس من أجل تربيتها وتكميلها يكمن في هذه النصيحة الأخلاقية ذات المنطلقات العقليّة القويّة. فمن خلال التعرّف إلى عيوب نفوسنا، نتقدّم خطوة مهمّة نحو معرفة واقعها وعمق ارتباطها بالله، لنكمل المسير باتّجاه إصلاحها وتهذيبها.

والانشغال بعيوب الآخرين هو أحد الموانع الكبرى أمام اكتشاف النفس. وما أكثر الدواعي لهذا الانشغال التي قد تصرف الإنسان بصورة تامّة عن معرفة عيوب نفسه، وخصوصًا إذا لم يقطع مادّته من الأساس. إنّ عيوب الآخرين كثيرة ومتشعّبة، وإنّ

البواعث النفسيّة وما تحضره الأنفس من الشحّ والأنانية يجعلها أكثر تتبّعًا وانتباهًا لها، بحيث قد تشغل الإنسان في الليل والنهار بفكره وذهنه وقلبه فيها. ولو سمح الإنسان لمثل هذه الواردات أن تدخل إلى قلبه، فإنّها ستملأ كيانه بأسره، ولن تبقي له أي مساحة ليتفكّر بنفسه وعيوبه.

والعنصر الآخر في هذه النصيحة الداعية إلى الإعراض عن تتبّع عيوب الآخرين، بل استبدال ذلك بحسن الظن بهم والنظر بإيجابية إليهم، هو أنّ مثل هذا التتبع الإيجابيّ، من شأنه أن يستجلب للإنسان الكثير من الخير. لأنّ من قدر على رؤية إيجابيّات الآخرين وحسناته كان أكثر قدرة على الاستفادة منها. وما دام الناس غير متظاهرين بالفجور وهتك الحرمات الإلهية ولا معلنين بالفسق والكفر والعداء لله ولأوليائه، فالاحتمال بأنّهم محل عناية الله كبير. والعقلاء يعتنون بالاحتمال الكبير، والعاقلون يعتنون بالاحتمال الصغير بل الضئيل.

ووفق النظرة الإلهية، فإنّ أمثال هؤلاء الناس - الذين يبدو الصلاح في ظاهرهم - هم واسطة الخير للإنسان، وعليه أن يعتني بهذا الخير لأنّه رسالة الربّ المتعال له.

من خلال التعرّف إلى عيوب نفوسنا، نتقدّم خطوة مهمّة نحو معرفة واقعها وعمق ارتباطها بالله، لنكمل المسير باتّجاه إصلاحها وتهذيبها.

أمّا سوء الظنّ بالنفس فهو نتيجة إدراك عجزها وميلها الشديد للباطل وفقرها ونزوعها إلى السوء. وهو أحد جناحي طائر التحليق إلى الله، بالإضافة إلى جناح حسن الظنّ المطلق بالله تعالى.

إنّ سوء الظن بالنفس يعني ألّا يستبعد أحدنا أن يسقط من أعلى عليين فيما لو كان كذلك، إلى أسفل سافلين بلحظة واحدة. أي أنّه لا يفصلنا عن الكفر بالله شيء. ومن عرف نفسه حقًّا أدرك هذه الحقيقة. وكم تحكي تجاربنا عن وشك الوقوع لولا العاصم الإلهي. وفي دعاء الإمام الكامل زين العابدين وسيد الساجدين «فإن نفسي هالكة أو تعصمها».[400]

كما أنّ حسن الظنّ المطلق بالله يعني أنّه ليس بمعجزٍ لله تعالى ولا بمستبعد منه أن يرفعنا من أسـفل سـافلين إلى أعلى عليين في لحظة هي كلمح بالبصر، ولو كانت ذنوبنا بعدد قطرات البحار. وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كُنْ لِمَا لَا تَرْجُو أَرْجَى مِنْكَ لِمَا تَرْجُو فَـإِنَّ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عليه السلام خَـرَجَ يَقْتَبِسُ لِأَهْلِهِ نَارًا فَكَلَّمَهُ اللَّهُ عَـزَّ وَجَلَّ وَرَجَعَ نَبِيًّا مُرْسَـلًا، وَخَرَجَتْ مَلِكَةُ سَبَإٍ فَأَسْلَمَتْ مَعَ سُلَيْمَانَ عليه السلام وَخَرَجَتْ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ يَطْلُبُونَ الْعِزَّ لِفِرْعَوْنَ فَرَجَعُوا مُؤْمِنِينَ».[401]

شواهد إضافية

- لا تغتر أبدًا بكمالاتك، فالغرور من الشيطان. عليك أن تسيء الظن بنفسك على الدوام، فكن على حذر وخوف من سوء العاقبة.[402]

- لا تنظر أبدًا إلى نفسك وعملك بعين الرضا؛ فقد كان أولياء الله الخُلّص يرون أنفسهم لا شيء، وأحيانًا كانوا يرون حسناتهم من السيئات. بني، كلّما ارتفع مقام المعرفة، تعاظمَ الإحساس بحقارة ما سواه جلّ وعلا.[403]

- على سالك طريق الآخرة لزومًا حتمًا أن يخلص معارفَه ومناسكَه من تصرّف الشّيطان والنفس الأمّارة مهما بذل من الجهد، وأن يغوص في حركاته الباطنيّة وتغذياته الروحيّة، ولا يغفل عن حِيَل النفس والشّيطان وحبائل النفس الأمّارة وإبليس؛ وأن يسيء الظنّ بشكل كامل في جميع حركاته وأفعاله، ولا يَدَعَ نفسَه على رسلها آنًا ما؛ فربّما تتغلب عليه عند أدنى تسامح وتساهل معها، وتصرعه وتسوقه إلى الهلاك والفناء.[404]

- أن يرى الإنسان نفسه مُتميزًا عن سائر الناس وأفضل منهم بالإيمان، وعن المؤمنين بكمال الإيمان، وبالأوصاف الحسنة عن غير المتّصفين بها، وبالعمل بالواجب وترك المحرّم عمّا يقابل ذلك، كما أنّه في عمل المستحبات والتزام الجمعة والجماعات والمناسك الأخرى وترك المكروهات يرى نفسه أكمل من عامّة الناس، وأنّ له امتيازًا عليهم، فيثق بنفسه وبأعماله، ويرى سائر الخلق زبدًا ناقصين، وينظر إلى سائر الناس بعين الاحتقار، ويطعن بقلبه أو بلسانه في عباد الله ويعيبهم، ويبعد كلّ شخص بصورة ما عن ساحة رحمة الله، ويجعل الرحمة خالصة له ولأمثاله. ومثل هذا الإنسان يصل إلى درجة بحيث يناقش كل عمل صالح يراه من الناس، ويخدشه بقلبه على نحو ما، ويرى أعماله خالصة من ذلك الاعتراض والنقاش ولا يرى الأعمال الحسنة من الناس شيئًا ولكن إذا صدرت هذه الأعمال نفسها عنه يراها عظيمة. إنه يعرف جيدًا عيوب الناس وهو غافل عن عيوبه.[405]

- إنّ الشّيطان رأى نفسه ورأى ناريّته وقال {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ}،[406] وهذا

الإعجاب بالنّفس صار سببًا لعبادة نفسه والتّكبّر، وتحقير آدم وإهانته، وقال {خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}،[407] وقاس قياسًا باطلًا ولم يرَ حُسنَ آدم وكمال روحانيّته، بل رأى ظاهره ومقام طينيّته وترابيّته، ورأى من نفسه مقام ناريّته، وغفل عن الشّرك وحبّ النّفس ورؤيتها، فصار حبّ النّفس حجابًا أمام رؤية نقصه وشهود عيوبه. وصارت هذه الرّؤية للنّفس وحبّها سببًا لعبادة النّفس والتّكبّر والتّظاهر والرّياء والاستقلال في الرّأي والعصيان، وأبعد عن معراج القدس إلى تيه الطّبيعة المظلمة. [408]

✷ كما أنّ للألبسة الفاخرة في النّفوس تأثيرًا، كذلك للألبسة الدّنيّة جدًّا - من حيث المادّة والجنس أو من حيث الهيئة والشّكل - في النّفوس تأثير. وربّما يكون فساد هذا اللباس أشدّ بمراتب من تلك الألبسة الفاخرة؛ لأنّ للنّفس مكائد دقيقة جدًّا، فبمجرّد أنْ يرى السّالك نفسه متميّزًا لأنّه يرتدي اللباس الخشن والكرباس، ويرى سائر الناس يرتدون الألبسة اللينة اللطيفة، يغفل عن عيوبه بسبب حبّ النّفس، ويحسب هذا الأمر العرَضيّ وغير المربوط به سببًا للافتخار. وربّما يُعجب بنفسه ويتكبّر على عباد الله ويحسب سائر الناس مُبعَدين عن ساحة الحقّ المقدس، ويرى نفسه من المقرّبين ومن خلّص عباد الله؛ وربما يبتلى بالرّياء وسائر المفاسد العظيمة. فالمسكين اقتنع من جميع مراتب المعرفة والتّقوى والكمالات النّفسانيّة باللباس الخشن والبالي، وغفل عن آلاف عيوبه التي من أكبرها هذا العيب الذي حدث فيه من سوء تأثير هذا اللباس، وحسب نفسه من أهل الله مع أنّه من أولياء الشّيطان، وحسب عباد الله لا شيء وبلا قيمة. [409]

✷ إذا لبست اللباس الظاهر فتذكر أنّ الله تعالى ستر بساتر رحمته ذنوبك ومعاصيك، وكما أنّك ألبست ظاهرك اللباس الظاهري، فلا تغفل عن الألبسة الباطنيّة؛ وألبس باطنك لباس الصدق؛ ولا بدّ لك أنْ تجعل باطنك في ستر الخوف والرّهبة وظاهرك في ستر الطاعة وتعتبر من فضل الله تعالى حيث أنّه تعالى أعطى اللباس الظاهر كي تستر به عيوبك

الظاهرة، وفتح لك أبواب التوبة والإنابة كي تستر بها العورات الباطنيّة التي هي المعاصي والأخلاق الذميمة. ولا تفضح أحدًا كما أنّ الله سبحانه لم يفضحك فيما هو أعظم. واشتغل بعيب نفسك كي ينفتح لك باب الإصلاح، واصفح عمّا لا يكون معينًا لك. واحذر أنْ تفني عمرك لعمل غيرك، وتكتب نتيجة أعمالك في صحيفة أعمال غيرك ويتّجر الآخرون برأسمالك، وتلقي بنفسك إلى الهلاك. لأنّ نسيانك ذنوبك من أعظم العقوبات التي ابتلى الله تعالى الإنسان بها في الدنيا، لأنّه إذا نسي ذنوبه لم يقم بإصلاح نفسه، ونسيان الذنوب من أوفر أسباب العذاب في الآخرة. وما دام العبد مشتغلًا بطاعة الحقّ عزّ وجل ومشغولًا بمعرفة عيوب نفسه وتاركًا للأمور التي هي عيبٌ في دين الله فهو بمعزل عن الآفات وغائصٌ في بحر رحمة الله وفائزٌ بجواهر الحكمة والبيان، وما دام العبد ناسيًا ذنوبه وجاهلًا بعيوبه ومعتمدًا على حوله وقوّته لا يحصل له الفلاح أبدًا.[410]

* إنّ الإنسان إذا كان ناظرًا لنفسه محبًّا لها، فإنّ هذا الحبَّ المفرط يحجبه عن نقائصه وعيوبه، ويعميه عن سيئاته، بل يصوّرها له أحيانًا كمحاسن، ويعظّمُ في عينه ما فيه من فضائل ومحاسن. وبالنسبة نفسها يحجبه عن محاسن غيره ويعظّم سيئاتهم في عينه.

فإذا رأى كمالَهُ ونقص غيره ظهرت فيه حال من العجب بنفسه وقوّاها فيه حبّه المفرط لنفسه، وهذه الحالة تجعله يرى نفسه، في باطنه وقلبه، أسمى من غيره وبالتالي تظهر فيه حالة الترفّع والتعالي فيرى نفسه أكبر من الآخرين؛ وهذه الحالة تسّمى "الكبر".

فإذا ظهرت هذه الحالةُ القلبية في ملكِ البدن تفاخر وتعالى على الآخرين، وهذا هو التكبّر.

أمّا إذا خرج من هذا الاحتجاب ورأى نفسه على حقيقتها وكما هي، بل ونظر إليها بعين الانتقال؛ وأساء الظن بها، رأى ضعتها وذلّها وأدرك نقصها وافتقارها. وإذا اقترنت هذه الحالة بحسن الظن بالآخرين،

وتعظيم مخلوقات الحقّ تعالى ومظاهر جلاله وجماله عزّ وجلّ؛ ظهرت في نفسه - حينئذٍ وبصورة تدريجية - حال التذلّل، ورأى نفسه أصغر من الآخرين، وهذه هي حال التواضع القلبي التي إذا ظهرت آثارها في البدن قيلَ: تواضع وصار متواضعًا.[411]

* سمعت رواية منقولة عن السيد المسيح عليه السلام أنه قال لا تكونوا مثل البعوض الذي يفتش عن الأوساخ والقاذورات فلا تركّزوا على عيوب الناس.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «طوبى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ».[412]

من الجدير بالإنسان أن يبحث عن عيوبه قليلًا بمثل ما يتحرّى عن عيوب الناس. وكم هو قبيح على الإنسان الذي فيه آلاف العيوب، أن يغفل عن عيوبه، ويتنبه لعيوب الآخرين وبذلك يضيف عيبًا آخر على عيوبه. إذا تأمّل الإنسان قليلًا في أحواله وأخلاقه وأعماله وانصرف إلى إصلاحها، لصلحت أعماله. وإذا اعتقد بأنّه خالٍ من العيوب، كانت عقيدته هذه نتيجة جهله المطبق. ولا يوجد عيب أعظم من عيب عدم التفات الإنسان إلى عيبه، ويكون غافلًا عنه ومن أنّ الإنسان مجموعة عيوب ونقائص، فيترك عيوبه وينعطف على عيوب الآخرين.[413]

* من الأمور الهامّة التي لا بدّ للتائب أن يقدم عليها، اللجوء إلى مقام غفارية الله تعالى وتحصيل حالة الاستغفار، والطلب من الحقّ جلّ جلاله ومن مقام غفارية ذاته المقدّس بلسان مقاله وحاله وفي السرّ والعلن وفي الخلوات، الطلب منه بكل مذلّة ومسكنه وتضرّع وبكاء بأن يستر عليه ذنوبه وانعكاساته. نعم إنّ مقام الغفارية والستارية للذات المقدّس يستدعي ستر العيوب وغفران تبعات الذنوب، لأنّ الصور الملكوتية للأعمال بمثابة وليد الإنسان، بل ألصق من ذلك. وإنّ حقيقة التوبة وكلمات الاستغفار بمثابة اللعان ونفي الولد.

إنّ الحقّ تبارك وتعالى بسبب غفّاريته وستّاريته يقطع الصلة بين وليد

الإنســان - الصور الملكوتية للأعمال المحرمة - والإنســان، بواسطة لعان المســتغفر. ويحجب عــن تلك المعصية كل الكائنــات التي اطّلعت على أحوال الإنســان من الملائكة، وكُتّاب صحائــف الجرائم، والزمان والمكان وأعضاء نفس الإنسان وجوارحه، وينسيهم جميعًا تلك المعصية. كما أشير إليــه في الحديث الشريف حيــث يقول «يُنْسِي مَلَكَيْه مَــا كَتَبَا عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوب»، ومن المحتمل أن يكون المقصود وحيه تعالى للأعضاء والجوارح وبقــاع الأرض، بكتمان المعــاصي الوارد في الحديث الشريف هو إنســاء المعــاصي. كما يحتمــل أن يكون المقصود من وحيــه، الأمر بعدم الإدلاء بالشــهادة. ويمكن أن يكون المقصود رفع الآثار التي تركتها المعاصي على الأعضاء والتي بها تتم الشهادة التكوينية.

كما أنه لو لم يتب لأمكن أن يشــهد كل عضو بلســان مقاله أو حاله على أفعاله الأثيمة.

وعلى أيّ حال كما أنّ مقام الغفّارية والســتّارية اقتضى الآن ونحن في هذا العالم ألّا تشــهد أعضائنا وجوارحنا ضدّنا وأن يســتر الزمان والمكان أفعالنا المشينة، كذلك يقتضي ستر أعمالنا في العوالم الأخرى، عندما نتوب توبة صحيحة ونســتغفر اســتغفارًا خالصًا ونرحل من هذا العالم، أو أن الناس يحجبون عن أعمالنا. ولعلّ مقتضى كرامة الحقّ - جلّ جلاله - هو الثاني حتى لا يكون الإنسان التائب مطأطأً رأسه ومفضوحًا أمام الآخرين والله العالم.[414]

35

كيف يمكننا تحقيق الاستقرار النفسيّ؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«إنّ ما يُطمــئن الجميع ويخمد نيران النفــس المتمرّدة ويحدُّ من إلحاحها واســتزادتها في الطلب، إنّما هو الوصــول إليه تعالى، والذكر الحقيقيّ له جلّ وعلا؛ فإنّ الاستغراق فيه يبعث الطمأنينة والهدوء، وكأنّ قولــه تعالى: {أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَــئِنُّ الْقُلُوبُ}،[415] هو إعلان أن: انتبه انتبه! عليك أن تلجأ إلى ذكره حتى تحصل على الطمأنينة لقلبك الحــيران الذي يواصل القفز من مــكانٍ إلى مكان والطيران من غصن إلى غصن.»[416]

مقام الطمأنينة للنفوس هو مقام الاستقرار الأعظم والثبات الأكبر. ولا ثبات للنفوس ولا هــدوء إلّا إذا أدركــت غايتها ووصلت إلى ما تصبو إليه بفطرتها. ولأن الله تعالى هو غاية الغايات، فلا طمأنينة إلّا بالوصول إليه.

إنّ ذكــر اللــه يعني حضور الله في القلب، وانطلاق اللســان بالثنــاء عليه وتعظيمه وتســبيحه إنّما هو تعبير عن هذا الحضور فيما إذا كان القلب قبلة اللسان. أمّا الحضور الإلهــيّ فلــه وجهتان. الوجهة الأولى من جانب الله تعــالى، حيث يحضر عندنا ويتجلّى لنــا. والوجهة الثانية حين نحضر عنده فنكون محــطّ نظره. والأولى هي التي يعبّر عنها بذكــر اللــه من قبل العبد. والثانية هــي التي يعبّر عنها بذكر اللــه للعبد. والأولى هي مقدّمة أساســية للثانية ولهذا قال عز من قائل: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}**،[417] فإذا أدرك العبد حضــور الــربّ في الحياة وتفاصيلهــا في الآفاق والأنفس، يكون ذاكــرًا له بشرط انفعاله

تجاه هذا الحضور قلبًا وقالبًا وليس بالفكر وحسـب. وبعبارة أخرى، إنّ لذكر الله ثلاث مراتب أساسـية هي: الذكر القلبيّ والذكر الذهنيّ الفكريّ والذكر اللسـانيّ. وقد يكون الذكر اللسانيّ للبعض مقدّمة لتحقق الذكرين. وقد يكون للبعض الذكر الفكريّ مقدّمة للذكرين. ويندر أن يتحقّق الذكر القلبيّ أولًا إلا عند الأوحدي من الناس.

مقـام الطمأنينة للنفـوس هو مقام الاسـتقرار الأعظم والثبـات الأكبر. ولا ثبـات للنفـوس ولا هـدوء إلّا إذا أدركـت غايتهـا ووصلـت إلى ما تصبو إليه بفطرتهـا. ولأنّ الله تعالى هو غايـة الغايات، فـلا طمأنينة إلّا بالوصول إليه.

فـإذا تمّ الذكر ووصل إلى القلب، يصبح الإنسـان محلًّا لذكر الله تعـالى. وإذا ذكر الله العبـد فذلك لأنّه لائـقٌ بمحضره. ولا يليق بمحضر اللـه تعالى إلّا من كان مظهرًا لأسمائه وصفاته. فذكر الله للعبد يدلّ على وصوله إلى أعلى مقامـات القرب والكمال. وهذه هـي الطمأنينة العظمـى. قال الله تعالى: {**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْه**}.[418]

شواهد إضافية

* فيا أيّها العزيز مهما تتحمّل من الصّعاب في سبيل الذّكر والتذكّر للحبيب - الحقّ سبحانه - كان ذلك قليلًا. روّض قلبك على التذكّر للمحبوب، لعلّ الله يجعل صورة القلب، صورة لذكر الحقّ، وكلمة لا إله إلا الله الطيبة، الصورة النهائية والكمال الأقصى للنفس، فإنّه لا زاد أفضل منه للسلوك إلى الله، ولا مصلح أحسن منه لعيوب النفس، ولا رفيق أجدى منه في المعارف الإلهية.

فإذا كنت طالبًا للكمالات الصورية والمعنوية، وسالكًا لطريق الآخرة ومهاجرًا ومسافرًا إلى الله، اجعل قلبك معتادًا على تذكّر المحبوب، واعجن قلبك مع ذكر الحقّ تبارك وتعالى.[419]

* إنّ ما يُخرج الإنسان من حالة التزلزل هو ذكر الله. وبذكر الله يتم القضاء على التزلزل والحصول على الاطمئنان. وحين يحصل الاطمئنان ويحصل ذكر الله عندها يخاطب الإنسان بهذا الخطاب: {يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة} وفي رواية أنّه خطاب لسيد الشهداء. عندها يُقال لكم: {فَادْخُلِي فِي عِبادِي}. ليس في عباد الله؛ ليس في "عباد" أخرى. {في عبادي} عناية خاصّة، حين يحصل هذا فجنّته تختلف أيضًا عن الجنان الأخرى. لا تتخيلوا أنّ جنانكم وجناننا مثل جنّة رسول الله. لا، ذاك وضعٌ آخر، جنّة الرسول من نوع {جنتي}. الجنّة للجميع إن شاء الله ولكن حين تصل الأمور إلى هناك، {جنتي} شيء آخر. القلب عندها لا يصل لمكانٍ آخر. إذن تسعون وراء أي شيء أنتم؟ تسعون بقلمكم وبلسانكم لتحصلوا على شيء آخر. تتخيّلون الحصول عليه. حين تحصلون عليه هل تطمئنون؟ لا! حين تحصلون عليه يزداد تزلزلكم ويزداد قلقكم. مثلًا، ذلك الدرويش الذي جلس في زاوية ووجد لقمة عيشه فرضًا؛ انشغال باله أقل من رئيس الجمهوريّة الأمريكي؛ فبال هذا الرئيس أكثر اضطرابًا من ذاك، ليس أكثر راحة، بل أكثر تزلزلًا؛ وأكثر قلقًا. اعملوا على إزالة القلق لا أن تزيدوا منه.[420]

* إنّ ذكر الحبيب يؤثّر في القلب والروح حتى إذا لم يُفهم من ذكره شيء،

كالعاشق الأمي الذي ينظر إلى كتابة رسالة المحبوب فيأنس لأنّ هذه رسالة المحبوب، وكالفارسي المضطرب لعدم معرفته العربية ليقرأ القرآن الكريم ويأنس به لأنّه منه (تعالى) وتعتريه حالةٌ هي أفضل آلاف المرات من (حالة) الأديب العالم الذي شغل نفسه بإعراب القرآن، ومزاياه الأدبية وبلاغته وفصاحته أو الفيلسوف العارف الذي يفكر بمسائله العقلية والذوقية ويغفل عن المحبوب، فيكون كمن طالع الكتب الفلسفية والعرفانية مستغرقًا بما في الكتاب غير مكترثٍ بكاتبه.[421]

* فيا أيّها العزيز، آنس القلب بآداب العبوديّة، وأذق ذائقةَ الرّوح حلاوة الذكر. وهذه اللطيفة الإلهيّة تحصل في بدء الأمر بشدّة التّذكّر والأنس بذكر الحقّ، ولكن في الذّكر لا يكونَنَّ القلبُ ميّتًا، ولا تستَولِيَنَّ عليه الغفلةُ. فإذا آنست القلب بالتذكّر، تشملك العنايات الأزليّة بالتّدريج، ويفتح على قلبك أبواب الملَكوت. وعلامة ذلك التّجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل حلول الفوت.

اللهــم أعطنا نصيبًا من لذّةِ المناجاة، وحـلاوةِ المخاطبين، واجعلنا في زمــرة الذاكرين والمنقطعين إلى عزّ قدســك، وهبْ لقلوبِنــا الميّتة حياةً دائمةً، واقطعْها عمّن سِواك، ووجّهْها إليك. إنّك وليّ الفضل والإنعام.[422]

* لا بد أن يحصل في قلب العبد السّالك من هذه الأذكار الشّريفة التي هي روح المعارف، حالةَ التّبتّل والتّضرّع والانقطاع والتّذلّل، ويعطي لباطن القلب صورة الذكر بكثرة المداومة، ويمكّن في باطن القلب حقيقة الذكر، حتى يكون القلب متلبّسًا بلباس الذكر، وينزع عن نفسه لباسَه، وهو لباس البُعد. فيصير القلب إلهيًّا حقّانيًّا، وتتحقّق فيه حقيقة هذه الآية: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ}[423] وروحـها.[424]

* التّوحيدات الثلاثة، التي هي قرّة عين الأوّلياء، تحصل في الصّلاة؛ وقد امتزجت فيها صورة الفناء المطلق، والرّجوع التّامّ. وبحسب الباطن والحقيقة، هي معراج قرب الحقّ، وحقيقة الوصول إلى جمال الجميل

المطلق، والفناء في ذاته المقدّسة التي تعشقها الفطرة، وتحصل بها الطّمأنينة التّامّة والراحة المطلقة والسّعادة العقليّة التّامّة: أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ.[425]

* فليس ثمة شيء يمكنه أن يملأ قلب الإنسان إطمئنانًا وغنىً سوى ذكر الله {ألا بذكر الله تطمئن القلوب}. فالموجودات الإلهية إنما تستمد إطمئنانها من لجوئها إلى الباري تعالى. وأمّا أولئك الطواغيت فيعيشون في فراغ دائم وبلا ملجأ. ولهذا فإنّهم مهما ظلموا واستبدّوا، ومهما استولوا وفتحوا من البلدان، وتزوّدوا من هذه الدنيا، فلن يقنعوا ولن يرتووا وسيسعون للاستيلاء على بلدان أخرى.[426]

* إنّ ما يطمئن الجميع ويطفئ النار الملتهبة للنفس المتمرّدة والتوسّعية هو الوصول إليه، ولأنّ الذكر الحقيقيّ له جلّ وعلا هو التجلّي له، فإنّ الاستغراق فيه يسبّب الاطمئنان {ألا بذكر الله تطمئن القلوب} وكأنّه يقول: انتبه انتبه! استغرق في ذكره كي يحلّق قلبك من هذا الصوب إلى ذلك الصوب ومن هذا الغصن إلى ذلك الغصن ويحصل على الطمأنينة.[427]

* مَنْ عوّد نفسه على قراءة الآيات والأسماء الإلهيّة، من كتاب التكوين والتدوين الإلهيَّين، يصير قلبُه، بالتّدريج، على صورة الذكرى والآية، ويتحقّق باطن الذّات بذكر الله واسم الله وآية الله، كما فسّر وطبّق "الذكر" على الرّسول الأكرم وعليّ بن أبي طالب صلوات الله عليهما وآلهما، والأسماء الحسنى على أئمّة الهدى، وكذلك فسّرت وطبّقت "آية الله" عليهم؛ فهم الآيات الإلهيّة، وأسماء الله الحسنى، وذكر الله الأكبر.

ومقام الذكر من المقامات العالية الجليلة التي لا يَسَع المجال لبيانها، وهو فوق حدود التّقرير والتّحرير، وتكفي لأهل المعرفة والجذبة الإلهيّة، وأصحاب المحبّة والعشــق، الآية الإلهيّة الشّريفة {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}،[428] وقال الله تعالى لموسى: «يَا مُوسَى أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي»، وفي رواية الكافي، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله «مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللهِ، أَحَبَّهُ اللهُ».

وفي الوسائل، بإسناده إلى الصّادق عليه السّلام، قال: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ «يَابْنَ آدَمَ، اُذْكُرْنِي فِي نَفْسِكَ، أَذْكُرْكَ فِي نَفْسِي. يَابْنَ آدَمَ، اُذْكُرْنِي فِي خَلَاءٍ، أَذْكُرْكَ فِي خَلَاءٍ. يَابْنَ آدَمَ، اُذْكُرْنِي فِي مَلَأٍ، أَذْكُرْكَ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْ مَلَئِكَ». وقال: «مَا مِنْ عَبْدٍ ذَكَرَ اللهَ فِي مَلَأٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا ذَكَرَهُ اللهُ فِي مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ».[429]

* واعلم أنّ ذكر الله تعالى يجعل القلب مُعرضًا عن جميع منازل الطبيعة ومناظرها، بل ويجعل كلّ العالم بكل ما فيه عدمًا لا قيمة له في عينه، فلا يتعلّق بشيءٍ منه، بل ينحصر تعلّقه بالحقّ تعالى وحده، حتى تبلغ همّته مرتبةً من العلّو لا يقيم معها وزنًا لجميع عوالم الوجود، وعندها لا تضعف همّته بسبب الواردات القلبيّة مهما كانت، فلا يستشعر الكبَر في نفسه بسبب هذه الواردات بل إنّه يستصغر كلّ شيء غير الحقّ تعالى وآثار جماله وجلاله، وهذه الحال هي بحدٍّ ذاتها سببٌ لتواضعه له عزّ وجلّ بالأصالة، ولخلقه بالتبعية، لأنّه يرى الخَلْقَ من الحقّ تعالى.[430]

* أمّا ما هو أساس نجاة البشرية واطمئنان القلوب، فهو التحرّر والإفلات من الدنيا وتعلّقاتها ولا يحصل ذلك إلا بالذكر الدائم لله تعالى.[431]

* أولئك الذي هم بصدد العلو كيفما كان.. سواءً العلوّ في العلوم، حتى الإلهية منها، أو في القوة والشهرة والثروة إنما يسعون في زيادة آلامهم.

المتحرّرون من القيود المادية الذين خلّصوا أنفسهم إلى حدٍّ ما من شرك إبليس، هم في هذه الدنيا في سعادة وجنة ورحمة.[432]

* يُستفاد من هذا الحديث الشريف،433 أنّ لذكر الله والتحابّ بين الأشخاص في سبيل الله، خصائص: إحداها - وهي الأهم - أنّ ذكر العبد لله، يبعث على ذكر الله لعبده، كما نطقت بهذا المضمون أحاديث أخرى أيضًا. ويقابل هذا الذكر النسيان، قد قال سبحانه وتعالى عن الناسي في القرآن {كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى}.[434]

فكما أنّ نسيان الآيات والعمى الباطنيّ عن رؤية مظاهر جمال الحقّ وجلاله يسبّب عمىً في العالم الآخر، يكون التذكّر للآيات والأسماء

والصفات وتذكّر الحقّ سبحانه وجماله وجلاله باعثًا على حِدّة في البصيرة، وإزاحة للحجب، بقدر قوّة التذكر ونورانيته.

هذا وإنّ تذكر آيات الحقّ سبحانه، وصيرورته - هذا التذكر - ملكة - راسخة - في الإنسان يجعل لبصيرته قوّة، فيرى من خلال الآيات، جمال الحقّ.

وإنّ تذكّر الأسماء والصفات يبعث على مشاهدة الحقّ في تجلّيات أسمائه وصفاته. وإنّ تذكّر الذات عزّ شأنه من دون حجاب الآيات والأسماء والصفات، يوجب رفع الحجب بأسرها ومشاهدة الحبيب من دون غشاء وحجاب.

ويُعتبر هذا - التفسير - واحدًا من التوجيهات والتفسيرات للفتوحات الثلاثة التي هي قرّة عين العرفاء والأولياء وهي:

الفتح القريب. الفتح المبين. الفتح المطلق. الذي هو فتح الفتوح.

وكما أنّ التذكُّرات الثلاثة - المذكورة - تزيل الحجب الثلاثة، وكذلك التحابب بين الناس في الله سبب لمحبة الله، وتكون نتيجته رفع الحجب حسب ما يقوله العرفاء الشامخون.[435]

* كلّما نظرتَ إلى هذه الدنيا بعين المحبة والتعظيم، وتعلّق قلبَك بها، ازدادت حاجتك بحسب درجات حبك لها، وبان الفقر في باطنك وعلى ظاهرك، وتشتّت أمورك واضطربت، وتزلزل قلبك، واستولى عليه الخوف والهم، ولا تجري أمورك كما تشتهي، وتكثر تمنياتك ويزداد جشعك، ويغلبك الغم والتحسّر، ويتمكّن اليأس من قلبك والحيرة، كما وردت الإشارة إلى بعض ذلك في الحديث الشريف. فقد رُوي في «الكافي» بإسناده عن حفص بن قرط، عن أبي عبدالله الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَنْ كَثُرَ اشتِبَاكُه بالدُّنْيَا كَانَ أَشَدَّ لِحَسْرَتِه عِنْدَ فِرَاقِهَا»... أمّا أهل الآخرة، فإنهم كلّما ازدادوا قربًا من دار كرم الله، ازدادت قلوبهم سرورًا واطمئنانًا، وازداد انصرافهم عن الدنيا وما فيها. ولولا أنّ الله قد عيّن لهم آجالهم لما مكثوا في هذه الدنيا لحظة واحدة. فَهُم، كما يقول

أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب عليه السّلام: «نُزِّلَتْ أَنْفُسَهُم فِي البَلاء، كَالّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاء، وَلَوْلا الأَجَلُ الّذي كَتَبَ اللّهُ عَلَيهم، لَمْ تَسْتَقِر أَرْوَاحُهُم فِي أَجْسَادِهم طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ». جعلنا الله وإياكم منهم، إن شاء الله.[436]

* فإذا كان القيام لله، كان الله عماده، وظهرت في النفس حالة من الاطمئنان لا سبيل للهزيمة مع وجودها.[437]

* رئيسًا للوزراء يقول هذا قليل يجب أن أصبح رئيسًا للجمهورية. وإذا صار رئيسًا للجمهورية يقول هذا قليل يجب أن أصبح رئيسًا لجمهورية البلاد الإسلامية؛ إذا وصل إلى ذلك يقول هذا قليل وسيقول ذلك أينما وصل. لو جُعل العالم كلّه لقمة واحدة ووُضعت في متناول يده، فإنّه حين يفكّر، يرى أنّ في الأمر نقصًا ما، وما يطلبه هو غير هذا، ويطمئن حين يصل إلى الكمال المطلق.[438]

* {يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة * ارْجعي إلى رَبِّك}، الآن ليس لك أي شيء، ارجعي إلى {ربك} ربّ النفس المطمئنة. {فَادْخُلي في عِبادي} لا في "عباد الله" لا في "العباد الصالحين"، بل في {عبادي} بهذه الدقّة. حين صرتِ في عبادي، حينها {وَادْخُلي جَنَّتي} لا "الجنة". تلك الجنة للآخرين، تلك الجنة بكل عرضها وطولها لـ "العباد الصالحين" وليس لـ "عبادي". ما هو لعبادي هو ما ليس شيئا سوى العبادة وهي أيضًا عبادته (هو). حين وصلتي إلى هناك «ادخلي جنتي» جنّة اللقاء جنّة الذات؛ ليس جنّة الآخرين. جنّتكم التي تدخلونها إن شاء الله جميعًا تختلف عن هذه الجنّة. تلك جنة "العباد الصالحين"، "عباد الله الصالحين"، أمّا هذه الجنّة التي لا تنتسب لأي مكان إلّا به (هو). في ذلك الوقت قد دخلت {النفس المطمئنة} في نبع النور وفي كمالٍ مطلق ووصلت إلى الشيء الذي كانت تعشقه.[439]

* مقام الولاية هو المقام المهيمن على كل ما يرد على النفس، فلا يؤثّر في قلب الوليّ الكامل أدنى تأثير، ولا يتغير قيد أنملة سواءً أعطي ملك العالم

أو سلب منه كلّ شيءٍ.[440]

* طمأنينة النفس واستقامتها هي التي تجعل الغلبة للإنسان في مواجهة جنود الجهل، وتحفظه في مجابهة حزب الشيطان؛ وتجعله يسيطر على قوّتي الغضب والشهوة، فلا يستسلم لهما؛ بل هي التي تُسخر لطاعته جميع قواه الباطنية والظاهرية.[441]

* إنّ ملكة الثبات والاستقامة هي التي تجعل الإنسان ثابتًا كالسدِّ الحديديّ في مواجهة مختلف أشكال صعاب الدهر والضغوط الروحية والجسمية، فلا ينحرف ولا ينهار ولا يتهاون؛ وهي التي تحفظ - بطمأنينة النفس وسكون الروح - قوّة الإيمان بيسر وسهولة، وتحمي الإنسان حتى النفس الأخير في مجابهة عواصف ابتلاءات هذا العالم العاتية؛ وهي التي تمنع أخلاق الغرباء والمنافقين وملكاتهم من النفوذ إلى روحه، وتحفظه من أن يكون لعبةً في أيد تسوقه حيثما شاءت؛ وتجعله - باستقامة نفسه وطمأنينتها - وحدهُ أمةً واحدة ثابتًا شامخًا كجبل من حديد حتى إذا أغرقت سيول الانحرافات الأخلاقية الناس جميعًا، لم يستوحش من ثباته لوحده في مجابهة الجميع.[442]

* اعلمْ أنّ لأهلِ السّلوك في هذا المقام وسائر المقامات مراتبَ ومدارجَ لا تُحصى. ونحن نذكر بعض هذه المراتب على النّحو الكلّيّ... والمقام الثّالث هو مقام الاطمئنان وطمأنينة النفس. وهو في الحقيقة المرتبة الكاملة من الإيمان. قال تعالى مخاطبًا خليله {أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}[443] ولعلّنا نشير إلى تلك المرتبة أيضًا فيما بعد.[444]

* إذا لم يحجب الإنسان نفسه عن الحقّ تعالى بالتوجّه إلى شجرة الطّبيعة الخبيثة، تجلّت فيه بهذا الصفاء الباطنيّ انعكاسة حضرات الأسماء من دون تحديد أو تقييد، وهذا التجلّي يثمر التعلّق القلبيّ، والأنس والأمل، وهذا هو في الواقع الرجاء الوثيق والأمل المستقر.[445]

* إنّ الرجل الروحانيّ الحافظ لسلامة فطرته الإلهية الأصلية يصبرُ على كلّ

حالٍ ولا يفقد السيطرة على نفسه، فتتغلّب قوّة روحه على ما تطلبه طبيعته، ولا ينهار في الحوادث ولا يهتز لفقدان الدنيا والطّموحات النفسية لأنّه متحرّرٌ من حبّ الدنيا والنفس الذي هو منشأ كلّ انحراف وخطيئة؛ والاحتجاب بحجبه منشأ كلّ احتجاب.[446]

36

متى نصبح أعداء أنفسنا؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

««أعدى عدوِّك نفسُــك التي بين جنبيك» هذه هي أعدى الأعداء، وكل عداوات العالم تأتي منها، فهي التي تقتل الإنســان، وتقهره. وتلك التــي «بين جنبيك» هي نفس الإنســان الأمّــارة، وهي غير هذه التي تقتله، تقتل الإنسانية. كلّ العالم يجتمع ليقتل إنسانيتك، فلا يستطيع. ما لم تتغيّر هذه النفس التي بين جنبيك، فهي «أعدى عدوِّك».»[447]

حين تمرض النفس تصبح أمّارة بالســوء. وشــدّة الميل إلى الســيّئات دليل على مرض النّفــس. ولأنّ الأمر بالســوء يعقبه الخسران المبين والعذاب الأليــم، فإنّ النفس الأمّارة بالسوء هي أسوأ شيء يمكن أن يحصل للإنسان، لأنّه لو اجتمع العالم كلّه ليأمرك بالسوء وكانت نفســك طاهرة خالية من السوء، لا يمكن أن يصيبك أي ضرر. لهذا كانت النفس الأمّارة أعدى أعداء الإنســان. بــل لا يوجد عداوة مثل عداوتها. وحتى ذاك الشــيطان اللعين الذي هو عدوّ للإنســان مبين، لا يقدر عــلى النفوذ إلى النفس وإغرائها بالمعاصي والسيّئات، ما لم تكن النفس مريضة مشتاقة إلى القذارات.

وكيف يتعاطى الإنســان مع عدوّه؟ فهل يطيعــه أو يتبعه أم يتمرّد عليه ويرفضه؟ فلا شــك أنّ الإنسان الطبيعيّ لا يمكن أن ينساق لعدوّه لأنّ في ذلك هلاكه، فهو شديد الحذر منه وسيّئ الظن به إلى أبعد الحدود، يترقّب كل شيء يمكن أن يصدر منه ويعتبره لــضرره. فلو أدركنا حقيقــة عداوة النفس، لاعتبرنــا اتّباع هواها أقبــح شيء، ولصارت مخالفتها أحمد شيء عندنا.

إنّ طريق مخالفة النفس سهلٌ جدًا وميسّر، لأنّ الله تعالى قد جعل لنا لكلّ شيء من إرادتــه أمرًا. فإذا اتّبعنا طريق الله وشريعته، نكون قد نهينا النفس عن الهوى، وقمعنا إرادتها وتجنّبنا عداوتها.

شواهد إضافية

* اجعــل التأمّل في أدعيــة المعصومين عليهم الســلام وتحرُّقهم وتفَجُّعهم خوفًــا من الحقّ والعذاب عنوان أفكارك وســلوكك. الأهواء النفســانية، وشــيطان النفس الأمّارة يدخلاننا في الغرور ويجرّاننا من هذا الطريق إلى الهلاك.[448]

* يجب علينا أن نستعيذ بالله تعالى من شرّ مكائد النفس فإنّ مكائدها خفية جدًّا ونحن نعلم إجمالًا أنّ أعمالنا ليست خالصة لله.[449]

* إنّ هذه المراقبة الكاملة للنفس وحفظها من أيّ تزلزل وانحراف؛ من أصعب الأمور، لذلك يجب على الإنسان أن يستعيذ بالله ويستعين به جلّت قدرته على ذلك؛ فإنّ مكائد النفس والشيطان تكون أحيانًا دقيقةً وخفيّة إلى درجة يستحيل كشفها من غير توفيق الله وعونه؛ مهما كانت درجة التدقيق.[450]

* لا يمكن بلوغ الهدف من دون أدنى شك بالتعلّق بالشجرة الخبيثة وأغصانها وجذورها، فقد هدّد إبليس بذلك وقد نجح في ذلك، ولا يستطيع الهروب من مكر الشيطان والنفس الخبيثة، التي هي مظهر الشيطان، إلّا قليل من عباد الله الصالحين.[451]

* بدون المراقبة الكاملة الدقيقة؛ وبدون التّعامل مع النفس تعامل الطبيب الحاذق والممرّض المخلص الذي يحفظ الإنسان من نفسه ويحذّره باستمرار من عيوبها؛ تسوقُ هذه الأعمال الصّالحة والعبادات الظاهريّة الإنسان إلى التهلكة وتصير سببًا لسقوطه.[452]

* إنّ مظهر الشيطان وهو النفس الأمّارة في الإنسان يوجد في الجميع، فإذا رأيتم أنّكم تريدون يومًا ظلم الناس وإخضاعهم لسيطرتكم فاعلموا أنّ فيكم من الحظّ الشيطانيّ، وهذا الحظّ الشيطانيّ هو الذي يدفع القوى الكبرى إلى التجرّؤ وهو الذي يجعل البعض يخضعون أمام القوى الكبرى رغم أنّهم يمتلكون الإمكانات اللازمة للمواجهة والمقاومة.[453]

* التعلّق بالمخلوق والغفلة عن الحقّ جلّ جلاله، من الحجب الغليظة التي تُطفئ نور المعرفة وتكدّر صفو القلب وتجعله مظلمًا وهو من أكبر أحابيل إبليس الشقيّ، ومكائد النفس الأمّارة بالسوء، فهو يبعد الإنسان عن ساحة الحقّ تعالى المقدّسة ويحرمه من المعارف الحقّة.[454]

* الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء يغرّران بالإنسان ويصدّانه عن السعي في الإصلاح في شبابه إلى أن يستولي عليه ضعف الشيخوخة ووهنها، وتزداد المعاصي والكدورات النفسانية، وحينئذٍ يغرّرانه أيضًا بالتسويف، ويعرقلان تفكيره بالإصلاح؛ حتى ينقضي عمره، وهو أصل رأسماله، وينتقل إلى دار الانتقام وهو حليف الخذلان والخسران: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإنسان لَفي خُسْرٍ﴾.

وأيُّ خسران أعظم من صرف رأسمال السعادة السرمدية في استجلاب الشقاء الأبدي، واستخدام الإنسان وسيلة بناء الحياة الخالدة والفلاح؛ في إلقاء نفسه في التهلكة والفناء من دون أن يستيقظ من الغفلة إلى نهاية عمره؟![455]

* لا تقود النفس الأمارة بالسوء الإنسان إلى جهنّم منذ البدء، أو تقول مثلًا: انهضوا للنزاع، أو أنّ إبليس يقول: هيّا إلى جهنم؛ كلا، يشرع الإنسان بخطوة إلى الأمام، فيُصاب بالغفلة ويتابع ما فعل بخطوة أخرى إلى الأمام، وهكذا حتى ما يلبث أن يجد نفسه غارقًا في النزاع والجدال.[456]

* إنّي أتقدّم بنصيحة لكلّ الشباب الأعزاء الذين يجاهدون ويقدّمون التضحيات في الجبهات والمواقع الخلفية لإقامة العدالة الإلهية، والأعزّاء الذين تضرّروا بنحو أو بآخر في سبيل الله، وكذلك لذوي الشهداء العظام الذين نالوا أسمى درجات السموّ الإلهيّ وهي الشهادة على طريق القرآن الكريم، والآباء والأمّهات وأقرباء الشهداء الأحياء، ولكلّ من قدّم ويقدّم العون والدعم لإخوته المجاهدين، خلف الجبهات. وأدعوهم للحذر لئلا يغترّوا بالانتصارات، لأنّ آفة النفس مصائد الشيطان الذي يحاول إغواء

عباد الله ليصبحوا تابعين له، وكذلك أحذّرهم من مكائد النفس الأمّارة بالسوء التي تجرّ الإنسان نحو الشرك وعبادة الأصنام، لا سيّما الصنم الرئيس وهو صنم النفس. أحذّركم من أنّه لا أحد سوى الله جلّ وعلا يتولّى نصرنا ولا تعتبروا أي نصر من سواه مؤثرًا في حياتكم عملًا بالآية الشريفة {وما رَميت إذْ رَمَيْتَ وَلكنّ الله رَمى}، وإنّ كل ما عندكم وعندنا هو منه وحده سبحانه وإننا مجرّد مخلوقات من العدم وموجودات في الظاهر.[457]

* إنّ أهواء النفس وشيطان النفس الأمّارة تدفعنا إلى الغرور وتهلكنا بذلك.[458]

37

كيف نحرّر أنفسنا من القيود؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«في العالم ثلاث وجهات نظر، أولاها تتأمل في الموجودات أو في بعضها من خــلال الحبّ، ووجهة نظر أخرى تنظــر إليها من منطلق البغض، ووجهة نظر ثالثة ليس فيها حبٌّ ولا بغض وهي النظر بالحرية. وجهتا النظر الأولى والثانية لغير الأحرار من البشر. أكبر بلاء البشر وأكبر مصيبة لدينا هي هذا البلاء، وهي من عندنا وفينا. من ينظر إلى الناس والأشياء من خلال حبّ النفس أو ينظر إلى الأشــياء مــن خلال طريق العداوة والبغــض لا يمكن أن يكون حــرًّا وهو غير طليق في تقديم وجهة نظره ومن ينظر من خلال حبّ النفس إلى الموجودات أو إلى الأشخاص أو إلى المجموعات ليس حرًّا ولا يمكن أن يعطي حكمًا صحيحًا. الإنسان يظن أنّ كل مــا يقوله هو من باب الحرية والحياد ولكن لو ادّعى أحد مثل هــذا الإدّعاء فلا تقبلوا منه. لا يمكن لهذا الموجود أن يكون متحرّرًا من حبّ النفس - الذي هو منشأ جميع المصائب - ومن أهوائه النفسانية. المدّعون لمثــل هذه الحريّة من هذا القبيل هم كُثر، ولكن في الحقيقة هم قليلون، يمكن لكثير من الناس ألا يلتفتوا بأنّهم عبيد أنفسهم وليسوا عبيدًا لله ولكنّهم يعتبرون أنفســهم خالية من العيوب وذلك بسبب حبّ النفس الموجود في الإنســان. إنّ حــبّ النفس هذا يغطّي جميع عيوب الإنســان على الإنســان نفســه. كلّ عيبٍ فيه فإنّه لا يراه لأجل حبّ النفس هذا وأحيانًا يرى العيب فيه حُسنًا. وإذا لم يُخرِجِ الإنسان

نفسه من هذه البلايا وعبودية النفس من خلال ترويض النفس وتعاليم الأنبياء فإنّه لا يَصْلح بنفسه ولا يمكن أن تكون الأحكام التي يصدرها والآراء التي يعطيها صحيحة ومطابقة للواقع. يمكن أن يحدث هذا الأمر صدفة ولكن لا يمكن أن يكون بهذا الشكل دائمًا، لو قام إنسان بعملٍ ما في جوٍّ معيّن وفي ساعة معيّنة ورأى عمله شخصان أحدهما معادٍ للشخص فإنّه سيرى العمل سيّئًا، والآخر محبًّا له فإنّه سيرى العمل نفسه جيّدًا. العمل من شخصٍ واحد وفي وقتٍ واحد وفي جوٍّ واحد وفي نفس الظروف وهو واحد من جميع الجهات، ولكن بسبب البلاء الموجود عند المشاهد وعدم تحرّره منه وكونه أسيرًا لأهوائه فإنّ هذا العمل بعينه يراه جيّدًا إذا كان يحبّ الشّخص الفاعل له، ويراه بعينه سيّئًا إذا كان يكره الفاعل له. والإنسان لا يعي هذا الأمر، أجل يوجد بعض الأشخاص الذين يعلمون ولكن يكذبون من دون سبب أو أنّهم يعرفون ويمدحون. هكذا هم ولكن ربّما الكثيرون بهذا الشكل وبسبب الأسر الذي يعانون منه وتلك البلية الموجودة في الباطن والتي ابتُلوا بها، وبسبب ذلك الشيطان الفعّال في النفس الإنسانية، فإنّ هذه البلية لا تترك الإنسان يحكم بحريّة ولا تترك الإنسان يدرك الأمور كما هي في الواقع وأن يقولها كما هي في الواقع. بعبارةٍ أخرى لا يرى الواقعيات كما هي على حقيقتها بسبب عبوديته لنفسه وسيطرة النفس وتسلّطها عليه. والشيطان والقوى الشيطانية كلّها إمّا أنها تجعله لا يدرك الواقع على ما هو عليه، وإمّا أنّها تمنعه من إظهاره لو تمكّن من إدراكه. ومن الجهة الأخرى الأمور بهذا الشكل أيضًا، المديح والتكذيب الصادر عنّا... هذه المدائح والتكذيب هي بسبب تعلقّات الإنسان بنفسه ومتعلّقاته التي هي أيضًا نوع من التعلّق بالنفس؛ لأنّ هذا ابني، لأنّ هذا أخي، لأنّ هذا يشاركني في العقيدة، كل هذه هي الأنا، وجميع هذه الأشياء

في الناس العاديين ترجع إلى الأنا تمامًا. ولو مدح شخصًا ما فمن باب أنّه يتعلق به فيمدحه.

إذا أراد الإنسان أن يختبر نفسه فليختلِ بنفسه ويفكّر في عملٍ يصدر عن اثنين أحدهما من رفاقه أو من أقربائه أو من متعلقاته والآخر من معارضيه وأعدائــه فليجلس ويفكر في العمل الذي يصدر عن هذين، لمــاذا عندما يصير الحديث عن العمل الصادر عن صديقي فإنّني أبدأ بالمــدح أو أغضّ الطرف عن عيوبه على الأقلّ بأصناف الحيل، والعمل الصــادر عن عدوّي فإنني أجد فيه أنواع العيوب والنواقص؟ لو جلس الإنسان واختلى بنفسه وأراد أن يفهم نفسه وما هي فعليه أن يلاحظ ويأخــذ بعين الاعتبار هذه الموازين. فلو صــدر عمل جيد عن عدوّه فإنّه يمدح العمل الجيّد ويعترف بأنّ فيه الإيجابيات الفلانية، وإذا صدر العمل الســيّئ عن أحد أو عن مجموعة فإنّه يعتبره عملًا سيئًا ويقول عنه أنّه سيّئ، لا أقول أن يكشف أسرار الناس ولكنّني أقول بينه وبين نفسه. وبالطّبع أسرار الناس أيًّا كانت فإنّ فضحها أمام الناس مخالفٌ للإسلام. والغيبة والاتّهام وجميع أمثالها من الانحرافات التي يُبتلى بها الإنسان ولكن ابتلاء الإنسان بنفسه أكبر من جميع الابتلاءات. الدليل على هذا الأمر هو أنّه لو صدر عملٌ بارز عن أحد فإنّني أطرحه للنقاش والبحث وأسعى للتقليل من شأنه باذلًا في هذا الأمر كلّ ما في وسعي. ولو صدر مثله من صديق أو شخص يخصّني فإنّني أبني على أنّ الأمر جيّد فأعطيه حجمًا أكبر ممّا يستحقّه. كل هذا بسبب الأنا ولا علاقة له بالخارج أصلًا، الدنيا هي «أنا»... إذا أراد الإنسان الحكم على موضوع والتصديق بحقيقة موضوع ما، في البداية عليه أن يذهب وراء نفســه ليعرف نفســه وما دورها؟ أن يجلس الإنسان جانبًا وينظر إلى عيوب الناس أو محاســنهم ويشوّه محاســنهم أو يجمّل عيوبهم، فإنّ هذا

الأمــر هيّن. هذا الإنســان لا يشــترك في أي معركة ثــمّ لا ينفك ينتقد أولئك الذين يحاربون على الثغور، بل يعيب هؤلاء الذين على الثغور محاربين. ولا يدخل أي إدارة، ثمّ يعيب الذين ذهبوا للعمل في الدوائر، ولا يدخل أي مركز يحتاج إلى الإصلاح، ويجلس جانبًا ويشرع بالمناقشة واختلاق العيوب. وهذا العمل ســهل ولعلّه شائع جدًّا أيضًا. ولكن إذا جلس الإنسان جانبًا وشاور قلبه وحاكم أفكاره وفكّر في نفسه من هو وامتحن نفســه، فإذا حصل انتصار على أعداء الإسلام ولصالح الإسلام [على يد عدوّ له] يرى هل أنّ نفسه تشعر بالسرور والفرح لهذا النصر ويبارك في قلبه هذا النصر أو لا؟ هل أنّه يشــعر بالانزعاج من انتصار الإسلام لحصوله بيد هذا [الشخص] ويريد أن لا ينتصر الإسلام مخافة أن ينتصر هذا الشخص؟ لو أنّ الإنسان فكر في نفسه لو حصل المكسب لصالح الإســلام، هل أنّه لا فرق بالنســبة لي سواء كان بيده أو بيدي؟ لو حصل ما ينفع الإســلام ولو كان مــن يد الكافر فهل أنّه يُسر لذلك العمــل مع أنّه لا يسر للكافر ككافــر؟ وبالتالي هل أنّه يُسر من عمله باعتبار أنّ انتصاره انتصار للإســلام؟ وهكذا لو أنّ عملًا تخريبيًّا صدر من شخصٍ صديق له ويكنّ له محبة، أو صدر منه نفسه فهل أنّ هذا يؤثّر في قلبه أم لا يترك أثرًا؟ إذا أراد الإنســان أن يكتب شــيئًا عن أي عمــل يحدث في الخارج أو يقول شــيئًا للأمّة، فقبل أن يذهب ليقوم بهذا العمل، فلينظر هل أنّ حبّ النفس، الذي من تبعاته حبّ تعلّقاته القلبيّــة وحبّ أصدقائه، هل أنّه ســيعمي قلبه بحيث لن يتمكّن من قول الحقيقة، وبالتالي سيضحّي بالحقيقة لأجل نفسه أم أنّه لن يضحّي بالحقيقة من أجل نفسه؟! [فلو ضحّى بالحقيقة] في ذلك الوقت يجب أن يعرف أنّ القلم للشــيطان ولكنّه بيده، وأنّ لسانه للشيطان ولكن بإرادته هو».[459]

الحــب دافعٌ قويّ نحــو المحبوب، والبغض طاردٌ قويّ مــن المبغوض. فهما أفضل ما يحــدّد وجهــة النفس. ولهذا كان الإنســان في نهاية المصير مع مــن يحب، ولا يمكن أن يحشر مع من أبغض.

وفي العالم لا يوجد ســوى نوعين من الحبّ. الأوّل هو حبّ الله، والذي يتجلّى بحبّ كلّ شــؤونه ومظاهــره. والثــاني هو حبّ النفــس، والذي يظهر في حــبّ كل ما يرتبط بتعزيزها وتمجيدها.

ولأنّ حبّ النفس بعيدًا عن حبّ الله تعالى، هو البعد عن الواقع والكمال الحقيقي، لا تكون متعلّقات النفس ســوى الأوهام والأباطيل. وفي النهاية لن تصل النفس في حبّ الذات إلّا إلى الحرمان والخسران.

إنّ حبّ النفس يظهر بشــكلٍ جليّ في الاعتبارت والتقييمات التي يتّخذها الإنســان ويصــدر على أساســها القرارات والمواقــف. فإذا كان حبّ النفس مســيطرًا، صارت كل التقييمات مبنيّة على أســاس ما يمتّ إليها ويجلب لها المنفعة واللذة. ولأنّ النفوس بما هي ميّالة إلى الباطل، فإنّ معظم تقييماتها سيكون باطلًا غير مصيب للواقع.

ولهــذا كان التحرّر من هوى النّفس من أعظم الكمالات والقيم التي ينالها الإنســان في حياته. وهؤلاء هم الأحــرار الحقيقيّون الذين استبدلوا محور النفس بمحور الحقّ، فصــارت منطلقــات أعمالهــم ومواقفهم إصابة الواقع بمعزل عن مصالحهم. ولأنّهم صــاروا أتباع الحــقّ، ولأنّ الخــير كلّه تابع للحــقّ والواقع، فــإنّ هؤلاء الأحــرار هم الذين يصيبون خير الدنيا والآخرة.

الحــب دافعٌ قــويّ نحــو المحبوب، والبغض طــاردٌ قويّ مــن المبغوض. فهما أفضل ما يحــدّد وجهة النفس. ولهذا كان الإنسان في نهاية المصير مع من يحب.

شواهد إضافية

* التجلّد إثبات للنفس، وإظهار لوجودها، وهذا من أقبح المنكرات والجنايات عند أهل المعرفة.[460]

* لا تكن محبًّا لنفسك، سلّم إرادتك للحقّ تعالى، فإنّ الذات المقدّسة تتفضل عليك بجعلك مظهرًا لإرادتها ومتصرّفًا في الشؤون المختلفة، وتخضع لقدرتك مملكة الإيجاد في الآخرة، وهذا غير التفويض الباطل، كما هو معلوم في محلّه.[461]

* كل متاعب الأنبياء من آدم إلى الخاتم كانت من أجل هذا المعنى أي السير إلى الله وتحطيم صنم النفس الذي هو أكبر الأصنام ويتبعه تحطيم الأصنام.[462]

* إنّ ما اهتمّ به أولياء الله هو تهذيب النفس وانتزاع القلب ممّا عدا الله والتوجّه إليه سبحانه. لأنّ كلّ المفاسد التي تحدث في العالم هي وليدة الاهتمام بالنفس بدلًا من التوجّه إلى الله. وإنّ كلّ الكمالات التي تحقّقت لأنبياء الله وأوليائه كانت بوحي من انتزاع القلوب من غيره تعالى واللجوء إليه. ويتجلّى كل ذلك في أعمالنا. وفضلًا عن أنفسنا، فثمّة مسؤولية أخرى ملقاة على عاتقنا تجاه أبناء جنسنا. ثمّة مسؤولية علينا تجاه الشعب. وكما ورد في سورة هود حيث أمر الرسول: {فاستقم كما أمرت ومن تاب معك}، فإنّكم مكلّفون بالاستقامة والعمل على استقامة الناس بوحي من استقامتكم. فإذا رأى الناس خطأ منّا، وأداروا ظهورهم لعلماء الدين بسبب أخطاء بعضنا، فإنّ المسؤولية المترتبة على ذلك ليست مسؤولية شخصية وإنّما هي مسؤولية إسلامية عامة.[463]

* كان عمل الأنبياء منذ البداية يتمحور حول جانبين؛ الجانب المعنويّ حيث إخراج الناس من قيد النفس وأسر ذواتهم التي هي الشيطان الأكبر، والجانب الآخر هو تحريرهم من هيمنة الظالمين.[464]

* إنّ معظم عباداتنا هي - عند أهل المعرفة - عبادة للنفس والشهوات؛

لأنّها من أجل المقاصد النفسانيّة، لذلك تظهر منها كدورة وظلمة.[465]

* نحن المتخلفون عن "قافلة الأبرار" يجب أن ننتبه إلى أنّ منشأ فرحنا بالمدح والثناء واستيائنا من الانتقادات والشائعات هو حبّ النفس الذي هو أخطر شراك إبليس اللعين.. نحن نميل أن يكون الآخرون مدّاحين لنا.. حتى ولو صوّروا أفعالنا العادية وحسناتنا المتخيّلة أكبر من حجمها بمئات المرات.. ونحبّ أن تكون أبواب انتقادنا - ولو بحقّ - موصدة أو يتحوّل انتقادنا إلى مديح. ننزعج من الحديث عن معايبنا، لا لأنّها ليست حقًّا، ونفرح بالمدح والثناء لا لأنّه حقّ بل لأنّه "عيبي أنا" و"مدحي أنا".

إذا صدر منك أمرٌ ما، وصدر عين ذلك الأمر أو أفضل من شخص آخر، خصوصًا إذا كان من زملائك، وانبرى المدّاحون لمدحه سيكون ذلك مزعجًا لك.. وأدهى من ذلك إذا حوّلوا عيوبه إلى مدائح. في مثل هذه الصّورة، تيقّن أن يد الشيطان والنّفس الأسوأ منه هي السّبب.

بني: ما أحسن أن تلقّن نفسك وتقنعها بحقيقة أنّ مدح المدّاحين وإطراء المطرين غالبًا ما يهلك الإنسان ويجعله بعيدًا عن التهذيب وأشدَّ بعدًا... ولعلّ الباحثين عن عيوبنا والمروّجين للشّائعات ضدّنا مفيدون لعلاج معايبنا النفسـية - وهو كذلك - كالعملية الجراحية المؤلمة المفيدة للمريض..

أولئك الذين يبعدوننا بمدائحهم عن جوار الحقّ أصدقاء يعبّرون عن عداوتهم بصورة صداقة.

وأولئك الذين يظنون أنهم يعبّرون عن عداوتهم لنا بالذم والفحش واختلاق الإشاعات هم أعداء يصلحوننا بفعلهم هذا - إذا كنا أهلًا لذلك - إنهم يعبّرون عن صداقتهم لنا بصورة عداوة.. أنا وأنت إذا اقتنعنا بهذه الحقيقة وتركنا الحيل الشيطانية والنفسية نرى الواقعيات كما هي.. عندها سنضطرب من مدح المداحين وثناء أهل الثناء كما نضطرب اليوم من ذمّ الأعداء وشائعات المغرضين.. وسنتفاعل مع الذم ونتلقّاه كما نتفاعل اليوم مع المدائح والإطراءات ونتلقّاها.[466]

* اسعَ لتحقيق هذا النصر أو بعض درجاته، اجتهد واعمل للحدّ من الأهواء النفسانية التي لا حدّ لها ولا حصر، واستعن بالله جلّ وعلا فإنّه لا يصل أحد لشيء من دون عونه؛ والصّلاة - معراج العارفين وسفر العاشقين - سبيل الوصول إلى هذا المقصد.[467]

* نحن وأمثالنا لم نصل إلى الحجب النورانية بعد، وما زلنا أسرى الحجب الظلمانية! فمن قال: "هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة"، فقد اخترق الحجب الظلمانية وتعدّاها. أما الشيطان الذي خالف أمر الله ولم يسجد لآدم، فقد رأى نفسه عظيمًا، لأنّه كان في الحجب الظلمانية و{قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نار}، جعلته يُطرد ويُبعد عن ساحة الربوبية! نحن أيضًا، ما دمنا في حجاب النفس والأنانية، فنحن شيطانيّون مطرودون من محضر الرحمن، وما أصعب تحطيم هذا الصنم الذي يعدُّ "أم الأصنام". وما دمنا خاضعين له مطيعين لأوامره، فنحن غير خاضعين لله (جل وعلا) ولا مطيعين لأوامره، وما لم يُحطّم هذا الصنم، فإنّ الحجب الظلمانية لن تتمزّق ولن تُزال. علينا أن نعرف ما هو الحجاب أوّلًا، فنحن إذا لم نعرفه، لن نستطيع المبادرة إلى إزالته، أو تضعيف أثره، أو على الأقل الحدّ من تزايد رسوخه وقوته بمرور الوقت.[468]

* إن إدبار الجهل لم يكن بدافع طاعة أمر الحقّ تعالى بالإدبار، بل بدافع حبّ النّفس والرياء والشيطنة وتلبية شهواته، فهو بهذا الإدبار مطرود من ساحة القدس وحضرة القرب الإلهي ومدحور عنها، وقد غرق في بئر عالم الطبيعة المظلمة إلى درجة لا أمل له معها بالنجاة، فوقع في الإخلاد إلى أرض الطبيعة الذي هو ظاهر الإخلاد إلى جهنّم، فكان كل سيره في دائرة الطبيعة ومقصده في هذا السير عالم الطبيعة. فحركته من النفس إلى النفس ومن الهوى إلى الهوى، وحتى سيره الكمالي إنما هو باتّجاه كمال الجهل. لذلك، فإنّ الجهل الكلي - وهو الوهم الكلي وإبليس الأعظم، وإن كان من عالم الغيب وذا تجرّد برزخي ومقام مثالي وإحاطة

مثالية بالظاهر، "يجري مجرى الدم من ابن آدم"، إلا أنّه محتجب بالذات ومطرود وملعون بالفطرة، وإذا كان قد سجد أربعة آلاف سنة فإنّ هذه السجدة بحدّ ذاتها كانت سببًا لبعده عن ساحة القرب الإلهي وحرمانه من وصال الحبيب، لأن عبادته هي عبادة هوى وبدافع حبّ النفس، من هنا كانت نتيجة عبادات إبليس طوال تلك المدّة التوجّه للنفس والأنانية والعجب، وكانت عاقبته أن قال في الردّ على أمر الحقّ تبارك وتعالى: {خلقتني من نار وخلقته من طين} وبسبب حبّ النفس والأنانية والتفاخر كان نصيبه الطرد من حضرة القدس ومقام القدس.[469]

* نحن نمضي العمر بتمامه نؤدّي الصّلاة - التي تعد أكبر ذكر لله المتعال - ونحن معرضون عن الحقّ تعالى، وعن بيته العتيق، متوجّهين إلى الذات وإلى بيت النفس. وكم هو مؤلم أنّ الصلاة التي ينبغي أن تكون معراجًا لنا وترفعنا إليه وإلى جنة لقائه تعالى، أن تكون سيراً نحو أنفسنا وباتّجاه منفى جهنم.[470]

* تحرّر من حبّ النفس والعجب، فهما إرثُ الشيطان فبالعُجب وحبّ النفس تمرَّدَ على أمر الله بالخضوع لوليّ الله وصفيّه (جلّ وعلا). واعلم أنّ جميع ما يحلّ ببني آدم من مصائب ناشىءٌ من هذا الإرث الشيطاني، فهو أصل الفتنة، وربما تشير الآية الكريمة {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّه}(البقرة/193) في بعض مراتبها إلى الجهاد الأكبر، وقتال أساس الفتنة وهو الشيطان وجنوده. ولهؤلاء فروعٌ وجذورٌ في أعماق قلوب بني الإنسان كافّة.[471]

* ما دام الإنسان في حجاب نفسه ومشغولًا بنفسه ولم يخرق الحجب حتّى الحجب النورانية ففطرته محجوبة والخروج من هذا المنزل يحتاج - بالإضافة إلى المجاهدات - إلى هداية الحق تعالى.[472]

* إنّ من الثّمار الخبيثة لحبّ النفس والدنيا، أنّه يعمي بصر الإنسان ويصمّ أذنه عن كل ما سوى الشهوات والآمال الدنيويّة. فيسخط لاحتجابه عن

المقامات المعنويّة وعن مدارج أهل المعرفة ومعارج أصحاب القلوب الحيّة - بسبب الابتلاءات التي تصلح النفوس وتربّي القلوب، ويفرح ويرضى - بالمقابل - بإقبال الدنيا عليه في حين أنّ هذا الإقبال هو أسوأ فتنة وابتلاء.[473]

- يجب ألا نفكر في أنني أصبحت رئيسًا للجمهورية الآن ويجب أن يحصل كذا وكذا وأنا يجب أن يكون مقامي كذا، لا، إنّ ذلك ناجم عن ضعف النفس في الإنسان وهو ناجم عن ضعف الأفق وضعف القلب في الإنسان حيث يتصوّر أنّ ذلك شيءٌ مهم، إنّ هذا شيءٌ غير أصيل يُعطاه الإنسان اليوم ويُسلبه غدًا ويذهب وراء عمله.[474]

- قد يخطئ الإنسان في تقديره بسبب حبّ النفس لأنّه يريد كلّ شيءٍ لنفسه ولا يمكن منع ذلك إلا بترويض النفس. إنّ مثل هذا الإنسانَ وبسبب حبّ النفس يرى الأعمال التي تصدر منه أو من المقرّبين منه جيدة. ولكنها إذا صدرت من شخص آخر تبدو له سيئة. ولذلك فإنّ حب النفس يغيّب الواقع فلا يستطيع الإنسان التمييز بين الأمور. على الإنسان أن يسأل نفسه في مدى صدقه في اختياره للمرشح، وهل أنّ ذلك من أجل الله أم لدوافع شخصية؟ فإذا كان من أجل دوافع شخصية فليعلم أنّ القضية شيطانية وليست إلهية. وهذا أمرٌ دقيق قد يخفى على الإنسان.[475]

- إنّ القلوب المعوجّة المنحرفة التي اختلطت بالأهواء النفسانية وحبّ النفس والدنيا، تعمد إلى تأويل الآيات التكوينية وفقًا لما تريده الأهواء النفسانية، وهذا هو التفسير بالرأي المتأثر بأحابيل الشيطان والنفس، فهو باطل وحرام.[476]

- القلب الملوث بالبغض والعداء لعباد الله؛ الذي يعاملهم بالعنف والخُرق، هو منحرف عن الفطرة الإلهية السليمة، بل ومحتجب عنها بالتلوث بالدنيا وزخرفها وحبّ النفس والعجب بها.[477]

* أن يكون الخوف حاصلًا بسبب حال الاحتجاب، وكلّ خوف يقع هنا فهو نتيجةٌ لتصرفات النفس وإبليس في قلب الإنسان، فهو الجِّرأة عينها على الحقّ تعالى، لأنّ الخوف من غير الحقّ ولأجل غير الحقّ لن يكون من الحقّ.[478]

* ربما دعا الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء الإنسان سنين طويلة للقيام بالأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة واتّباع الشريعة المطهرة على أمل أن يوقعاه بعد ذلك في العُجب بنفسه فيسقط بعد كل ما تحمله من مشاق ورياضات؛ إذ إنّ الغرور العلميّ والعمليّ وحبّ النفس والإعجاب بها من المهلكات التي تسوق الإنسان إلى الشقاء.[479]

* القيادة في ذاتها هدية ومقام سام، فهي واجب ثقيل وخطير، والزلة فيها إذا كانت اتّباعًا لهوى النفس لا سمح الله فإنّها تستتبع العار الأبدي في هذه الدنيا، ونار غضب الله القهار في الآخرة.[480]

* إنّ هذه الأهواء النفسانية وإنّ شيطان النفس سيذهبون بكل شيء في هذه الدنيا.[481]

* اعلموا بأنّكم لا تبلغون المحبوب المطلق إلا باجتياز ما تصبو إليه أنفسكم، وتتجسّد ذروة ذلك في حبّ النفس ثمّ يتلوه حبّ الدنيا.[482]

* علينا أن ننتبه إلى أنّ مصدر حبّنا للمديح وكرهنا للنقد والإشاعات هو حبّ النفس وهو أكبر شراك لإبليس اللعين. نحن نرغب في أن يثني علينا الآخرون وإن ضخّموا لنا الأعمال الصالحة الوهمية مئات الأضعاف، وأن يغلق علينا باب النقد - ولو كان صحيحًا - أو أن يتحوّل إلى المديح والإطراء. إنّنا نحزن من تتبع الآخرين لعيوبنا لا لأنّه مخالف للحقّ، ونفرح من المديح لا لأنّه موافق للحقّ، بل لأنه يعيبني ولا يمدحني. إنّ الأنا هي التي تحكمنا هنا وهناك وفي كل مكان فلو أردت إدراك صحة هذا الأمر فانظر إذا ما صدر عمل عنك وصدر مثله أو أفضل منه عن غيرك خاصة إذا كان من أندادك وقام المادحون بمدحه وإطرائه فإن ذلك

سيؤلمك، والأشد من ذلك إذا مدحوه في عيوبه. فاعلم في هذه الحالة علم اليقين أنّ ذلك من صنع الشيطان والنفس التي هي أسوأ منه.[483]

* لا تستطيعون الجهاد في سبيل الله والدفاع عن حريم الله ما دمتم في قيود أنفسكم وأهوائكم النفسية.[484]

* كلكم دُعيتم إلى ضيافة الله. جميعكم ضيوف الله. وهذه الضيافة كلها ترك. فإذا كانت هناك ذرة واحدة من هوى النفس لدى الإنسان، لم يدخل الضيافة.[485]

* بني! إنّ حبّ الدنيا الصادر من حبّ النفس هو المذموم وهو رأس مال جميع التعاسات والهلاكات وأساسها ورأس كل الخطايا. وعالم الملك ليس مذمومًا بل هو مظهر الحقّ ومقام ربوبيّته ومهبط ملائكة الله ومسجد الأنبياء والأولياء (عليهم السلام) ومدرستهم ومعبد الصالحين وموضع تجلّي الحقّ على قلوب عشّاق المحبوب الحقيقيّ، وإذا كان حبّه صادرًا عن حبّ الله وكان باعتباره مظهرًا له - جلّ وعلا - فإنّه مطلوبٌ ومؤدٍّ إلى الكمال. وإن كان ناجمًا عن حبّ النفس فإنّه سيكون رأس كلّ الخطايا. وعلى هذا فإنّ الدنيا المذمومة هي في نفسك أنت، فالعلائق والمتعلّقات القلبيّة بغير صاحب القلب تؤدّي إلى الهاوية. إنّ جميع الاعتراضات على الله والابتلاء بالمعاصي والجرائم والخيانات ناجمة عن حبّ الذات، فإنّ حبّ الدنيا وزخارفها، وحبّ المقام والجاه والمال والمنال كلّ ذلك صادر منه، وفي الوقت نفسه، فإنّ أيّ قلب لا يمكنه أن يتعلّق بحسب الفطرة بغير صاحب القلب ولكن هذه الحجب الظلمانية والنورانية هي التي تجعلنا نغفل نحن والجميع عن صاحب القلب فنظن خطأً أنّ غير صاحب القلب هو صاحب القلب، ظلمات فوق ظلمات.[486]

* القلب محجوب عن عيوبه ما دام محبًّا للدنيا وزخرفها، لأنّ ستار الحبّ أسمك الحجب، وقد قيل: "حبّ الشيء يعمي ويصم"، لذا ما دام حبّ الدنيا والرغبة فيها مستقرين في قلب الإنسان، فهما يصوّران له جميع

عيوب الدنيا محاسن وقبائحها أمورًا جميلة؛ فإذا أعرضنا عن الزخارف الدنيوية بصّرنا الله بعيوب الدنيا ودائها ودوائها، وإذا خرق هذا الحجاب السميك، سقط الستار الذي كان يصور تلك العيوب محاسن جميلة، وعرف الإنسان الداء والدواء، وحينئذ يتّضح له طريق السلوك، ويتعبّد له طريق الإصلاح.[487]

* أيها العزيز، اطلب السمعة والذكر الحسن من الله، التمس قلوب الناس من مالك القلوب، اعمل أنت لله وحده فستجد أنّ الله تعالى - فضلًا عن الكرامات الأخروية - سيتفضّل عليك في هذا العالم نفسه بكرامات عديدة، فيجعلك محبوبًا، ويعظّم مكانتك في القلوب، ويجعلك مرفوع الرأس وجيهًا في كلتا الدارين. ولكن إذا استطعت فخلّص قلبك بصورة كاملة بالمجاهدة والمشقة، من هذا الحبّ أيضًا، وطهّر باطنك كي يكون العمل خالصًا من هذه الجهة فيتوجّه القلب إلى الله فقط، وتنصع الروح وتزول أدران النفس.[488]

* إنّ معرفة الله تؤدّي إلى حبّه عزّ وجلّ، فإذا اكتمل هذا الحبّ تحرّر هذا الإنسان من أسر نفسه، فإذا تحرّر منها تحرّر من أسر العالم كلّه، وتخلّص من الطّمع في نفسه وفي غيره، وتطهّر من رجز الشيطان ورجز الطّبيعة، وأشرق النور الأزليّ في باطن قلبه، وانتقل منه إلى ظاهره وجوارحه، فنوّر جميع أفعاله وأقواله، وجعل كلّ قواه وجوارحه إلهية ونورانيّة، فيكون في الوقت ذاته متواضعًا للجميع، ممتنعًا عن التملّق لأحد، فلا يتطلّعُ بعين الطمع إلى ما عند أحد من الخلق، ولا يرجو شيئًا ممّا في أيديهم.[489]

38

كيف يؤدّي نظرنا
إلى أنفسنا
إلى تعطيل قواها؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«النظــر إلى النفس والوقوع في أسر حبّهــا، هذه الحال تقطع أمل الإنسان بالله عزّ وجلّ وتجعله أسير النفس».[490]

مرّة أخرى يوقفنا الإمام عند ظاهرة حبّ النفس وما يمكن أن تؤدّي إليه على مستوى تكميلها وتقويتها. فمن كان ناظرًا إلى نفسه باعتبار أنّها محور الكون، لا يمكن أن يتوجّه إلى ربّ الكون. وشيئًا فشيئًا يكله الله إلى نفسه، فلا يقدر على شيء؛ لأنّ النفوس ضعيفة عاجزة. وحين يكثر الفشــل، يحل اليأس والقنوط، ولا يقدر الإنسان بعدها على الخروج من هذه الحالة.

شواهد إضافية

* إذا توجّه [الإنسان] إلى الشجرة الخبيثة المنهي عنها، حصل عنده بمقدار هذا التوجّه تقييد وتحديد في الأسماء والصفات والأفعال الإلهية، وبالتالي أصابه الجهل بسعة الرحمة الإلهية، إلى أن يصل به الحال [مع اشتداد التوجّه هذا] إلى الخروج بالكامل عن الفطرة، وغلبة أحكام الحجاب عليه، فتستولي الكدورات والظلمة، على مرآة قلبه إلى حدّ حرمانه من عوالم الغيب وتجليات الأسماء والأفعال الإلهية، فيحتجب عن انعكاس التجليات الرحمانية، ويغلب عليه حكم اليأس والقنوط إلى درجة يعزل نفسه معها عن رحمة الحقّ تعالى الواسعة، وهذه هي غاية الخذلان - نعوذ بالله منه.[491]

* على السّالك ألّا ييأس من الألطاف الباطنيّة لله سبحانه، فإنّ اليأس من رَوْح الله رأسُ كلّ برودة وفتور، وهو من أعظم الكبائر. وما هو ممكن لصنَف الرّعايا هو أيضًا قرّةُ العين لأهل المعرفة.[492]

* نحن المحجوبون المشتغلون بالدّنيا، والمحبوسون في سجن الطّبيعة، والمغلولون بأغلال الشّهوات والآمال، والمحرومون من السّعادات العقليّة الإلهيّة، الذين لا نصحو من سكر الطّبيعة إلى صبح الأزل، ولا ننهض من نومنا الثّقيل أبدًا - خارجون عن نطاق هذه التقسيمات، ومستثنون من هذا البيان؛ فآداب الحضور لنا هي من طورٍ آخر، والقيام بالوظائف القلبيّة هو على شكلٍ آخر. ولكنْ أوّلَ شيءٍ منها هو أنْ نُخرج من قلوبنا اليأسَ من روح الله، والقنوط من رحمة الله، اللذَين هما من الجنود الكبرى لإبليس، ومن إلقاءات شياطين الإنس والجنّ، ولا نتوهم أنّ لباس هذه المقامات قد خيط على قامة أشخاصٍ خاصّين، وأنّ أيديَ آمالنا عنها قاصرةٌ، وأرجلَ سير البشر عن ركوبها مترجلةٌ؛ فلا نخطو أصلًا ونبقى بالبرودة والوهن مخلّدين في أرض الطّبيعة. لا، فليس الأمر على ما نتوهّم. نعم، أنا أيضًا أقول: إنّ المقام الخاصّ لكمّل أهل الله لا يتيسّر لأحد، ولكنْ للمقامات المعنويّة والمعارف الإلهيّة مدارج غير متناهية، ولها مراتب كثيرة يتيسّر للنّوع أكثر تلك المقامات والمعارف والحالات والمدارج، فيما إذا تركوا البرودة والتهاون

الموجود في أنفسهم، وصدوا يد العناد والتّعصّب من أهل الجهل والعناد عن قلوب عباد الله، ولم يكن لهم شيطانٌ على طريق سلوكهم.[493]

✷ ابنتي... لا تكتفي بهذه الاصطلاحات التي هي الفخ الكبير لإبليس وكوني بصدد البحث عنه جلّ وعلا..

أيام الشباب وأنسها وملذاتها سريعة الزوال. وأنا قد طويت جميع مراحلها وأصارع الآن عذابها الجهنمي. والشيطان الداخلي مصرٌ على إبقاء روحي في قبضته كي، والعياذ بالله تعالى، يسدد الضربة الأخيرة ولكنّ اليأس من رحمة الله الواسعة هو في حدّ ذاته من الكبائر العظيمة ولا قدّر الله أن يُبتلى العاصي به. - يقال أنّ الحجاج بن يوسف مجرم التاريخ قال في آخر عمره: اللهم اغفر لي رغم أني أعلم أنّ الجميع يقولون إنك لا تغفر لي. وحين سمع الشافعي ذلك قال: إذا كان قال ذلك فلعلّ.. وأنا لا أعلم هل وفّق ذلك الشقي لهذا الأمر أم لا ولكنني أعلم أن الأسوأ من كل شيء هو اليأس..

وأنتِ يا بنيتي لا تغترّي بالرحمة فتغفلي عن المحبوب، ولا تيأسي فتخسري الدنيا والآخرة.

حفظ الله بحقّ الخمسة من أصحاب الكساء أحمدًا وفاطمة وحسنًا ورضا وعليًا، الذين هم من سلالة الرسول العزيز ووصيّه وبهذا أفتخر ويفتخرون، من الشرور الشيطانية والأهواء النفسانية.[494]

✷ لا تيأس من رحمة الله ولطفه، حتى وإن كانت عليك صلاة كثيرة وصيام غير قليل، وكفارات عديدة، وحقوق إلهية كثيرة، وذنوب متراكمة، وحقوق الناس لا تعدّ، والخطايا لا تحصى، لأنّ الحقّ المتعالي يسهّل عليك الطريق حين تقوم بخطوات حسب قدرتك في اتّجاهه، ويهديك سبيل النجاة. واعلم بأنّ اليأس من رحمة الحقّ من أعظم الذنوب، ولا أظن أنّ هناك ذنبًا أسوأ وأشدّ تأثيرًا في النفس من القنوط من رحمة الله. فإنّ الظلام الدامس إذا غشي قلب الإنسان اليائس من الرحمة الإلهية، لما أمكن إصلاحه، ولتحوّل إلى طاغية، لا يوجد سبيل للهيمنة عليه. فإيّاك

أن تغفل من رحمة الحقّ عزّ وجلّ، وإيّاك أن تستعظم الذنوب وتبعاتها. إنّ رحمة الحقّ سبحانه أعظم وأوسع من كلّ شيء.

ماذا كنت في بدء الأمـر؟ كنت في غياهب العدم ولا توجد فيك القابلية والأهليّة، ولكنّ الحقّ جلّ وعلا، قد وهبك نعمة الوجود وكمالاته وبسط مائدة النعم اللامحدودة، والرحمة اللامتناهية، وسخّر لك كافّة الموجودات، من دون استحقاق واستعداد ومن دون سؤال ودعاء مسبق.

ثمّ إنك في هذا اليوم لا يكون وضعك أسوأ، من اليوم الذي كنت فيه عدمًا صرفًا، ولا شيئًا بحتًا. إنّ الله قد وعد بالرحمة والمغفرة. تقدّم إلى الأمام خطوة واحدة، باتّجاه عتبة قدسه، فإنّه سيأخذ بيدك مهما كلّف الأمر. إنّك إن لم تستطع أن تؤدّي حقوقه، فهو سيتنازل عنها. وإن لم تستطع أن تدفع حقوق الناس، فإنّه سيجبرها.

هل سمعت قصّة الشاب الذي كان ينبش القبور في عهد الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم؟

أيّها العزيز إنّ طريق الحقّ سهلٌ بسيط، ولكنّه يحتاج إلى انتباه يسير، فيجب العمل، لأنّ التباطؤ والتسويف، ومضاعفة المعاصي في كلّ يوم، يبعثون على صعوبة الأمر، وأمّا الإقبال على العمل، والعزم على إصلاح السلوك والنفس، فيقرّبون الطريق ويسهّلون العمل. جرّبه، واعمل في الاتّجاه المذكور، فإذا حصلت على النتيجة تبين لك صحة الموضوع. وإن لم تصل إلى النتيجة المتوخاة فإنّ طريق الفساد مفتوحٌ ويد المذنب طويلة.[495]

39

كيف تستضيء أنفسنا بنور الحكمة؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«حقيقة الحكمة مضادة ومنافرة لظلمة حبّ النفس والعجب بها».[496]

حبّ النفس يغشي الباطن بظلامٍ دامس يمنعه من تلمّس البصيرة النافذة التي يرى من خلالها حقائق الأشياء. فإذا عمي عن هذه الحقائق لم يعرف قدر الشيء وموضعه في نظام الوجود. وليست الحكمة سوى المعرفة بمواضع الأشياء في النظام الإلهي.

حبّ النفس يؤدّي إلى أن نقيّم الأشياء ونقدّرها بحسب تعلّقنا بها وارتباطها بمصالحنا الشخصية. ولهذا، لا يكون الأنانيّ موضوعيًّا مجتنبًا للتقديرات الذاتية. فمن أراد الحكمة عليه أن يسلك طريق الخلاص من حبّ النفس بواسطة حبّ الخلق. فكلما كبر القلب واتّسع بحبّ الناس والحرص عليهم، ابتعد عن الأنانية وانقشعت حجب الظلمات عنه.

شواهد إضافية

* لعلّ المراد من الحديث النبويّ المعروف، "مَنْ أَخْلَصَ لله أَرْبَعِينَ صَبَاحًا جَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِه إلى لِسَانه"، هو الإخلاص بجميع مراتبه، أي الإخلاص العمليّ والصفاتيّ والذاتي. ولعلّه يكون ظاهرًا في الإخلاص الذاتي، وتكون بقيّة مراتب الإخلاص من لوازمه.[497]

* "مَنْ أَخْلَصَ لله أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، جَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِه عَلَى لِسَانه»، فمن أخلص أربعين صباحًا نفسه لله (بمقدار تخمير طينة آدم، وكان أربعين صباحًا، والربط بينهما معلوم عند أهل المعرفة وأصحاب القلوب)، وأخلص أعماله القلبيّة والقالبية للحقّ تعالى، يصبح قلبه إلهيًّا، ولا ينفجر من القلب الإلهيّ سوى عيون الحكمة؛ فيكون لسانه الذي هو أكبر ترجمان للقلب، ناطقًا بالحكمة.

  ففي أوّل الأمر يكون إخلاصُ العمل موجبًا لخلوص القلب. فإذا صار القلب خالصًا، تظهر على مرآة القلب أنوار الجلال والجمال، التي أودعت بالتخمير الإلهيّ في الطينة الآدمية، وتتجلّى وتسري من باطن القلب إلى ظاهر مُلك البدن.[498]

* إنّ المؤمنين أولياء الحقّ، والتحابّ معهم، تحابّ مع الحقّ، والتخاصم معهم تخاصم مع الحق.[499]

* إنّ التذكّرات الثلاثة (تذكّر آيات الحق سبحانه، تذكّر الأسماء والصفات، وتذكّر الذات عز شأنه) - المذكورة - تزيل الحجب الثلاثة، وكذلك التحابب بين الناس في الله سبب لمحبة الله، وتكون نتيجته رفع الحجب حسب ما يقوله العرفاء الشامخون.[500]

* يُروى «أنّ الله تعالى خاطب أحد أنبيائه، فطلب إليه أن يأتيه بمخلوق أسوأ منه، فقام النبيّ عليه السلام بعدها بسحب رفاة حمار قليلًا إلّا أنّه ندم فتركها، فخوطب بالقول: «لو أنّك أتيتني بتلك الجيفة، لكنت سقطت من مقامك" وإن كنت لا أعرف مدى صحّة الحديث، ولكن لعلّ الأمر بالنسبة لمقام الأولياء، يُعدّ سقوطًا حين يرون الأفضلية لأنفسهم

على غيرهم، فتلك أنانيّة وغرور. وإلّا فلِمَ كان النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم يأسف ذلك الأسف المرير على عدم إيمان المشركين، إلى الحدّ الذي خاطبه الله تعالى بقوله: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نفسكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا}[501] فليس هذا سوى أنّه عشق جميع عباد الله، وعِشق الله هو عشق لتجلياته. أنا وأنت إذا وُفِّقنا إلى إيجاد بصيص من هذا العشق لتجليات الحقّ - الموجود في أولياء الله - في أنفسنا، وأردنا الخير للجميع، فقد بلغنا مرتبة من الكمال المطلوب.[502]

40

هل أنّ الكرامات والخوارق دليل على قوّة النفس؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«وما وقع من الشــطحيات من بعض أصحاب المكاشــفة والسلوك وأهــل الرياضــة، فهــو لنقصان ســلوكهم وبقاء الأنانيــة في سرّهم، فتجلّت أنفسهم عليهم بالفرعونية... وأمّا أصحاب الطلاسم والسّحر والشــعوذة والرياضات النفســية التي أصولها الاتّصــال بعالم الجن والشــياطين الكفرة، وهو الملكوت الســفلى التي هي الظل الظلماني لعالم الملك، الذي يقابل الملكوت العليا، التي هي الظل النوراني لهذا العالم، فتراهم غارقين في مقام إظهار سلطنتهم وإبراز تصرّفهم لفرط عشــقهم لأنانيتهم وكثرة التعلق بحيثية نفوســهم. فهم عباد أصنام النفــس وتابعو الجبــت والطاغوت، غافلون عــن رب العالمين، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين.»[503]

حــين تتكامل النفس تزداد قوّة وقدرة. والاقتــدار أكبر داع للفعل، فإن فقد الحكمة صــار عبثًا وظلمًا. وتعلّمنــا الحكمة أنّ الكثير من القضايا في حياتنا لا يمكن أن تحل من خلال العنف والشدة، بل من خلال التفاهم والتعاون والمسالمة والسير التدريجي. فمن اســتعمل العنف في غير محله أثبت على نفســه الجهل. ومثل هــذا الجاهل جدير بأن لا يتحلّى بالقوّة. فإذا منحه الله قدرة ما فذلك من أجل أن يخزيه ويخزي من يتبعه.

إنّ كل قــوّة يتمتّع بها الكافر في هذا العالم تهدف إلى إظهار وخامة الكفر والإعراض

عن الله تعالى. ولا يمكن للكافر أن يصل إلى أي هدف أو أن يتمكّن من السـيطرة على المؤمن. قال الله تعالى: {**وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَـبيلا**}،[504] فهل يمكن أن يبتلي الله بعض عباده المؤمنين بمنحهم قدرة تفوق حكمتهم؟

أجل، فإذا كانت النفس طالبة للقدرة والتعزّز، ولو بمسـتوى قليل، فسـوف يمدّ الله تعالى صاحبها بما تريد حتى يكشـف له وخامة طلب العزّة للنفس من غير سـبيل الله. وهكذا قد يقع بعض أهل السـلوك المعنويّ بمثل هذا الاختبار عسى أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله ولا يطلبوا القدرة إلا من أجل الحكمة.

مثل هذا الطلب يدل على بقاء شيء من الأنانية. وقد تقتضي التربية الإلهية أن يكون القضـاء على بقايا الأنانية من خـلال التأديب. وقد يقتضي التأديب بسـط الوجه ومد العبد، فيشطح ويدرك وخامة ما وصل إليه ويتوب.

أمّا طلاب القدرة من السـحر والشعوذة والجن والشياطين والرياضات، فلا يتورعون عن الإعلان عن رغبتهم في السيطرة والعلوّ والشـهرة. وهؤلاء لا ينفع بحقهم التأديب، لأنهـم لا يطلبون الله ولا يريدون الحكمة. فهـم عبرة لغيرهم، لا يسـقط في فخّهم إلا من كان مثلهم عبد الأنا وخادم الشهوة.

إنّ كل قـوّة يتمتّع بها الكافر في هذا العالم تهدف إلى إظهار وخامة الكفر والإعراض عن الله تعالى.

شواهد إضافية

* لقـد رأينا في بعـض أهل العرفـان الاصطلاحـيّ أشـخاصًا انتهت بهم هـذه الاصطلاحات والغور فيها إلى الضلالة، وجعلت قلوبهم منكوسـةً وبواطنهـم مظلمةً، وصار الاشـتغال بالمعـارف موجبًا لقـوّة أنانيّتهم وإنّيّتهـم حتـى صـدرت منهم الدّعاوى غـير اللائقة والشّـطحات غير المناسـبة. وكذلـك رأينـا في أصحاب الرّياضات والسّـلوك أفـرادًا أدّت رياضاتُهم واشـتغالُهم بتصفية النّفـس إلى جعل قلوبهم أكْدَر وباطنهم أظلـم؛ وكلّ ذلـك لم يكن إلا لأنّهـم لم يحافظوا على سـلوكهم المعنويّ الإلهـيّ ومهاجرتهم إلى الله، وكان سـلوكهم العلميّ وارتياضهم بتصرّف الشّـيطان والنّفس وإلى الشّيطان والنّفس. وكذلك رأينا في طلاب العلوم النّقلية الشرعية أفرادًا أثّر فيهم العِلم الأثرَ السّـيّئ وزاد في مفاسـدهم الأخلاقيـة. والعِلمُ الذي لا بدّ أنْ يكـون موجبًا لفَلاحهم ونجاتِهم، صار سـببًا لهلاكهم ودَعاهم إلى الجهل والمُماراة والاسـتطالة والختل.

وكذلك هناك في أهل العبادة والمناسك والمواظبين على الآداب والسُّنن أشخاصٌ جَعلت العبادة والنُّسُك - التي هي رأسمال إصلاح الأحوال والنفوس - قلوبَهم كدرةً ومظلمةً، وحَمَلتهم على العجب ورؤية النفس والكِبر والدلال والتّغمّز وسوء الخُلُق وسوء الظنّ بعباد الله، وهذا كلّه أيضًا من عدم المحافظة على هذه المراهم الإلهيّة.[505]

* وأنت يا من تدّعي المعرفة والانجذاب والسلوك والمحبّة والفناء، إذا كنت حقًّا من أهل الله ومن أصحاب القلوب، ومن ذوي السابقة الحسنى، فهنيئًا لك. ولكن كل هذه الشطحات وهذا التلوّن وتلك الادّعاءات اللامسؤولة التي تكشف عن حبّ الذات ووسوسة الشيطان، تتعارض مع المحبة والانجذاب «إنَّ أَوْلِيَائِي تَحْتَ قِبَابِي لاَ يَعْرِفُهُمْ غَيْرِي».[506] فأنت إذا كنت من أولياء الله المنجذبين إليه ومحبيه، فإنّ الله يعلم بذلك، فلا تظهر للناس مدى مقامك ومنزلتك بهذه الصورة، ولا تسعَ لتلفت قلوب عباد الله الضعيفة من وجهة خالقها إلى وجهة المخلوق ولا تغتصب بيت الله. واعلم أنّ عباد الله أعزاء وقلوبهم ثمينة ويجب أن تشتغل بمحبة

الله، فلا تتلاعب إلى هذا الحد ببيت الله ولا تتعرض لحرماته «فَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا» فإذا لم تكن صادقًا في دعواك، فأنت في زمرة أهل النفاق ومن ذوي الوجهين.[507]

✷ إنّ السفر الأوّل من الخلق إلى الحقّ المقيّد برفع الحجب التي يعبر عنها بجنبة يلي الخلقي، ورؤية جمال الحق بظهوره الفعلي، الذي هو في الحقيقة ظهور الذات في مراتب الأكوان. وبعبارة أخرى بانكشاف وجه الحقّ لديه. وآخر هذا السفر رؤية جميع الخلق مظاهر الحقّ وآياته.

والسفر الثاني من الحقّ المقيّد إلى الحقّ المطلق، حيث تضمحل الهوّيات الوجودية عنده، وتستهلك التعيّنات الخلقية بالكامل لديه، وتقوم قيامته الكبرى بظهور الوحدة التامّة، ويتجلّى له الحقّ بمقام وحدانيته، وعندها لا يرى الأشياء أصلًا، ويفنى عن ذاته وصفاته وأفعاله.

وفي هذين السفرين، لو بقي من الأنانية شيء، يظهر له شيطانه الذي بين جنبيه بالربوبية ويصدر منه الشطح. والشطحيات كلّها من بقاء الإنية والأنانية.[508]

41

لماذا يؤدّي
انشغالنا بما لا ينبغي
إلى إضعاف قوانا؟

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«ينبغي الالتفات إلى شـدّة إضرار اللغو والكلام القبيح على الروح، فهو يسـلب النفس الصـلاح والصفاء والسـلامة والوقار والطمأنينة والسـكينة، ويلوّثها بالجلافة والكدر والقسـوة والغفلة والإدبار عن ذكر الله، ويسـلب الرّوح حلاوة عبادة الله وذكره، ويضعف الإيمان ويوهنـه، ويميـت القلب، ويزيد مـن انحرافات وأخطاء الإنسـان، ويـورث الندم العميـق، ويثير الكدورات بين الأصدقـاء والعداوات بين الناس، ويبعث سـوء الظن في الناس تجاه الإنسان، ويسقطه من أعينهم، فتنعدم ثقتهم به وحينئذ لا يقيمون له وزنًا.»[509]

إنّ مـن أهم نتائـج معرفة النفس أو التوغّل في معرفتها والتوجّه إليها، هو أن يصبح الإنسـان شديد الحساسية تجاه كل ما يرديها ويمرضها. وقد أشار الإمام الخميني (قدّس سرّه)، وهـو العـارف بالنفوس، إلى خطـورة اللغو وضرره بصورة تبـدو للوهلة الأولى مبالغة شديدة. بيد أنّنا إذا تأمّلنا قليلًا في حقيقة النفس والواقع الذي تعيش فيه، ندرك حقانية هذا الكلام وصوابيته.

إنّ اللغو هو أي انشـغال بغير المطلوب، سـواء في القول أو العمل. فإذا كنّا في مقام المحادثة، وبدأنا نطلق الكلام العشوائي من دون أي فائدة أو ضرورة، فإنّ هذا هو اللغو. وإذا كنّا في مقام العمل، ولم نقم بالعمل المطلوب وانشـغلنا بما لا فائدة فيه، فهذا هو

من أهم نتائج معرفة النفس أو التوغّل في معرفتها والتوجّه إليها، هو أن يصبح الإنسان شديد الحساسية تجاه كل ما يرديها ويمرضها.

اللغو. وحين يصبح اللغو أمرًا عاديًا عند الإنسان، يكون قد تقدّم خطوة مهمّة نحو الخطأ. فمن لم يكن ملتفتًا إلى ما ينبغي أن يقول أو يفعل، يفقد الشعور بالحقّ والباطل والحسن والقبح. وهذه الغفلة هي مصطاد الشيطان الذي يوقع الإنسان بكل هذه المعاصي التي تسقطه من عين الله وأعين الناس.

شواهد إضافية

* يا حسرةً على مؤلّف هذه الرّسالة، فقد تشبّث بأغصان وأوراق الشجرة الخبيثة، وتدلى في بئر الطبيعة المظلمة، واقتنع من جميع المقامات المعنويّة ومـدارج الكمال الإنسانيّ، ببضع كلمات من الاصطلاحات العقيمة، وضيّع عمره العزيز في زوايا ومنعطفات المفاهيم الجوفاء التافهة، في حين أنّ أهل اليقظة قد هجروا العالم وكل ما فيه، وقطعوا طمعهم عنه فحقّقوا آمالهم، وفازوا بالحياة الإنسانيّة بل الحياة الإلهيّة، وتحرّروا من أغلال الطّبيعة وأسرها: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}. والمقصود هنا الفلاح المطلق ومن مراتبه النجاة من سجن الطبيعة. كما يُفهم من ذكره لأحد أوصافهم بأنّهم: {وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ}، والحياة الدنيا لغو ولهو {وَما الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ}. ولكنّنا نحن المساكين نلفّ حول أنفسنا باستمرار - وكما تفعل دودة القزّ - خيوط الآمال والأماني، والحرص والطمع، وحبّ الدنيا وزخرفها، فنهلك نفوسنا داخل هذا الحجاب.[510]

* وحيث إنّ الصمت عن الباطل واللغو، واجتناب الهذيان والهذر، يُعين الإنسان على التفكّر والاشتغال بباطنه وتطهيره من الرّجس، وتخليته وتصفيته، وبالتالي تقريبه من مبدأ الكمال الذي تعشقه الفطرة، وإزالة الأشواك من طريقه إليه، لذا فإنّه من لوازم الفطرة السليمة المخمرة إلهيًا ومن جنود العقل والرحمان.

وحيث إنّ الهذيان والهذر واللغو والكلام الباطل يُبعدُ الإنسان عن الكمال المطلق، ويقرّبه من عالم الطبيعة وأحكامها؛ فإنّ الفطرة السليمة تنفر منها، فهي سبب لاحتجاب هذه الفطرة عن مبدأ الكمال.

وإذا احتجبت النفس عن فطرتها الأصلية السليمة وتعلّقت بعالم الطبيعة وآماله الدنيئة، ظهر فيها الحبّ الكاذب واللغو الباطل، حبّ كاذب ولغو باطل، مثلما يظهر في المريض الاشتهاء الكاذب للطعام المضرّ له. فإذا خرجت النفس من هذه الحال من الاحتجاب؛ أدركت أنّ ما أحبّته من مظاهر الطبيعة في تلك الحال الاحتجابية هو أمرٌ تكرهه

الفطرة السليمة؛ وأنّ ما كانت تنفر منه - في تلك الحال من الاحتجاب - من ذكر الله والتفكّر والصمت والخلوة بالحقّ تعالى، هو أمرٌ تعشقه الفطرة السليمة. [511]

42

هل نستطيع تخطّي العوائق التي تقف أمام تفعيل قوانا بمفردنا؟

يقول الإمام الخميني قدّس سرّه:

«ولأنّ هــذه الحجب والظّلــمات والكدورات غالبــة على النفس متســلّطة عليها، ونادرًا ما يتّفق لأحد أن يخرق هذه الحجب بنفسه ويســير إلى عالمــه الأصليّ بفطرتــه الأولى فيصــل إلى الكمال المطلق والنور المطلق والجمال والجلال المطلقين، لذا فقد أرسل الحقّ تبارك وتعــالى - بلطفه الأزلي ورحمته الواســعة - الأنبيــاء العظام (عليهم الســلام) لتربية البشر، وأنزل الكتب الســماوية لتعينهم من الخارج في مــؤازرة الفطرة الداخلية لإنقاذ النفس من هذا الحجاب الغليظ. لذلك، وضعت الأحكام الســماوية والآيــات الإلهية الباهرة، ووصايا الأنبيــاء العظام والأولياء الكرام، على وفــق الفطرة وطريقة الجبلة الإنسانية».[512]

إنّ غلبة الظلمات على النفس يرجع بالدرجة الأولى إلى طبيعة البيئة الاجتماعية التي تتشــكل فيها النفس. فما دامت المجتمعات البشرية غارقة بالمادية ومتّجهة في مسارها العام نحو الدنيا والشهوات الطبيعيّة، ولا يتسابق أهلها على طريق الفضائل، فلا يُتوقّع أن تنشــأ النفوس إلّا على هــذا التوجّه الذي يحيطها بالظلام ويمنعهــا من إدراك النور الباهر لعوالم الملكوت والغيب.

وقد أرســل الله أنبياءه على مرّ التاريخ من أجل تغيير هذه المجتمعات نحو الصلاح

ولتمكين أهلها من إنجاب النفوس الطاهرة الميّالة إلى الخير والكمال، ولأجل إنقاذ الفطرة الإلهية من براثن التنشئة الشيطانية. وكانت أعظم الدعوات الإلهية والرسالات السماوية رسالة النبيّ الخاتم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله، حيث استطاع هذا النبيّ العظيم أن يشقّ طريقًا نورانيًا وسط ذلك الفضاء المظلم الذي سيطر على المجتمعات البشرية، ومن خلال تربية أهل بيته تمكّن من إبقاء هذا التيار الطاهر وسط بحار الجاهلية وتياراتها إلى يومنا هذا. ولهذا، فمن المتوقع أن ينشأ كل حين شخص يتميز بدرجة عالية من الطهارة ونقاء السريرة وصفاء الفطرة إلى الدرجة التي تمكنه من اختراق الحجب الظلمانية الحالكة وسط كل هذا الضجيج المتلف.

ما دامت المجتمعات البشرية غارقة بالمادية ومتّجهة في مسارها العام نحو الدنيا والشهوات الطبيعيّة، ولا يتسابق أهلها على طريق الفضائل، فلا يُتوقع أن تنشأ النفوس إلّا على هذا التوجّه الذي يحيطها بالظلام ويمنعها من إدراك النور الباهر لعوالم الملكوت والغيب.

كل ذلك ببركة الحركة الرسالية التي تأسّست قواعدها المتينة قبل ألف وأربعمئة سنة، لتكون لنا سفينة نجاة. بيد أنّ أكثر الناس قد لا يجدون الفرصة للاتّصال والوصول إلى هذه السفينة الهادية. ويجب على ركّابها الناجين أن يمدّوا لهم حبل النجاة من خلال تعريفهم على ربّانها الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

وباختصار، إن ظاهرة الوحي والنبوة في الحياة البشرية ستبقى القضية الأولى في عالم الهداية إلى النور وتخليص النفوس وبقاء الفطرة.

شواهد إضافية

* الإنسان موجود إذا لم يُضبط وتُرك هكذا لينشأ على رَسْله وكان كالأدغال المهملة ولم يخضع للتربية فإنّه كلما كبر بحسب العمر والسنوات وزاد مقامه بحسب المنصب فإنّ الجانب الروحيّ سيناله الضّعف وتقع المعنويات تحت سلطة الشيطان، الشيطان الكبير- وهو شيطان النفس. الشباب حديثو عهد بملكوت العالم ونفوسهم أنقى. وكلّما صعدوا إلى الأعلى - إذا لم يجاهدوا ولم يخضعوا للتربية - خطوا خطوة إلى الأعلى؛ وكلّما مضى من أعمارهم شيء فإنّهم يبتعدون عن الملكوت الأعلى ويزداد سواد أذهانهم أكثر. ولهذا فإنّ التربية يجب أن تكون من البداية. يجب أن يتربّى الإنسان من الطفولة. ثمّ في المراحل التالية يجب أن يكون تحت إشراف مربّين أينما كان. الإنسان محتاج إلى التربية إلى آخر عمره. الأنبياء أُرسلو من قبل الله تبارك وتعالى من أجل تربية البشر وصنع الإنسان. جميع الكتب السماوية - خصوصًا القرآن الكريم - كانت تسعى أن تربّي هذا الإنسان. لأنّ العالم يصلح بتربية الإنسان. الإنسان غير المربى مضرّ للمجتمعات بحيث أنّ ضرر أيّ شيطان وأي حيوان وأي موجود آخر لا يبلغ تلك الدرجة. والإنسان الذي رُبّي مفيد للمجتمعات لدرجة لا يمكن أن تصل إليها فائدة أي ملك أو أي موجود آخر. أساس العالم قائم على تربية الإنسان. الإنسان هو عصارة جميع الموجودات، وزبدة كلّ العالم. والأنبياء جاؤوا من أجل أن يحوّلوا هذه العصارة من القوّة إلى الفعل ولكي يصير الإنسان موجودًا إلهيًّا. هذا الموجود الإلهيّ فيه جميع صفات الحقّ تعالى وتجلّي النور المقدس لله تعالى.[513]

* جاء الأنبياء ليصلحوا الناس، ليزّكوا نفوس الناس ويطهّروها. هذا هو عمل الأنبياء وكذلك يجب أن يكون عمل الأمّهات بالنسبة لأطفالهن منذ نعومة أظفارهم حين يكون الأطفال في أحضان أمّهاتهم يمكن تربيتهم وتعليمهم الأخلاق الكريمة أفضل بكثير ممّا يستطيع الأستاذ أن يعلمهم. فالحب الكامن في الطفل تجاه أمه لا يضاهيه حب آخر، فما يسمعه الطفل أو يراه من أمه في طفولته يسكن قلبه ويرافقه طوال مسيرة

حياته، لذا يجب على الأمهات الانتباه إلى ذلك وأن يربوا أطفالهم خير تربية ولتكن أحضانهن خير مدرسة يتعلمون فيها العلم والإيمان. وهذه مهمة عظيمة تقع على عاتق الأمهات ولا أحد غيرهن يستطيع تحملها، إذ إنّ الطفل يتأثّر بوالدته أكثر بكثير من والده، وإذا كان ما تعلّمه من والدته خيراً فهي خير بداية له وإذا كان شرًا كان شر بداية أيضًا.[514]

* الله سبحانه وتعالى هو مربّي ومعلّم الأنبياء وقد أرسلهم لتربية وتعليم جميع الناس. كما بعث الأنبياء من أولي العزم لنفس هذه المهمّة، فلهم مقام المعلّم والمربي بالنسبة لكافة البشر. فبعد تربيتهم وتعليمهم الأحكام الإلهية أمروا بتربية وتعليم الناس كافّة. لقد جاء في القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة}.[515]

* الذي يسير بقدمه هو، فربما يقع في المهالك ويضيع عليه الطريق. وعلى الإنسان أن يجتهد في البحث عن الطبيب الحاذق لكي يعالجه، فإذا وجد الطبيب الكامل ولم يسلم له، وعمد إلى مناقشته في العلاج الذي وصفه له، وأراد معالجة نفسه بعقله هو؛ فإنّه يعرّضها بذلك للهلاك... ونحن مرضى وضالّون، فواجبنا أن نأخذ وصفات السير الملكوتي وعلاجات أمراضنا القلبية من هداة طريق الهدي وأطباء النفوس والأرواح، والعمل بها من دون إقحام أفكارنا الناقصة وآرائنا الضعيفة في الأمر، لكي نصل إلى المقصد وهو معرفة حقائق التوحيد. بل إنّ هذا التسليم للحضرة الإلهية القدسية هو بحدّ ذاته أحد العلاجات لأمراض الروح، وهو الذي يضفي على النفس الصفاء ويزيد نورانية الباطن. يقول تعالى في الآية 65 من سورة النساء: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا في أنفسهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْليما﴾. أجل، إنّ روح الإنسان لا تذوق طعم الإيمان إلّا بالتسليم لأحكام الله تعالى بدرجة لا يجد معها أي حرج في نفسه أو أذى في قلبه من القضاء الأهلي بل يستقبله برحابة صدر واستبشار.[516]

* نفس الطفل في بداية أمره كالصفحة البيضاء الخالية التي تتقبل أي نقش بيسر وسهولة، فإذا تقبّلته ونُقش فيها فإنّ إزالته لا تكون بيسر، لذا فإنّ من الملاحظة بالمعايشة أنّ المعلومات أو الأخلاق التي يكتسبها الأطفال في أيّام الصبا تبقى معهم إلى الكهولة، وقلّما يطرق النسيان معلومات زمن الطفولة. من هنا فقد ألقيت مسؤولية تربية الأطفال وترويضهم على عاتق الوالدين، فإذا تساهلوا أو تهاونوا فيها - في تلك المرحلة - فإنّ من المحتمل أن يتلبّس الطفل المسكين بأنواع الرذائل الكثيرة التي تقوده إلى الشقاء والبؤس الأبديّ...

وبعد هذه المرحلة، تأتي مرحلة أشكال التربية التي يقوم بها المعلّمون والمربّون من غير الوالدين، والأمر في بدايته في ذمّة الأب أيضًا فيما يرتبط بالإصلاح والإفساد فيها، لأنّ الأب هو المتكفّل لأمور الطفل؛ ولأنّ انتخاب المعلّم المتديّن ذي العقائد الصحيحة، والأخلاق الفاضلة؛ وكذلك انتخاب المدرسة المناسبة دينيًّا وأخلاقيًّا وتهذيبيًّا، مؤثّر بالكامل في التربية الأوليّة للطفل، وما أكثر ما يكون تحديد مصير سعادة الطفل أو شقائه ناشئًا من هذه المرحلة، فإيحاءات المعلّمين وما يلقونه للطفل هي إمّا أن تكون كالبلسم للأمراض أو كالسمّ القاتل، والأب هو المسؤول عن انتخاب المعلّمين والمدرسة.[517]

* هذا الذي ذكرناه هو في الأفعال الجزئيّة وبالنظر إلى مراتب الوجود؛ وإلّا فبحسب الفعل المطلق ليس لفعل الحقّ تعالى غاية سوى ذاته المقدّسة كما هو مبرهن في محلّه. وإذا نظرنا إلى الأفعال الجزئيّة، أيضًا، فغاية خلقة الإنسان عالَم الغيب المطلق، كما ورد في القدسيّات "يا بْنَ آدَم خَلَقْتُ الأَشْيَاءَ لِأَجْلِكَ وَخَلَقْتُكَ لِأَجْلي»، وفي القرآن الشّريف يخاطب موسى بن عمران على نبيّنا وآله وعليه السّلام ويقول {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسي}،[518] وأيضًا يقول: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ}.[519] فالإنسان مخلوق لأجل الله ومصنوع لذاته المقدّسة، وهو المصطفى والمختار من بين الموجودات؛ وغاية سيره الوصول إلى باب الله، والفناء في ذات الله، والعكوف بفناء الله؛ ومعادُه

إلى الله، ومن الله، وفي الله، وبالله؛ كما يقول سبحانه في القرآن: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ}،[520] وسائر الموجودات ترجع إلى الحقّ تعالى بواسطة الإنسان؛ بل مرجعها ومعادها إلى الإنسان، كما يقول في الزّيارة الجامعة المظهرة لنبذة من مقامات الولاية «وَإِيَابُ الخَلْقِ إِلَيْكُمْ، وَحِسَابُهُمْ عَلَيْكُمْ». ويقول: «بِكُمْ فَتَحَ اللهُ، وَبِكُمْ يَخْتِمُ».

وفي قول الله تعالى: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}،[521] وقوله عليه السّلام في الزيارة الجامعة «وَإِيَابُ الخَلْقِ إِلَيْكُمْ، وَحِسَابُهُمْ عَلَيْكُمْ» سرٌّ من أسرار التّوحيد، وإشارة إلى أنّ الرّجوع إلى الإنسان الكامل هو الرّجوع إلى الله؛ لأنّ الإنسان الكامل فانٍ مطلق، وباقٍ ببقاء الله، وليس له من عند نفسه تعيّن وإنّيّة وأنانية؛ بل هو نفسه من الأسماء الحسنى وهو الاسم الأعظم. كما أنّ الإشارة إلى هذا المعنى في القرآن والأحاديث الشّريفة كثيرة.[522]

- بالنّسبة للسّالك إلى الله الذي يسير من الظاهر إلى الباطن، ويترقّى من العلن إلى السّرّ، فلا بدّ له أنْ يجعل هذا التّوجّه الصّوريّ إلى مركز البركات الأرضيّة وترك الجهات المتشتّتة المتفرّقة وسيلة الحالات القلبيّة، ولا يقنع بالصورة الخالية من المعنى، ويصرف القلب الذي هو مركز توجّه حضرة الحقّ عن الجهات المتشتّتة المتفرّقة، التي هي الأصنام الحقيقيّة، ويتوجّه إلى القبلة الحقيقيّة التي هي أصل أصول بركات السّموات والأرض، ويرفع رسوم الغير والغيريّة، حتى يصل بدرجةٍ ما إلى سرّ وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض. ويحصل في قلبه أنموذجٌ من تجلّيات عالَم الغيب الأسمائيّ وبَوارقه، وتحترق الجهات المتشتّتة والكثرات المتفرّقة ببارقة إلهيّة، ويؤيده الحقّ تعالى، ويرمي الصنم الأصغر والصّنم الأعظم من باطن القلب بيد الولاية.[523]

- إنّ الرّسول الخاتم والوليّ المطلق الأكرم - الذي قَدِمَ من محضر القدس الرّبوبيّ ومحفل القرب والأنس الإلهيّ إلى منزل الغربة والوحشة، وابتُلي بمعاشرة أمثال أبي جهل ومن هو شرٌّ منه وأنينه لَيُغَانُ على قلبي قد أحرق

قلوب أهل المعرفة والولاية ولا يزال - هو الرّحمة الواسعة والكرامة الإلهيّة المطلقة، التي كان قدومُها إلى هذه الدّويرة لرحمة موجودات وسَكنة العالَم الأسفل، وإخراجهم من دار الغربة والوحشة هذه. فهو صلّى الله عليه وآله كالحمامة المطوّقة التي تلقي بنفسها إلى شباك البلاء لتنجي رفقاءها منه.[524]

* لعلّ في الشّهادة بالرّسالة أيضًا إشارة إلى أنّ مساعدة الوليّ المطلق والنبيّ الخاتم في هذا المعراج السّلوكي من المقامات الشّاملة التي لا بدّ للسّالك أنْ يتوجّه إليها من الأول إلى الآخر. ويتّضح كذلك سرّ الأوّلية والآخريّة الذي هو من مقامات الولاية لأهلها.[525]

* العبد السّالك لا بدّ أنْ يراقب نفسه لئلا يقصّر في طاعة الرّسول، التي هي طاعة الله، حتى لا يُحرَم من بركات العبادة، وهي الوصول إلى جناب القدس ومحلّ الأنس بمساعدة الوليّ المطلق. وليعلم أنّه لن يطأ المحفل المقدّس ومقرّ الأنس بدون إعانة وليّ النّعم والرّسول الأكرم صلّى الله عليه وآله.[526]

* إنّه يحدوني الأمل... أن يعودوا (حجاج بيت الله الحرام) إلى أوطانهم سالمين من أيّام الأنانية يحملون معهم زاد معرفة الحقّ وعشق المحبوب، وأن يجلبوا لأصدقائهم الهدايا الأبدية الباقية بدل الهدايا المادية الفانية وأن يلتحقوا بزملائهم عشاق الشهادة وهم يحملون القيم الإنسانية - الإسلامية التي من أجلها بُعث الأنبياء العظام من إبراهيم خليل الله إلى محمد حبيب الله (صلى الله عليهم وآلهم أجمعين). فإنّ هذه القيم والدوافع هي التي تحرّر الإنسان من أسر النفس الأمّارة بالسوء ومن الارتباط بالغرب والشرق وتوصله إلى شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية. وإذا ما أدرك المسلمون في العالم دافع الأنبياء عليهم السلام الذي تجلّى نوره في آخر كتاب يربّي الإنسان وهو القرآن الكريم. هذا الكتاب الذي جاء للهداية من مبدأ النور {الله نور السماوات والأرض} إلى مشكاة

القلب النوراني لخاتم الرسل صلى الله عليه وآله وسلم ليحرّر قلوب الناس من حجب الظلمة ويجعل العالم نورًا على نور، واتّصلوا بمحيط النور لا يمكن أن يقعوا في أسر الشيطان وأبناء الشيطان ولن يقبلوا الذلّ من أجل أوهام المنصب والرئاسة الخيالية ولن يؤيدوا معاهدة كمب ديفيد وأشباهها من أجل التقرب إلى الشيطان الأكبر. فانتبهوا يا من فصلتم أنفسكم عن القرآن والإسلام وعودوا إلى دينكم واستضيئوا بهذا النور المطلق حتى لا يطمع فيكم ناهبو العالم وتقطع عنكم أيادي التطاول والعدوان لتنالوا الحياة الشريفة والقيم الإنسانية وتتخلّصوا من هذه الحياة الذليلة... فتفضّل علينا يا ربّ بالصحوة واليقظة ونبّه حكام الدول الإسلامية ليحكموا المسلمين بالمعايير الإسلامية ويحطّموا الأصنام المشؤومة والطاغوت.[527]

43

كيف تؤثّر خياراتنا
في الحياة
على مصير قوانا؟

يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه:

«كل واحــدة من الصّفات الكماليّــة مخمّرة مع مضادّاتها في طينة الإنســان بالذات والعــرض، وهو مخيّر في نقل أي منهــما من القوّة إلى الفعــل، فإنّ فعلية كل من هذين المضادين هي مبدأ الســعادة والشقاء، والدخول في حزب الرحمان وجنود العقل أو حزب الشيطان وجنود الجهل. ولذلك قال عليه الســلام في الحديث الشريف: "فإن عصيــت بعد ذلــك أخرجتك وجندك من رحمتــي"؛ وإلا فلو لم يؤدِّ العصيان إلى فعلية بروز وظهور الملكات الرذيلة النفســانية لما أُبعد العاصي عن ســاحة الرحمة وحضرة القرب المفعــم بالعزّة، خلافًا لما لــو كانت المعصية تنقل الرذائل الفطريّة إلى مرتبة الظهور والفعليّة، وتبدّل صورة باطن الإنسان إلى صورة جنود الجهل، فحينئذ تبعد عن ساحة الرحمة، وربما أدّت إلى انطفاء نور الفطرة الإلهية بالكامل، وفي هذه الحال يكون العاصي قرينًا للشيطان، مخلّدًا في جهنّم، ومطرودًا من الرّحمة، ولذلك كان الانشغال بتهذيب النفس وتصفية الأخلاق - وهو في الحقيقة الخروج من ســلطة إبليس وحكومة الشيطان - من أعظم المهمات وأوجب الواجبات العقلية.»[528]

> **إذا وصل [الإنسان] إلى حالة التبعية لما أراده الحق تعالى وطاعته في جميع أوامره ونواهيه، فإنّه يكون قد بلغ إحدى مراتب (الإنسانية) الحقّة.**
>
> **الإمام الخميني**

إنّ المواجهة النهائية والموقف المصيري لن يكون بين أعمالنا والله، بل لن يكون بين ملكاتنا والله. وإنما بين إنيتنا والله. لهذا، فإنّ الذي يتطلّع إلى المصير، لن يهتم بشيء مثل اهتمامه بباطنه وجوهره. وإذا أولى لأي شيء من أعماله عناية فذلك لما له من تأثير على ملكاته وأخلاقه. وإذا اهتم بتهذيب نفسه أخلاقيًا، فذلك لما للأخلاق والأحوال من دور في جوهرة الباطن وصقله.

فلا ينبغي لأي سالك طريق التقوى والعمل الصالح أن يتساهل بمؤديات التقوى على صعيد صلاح النفس. ولا ينبغي لأي مجاهد سالك طريق التزكية أن يغفل عن باطن نفسه، الذي سرعان ما سيتجلى له فيما لو أراد أن يتبصّر. قال الله تعالى: {**فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُون * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُون**}.[529]

شواهد إضافية

* على كل إنســان أن يجاهد "حتى لا تكون فتنة" داخل نفســه وخارجها، فإذا حقّق هذا الجهاد النصر، صلحت الأمور كافة وصلُح الجميع.[530]

* ما دام الإنســان في منزل الحيوانيّة، يكون متماشــيًا مع سائر الحيوانات، ومن هذا المنزل يكون أمامه سبيلان لا بدّ أنْ يسلكهما بقدم الاختيار:

إحداهما: طريق السّعادة، وهي الصّراط المستقيم لربّ العالَمين، {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.[531]

والثّانية: طريق الشّقاوة وهو الطريق المعوّج للشيطان الرّجيم.

فإن جعل قواه وأعضاء مملكته في تصرّف ربّ العالمين وصار مربّى بتربيته يسلم القلب - وهو سلطان هذه المملكة - له. وإذا صار القلب مربوبًا لربّ العالمين، فتنقاد سائر جنوده له، وتصير المملكة كلّها مربوبة له. وفي هذا الوقت، يتمكّن لسانه الغيبيّ - وهو ظلّ القلب - أنْ يجيب ملائكة عالَم القبر حين تقول له: من ربّك؟ بأن: «الله جلّ جلاله ربّي». وحيث إنّ هذا الشخص قد أطاع رسول الله، واقتدى بأئمّة الهدى، وعمل بكتاب الله، فينطق لسانه بقوله: «محمد صلّى الله عليه وآله نبيّي، وعليّ وأولاده المعصومون أئمّتي والقرآن كتابي».

لكن إذا لم يصبح القلب إلهيًّا وربوبيًّا، ولم ينتقش نقش «لا إله إلّا الله، ومحمّد رسول الله، وعلي وليّ الله» على لوحه، ولم يصبح صورة باطنيّة للنّفس، ولم ينتسب إلى القرآن بالعمل به، والتفكّر، والتذكّر، والتّدبّر فيه، ولم يرتبط بالقرآن ارتباطًا روحيًّا ومعنويًّا، ففي سكرات الموت وشدائده، وفي حال الموت الذي هو الدّاهية العظمى، تنمحي جميع المعارف من خاطره.[532]

* على الإنسان ما دام في هذه الحياة الدنيا أن يعرف قدرها ويجتهد في اكتساب الملكات الفاضلة التي جُعلت أساس السعادة؛ ويتحمّل بكل عزم واستقامة كل رياضة من أجل استئصال الملكات الخبيثة من النفس والتحلي بأضدادها من جنود العقل والرحمان. كما لا ينبغي له أن يقنع بالتخلّي عن الأخلاق الفاسدة؛ لأنّ قطع جذور الفساد مقدّمة لإصلاح

النفس وتكميلها والغاية الأهم هي اكتساب الكمالات الروحية، فهي أصل السعادة الإنسانية ومقدمة الكمال التوحيدي التام، ومثلما أن التقوى ليست مطلوبة لذاتها، كذلك حال تخلية النفس من الملكات الخبيثة إذا نظرنا إلى المرتبة العملية للتقوى فالمراد من التقوى التطهر من الرجس وهذا مقدمة لتكميل العمل، وكذلك الحال مع التطهر من الملكات الخبيثة - وهو في واقعه مرتبة من مراتب التقوى بمعناها العام - فهو مقدمة لاكتساب الكمالات الروحية التي هي عبارة عن الملكات الفاضلة الحسنة؛ مثلما أنّ المرتبة الكاملة للتقوى وهي ترك ما سوى الحقّ والتنزه عن الشرك بكل معانيه؛ إنّما هي مقدمة لحصول التوحيد والانقطاع للحقّ تعالى، وهذا هو الهدف الأصلي من الخلق كما يشير إلى ذلك الحديث القدسي: "كنتُ كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقتُ الخلق لكي أعرف".[533]

* كم هم سعداء وفي منزلة سامية، أولئك الذين سعوا طوال حياتهم إلى تهذيب النفس والجهاد الأكبر، والتحقوا في نهاية حياتهم بكل فخر، بركب الشهداء على طريق الحقّ وفي سبيل تحقيق الأهداف الإلهية.[534]

* جاء الإسلام أساسًا لبناء الحياة، ونظره لبناء الإنسان. الجهاد من أجل الحياة؛ حياة الإنسان نفسه، وهو مقدّم على كل جهاد. لذا سمّاه الرسول الأكرم الجهاد الأكبر. فالجهاد عظيم إذًا ومشكل، وكل الفضائل تأتي بعده. الجهاد الأكبر هو جهاد الإنسان لنفسه الطاغوتية.[535]

* إذا لم يخضع الإنسان لربوبية وتربية الحقّ تعالى في هذا العالم، ولم يسلّم نفسه لها، ولم يسخّر قلبه وأعضاءه جميعًا للسلطنة الإلهيّة؛ ولم يطهّر نفسه من التأثيرات الشيطانيّة، فإنّه لن يكون مضمونًا أنّه سيكون قادرًا في عالم القبر والبرزخ على أن يقول: الله جلّ جلاله ربّي.[536]

* حين يكون الله عزّ وجل هو الحاكم على هذه الأمّة وهذه البلاد. يعني حين تكون الحكومة من ألفها إلى يائها حكومة إلهية ويكون جميع رجال

الدولة والمسؤولين، أشخاصًا إلهيّين، بعيدين كل البعد عن حبّ النفس والأنا والذات، لا يرون لأنفسهم ولا لذاتهم ولا لشخصهم أي فضل، لأنّ كل ما لديهم هو من عند الله سبحانه وتعالى، وما من شيء إلا من عنده، فإذا أصبح الإنسان إلهيًا وأدرك أنّ هؤلاء عباد الله عزّ وجل وأنّ عليه أن يعاملهم بما يرضي الله سبحانه وتعالى واستيقظنا من غفلتنا وفهمنا بأنّنا من الله وسنرجع إليه {إنا لله وإنا إليه راجعون}، وأدركنا معنى هاتين الكلمتين في حياتنا بأنّنا من الله والجميع منه عزّ وجل، ونحن لا شيء ولا نملك أي شيء وكل ما نملك منه وسنرجع إليه ونحاسب على أعمالنا، لو أدركنا هاتين الكلمتين وعملنا طبق أوامر الله عزّ وجل وكما يرضى الله من عباده، ودخلت هذه الكلمات الإلهية جميع أجهزة الدولة وجميع الأسواق الإسلامية وجميع أحياء وشوارع البلدان الإسلامية وفي كل مكان، في المصانع والمزارع والمدارس والوزارات ومجالس الشورى، وأذعنت لها النفوس وآمنت بها واعتقد بها الإنسان وآمن بها من صميم قلبه بأنّنا جميعًا من الله عزّ وجل وسنرجع إليه وأنّ جميع الكائنات من الله عزّ وجل وعلينا أن نتعامل معها وفق العدل الإلهي فجميعنا سنرجع إلى الله عزّ وجل، فإذا تعاملنا وفق العدل الإلهي، فإنّ الله سوف يدخلنا في رحمته الواسعة، وإذا لم نتعامل وفق ذلك فإنّ الله سوف يتعامل معنا وفق عدله، وعندها لن يستطيع أي شخص أن يفرّ من الحساب.[537]

* إذا تيسر لإنسان ما - بدافع إلهيّ - مُلك الجن والإنس، بل إذا حصل عليه، فهو عارف بالله وزاهد في الدنيا.. وإذا كان الدافع نفسانيًا وشيطانيًا، فكل ما حصل عليه حتى إذا كان سبحة فقد ابتعد بهذا المقدار عن الله تعالى.[538]

* عليكم ببناء أنفسكم، لكي تستطيعوا القيام بالأمر. وبناء النفس (وتهذيبها) يكون بأن تتّبعوا أحكام الله، وتطيعوه في كل ما أمر أو نهي دونما اعتراض، فإذا أصبح حالكم على هذا النحو وصلتم إلى إحدى المراتب التي ينبغي للإنسان الوصول اليها، أي: إذا وصل [الإنسان] إلى

حالة التبعية لما أراده الحقّ تعالى وطاعته في جميع أوامره ونواهيه، فإنّه يكون قد بلغ إحدى مراتب (الإنسانية) الحقّة.[539]

* اطلب التوفيق منه حتى يجذبك من نفسك ومن جميع من سواه، ويأذن لك بالدخول والتشرف بالحضور.[540]

* الذين طووا أيام عنفوان الشباب، وانطفأت نائرة الشهوات شيئا ما فيهم، فالمناسب لهم أن يجدّوا في الرياضات النفسانية أكثر ويدخلوا في السلوك والرياضة بفتوّة. فكلما عوّدوا النفس على الرياضات، فتح لهم باب آخر إلى أن تغلب النفس القوى الطبيعية وتصير القوى الطبيعية مسخّرة تحت كبرياء النفس.[541]

* إنّ هدفنا الأصلي من شرح الحديث الشّريف هو المشار إليه في قوله عليه السلام: "اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا"، من هنا يتّضح أنّ معرفة العقل والجهل وجنودهما مقدّمة للهداية، وهذه الهداية إمّا هي الهداية إلى كيفية تكامل النفس وتهذيبها وتصنيفها، وهي بالتالي مقدّمة للتكامل والتهذيب والتصفية العملية؛ وإمّا الهداية المطلقة وأصل أصولها الهداية إلى معرفة الله. ووجه كون معرفة الله نتيجة لمعرفة العقل والجهل وجنودهما هو أنّ تصفية النفس وتطهيرها وتحليتها وتكميلها لا تحصل إلّا بمعرفة مهلكاتها ومنجياتها وسبل التخلّي عن هذه والتحلي بتلك، وما لم تكتسب النفس الصفاء الباطني وتصل إلى الكمالات المتوسطة فلن تتأهل لكي تكون مظهرًا للأسماء والصفات والمعرفة الحقيقية، ولن تصل إلى كمال المعرفة.[542]

* على الإنسان أن يبادر لمعالجة نفسه من هذه المعصية الكبيرة والمهلكة [الغرور]، فيتفكّر في مظاهر الرّحمة الواسعة للحقّ تعالى وألطافه الخفيّة والجليّة. فإنّه تبارك وتعالى - قد خصّ الإنسان بألطاف ورحمات خاصّة، بل وميّزه بكرامات خاصّة حتّى في الرّحمات التي يشترك فيها مع سائر الحيوانات؛ بل ومع النّباتات أيضًا.[543]

* إنّ الفطرة الإنسانية إذا قبلت الحقّ استسلمت له تعالى. ولكن إذا غلّفتها الحجب، وغرقت في التوجّه إلى النفس وفي حبّها، وخضعت لتأثيرات الطبيعة؛ نفرت من الحقّ والحقيقة، وظهرت فيها الجلافة والقسوة، فاستكبرت وتمرّدت على طاعة الحقّ تعالى.[544]

44

ما هي عاقبة إهمال النفس وعدم الاعتناء بتفعيل طاقاتها؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«إنّ الإنســان إذا غفل عن نفسه، ولم يســعَ في إصلاحها وتزكيتها، وربّاها على اتّباع هواها، فإنّ حجبها ســتزداد كل ســاعة، ويظهر له خلــف كل حجاب حجــابٌ آخر بل حجب أخرى حتــى ينطفئ نور الفطــرة بالكامل ولا يبقــى فيها أثر من المحبــة الإلهية، بل وتصبح مبغضة للحقّ تعالى، ولكل ما يرتبط به، من القرآن الشريف وملائكة الله وأنبيائه العظام وأوليائه الكرام عليهم الســلام والدين الحقّ، بل وكل فضيلة، فتقوى جــذور العداوة للحقّ جلّ وعلا ومقرّبي حضرته المقدّســة في قلب صاحب هذه الفطرة، وتســدّ عليه بالكامل أبواب الســعادة وطريق الصلح مع الحقّ تعالى والشــفعاء عليهم السلام، فيخلد إلى أرض الطبيعة، وهــو الإخلاد الذي يظهر باطنه [حقيقته] في عــالم الآخرة بالخلــود في عذاب جهنّم. ولهــذا التضاعف في عدد الحجــب ســبب طبيعيّ هو عــدم وجود حدّ محــدود لطغيان تلك القوى الثلاث».[545]

لمــاذا يؤدّي عدم الاهتمام بتهذيب النفس إلى العداء مع الله وكل ما يمت إليه؟ وما هو أكثر شيء يمثل الله في الحياة الدنيا؟

غاية البعثة هي أن تحكم حكومة الله في قلوب البشر حتى تحكم في المجتمعات البشرية.
الإمام الخميني

لله في الحياة ممثلون أساسيون. ففي النفس الفطرة، وفي المجتمع الدين، وفي البشر الأنبياء والأولياء. ومن لم يرَ هذا التمثيل الإلهيّ فهو محجوب عن المعاني الجميلة في الحياة، ويصعب أن يتّجه صوب الجمال والكمال.

إنّ القضية الأولى في عالم اليوم تتمثّل في الصراع القيميّ؛ أي في تحديد القيم. ولهذا يسعى الغرب إلى فرض قيمه المتميزة المخالفة للإسلام، لأنّه يعلم أنّه إذا انتصر في هذه المعركة، فسوف يسقط الدين من أعين المسلمين وتختفي قداسته.

نحن مكلّفون بتزكية أنفسنا، فقد أتت البعثة من أجل التزكية. فلو لم تحدث التزكية فإنّ كل ما يحدث للنفس، وكل ما يأتي إلى النفس، فهو حجاب للإنسان.
الإمام الخميني

وإنّ المحور الأساسيّ لتحديد القيم هو عنصر الجمال. فإذا فقد الناس القدرة على إدراك الجمال وتمييزه عن القبح، يسهل إقناعهم بجمالية أي شيء قبيح!

فهل يوجد ما هو أجمل من الفطرة في وجودنا؟ وهل يوجد ما هو أجمل من الأولياء في الناس؟ وهل يوجد ما هو أجمل من الإسلام في أدبيات البشر؟

وحين يفقد الناس القدرة على رؤية هذا الجمال وتلمّسه، يسهل خداعهم وإغوائهم ليكونوا من أعداء الدين والأنبياء.

شواهد إضافية

* لقد كانت غاية البعثة تزكية النفوس وتزكية النفوس هي أن تنتهي الأنانية، وينتهي التكبر وحب الذات، وينتهي طلب الرئاسة، وينتهي حبّ الدنيا وطلبها، ويحل محل الجميع حبّ الله تبارك وتعالى. فغاية البعثة هي أن تحكم حكومة الله في قلوب البشر حتى تحكم في المجتمعات البشرية.[546]

* اسعَ في إصلاح نفسك ما دمت تحظى بنعمة الشباب، فإنّك ستخسر كل شيء في الشيخوخة، فمن مكائد الشيطان - ولعلها أخطر مكائده - التي سقط فيها أبوك ومازال - إلا إذا ادّاركته رحمة الحقّ تعالى- "الاستدراج" ففي أوائل الشباب يسعى شيطان الباطن - أشدّ أعداء الشاب - في ثنيه عن إصلاح نفسه ويمنّيه بسعة الوقت، وأنّ الآن هو آن التمتع بالشباب، ويستمر في خداعه بالوعود الفارغة ليصدّه عن فكرة الإصلاح تمامًا. وساعة بعد ساعة، ويومًا بعد يوم يتصرّم الشباب، ويرى الإنسان نفسه فجأة في مواجهة الهرم الذي كان يؤمّل فيه إصلاح نفسه، وإذا به ليس بمنأىً عن وساوس الشيطان أيضًا، إذ - يمنيه آنذاك بالتوبة في آخر العمر. لكنّه حينما يحُسُّ بالموت في آخر العمر، يصبح الله تعالى أبغض موجود إليه، لأنه يريد انتزاع الدنيا التي هي محبوبه المفضّل منه.[547]

* عليكم أيها الشبّان أن تشرعوا من الآن بهذا الجهاد، لا تدعوا قوى شبابكم تتبدّد، فكلما ذهبت قوى الشباب من الإنسان زادت جذور الأخلاق الفاسدة فيه وتعقّدت، وصعب الجهاد. والشاب يستطيع أن ينتصر في هذا الجهاد سريعًا، ولا يستطيع الشيخ بلوغ هذا النصر بسرعة. لا تدعوا إصلاح أحوالكم يتدحرج من الشباب إلى الشيخوخة، فمن مكايد النفس التي تكيدها لصاحبها هذا الأمر وهو ما يقترحه الشيطان على الإنسان أن دَع إصلاح نفسك إلى آخر العمر، وتمتّع بشبابك الآن، وتُبْ في آخر العمر. هذا طرحٌ شيطانيّ تقدّمه النفس بتعليم الشيطان الأكبر. فالإنسان يستطيع إصلاح نفسه ما دامت قوى شبابه وروحه اللطيفة في منأىً عن جذور الفساد. أمّا إذا ضربت جذور الفساد في نفسه واشتدّتْ، فلا إمكان

للإصلاح في ذلك الوقت.[548]

* ابذلوا جهودكم لبدء جهاد البناء من أنفسكم. أي: اشتغلوا بهذا العمل، ولا تهملوه إلى آخر عمركم، فهذا الإرجاء واحد من إغراءات الشيطان الكثيرة. الشيطان الداخليّ للإنسان هو أنني شاب حاليًا، وأنّني سأتوب إن شاء الله حين أصل إلى سنّ الكهولة. أنتم لا تعرفون أنّ التوبة لن تكون سهلة المراس في سنّ الكهولة. الشجرة التي تمّ غرسها حديثًا بالإمكان قلعها، حتى بإمكان الطفل فعل ذلك. وحين تنمو يكون بإمكان رجل بالغ أن يقلعها. وإن نمت أكثر من ذلك كانت بحاجة إلى آلة لقلعها. وحين تتجذّر وتشتدّ على ساقها... مثل هذه الشجرة لا يمكن قلعها بسهولة. إنّ جذور الأخلاق الفاسدة هي جذور الأعمال التي يقوم بها الإنسان، وتعود بعض جذورها إلى النفس، فهي سهلة في الأوّل. إن صدرت منه معصية لكان بإمكانه أن ينيب بسرعة، لكن إذا كثرت المعاصي استعصت التوبة منها، وكلما تقرّب من سن الكهولة أصبحت المعصية أقوى لأنّ إرادته لا تسعفه من الذنب الذي يتغلّب على عزمه، ويفقده طاقة المبادرة إلى الخلاص، فلا تؤخّروا التوبة إلى سنّ الكهولة. لا تقولوا: حين نكبر نتوب، لأنّ الإقلاع عن الذنب عسير في تلك السن. هكذا يوسوس الشيطان لكي يحرمنا الدخول إلى ذلك العالم ونحن نتحلّى بالإيمان.[549]

* على أصحاب الفضيلة وطلاب العلوم الدينية أن يضعوا نصب أعينهم التقوى، وتنزيه النفس، وجهاد النفس. إنّ من يجاهد نفسه يستطيع أن يحكم أمّة بكاملها.[550]

* بالإضافة إلى جهادنا في سبيل الإسلام يجب ألّا نغفل عن الجهاد الأكبر، جهاد النفس الذي هو مبدأ كل الأمور.[551]

* علينا ألّا نخدع أنفسنا. حاسبوا أنفسكم في خلواتكم فإنّ محاسبة النفس من الأمور الضرورية في السير الإنساني إلى الله - لا أدّعي فعل هذا فإنّي أدنى من الآخرين - وليحاسب الإنسان نفسه، أنت اليوم اختلفت مع

هذا السيد وأصبحتما مجموعتين، مجموعة تتبع هذا السيد، ومجموعة تتبع ذاك، فأين منبع الاختلاف؟ ألأجل الله؟ وهل هذا العيب الذي تحصيه عليه ليس فيك؟ أليس هذا التضخيم لعيوب الآخرين، والتستر لها وتصغيرها إذا ما كانت فيك، عملًا شيطانيًا؟[552]

* يبدأ الإسلام بتربية الإنسان قبل أن تنعقد نطفته بالزواج بين الأب والأم وهو يحثّ على اختيار أرض صالحة مطهرة وزوج سالم صحيح بصفات طيبة ثمّ يضع الآداب الأخرى لحين ولادته ويضع آداب الرضاع والتربية في حضن الأم وتحت رعاية الأب إلى سائر الأمور التي تأتي بعد ذلك. ليس هناك في أي قانون من قوانين البشر ما تكفل بهذه الأمور، وهي مختصة بقوانين الأنبياء التي تنظر إلى الأبعاد الأخرى من شخصية الإنسان ممّا لا تنظر إليها القوانين الأخرى أصلًا، فقد وضعت قواعد لتهذيب النفس لجعل الإنسان موجودًا إنسانيًا ربانيًا.[553]

* إنّ مراقبة النفس ومحاسبتها في تشخيص طريق إرادة النفس وإرادة الله هما من جملة منازل السالكين. فوفقنا الله واياكم فيها.[554]

* الآية الشريفة تشير إلى أنّ الاستغراق في طلب الدنيا هو الظلمات {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور}، وإصلاح النفس والإقبال على الله هو النور الذي تقابله ظلمات كثيرة ابتلي الإنسان بها، منها ما اشتدّت داخله، وسوّدت باطنه، ومنها ما لفّت المجتمع المحيط به. وحين ينجو الإنسان من حلكة الظلمات يفوز بالنور الواحد، ويعود الجميع إلى مبدإ واحد يجب أن يعودوا إليه. جاء الرسل لنجاة هؤلاء الذين غرقوا في الظلمات، فهم لا يرون إلّا أنفسهم، ولا يريدون شيئًا إلا لأنفسهم، ولا يعيرون الآخرين أهمية وقيمة، وكل ما هو موجود يريدونه لأنفسهم، جاءوا لنجاة هؤلاء من ظاهرة الأنانية وحبّ النفس التي هي منشأ جميع الظلمات وإيصالهم إلى الإيمان بالله الذي هو النور. والذين وصلوا إلى مقام الإيمان بالله الذي هو مرتبة من الكمالات، لا يفكّرون

مثل ما نفكّر نحن. فهؤلاء يفكّرون بغيرهم قبل أن يفكّروا بأنفسهم، إنّ الرسول الأكرم كان يعزّ عليه ويغتم للكافرين الذين لم يسلموا ولم يصبحوا مؤمنين. وقد جاء في الآية الكريمة: {لعلك باخع نفسك ألّا يكونوا مؤمنين}. كان الرسول يريد لجميع العالم التوصّل إلى النور، فقد بُعث لكي ينهي جميع هذا الصخب الموجود في الدنيا، ويزرع في نفوس الناس بذر الإيمان بالله والتوجّه نحو النور الذي إذا بلغه الناس حُلّت نزاعاتهم، وسادهم الوئام والسلام.[555]

* عليكم أن تصنعوا أنفسكم أوّلًا، لتصنعوا شعبكم ثانيًا. صناعة النفس بتمام أبعادها الإنسانية، وهذا ما جاء الأنبياء لتربيته، فارتقوا به، فالجانب العلميّ بكل أبعاد العلم، والجانب الأخلاقي بكل أبعاد الأخلاق من تهذيب النفس وتقواها من زخارف الدنيا، فمنشأ كل كمال هو تقوى النفس، وشقاء كل إنسان في تعلّقه بالماديات، وتعلّق النفس بالماديات يُخرج الإنسان من موكب البشر، والنجاة من جواذب المادّة والتفاته إلى الله - تبارك وتعالى - يرفعانه إلى مقام الإنسانية، ولهاتين الغايتين جاء الأنبياء لإخراج الناس من التعلّقات، وللتمسّك بمقام الربوبيّة.[556]

* إنّ الإنسان ممتاز من سائر الموجودات باللطيفة الربّانيّة والفطرة الإلهيّة - فطْرَةَ الله التي فَطَرَ الناسَ عَليها - وهذه بوجه هي الأمانة المشار إليها في الكتاب العزيز الالهي: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماوات وَالْأَرْض وَالْجبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْملْنَها وَأَشْفَقْنَ منْها وَحَمَلَهَا الْإنْسانُ إنَّهُ كانَ ظَلُومًا جَهُولًا}. وهذه الفطرة هي فطرة توحيد الله في المقامات الثلاثة، بل رفض التعّينات وإرجاع الكلّ إليه وإسقاط الإضافات حتى الأسمائية وإفناء الجُلّ لديه. ومَنْ لم يصل إلى هذا المقام، فهو خارج عن فطرة الله وخائن في أمانة الله، وجاهل بمقام الإنسانية والربوبية، وظالم لنفسه والحضرة الإلهيّة. ومعلوم عند أصحاب القلوب من أهل السابقة الحُسنى، أنّ حصول هذه المنزلة الرفيعة والدرجة العَلية، لا يمكن إلّا بالرياضات الروحية والعقلية والخواطر القُدسية القلبية بعد

طهارة النفس من أرجاس عالم الطبيعة وتزكيتها، فإنّ هذا مقام {لا يمسّه إلّا المطهرون}. وصرف الهمّ إلى المعارف الإلهية، وقَصْر الطرْف على الآيات والأسماء الربوبية عقيب صيرورته إنسانًا شرعيًّا بعد ما كان إنسانًا بشريًّا بل طبيعيًّا.[557]

* إنّ مدرسة الإسلام، مدرسة مادية معنويّة وإنّما يقبل الإسلام المادية في ظلّ المعنويات والأخلاق وتهذيب النفس. لقد جاء الإسلام لتهذيب الإنسان وتربيته. إنّ جميع المدارس التوحيدية جاءت لتربية الإنسان.. إنّنا مكلفون بتربية الإنسان.. أنتنّ أيتها السيدات اللاتي تحملتن المشقّة وجئتنّ إلى هنا، إنّكن مكلّفات بتربية الإنسان، مكلّفات بإعداد الإنسان المهذّب في أحضانكن.[558]

* أنتم الآن مهيّأون أيّها الشباب لمجاهدة النفس وبنائها، وهذا الجهاد هو الجهاد الأكبر، لأنّه مبذول في بناء أنفسكم وهو مفيد لبلادكم، فكونوا خدّامها، ويجب أن تبدأوا من هذه السنين بصناعة رجال ينقذون البلاد بكمالهم. إذا صنعتم أنفسكم هكذا، وجذّرتم الفضائل الإنسانية فيها، فإنّكم منتصرون في ذلك الوقت في كل المراحل، وتستطيعون أن تنقذوا بلادكم، وأولئك الذين قادوا بلادنا إلى البَوار ارتكبوا ذلك لأنّ بناء أنفسهم كان مُتداعيًا، فقد كانوا ذوي أخلاق فاسدة وعقائد فاسدة وأعمال فاسدة. ولو كانوا قد طهّروا أنفسهم، لَما خانوا الشعب ولا الإسلام.559

* نحن مكلّفون بتزكية أنفسنا، فقد أتت البعثة من أجل التزكية. فلو لم تحدث التزكية فإنّ كل ما يحدث للنفس، وكل ما يأتي إلى النفس، فهو حجاب للإنسان. كلنا مكلّفون بتزكية أنفسنا حتى نستطيع أن نستفيد من النور الإلهيّ ونور القرآن. ولكن هذه التزكية أكثر ضرورة لرجال الدولة وللطبقات العليا من أمثالنا. إذا لم نزكّ أنفسنا، فإننا نجر حدًّا محدودًا من الفساد أو نجر أنفسنا إلى الفساد وإذا لم يزكِّ أولئك أنفسهم ولم يضعوا الأنانية جانبًا، فإنّه من الممكن أن يجرّوا بلدًا، بل بلادًا إلى الفساد.[560]

* إنّ العلـم مـع تهذيـب النفـس هو الـذي يوصـل الإنسـان إلى مقام الإنسانية.[561]

* إذا كان تهذيب النفس موجودًا فلن يخاف أحد الحرب ولا يأبى بالسـلام ولا يخاف شـيئًا. ولكن حين لا يوجد تهذيب النفس فإنّه سـيقول: إذا لم نقاتـل فقد يباغتنا الطرف الثاني. إنّ نيران الحروب المشـتعلة في المنطقة كلّهـا تأتي من هذا المنطلق، فهي تأتي بأمـر النفس، فالنفس الأمّارة هي التي تدفع البعض إلى الهجوم على بلد وهي التي تحرق منطقة بأكملها. فالإنسـان يحترق بمـا صنعته له النفس الشـيطانية في هـذا العالم قبل الآخرة.[562]

45

كيف ننجح في الصراع بين ملكاتنا الخيّرة وملكاتنا السيّئة؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«اعلم أنّ الإنسان كائنٌ عجيب، له نشأتان وعالمان: نشأة ظاهرية ملكية دنيوية هي بدنه، ونشأة باطنية غيبية ملكوتية تكون من عالم آخر، إنّ لروح الإنسان التي هي من عالم الغيب والملكوت مقامات ودرجات قسّموها بصورة عامّة إلى سبعة أقسام حينًا، وإلى أربعة أقسام حينًا آخر، وإلى ثلاثة أقسام حينًا، وإلى قسمين حينًا آخر. ولكلٍّ من المقامات والدرجات جنود رحمانية وعقلانية تجذب النفس نحو الملكوت الأعلى وتدعوها للسعادة. وجنود شيطانية وجهلانية تجذب النفس نحو الملكوت السفلي وتدعوها للشقاء. وهناك دائمًا جدال ونزاع بين هذين المعسكرين، والإنسان هو ساحة حربهما، فإذا تغلّبت جنود الرّحمن كان الإنسان من أهل السعادة والرحمة وانخرط في سلك الملائكة وحُشِرَ في زمرة الأنبياء والأولياء والصالحين.

وأما إذا تغلّب جند الشيطان ومعسكر الجهل، كان الإنسان من أهل الشقاء والغضب (مغضوب لله سبحانه)، وحُشِرَ في زمرة الشياطين والكفار والمحرومين.

أ. مقام الظاهر

اعلم أنّ مقام النفس الأوّل ومنزلها الأدنى والأسفل، هو منزل الملك والظاهر وعالمهما. وفي هذا المقام تتألّق الأشعة والأنوار الغيبية

في هذا الجســد الماديّ والهيكل الظاهريّ، وتمنحــه الحياة العرضية، وتجهــز فيه الجيوش، فتكون ســاحة معركة النفــس وجهادها نفس هذا الجســد، وجنودها هي قواها الظاهرية التي وُجدت في الأقاليم المُلكيّة الســبعة وهي: «الأذن والعين واللسان والبطن والفرج واليد والرجل». وتكون جميع هذه القوى المتوزّعة في تلك الأقاليم السبعة، تحــت تصرّف النفس في مقام الوهم، فالوهم ســلطان جميع القوى الظاهرية والباطنية للنفس، فإذا تحكّم الوهم على تلك القوى سواء بذاته - مستقلًّا - وبتدخل الشيطان، جعلها - أي تلك القوى - جنودًا للشيطان، بذلك يجعل هذه المملكة تحت سلطان الشيطان، وتنهزم عندها جنود الرحمن والعقل، وتتوارى وتخرج من نشأة الملك وعالم الإنسان وتهاجر عنه، وتصبح هذه المملكة خاصّة بالشيطان. وأمّا إذا خضع الوهم لحكم العقل والشرع، وكانت حركاته وســكناته مقيّدة بنظــام العقل والشرع، فقد أصبحت هــذه المملكة مملكة روحانية وعقلانية، ولم يجد الشيطان وجنوده محط قدم لهم فيها.

إذًا، يكــون جهاد النفس في هذا المقام، عبارة عن انتصار الإنســان على قواه الظاهرية، وجعلها مؤتمرة بأمر الخالق، وعن تطهير المملكة من دنس وجود قوى الشيطان وجنوده.

ب. مقام الباطن

اعلــم أنّ للنفس الإنســانية مملكــة ومقامًا آخر، وهــي مملكتها الباطنيــة ونشــأتها الملكوتية، وفيها تكون جنــود النفس أكثر وأهم ممّا في مملكــة الظاهر، والصراع والنزاع فيها بــين الجنود الرحمانية والشــيطانية أعظم والغلبة والانتصار فيها أشد وأهم، بل وإنّ كل ما في مملكة الظاهر قد تنزّل من هناك وتظهر في عالم المُلك. وإذا تغلّب

أي من الجند الرّحماني أو الشـيطانيّ في تلك المملكة، يتغلّب أيضًا في هذه المملكة. وجهاد النفس في هذا المقام مهم للغاية عند المشـايخ العظام من أهل السلوك والأخلاق، بل ويمكن اعتبار هذا المقام منبع جميع السعادات والتعاسات، والدرجات والدركات.

ويجـب على الإنسـان الالتفات كثيرًا إلى نفسـه في هـذا الجهاد. فمن الممكن لا سـمح الله أن تسفر هزيمة الجنود الرحمانية في تلك المملكـة وتركها خالية للغاصبين والمحتلين من جنود الشـيطان، عن الهلاك الدائم للإنسـان بالصورة التي يسـتحيل معها تلافي الخسارة ولا تشمله شفاعة الشـافعين، وينظر إليه أرحم الراحمين أيضًا بعين الغضـب والسـخط - نعـوذ بالله مـن ذلك - بل ويصبح شـفعاؤه خصماءه، وويل لمن كان شفيعه خصمه.

ويعلم الله أيّ عذابٍ وظلمات وشدائد وتعاسات تلي هذا الغضب الإلهـيّ. وتعقب معاداة أولياء الله حيث تكون كل نيران جهنّم وكلّ الزقـوم والأفاعي والعقارب لا شيء أمام هزيمـة جنود الرحمان من قِبَلِ جنود الشيطان... فما قالوه بشأن جنّة الأخلاق والملكات، وجهنّم الأخلاق والدّركات، مصيبة لا يطيق العقل حتى سماعها.

إذًا، فيـا أيّها العزيـز؛ فكِّر، وابحث عن العلاج، واعثر على سـبيل نجاتك ووسـيلة خلاصك، واستعن بالله أرحم الراحمين، واطلب من الـذات المقدس، في الليـالي المظلمة، بتضرّع وخضـوع أن يعينك في هـذا الجهاد المقـدّس مع النفس، لكي تتغلّب إن شـاء الله، وتجعل مملكة وجودك رحمانية، وتطرد منها جنود الشـيطان، وتسلّم الدار إلى صاحبها حتى يفيض الله عليك بالسـعادة والبهجة والرحمة التي يهون إلى جانبها كلّ ما سـمعت عن وصف الجنة والحور والقصور،

وتلك هي السلطة الإلهيّة العامّة التي أخبر عنها أولياء الله من هذه الأمّة الحنيفة، ممّا لم يطرق سمع أحد ولم يخطر على قلب بشر».[563]

قد سبق الكلام في معنى النشآت حيث تبيّن أنها تجلّيات لحقيقة واحدة بحسب العوالم المختلفة. فالنفس أمرٌ واحدٌ بسيط غير مركّب تظهر لنا في تفاعلها مع مراتب الوجود بمقامات كثيرة، لأنّ هذه المراتب كثيرة جدًّا. ولأجل أن نستوعب هذا التراتب، قسّموا المراتب إلى مرتبتين هما الظاهر والباطن أو الشهادة والغيب، وقصدوا بالشهادة ما تدركه الحواس، وبالغيب ما لا تدركه هذه الحواس الظاهرة. حتى إذا آمنّا بوجود حقيقة ما وراء الحس، ذكروا لنا أنّ مراتب الغيب ثلاثة كلّية هي الملكوت والجبروت واللاهوت، حيث أنّ لكلٍّ منها خصائص بحسب قربها من حقيقة الوحدة والجوهر الخالي من أي تكثّر. وحيث إنّ للإنسان مرتبة الجامعية، فإنّ لنفسه قدرة التفاعل مع جميع هذه المراتب الوجودية، بمعنى قدرته على الإحاطة بها وصيرورتها أحد سكانها وقاطنيها وأهلها.

وما يساعدنا على فهم هذه الحقائق التي لها تأثير كبير على حياتنا ومصيرنا هو وجود عناصر عاملة في كل من هذه المراتب. واشتهرت الملائكة في عالم الملكوت لأنّها أعظم تجلياته. فهذه وسيلة تعليمية إلهية، لأنّ خلق العوالم يهدف بالدرجة الأساسية إلى تعليم الإنسان. (لاحظ الاشتقاق اللغوي بين العالم والعلم). فهي عوالم العلم لكونها دالّة على الله تعالى. وحين نتعرّف على سكّان كل عالم، نكون قد تعرّفنا إلى أفضل وأبرز ما فيه. إنّ سكان أي عالم هم المظهر الأتم وهم النتاج الأبرز فيه. السكان هم مواليد العالم. والملائكة هم مواليد عالم الملكوت وعمّاله. وهكذا، فلعالم الجبروت سكّان أو نوع خاصّ من الملائكة التي تحكي أفضل حكاية عن خصائصه وصفاته. إلى أن يصل الأمر إلى مقام عند الله.

أمّا دور عمّال العوالم وسكّانها فهو جذب الغير إلى عالمهم، لأنّ مهمّتهم الأولى هي عمارته. وهم بحاجة إلى القوّة لتحقيق هذا الهدف. لهذا، فإنّ الملائكة تعمل ليل نهار على عمارة عالمها بالإنس الذين يمكنهم أن يرتقوا إليه. ولأنّ الملائكة هم أهل الخير

والطهـارة، فإن دعوتهم هي الدعوة إلى الطهارة والصـلاح. فمن اتّصف بكمال الطهارة صار من الملكوتيين.

أمّا الملكوت السـفلي وهو الصورة القبيحة الناقصة لعالم الطبيعة، فسكّانه الأصليون هـم الشـياطين الذيـن يسـعون لعمارة عالمهـم بكل إنس. ودعوتهـم هي الدعوة إلى الفساد والشرّ والقذارة والخباثة. وحين يصبح الإنـسي منهم، فإنّه يصبح شـيطانًا داعيًا إلى عالمهم.

التوجّه إلى الحقّ تعالى والإقبال عليه والإعراض عن الأهواء النفسانيّة هو سبيل إصلاح جميع المفاسد: ﴿ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نفسك﴾.
الإمام الخميني

يقف الإنسان وسط هذه الدعوات حرًا مختارًا قادرًا على تحديد وجهته والاستعانة بمن شـاء مـن جنود وعمّال. ولا شـك بأنّ هذه الدعوات ستشـكّل أساس الصراع في نفسـه، وعليه أن يخوض جهادًا مريرًا إن هو أراد أن يكون من أهل الملكوت والجنة.

وقـد تحـدّث الإمام عن هذا الصراع الذي سـمّاه رسـول الله بالجهـاد الأكبر وذكر مجموعة من الشروط الأساسـية التـي ترتبط بعالم المثال والصفات الذي تتشـكل فيه الملكات النفسية وتؤثّر تأثيرًا كبيرًا على باطن النفس ونشأتها الغيبية.

شواهد إضافية

* اعلم أنّ الإنسـان مادام في عالَـم الطّبيعة ومنزل المـادّة الهيولانيّة فهو تحت تأثير الجنود الإلهيّة والجنود الإبليسيّة. والجنود الإلهيّة هي جنود الرّحمة والسّلامة والسّـعادة والنّور والطّهارة والكمال. وجنود إبليس في مقابلها. وحيث إنّ الجهات الربوبيّة غالبةٌ على الجهات الإبليسيّة، ففطرة الإنسـان في البداية تكون نورًا وسلامةً وسـعادةً وفطرةً إلهيّةً؛ كما صرّح بذلك في الأحاديث الشّريفة وأشـير إليـه في الكتاب الإلهيّ الشّريف. وما دام الإنسـان في هـذا العالَم، فهو قـادرٌ على أنْ يجعلَ نفسَـه باختياره تحت تـصرّف أحد هذين الجنديين. فإذا لم يكن لإبليس من أوّل الفطرة إلى آخرها تصرّف في فطرته، فهو إنسـانٌ إلهيٌّ لاهوتيٌّ، وهو من قرنه إلى قدمه نورٌ وطهارةٌ وسعادةٌ. فقلبه نور الحقّ ولا يتوجّه لغير الحقّ، وقواه الباطنيّة والظّاهريّة نورانيّة وطاهرة، ولا يتصرّف فيها سوى الحقّ، وليس لإبليـس فيها حظٌ ولا لجنوده فيهـا تصرّف. ومثل هذا الموجود الشّريف طاهـرٌ مطلقًا ونورٌ خالـصٌ، وما تقدّم من ذنبه وما تأخّر فهو مغفورٌ له، وهو صاحب الفتح المطلق والواجد لمقام العصمة الكبرى بالأصالة، وبقيّة المعصومين واجدون لذاك المقام تبعًا لذاته المقدّسـة. وهو صاحب مقام الخاتميّـة الذي هو الكـمال على الإطلاق، وحيث إنّ أوصياءه مشـتقّون مـن طينته ومتّصلون بفطرته، فهم أصحاب العصمة المطلقة بتبعه ولهم التّبعيّة الكاملة. وأمّا بعض المعصومين من الأنبياء والأوّلياء عليهم السّلام فليسوا أصحاب العصمة المطلقة، ولم يكونوا خالين من تصرّف الشّيطان. كـما أنّ توجّه آدم عليه السّـلام إلى الشّـجرة كان مـن تصرّفات إبليس الكبير إبليس الأبالسـة، مع أنّ تلك الشّجرة شجرة جنّة إلهيّة؛ ومع ذلك فلها الكثرة الأسـمائيّة التي تنافي مقـام الآدمية الكاملة؛ وهذا أحد معاني الشّجرة المنهيّ عنها أو إحدى مراتبها.

وإذا تلوّث نور الفطرة بالقذارات الصّوريّة والمعنويّة، فبمقدار التّلوّث يبعد عن بساط القرب ويهجر حضرة الأنس؛ حتّى يصل إلى مقامٍ ينطفئ فيه نور الفطرة بشكل تامّ، وتصير المملكة شيطانيّةً كلّها، ويكون ظاهرها

وباطنها وسرّها وعلنها في تصرّف الشّيطان. فيكون الشّيطان قلبه وسمعه وبصره ويده ورجله، وتكون جميع أعضائه شيطانية. وإذا وصل أحدٌ - والعياذ بالله - إلى هذا المقام، فهو الشّقّي المطلق ولا يرى وجه السّعادة أبدًا. وبين هاتين المرتبتين مقامات ومراتب لا يحصيها إلّا الله. وكل من يكون إلى أفق النّبوّة أقرب فهو من أصحاب اليمين، وكلّ من كان إلى أفق الشّيطنة أقرب فهو من أصحاب الشمال.

وينبغي أنْ تعلمَ أنّ تطهير الفطرة بعد تلوّثها أمرٌ ممكن. وما دام الإنسان في هذه النّشأة فإنّ التّحرّر من تصرّف الشّيطان أمرٌ مقدورٌ له وميسّرٌ، وكذلك الدّخول في حزب ملائكة الله الذين هم جنودٌ رحمانيّون إلهيّون. إنّ حقيقة جهاد النفس الذي هو بقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أفضل من مجاهدة أعداء الله، وهو الجهاد الأكبر، هو الخروج من تحت سلطة جنود إبليس والدخول في تصرّف جنود الله.[564]

* إذا خصّص [الإنسان] عدّة دقائق في اليوم والليلة، بحسب إقبال قلبه وتوجّهه، أي بحسب مقدار حضور قلبه لمحاسبة النفس على مقدار سعيها في اكتساب نور الإيمان، ومطالبتها بهذا النور والبحث عن آثار الإيمان فيها، فإنّ ذلك سيؤثر في حصوله على النتائج بصورة أسرع إن شاء الله.[565]

* اعلم أنّ آدم الأوّل وإبليس هما حقيقتا العقل والجهل، ولكل منهما ذرية ومظاهر في عالم الدنيا، ويمكن التمييز بين هاتين الطائفتين في هذا العالم أيضًا بالاستفادة من المعايير القرآنية، وهي الميزان الأكبر، ومن المعايير الحديثة وهي الموازين الصغرى، وذلك على النحو التالي: أن يعرض الإنسان نفسه على القرآن الكريم بخصوص ما ذكره من قصة آدم وإبليس، ويطبق على نفسه الآيات الشريفة المتحدثة عن آدم عليه السلام من بدء خلقه إلى انتهاء سلوكه وكل ذلك مذكور في القرآن الشريف، ويفعل الأمر نفسه مع الآيات المتحدثة عن إبليس منذ أن كان في عالم السماوات إلى أن أبعد عنها، فيطبقها أيضًا على نفسه ليعرف من

أيّ الحزبين هو؟ والثمرة الكبرى لهذا التطبيق - وهو من آداب القراءة وقد ذكرناه في رسالة "آداب الصلاة" - هي أن يتمكن الإنسان من تغيير نشأته فيحوّل المظهريّة الإبليسية إلى المظهرية الآدمية، لأنّ الإنسان ما دام في عالم الطبيعة - وهي دار التغيّر والتحول ونشأة التصرّم والهيولوية، وهو قادر على استبدال نقصه بالكمالات، ورذائله بالخصال الحميدة. وسيئاته بالحسنات، مستعينًا بالقوّة المنفعلة التي وهبها الله تعالى له، وبما بيّنه الله له من خصائص طريقي السعادة والشقاء.[566]

* بعد انقضاء هذه المرحلة [الطفولة]، تأتي تدريجيًّا مرحلة الرّشد والبلوغ وظهور حال الاستقلال الفكريّ وأيّام الشباب، فيصبح الإنسان فيها هو المتكفّل بأمر سعادته أو الجالب على نفسه الشّقاء والبؤس، والحصول على السعادة أيسر وأسهل، واستقرارها أوكد كلّما كان العهد أقرب من أيّام الحداثة والشباب، لأنّ صفحة النفس تكون فيها أخلى من النقوش وأقرب إلى البساطة وعدم التعقيد، بل إذا كان الإنسان قد اكتسب إلى حينها أخلاقًا سيّئة أو عادات وأعمالًا قبيحة فإنّها لم تترسّخ في نفسه بعد، فيمكن التخلّي عنها واستئصال جذورها بشيء، من المراقبة والعمل، مثلما أنّ النبتة الفتيّة التي لم تترسّخ جذورها في أعماق الأرض بعد، يمكن قلعها بقليل من الجهد؛ ولكن إذا تهاون الإنسان مدّة ولم يبادر للإصلاح وقلع جذور الفساد من نفسه؛ ترسّخت جذور شجرته في نفسه، واستقوت ونمت في أعماق قلبه، ونفذت فيه بقوّة فيصبح قلعها وتصفية القلب منها أمر قلّ من يوفّق إليه حتى مع الرياضات والمجاهدات الكثيرة وعلى مدى مدّة مديدة، بل ولعلّ العمر لا يتّسع لذلك، والأجل لا يمهل الإنسان ولا يتيح له الفرصة اللازمة للقيام بإصلاح نفسه. أجل إنّ الشجرة الكبيرة التي ترسّخت جذورها في الأرض لا يتيسّر قلعها حتّى مع تحمّل المشاق المضنية والمتاعب الكثيرة...

إذًا، فمن الواجب والضروري للشباب أن يبادروا لتصفية نفوسهم وتزكيتها ما دامت فرصة الشباب بين أيديهم، وما دام الصفاء الباطني

باقيًا فيهم، وفطرتهم الأصلية لم تتلوّث بعد، فعليهم أن يجتهدوا في قلع جذور الأخلاق الفاسدة والصفات الظلمانيّة من قلوبهم، لأنّ سعادة الإنسان يتهدّدها خطرٌ عظيم ما دام في قلبه الأخلاق القبيحة. كما أنّ إرادة الإنسان في شبابه، شابّة وقويّة، وعزمه شاب وقويّ، لذلك فالإصلاح أيسر عليه يومئذٍ.[567]

* إنّ مبادئ جميع الكمالات ترجع إلى معرفة الله والتحرّر من أسر النفس... فالتوجّه إلى الحقّ تعالى والإقبال عليه والإعراض عن الأهواء النفسانيّة هو سبيل إصلاح جميع المفاسد: ﴿ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نفسك﴾.[568]

46

ما هو سرّ
قوّة النفس؟

يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه:

«وكلّما كان النّظر إلى الإنّيّة والأنانيّة ورؤية النفس وحبّها غالبًا على الإنسان، كان بعيدًا عن كمال الإنسانيّة، ومستبعدًا من مقام القرب الرّبوبيّ. وإنّ حجابَ رؤية النفس وعبادتَها لهو أضخمُ الحجب وأظلمُها؛ وخرق هذا الحجاب هو أصعب من خرق جميع الحجب التي يُعَدُّ خرقُها مقدمةً لخرقه وعبوره. بل إنّ مفتاح مفاتيح الغيب والشّهادة، وبابَ أبواب العروج إلى كمال الرّوحانيّة هو خرقُ هذا الحجاب. وما دام الإنسان قاصر النظر إلى كماله وجماله الموهوم، فهو محجوب وبعيد عن الجمال المطلق والكمال الصرف.

والخروج من هذا المنزل هو أوّل شرطٍ للسلوك إلى الله، بل هو الميزان في حقّانيّة الرّياضة وبطلانِها. فكلُّ سالك يسلُك بقدمِ الأنانيّة ورؤية النفس، ويطوي منازل السّلوك في حجاب الإنّيّة وحبّ النفس، تكون رياضتُه باطلة، ولا يكون سلوكه إلى الله بل إلى النفس «نفسك هي أمّ الأصنام» (مصراع بيت للعارف الرومي المشهور).

قال تعالى: {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}،[569] فالهجرة الصّوريّة وصورة الهجرة عبارة عن الهجرة بالبدن الذي هو «المنزل الصّوريّ» إلى الكعبة أو إلى مشاهد الأوّلياء عليهم السّلام. والهجرة المعنويّة هي الخروج من بيت النفس ومنزل الدّنيا إلى الله ورسوله. والهجرة إلى الرّسول

والوليّ هي أيضًــا هجرةٌ إلى الله. وما دام التّعلق بالنفس والتوجّه إلى الإنّيّة موجودَين، فلا يكون مسافرًا، وما دامت بقايا الأنانيّة أمام نظر السّالك، وجدران مدينة النفس غير مختفية، وأذان إعلان حبّ النفس مسموعًا، فهو في حكم الحاضر لا المسافر ولا المهاجر.

وفي مصباح الشّريعة قال الصادق عليه السّــلام: «العُبُوْدِيَّةُ جَوْهَرَةٌ كُنْهُهُــا الرُّبُوْبِيَّةُ فَمَا فُقِــدَ فِيْ العُبُوْدِيَّةِ وُجِدَ فِيْ الرُّبُوْبِيَّةِ، وَمَا خَفِيَ مِنَ الرُّبُوْبِيَّةِ أُصِيْبَ فِيْ العُبُوْدِيَّةِ».

فمن ســعى بخطوةِ العبوديّة، ووَسَــمَ ناصيتَه بِســمَةِ ذلّها، سيجد سبيل الوصول إلى عزّ الربوبيّة. وطريقُ الوصول إلى الحقّائق الربوبيّة هو السّير في مدارج العبوديّة؛ فما فُقِدَ من الإنّيّة والأنانيّة في عبوديّته يجــده في ظِلّ حمى الربوبيّة، حتــى يصلَ إلى مقامٍ يكون الحقّ تعالى سَــمْعَه وبصرَه ويدَه ورجلَه، كما ورد في الحديث الصحيح المشهور عند الفريقَين. - فإذا تجاوز العبد رؤية التأثير من نفسه، وسلّم مملكةَ وجــودِه إلى الحقّ بالكامــل، وأودع البيت إلى صاحبــه، وفَنِيَ في عزّ الربوبيّــة، فحينئذٍ يكــون المتصرّف في الدّار صاحبهــا، فتصير تدبيراتُه تدبيراتٍ إلهيّة، ويكون بصرُه بــصرًا إلهيًا وينظر ببصر الحقّ، ويكون سمعُه ســمعًا إلهيًّا فيَســمعُ بســمعِ الحقّ. وبمقدار ما تزداد ربوبيّة النفس ويكون عزّها غاية في نظره، ينقص من عزّ الربوبيّة، لأنّ هذَين متقابلان: «الدّنيا والآخرة ضرّتان».»[570]

لقد مرّ الحديث عن حبّ النفس المذموم الذي يتجلّى في أمّ الخطايا ورأس المعاصي. ولكن نتســاءل من أين ينشــأ حبّ النفس هذا؟ والجواب إنّه ذلك النظر الاستقلالي إلى النفس والذي يعبّر عنه بالإنيّة.

الإنيّــة عبارة عن رؤية النفس مقابــل الحقّ تعالى. أي النظر إلى وجود النفس مقابل

وجـود الله عزّ وجل، وذلك بمعزل عن أي شيء آخـر. وقد اعتبر الإمام (قدس سرّه) أنّ هذا النظر والاعتقاد هو أصل أصول جميع مشـكلات الإنسـان ومصائبه، وهو المسمّى بأمّ الأصنام الذي تنشأ منه شجرة حبّ النفس والدنيا وتتولّد بسببه تلك الأخلاق الرذيلة ومنها تتفرّع المعاصي والذنوب.

وسر كـون الإنيّة أمّ المصائب وأصل الشّرور هو أنّ تجـلّي الحقّ بوجوده وذاته على قلـوب العباد يُعدّ أمرًا حتميًا مهيمنًا قويًا سـاطعًا مشرقًا منوّرًا لا أجلى منه ولا أوضح. ولهـذا لا ينكره في هذه الحال سـوى الجاحد المعاند. فلا يمكـن الغفلة عمّن كان نوره نور السّـماوات والأرض، وكان وجوده ساريًا في كل شيء، **{وهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُم}**.[571] ولهـذا كانت العلاقة بالله منحـصرة في الإيمان والكفر. أمّا الإيمان فهو القبول والتجاوب مع الحضور الإلهيّ العظيم المهيمن، وأمّا الكفر فهو التنكّر والإعراض عن هذا الحضور!

إنّ قضية حضور الله في حياتنا ووجودنا هي أعظم قضية يمكن أن يواجهها أي مخلوق. وهـذه القضية لهي من العظمة ما لا يمكن التغـاضي عنها بحـال. وكل القضايـا التي تواجهنا ونعيشها ونُبتلى بها ونتفاعل معها هي في الواقع ظلال تلك القضية الواحدة.

> **إذا كان للجذبـة الروحيـة في ملـك الطبيعـة نتيجة غير التعبّد والتواضع للحقّ، ففي النفس بقية من الأنانية. وسير السـالك إنّما هو في جوف بيت النفس وليس إلى الله.**
>
> الإمام الخميني

وإنّ حضور الله الأعظم هو حضور ذاته أو إنيّته أو وجـوده الذي هو أقوى وأجلى من حضور صفاته أو ظهور أفعاله أو تجلّي آثاره. والجاهل يظـنّ العكس، ويعتقد أنّ وجود الله وحيث إنّه لا يُدرك بالعقول، فهو بعيد عن المعرفة، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا، وكذب العادلون به وضلّوا ضلالًا بعيدًا.

إنّ وجـود الله وحضـور ذاته في ذواتنا هو أعلى وأعمق وأقـوى من الصّور العلمية والمفاهيم. وفي الوقت ذاته، فإنّ فينا إنيّة منه تعرفه وتدركه وتشعر به شعورًا أقوى من أي معرفة حصولية أو ذهنية.

لهذا كانت مشـكلة الإنسـان الكبرى هي مشـكلة الكفر الذي وصفه أمير المؤمنين بالداء الأكبر.

ولــو أنّ الإنســان أذعن لهذا الحضــور والوجود، فهل يمكن أن يرى لنفســه وجودًا، ووجوده ليس سوى ظل وجود الله تعالى؟! فما معنى أن يرى نفسه مستقلة في الوجود سوى إنكار وجود الله تعالى. إنّ حال هذا الشخص هو كحال من يحمل شمعة في يده في رابعة النهار والشمس ساطعة ولا سحاب، وهو يصرّ أن يستضيء بالشمعة بدل الشمس. {**قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ**}.[572]

ولو شعر الإنسان بقوّة الحضور الإلهيّ فهل سيعرض عنه وكأنّه غير موجود، ووجوده من العظمة ما تندكّ له الجبال وتتفطر له السّماوات؟! وهل سيخالف مثل هذا الإنسان أمر الله، أو لا يكترث لإرادته فيعصيه ويتمرّد عليه؟!

وكيف يحبّ الإنســان ذاته وهو لا يراها إلا شعاع ذات الحقّ تعالى؟! وكيف سيحبّ أن يجمــع لهــا الدنيا الفانية الزائلة بمتاعها القليل، وهو لا يشــاهد ســوى الله وجماله وكماله المطلق الذي لا يزول؟!

إنّ قيمة الإنسان في قوّة توجّهه إلى ربّه. وقد يحصل هذا التوجّه بالتدريج عبر رحلة الرجــوع إلى الروح التي هي الإنيّة المتّصلة بالله تعالى والتي هي أشــدّ اتّصالًا بالله من اتّصال شعاع الشمس بالشمس. وهذا هو حال أغلب المؤمنين الذين يرون الله وينظرون إلى وجهــه وراء حجب العلم والمعرفة يوم القيامة. وذلك بعد زوال الموانع وظهور فناء الأشياء وانقطاع التعلّق بالدنيا.

ولبعــض المؤمنين هذه الكرامــة في الدنيا قبل الموت، لأنّهم أماتوا نفوســهم قبل أن يموتــوا، ولم يبــقَ فيهم من تلك الإنيّة شيء. فقد نهضــوا لمجاهدة النفس وحطّموا ذلك الصنم الأكــبر، وأدركوا حقيقة تعلّقهــم وعبوديتهم لله واســتقبلوا ربوبية الحقّ تعالى ومالكيّتــه بالقلب والرّوح. ولم يحتاجوا للتخلّص مــن حبّ الدنيا إلى زوالها، ولم يتطلّب طرد الخوف من الأغيار خزي الأغيار عندهم! فقد شــاهدوا جميع ما سوى الله في عين الفقــر والعجــز والاحتياج إلى الله. وكانوا يردّدون في دعائهــم دومًا: «يا من وضعت له الملوك نير المذلة على أعناقها فهم من ســطواته خائفون، يا من له الدنيا والآخرة، يا من له الأسماء الحسنى».

شواهد إضافية

✷ "إلهــي هب لي كمال الانقطاع إليــك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتــى تخرق أبصار القلوب حجب النــور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلقةً بعزّ قدســك، إلهي واجعلني ممّن ناديته فأجابك ولاحظته فصعق لجلالك فناجيته سرًا"،[573] كمال الانقطاع هذا هو الخروج من منزل الأنا والإنية ومن كل شيء وكل شــخص، والالتحاق به والانقطاع عن الغير. وهــو هبةٌ إلهية إلى الأولياء الخلّص بعد الصعق الحاصل من الجلال الذي يقــع إثر اللحظ (ولاحظته).... وما لم تُنوّر أبصــار القلوب بضياء نظرته لا تُخــرق حجب النــور وما دامت هذه الحجب باقية فلا ســبيل إلى معدن العظمة، ولا تحصل الأرواح على التعلّق بعزّ القدس ولا تحصل مرتبة التدلي «ثم دنا فتدلى» وأدنى من ذلك الفناء المطلق والوصول المطلق.

«أيها الصوفي إنّما طريق الصفاء من طريق العشق»،

«والعهد الذي كتبته يجب أن تفي به»،

«ما لم يتحقق لك وصال المحبوب فيجب أن تفني نفسك في الطريق إليه".

ولا تتحقق النجوى السرية للحقّ مع عبده الخاص إلا بعد الصعق واندكاك جبل الوجود.[574] رزقنا الله وإياك.[575]

✷ ما دام الإنسان في جلباب النفس وحجابها؛ فإنّ جميع حركاته وسكناته ومناسكه وعبادته هي من أجل النّفس، ومن أجلها يكون حتى طلبه للحقّ؛ بل إنّ سيره هو بقدم النفس وإلى النفس، أي أنّه ليس مسافرًا إلى الله وليس سالكًا إليه تعالى، فحاله حال الذي ينتقل من هذه الزّاوية من البلد إلى الزاوية الأخرى منه فلا يُقال له: إنّه مسافرٌ. إذًا، فما لم يخرج الإنسان من بيت النفس ودائرة الأنانية فلن يتحقّق سفره وهجرته إلى الله تعالى، بل إنّ جميع رياضاته تكون في هذه الحال باطلة عند أهل المعرفة.[576]

✷ ما دام للنّفس حظّ من النّشأة الصورية الدنيوية ولها من حياة المُلك نصيب، فلم ينطوِ بساط الكثرة كليًّا وما زالت حظوظ الطّبيعة. وكما أنّ قلب السّالك إلى الله ينبغي ألّا يكون مشغولًا بغير الحقّ، كذلك صدره وخياله وملك الطّبيعة فيه لا ينبغي أن ينفقه في غير الحقّ، حتّى يكون

للتوحيد والتقديس في جميع النشآت قدمٌ راسخ. وإذا كان للجذبة الروحية في ملك الطبيعة نتيجة غير التعبّد والتواضع للحقّ، ففي النفس بقية من الأنانية. وسير السالك إنّما هو في جوف بيت النفس وليس إلى الله.[577]

* من النتائج الكبيرة والثمار العظيمة لتحرّر الإنسان من عبودية النفس، الصبر في البلايا والنوائب.[578]

* إنّ للهجرة معنًى كبير، وأهم هجرة هي الهجرة من حبّ الذات والابتعاد عن هذه الأنانية النفسية، والهجرة من النفس إلى الله.

إنّ هجرة الرسول الأكرم ﷺ من مكّة إلى المدينة لكي يُري الناس أسلوب الهجرة من النفس للتقرّب إلى الله. وإنّما جاءت تعاليم الأنبياء لبيان هذه الهجرة التي ننتقل فيها من الظلمات والضلالات وحبّ الذات والنفس، إلى الله تعالى، ولا نعبأ بنفوسنا وآمالنا الشيطانية، ونتّجه إلى الله - تبارك وتعالى - الذي يقول: {ومَن يخرُجْ مِن بَيتهِ مُهاجرًا إلى اللهِ ورسولهِ ثُمّ يُدركهُ الموتُ فقد وقعَ أجرُهُ على الله}، فيُحتمل أن يكون البيت في هذه الآية بمعنى الطبيعة النفسية، فيمكن أن يكون معنى البيت هو بيت النفس الإنسانية. يعني: الطبيعة التي هي بيت النفس ومنزلها الذي قرّت فيه وحُبست. فيُحتمل أن يكون معنى الآية الشريفة المتقدّمة هكذا: كل شخص يخرج من بيت النفس هذا {مهاجرًا إلى الله ورسوله}، متّجهًا إلى الله ورسوله، فيخرج من تلك الأمور الطبيعية التي تحثّه على التوجّه إلى الدنيا وآمالها، وتحجبه عن الوصول إلى الله، وإلى معرفة حقيقة هذه الأمور التي تشدّ الإنسان إلى الدنيا، والتي لا يخلو منها إنسان. علمًا بأنّ النفس متعلّقة بالدنيا ومشدودة إليها، وأنّ الإنسان يتوجّه عادةً إلى نفسه وآماله.

فإذا خرج الإنسان من هذا البيت المظلم، وهو البيت الذي يحول دون وصولنا إلى الكمال الإنساني، وتوجّه إلى الله، أي هاجر إلى الله تبارك وتعالى، وإلى رسول الله، إذ إنّ الهجرة إلى الرسول هي هجرة إلى الله، ووصل إلى مرحلة يدركه فيها الموت، والموت هنا: إمّا أن يكون معناه الموت الاختياري الخاص بأولياء الله الذين يعرضون عن جميع آمالهم،

ويفنون في الحقّ تعالى، وإمّا أن يكون معناه الموت المعهود. فعلى المعنى الأوّل يكون معنى قوله تعالى: {فقد وقع أجره على الله} هو أنّ هذا الشخص لا يريد أجرًا غير الأجر الذي يعطيه الله إيّاه. وهذه هي غاية آماله وأمنياته؛ فهو يطلب من الله فقط.[579]

* [يدخل السالك] أركان التوكّل إلى قلبه، أي بشدّة التذكّر ورياضة القلب؛ حتّى يأنس القلب ويألف تلك الحقائق، وعندها تتجلّى مقتضيات ولوازم هذه المعارف في باطن قلبه، ويشعّ في ملكوت النفس نور التوكّل والتفويض والثّقة بالله تعالى ونظائرها، فينفطم الطفل القلبيّ الفتيّ، وينفصل عن ثدي الطبيعة وهي أمّه الرضاعيّة، ويتأهّل لتناول الأطعمة الرّوحيّة المعنويّة غير الطبيعيّة، ثمّ يترقّى من منزل المعاملات - والتوكّل منها - إلى منازل أخر، ويقوى كل يوم انفصاله عن الطبيعة ومنزل الدنيا واتّصاله بالحقيقة ومنزل الأنس والقدس والعقبى، ويتجلّى في قلبه أوّلًا نور التوحيد الأفعالي ثمّ يتجلّى قبسٌ من التوحيد الأسمائي والصّفاتي، وكلّما اشتدّت تجلّيات هذا النّور اشتدّ أيضًا اندكاك وانهيار جبل حبّ النفس والعجب والأنانيّة والإنيّة، إلى أن يندك وينهار هذا الجبل بالكامل، ويتحقّق الصعق الكلّيّ وذلك بالتجلّي التام لربّ الإنسان: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقًا}.[580]

* السالكون طريق الشريعة التي تدعوهم دومًا إلى رفض الأنانية بجملتها وترك عبودية النفس برمتها مع طهارتها، وعدم التوجّه إلى إظهار القدرة والسلطنة، فهم في أعلى مرتبة من التوحيد والتقديس وأجل مقامات التكثير. فلم يكن التكثير حجابًا لهم عن التوحيد، ولا التوحيد عن التكثير.[581]

* اخرجي أيتها النفس الخالدة إلى الأرض لاتّباع هواك من بيت الطبيعة المظلمة المدهشة الهيولانية، وهاجري إلى الله مقام الجمع، وإلى رسوله مظهر أحدية الجمع، حتى يدركك الموت بتأييد الله تعالى فوقع أجرك عليه، وهذا هو الفوز العظيم والجنّة الذاتية اللقائية التي لا عين رأت

ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. واعلمي أنّك ظهرت من مقام جامعية الأسماء والبرزخية الكبرى، وأنت غريب في هذه الدّار ولا بدّ لك من الرجوع إلى الوطن، فاحْببي وطنك فإنّه من الايمان - كما أُخبر به سيد الإنس والجان. إيّاك ثم إيّاك - والله تعالى معينك في أولاك وأخراك - أن تصرف همّك في الحصول على الملاذّ الحيوانية الشهوية، فإنّ هذا شأن البهائم، أو الغلبة على أقرانك وأشباهك حتى في العلوم والمعارف، فإنّ هذا شأن السباع، أو الرياسات الدنيوية الظاهرية وصرف الفكر والتدبير إليها فإنّ هذا مقام الشياطين، بل ولا تجعل نصب عينك صورة النسك وقشورها، ولا اعتدال الخُلق وجُودتها، ولا الفلسفة الكلية والمفاهيم المبهمة، ولا تنسيق كلمات أرباب التصّوف والعرفان القشرية وتنظيمها، ولا إرعاد أهل الخرقة وإبراقها، فإنّ كل ذلك حجاب في حجاب وظلمات بعضها فوق بعض، وصرف الهم إليها اخترامٌ وهلاك، وذلك خسرانٌ مبين وحرمانٌ أبديّ وظلمات لا نهاية لها، بل يكون همّك التوجّه إلى الله تعالى وإلى ملكوته في كلّ حركاتك وسكناتك وأنظارك وأفكارك، فإنّك مسافر إلى الله تعالى ولا يمكن لك هذه المسافرة بقدم النفس، بل لا بدّ وأن يكون بقدم الله ورسوله، فإنّ المهاجرة من بيت النفس لا يمكن بقدمها. فكلّما كان قدمك قدم النفس، ما خرجت بعدُ من بيتك، فلست مسافرًا، وقد عرفت أنّك غريب مسافر.[582]

* وللكفر مراتب كثيرة، منها رؤية النفس ورؤية العالم والنظر إلى غير الله.[583]

* كثيرة هي الأحاديث التي تصرّح بأنّ الله تبارك وتعالى يبتلي الأولياء والمؤمنين في الدنيا بسبب حبّه لهم ولطفه بهم، والعلّة الأصليّة في ذلك هي أنّه تبارك وتعالى لو جعلهم في دعة. ونعمة [ماديّة] لركنوا - بحسب النوع الغالب لا النوادر - إلى الدنيا، ولتركت اللذات والشهوات الدنيويّة في ملكوت قلوبهم آثارًا تؤدّي إلى زيادة حبّهم وتعلّقهم بالدنيا، ولغفلوا طبعًا عن الحقّ تعالى ودار كرامته، وعن ملكوت النفس وإصلاح أمراضها واكتساب الفضائل النفسانيّة.[584]

47

ما هو
غذاء النفوس؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«مـن الواضح عند أصحاب المعرفة وأهـل القلوب، أنّه كما يكون للأبدان غذاء جسمانيّ تتغذّى به، ولا بدّ أنْ يكون الغذاء مناسبًا لحالها ومُوافقًا لنشـأتها حتى تتيسّر لها التربية الجسـمانيّة والنّمو النّباتي، كذلك فـإنّ للقلوب والأرواح غذاءً لا بدّ أن يكون كلّ منها مناسـبًا لحالها وموافقًا لنشـأتها، كي تتربّى به وتتغذّى منه وتنمو نموًّا معنويًّا وتترقّى ترقيًّا باطنيًّا. والغذاء المناسـب لنشـأة الأرواح هو المعارف الإلهيّة التي تدور حول مبدأ مبادئ الوجود وحتى منتهى نهاية نظام الوجود، كما قال أعاظم أهل الصناعة الفلسفية في تعريف الفلسفة: "هي صيرورة الإنسـان عالَمًا عقليًّا مضاهيًا للعالَم العينيّ في صورته وكمالـه". وهذا القول يشـير إلى هذا التغذّي المعنـويّ، في حين أنّ تَغَذّي القلوب يُستمدّ من الفضائل والمناسك الإلهيّة.

وليُعلـم أنّ كلًّا من هذه الأغذية إذا خَلُصَ من تصرّف الشّـيطان، وأُعِـدّ بيد الولايـة النابعة من الرسـول الخاتـم ووليّ الله الأعظم (صلوات اللـه عليهما وآلهما)، يتغذّى الـرّوح والقلب منه، وينالان الكمال اللائق بالإنسـانيّة ومعراج القرب إلى الله... ومن المعلوم أنّ مرهمًا هُيّئ وأعدّ بِيَدِ العِفريـت الخبيث وبتصرّف النّفس الطاغية، لا يتولّد منه إلا الخُلُق الشّـيطاني. وحيث أنّ القلب يتغذّى من تلك الأغذيـة على أيّ حال وتصير الأغذيةُ صورةً باطنيّةً للنفس، فبعد أنْ

يداوم عليها مدّة، يصير الإنسـان من مواليد الشّيطان، وقد تربّى على يديه، ونشـأ ونما تحت تصرّفه. فإذا أغمض عينَـه المُلْكِيّة وانفتحت عينُه المَلكوتيّة، يرى نفسَـه مِن الشـياطين؛ فلا نتيجة في تلك الحال سوى الخسران، ولا تُغني عنه الحسرات والندامات شيئًا».[585]

حين تتوجّه النّفوس نحو غايتها الحقيقيّة التي هي الرّوح قد تُسمّى بالأرواح. وحين يجري الحديث عن الهوية الواقعية للإنسان قد يطلق على نفسه اسم القلب في الإشارة إلى مـدى تقلّب هذا الباطن واهتزازه وانفعالـه. وفي جميع الحالات فإنّ لهذه النفوس قابليـة النمـوّ. ولأنّ فاقد الشيء لا يعطيه، فلا بدّ أن يكـون نموّها من خارجها. وحيث إنّ جميـع الموجودات فقيرة مثلها، فـلا تحصل التغذية من خلالها. بل إنّ مبدأ التغذية والتنمية هو الغنيّ المطلق.

للأبـدان غذاء معروفٌ يـأتي من نبات الأرض. وحين تصبح نفوسـها متوجّهة وقابلة للنموّ الرّوحيّ، فإنّ غذاءها لا يكون من هذه الأرض، بل من السّماء. وهنا يدخل إبليس اللعين للعبث بهذا الفيض النازل من السـماء بما يكمل النفوس كالعلم والحياة والقدرة وغيرها. وأخطر حزمة وأكثرها حساسية في هذا الفيض الجامع لكلّ الكمالات هي حزمة العلم، وفيها يعبث إبليس أكثر من أي شيء. بل لعلّه لا يوجد شيء يمكن أن يتصرّف فيه هذا العدوّ المبين كالعلم. ولأنّ العلم يتنزّل على النفوس المسـتعدّة على شـاكلة الصور الخياليـة، فإنّ سـاحة إبليس الكبرى هـي الخيالات والأوهام. ومـا لم ينزل العلم بهذه الصورة يصعب على الإنسـان الأرضي أن يسـتفيد منه في حياته الدنيا. لذلك كان العلم الخياليّ سيفًا ذا حدّين. وهنا يكمن ميدان الجهاد الكبير الذي ينبغي أن يخوضه الإنسان كي لا يقع في تسـويلات الشـيطان ووساوسـه التي هي في مقام العلم بصورة الأباطيل والشـبهات والأوهام. فإذا اتّبع الإنسان تلك الصور المصنوعة بيد إبليس تشكّلت نفسه من غذاءٍ فاسـدٍ شيطانيّ، وسرعان ما تصبح هذه النفس شيطانية على أثر المداومة على هذه الأغذية.

إنّ العلــم في معدنه وأصله ليس ســوى أحد أوجه الروح التــي تصبو إليها النفوس. وما لم يرغب الإنســان بالعلم، فهذا يعني أنّه أصبح أســير الشــيطنة. ولهذا كان الجهل أصل جميع الرذائل والملكات الإبليســية. وقد شرح الإمام الخميني قدّس سرّه حديث الإمام الصادق عليه السلام في جنود العقل والجهل، فراجع.

إنّ صــورة التدخّــل الإبليسيّ في عالم الطبيعة هو تلك الحكومات الفاســدة بأعرافها وتقاليدها التي جعلــت الظنّ طريقها إلى العلــم. {**وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْني مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**}.[586]

العلم التوحيــدي الذي يكون تعلّمه من أجل التشدّق به في مجالس العوام أو العلماء، يكون فاقدًا للنورانية، بل هو طعام أعدّته يد الشيطان لتغذية النفس الأمّــارة بالسّــوء، لذلك فهو يخرج صاحبه مــن التوحيد، ويقربه إلى الشرك.

الإمام الخميني

والمؤسف أكثر هو اتّباع شعوبنا لمناهج تلك الدول التي اســتعمرتنا وفرضت علينا طريقها العلميّ الشيطانيّ. وما غرّنا هو أنّنا اعتقدنا أنّ كل هذه الإنجازات التكنولوجية التــي تحقّقت في مجتمعاتهــم هي وليدة ذلك المنهــج الظنيّ الذي يُســمّى بالمنهج التجريبي.

وفي المقابــل فقد دعانا الله منذ أكثر من خمســة عشر قرنًــا لاتّباع ذلك النبيّ الأميّ الذي جاء ليعلّمنا الكتاب والحكمة. وقد أحصى الله في كتابه علم كل شيء يقينًا وجعله وســيلة لبلوغ الحقّ والقــدرة العظيمة. فتركنا النبيّ وآله وأعرضنا عن التمسّــك بحبل الولاية، فأصبحنا لقمة سائغة لأولياء الشيطان.

شواهد إضافية

* على سـالكِ طريق الآخرة لزومًا حتمًا أن يخلّص معارفَه ومناسـكَه مِن تـصرّف الشّـيطان والنفس الأمّـارة مهما بذل من الجهـد، وأن يغوص في حركاتـه الباطنيّـة وتغذياته الروحيّـة، ولا يغفل عـن حِيَل النفس والشّيطان وحبائل النفس الأمّارة وإبليس؛ وأن يسيء الظنّ بشكل كامل في جميع حركاته وأفعاله، ولا يَدَعَ نفسَه على رسلها آنًا ما؛ فربّما تتغلب عليـه عند أدنى تسـامح وتسـاهل معها، وتصرعه وتسـوقه إلى الهلاك والفناء. لأنّ الأغذية الرّوحانيّة إذا لم تكن خالصةً من تصرّف الشّـيطان، وتدَخّلت يدُه في إعدادها، فمضافًا إلى أنّه لا تتربّى بها الأرواح والقلوب، ولا تصـل إلى الكـمال اللائق بها، يحصـل لها النّقصـان الفاحش أيضًا؛ ولعلها تجعل صاحبها منسـلكًا في سـلك الشّـياطين والبهائم والسّباع. وما كان سـببًا للسّعادة ورأسـمال كمال الإنسانيّة والوصول إلى المدارج العالية سـوف يعطي النّتيجة المعكوسـة، ويسـوق الإنسان إلى هاوية الشـقاء المظلمة؛ كما رأينا في بعض أهل العرفان الاصطلاحيّ أشـخاصًا انتهت بهم هذه الاصطلاحات والغور فيها إلى الضلالة، وجعلت قلوبهم منكوسـةً وبواطنهم مظلمةً، وصار الاشـتغال في المعـارف موجبًا لقوّة أنانيّتهـم وإنّيّتهم حتى صدرت منهم الدّعاوى غير اللائقة والشّـطحات غير المناسـبة. وكذلك رأينا في أصحاب الرّياضات والسّـلوك أفرادًا أدّت رياضاتُهم واشـتغالُهم بتصفية النّفـس إلى جعل قلوبهم أكْدَر وباطنهم أظلـم؛ وكلّ ذلـك لم يكن إلا لأنّهـم لم يحافظوا على سـلوكهم المعنويّ الإلهـيّ ومهاجرتهم إلى الله، وكان سـلوكهم العلميّ وارتياضهم بتصرّف الشّـيطان والنّفس وإلى الشّـيطان والنّفس.[587]

* زهد الخاصّة، وهو عبارة عن الإعراض عن المشتهيات الحيوانية واللذائذ الشهوانية، بهدف الوصول إلى المقامات العقلانية والمدارج الإنسانية. وهذه الدرجة تتولّد من العلم والإيمان ببعض المراتب العالية في عالم الآخرة، فهذا العلم والإيمان يجعلان المشتهيات الحيوانية واللذات الجسمانية تبدو حقيرة في العين، وهذا سبب إعراض النفس وانصرافها عنها.[588]

* فـإذا تدخّلت أيدي إبليس والنفـس - الداعية إلى الأنانية والعجب، فلن يحصل الإنســان على أي معرفة، بل إنّ تعلّم علم التوحيد يبعد الإنسان - إذا لم يقـترن بالإخلاص - عن حقيقة التوحيد ومعرفة الله، وبالتالي عن ســاحة القرب الإلهــي. تدبر حال إبليس ولاحظ كيـف أنّ ظهور أنانيته وحبّه لنفسه وإعجابه بها فيه قد حجب علمه عن أن يتجسّد عمليًّا وعن أن يهديه إلى طريق السعادة... والعلم التوحيدي الذي يكون تعلّمه من أجل التشـدّق به في مجالس العوالم أو العلماء، يكون فاقدًا للنورانية، بل هو طعام أعدّته يد الشـيطان لتغذية النفس الأمّارة بالسّـوء، لذلك فهو يخرج صاحبه من التوحيد، ويقربه إلى الشرك.[589]

48

هل أنّ التوجّه
إلى المسائل الروحيّة
يعني ترك اللذات الطبيعيّة؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

"عن أبي عبد الله عليه السّلام قال: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ:

«يَا عَلِيُّ إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ رَبِّك». وفي الحديث عن حضرة العسكريّ سلام الله عليه: إذا نَشِطَتِ الْقُلُوبُ فَأَوْدِعُوهَا وَإِذَا نَفَرَتْ فَوَدِّعُوهَا.

وهذا دستورٌ جامعٌ منه عليه السّلام بأنْ أودِعوا في القلوب في وقت نشاطها، وأمّا في وقت نفارها فخلّوها تستريح. فلا بدّ في كسب المعارف والعلوم أيضًا من رعاية هذا الأدب، وألّا تُحمل القلوب على الكسب مع الكراهة والنّفور.

ويُستفاد من هذه الأحاديث وأحاديث غيرها أدبٌ آخر، وهو أيضًا من المهمات في باب الرياضة وهو أدب الرعاية.

وكيفيته أن يراعي السّالك في أي مرتبة كان فيها، سواء في الرياضات والمجاهدات العلمية أم النفسانية أم العمليّة، حاله ويتعامل مع نفسه بالرفق والمداراة ولا يحمّلها أزيد من طاقتها وحالها. ورعاية هذا الأدب بالنسبة إلى الشباب وحديثي العهد من المهمّات؛ فإنّه إذا لم يعامِل الشبابُ أنفسَهم بالرّفق والمداراة ولم يؤدّوا إليها الحظوظ الطبيعية بمقدار حاجتها وبالطرق المحلّلة يوشك أنْ يقعوا في خطرٍ

عظيمٍ لا يتيسّر لهم جُبرانَه؛ وهو أنّ النّفس ربّما تصير بسبب الضّغط الزائد عليها وكفّها عن مشــتهياتها مطلقةَ العنان في شهواتها، ويخرج زمام الاختيار من يــد صاحبها. واقتضاءات الطبيعة إذا تراكمت ونار الشهوة الحارّة إذا وقعت تحت ضغط الرياضة الزائدة عن الحدّ، فإنّها تســتعر لا محالة وتحرق كلّ المملكة. وإذا صار السّــالك لا سمح الله مطلق العنــان أو أصبح الزّاهد بلا اختيار، فإنّه يقع في هاوية لا يرى وجهَ النّجاة منها أبدًا، ولا يرجع إلى طريق السّعادة والفلاح بتاتًا.

فعلى السّالك أنْ يجسّ نبضَه في أيّام سلوكه كطبيبٍ حاذقٍ ويعاملَ نفسَــه على أساس مقتضى الأحوال وأيّام السّــلوك. وفي أيّام اشتعال نار الشّهوة وغرور الشّباب لا يمنع طبيعته من حظوظها كليًّا. وعليه أنْ يخمــد نار الشّــهوة بالطرق المشروعــة. فإنّ في إطفاء الشّــهوة بطريــق الأمر الإلهيّ إعانةً كاملةً على ســلوك طريق الحقّ. فلينكحْ وليتزوّجْ فإنّه من السّــنن الإلهيّة الكــبرى؛ ومضافًا إلى أنّه مبدأ بقاء النّوع الإنسانيّ، فإنّ له دورًا كبيرًا أيضًا في سلوك طريق الآخرة. ولهذا قال رســولُ الله صلّى الله عليــه وآله «مَنْ تَزَوَّجَ فَقَــدْ أَحْرَزَ نِصْفَ دِينِهِ» وفي حديثٍ آخر: «مَنْ أَحَبَ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ طَاهِرًا مُطَهَّرًا فَلْيَلْقَهُ بِزَوْجَةٍ». ورُوي أنّ رســولَ الله صــلّى الله عليه وآله قال: «أَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ الْعُزَّابُ».

وعن حضرة أمير المؤمنين ســلام الله عليه أنّه قال: «إنَّ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ كَانُوا حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ النِّسَاءَ وَالْإِفْطَارَ بِالنَّهَارِ وَالنَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَأَخْبَرَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَخَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَتَرْغَبُونَ عَنِ النِّسَــاءِ إِنِّي آتِي النِّسَاءَ وَآكُلُ بِالنَّهَارِ وَأَنَامُ بِاللَّيْلِ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي وَأَنْزَلَ اللَّهُ {لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا

إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُون}».

وبالإجمال، على سالك طريق الآخرة (رعاية) حالات إدبار النفس وإقبالها؛ فكما أنّه لا يجوز له الكفّ عن الحظوظ مطلقًا فإنّه منشأ لمفاسدَ عظيمةٍ، لا ينبغي له في السلوك من ناحية العبادات والرّياضات العمليّة أنّ يتشدّد مع نفسه، وألّا يجعلها تحت الضغوط؛ خصوصًا في أيّام الشّباب وابتداء السّلوك فإنّه أيضًا يكون منشأ لتضجّر النّفس ونفورها وربّما ينصرف الإنسان بسببه عن ذكر الحقّ.

والإشارة إلى هذا المعنى في الأحاديث كثيرة، ففي الكافي الشّريف عن حضرة الصادق أنّه قال:

«اجْتَهَدْتُ فِي الْعِبَادَةِ وَأَنَا شَابٌّ، فَقَالَ لِي أَبِي: يَا بُنَيَّ دُونَ مَا أَرَاكَ تَصْنَعُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إذا أَحَبَّ عَبْدًا رَضِيَ عَنْهُ بِالْيَسِيرِ».

وعن أبي جعفر قال: قال رسول الله: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُكَرِّهُوا عِبَادَةَ اللَّهِ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ فَتَكُونُوا كَالرَّاكِبِ الْمُنْبَتِّ الَّذِي لَا سَفَرًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى».

وفي حديث آخر « وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّه».

وبالجملة، الميزان في باب المراعاة أنْ يكونَ الإنسان ملتفتًا إلى أحوالِ النّفس، ويسلكَ معها بحسب قوّتِها وضعفِها. فإذا كانت النّفس قويّةً في العبادات والرّياضات وتَقدِرُ على المقاومة، فلْيَجِدّ ويسعى في العبادة. وأمّا الّذين طووا أيّام عنفوان الشّباب، وانطفأت فيهم نائرة الشّهوات شيئًا ما، فالمناسب لهم أنْ يَجِدّوا في الرّياضات النّفسانيّة أكثر ويدخلوا في السّلوك والرّياضة بفتوّة. فكلّما عوّدوا النّفس على الرّياضات، فُتح لهم باب آخر؛ إلى أنْ تَغلِبَ النّفسُ القوى الطّبيعيّة،

وتصير القوى الطّبيعيّة مسخّرةً تحت كبرياءِ النّفس.

وما ورد في الأحاديث الشّريفة من الأمر بالجدّ والسّعي في العبادة، وما ورد فيهــا من مدحِ الّذين يجتهدون في العبــادة والرياضة، وما ورد في عبــادات أئمّــة الهدى عليهم السّــلام من جهــة، وما ورد من هذه الأحاديث الشّريفة المادحة للاقتصاد في العبادة من جهة أخرى، مبنيٌّ على اختلاف أهل السّلوك ودرجات النّفوس وأحوالِها. والميزانُ الكلّيُّ هو نشاطُ النّفسِ وقوّتُها أو نفورُها وضعفُها».[590]

ما دامت النفوس ميّالة إلى الطبيعة، فهي تحت تأثير تجاذباتها. وفي هذه الحالة تكون الطبيعة غالبة على النفس، وإن كان للنفس صولات وجولات عليها. ولأنّ أفق النفس هو أعلى من أفق الطبيعة، فلا تخضع النفوس لها إلا بســبب ضعفها. وإنّما تضعف النفوس أمام الطبيعة المادية بسبب إقبالها وتوجّهها نحوها وإن كان على نحو عام.

ولأجــل تقوية النفس لا بدّ من جعل تجربتها الروحيــة ممتعة لذيذة وتكون لذّتها أعــلى مــن جميع لذّات الطبيعــة إلى الدرجة التــي لا يبقى معها لهــذه النفس مجال للمقارنة بينهما. فمن حدّثته نفســه بالراحة أثناء الصلاة أو اشتاقت نفسه للطعام أثناء الصيام فهذا يعني بقاء قوّة لذات الطبيعة وضعف لذات الروح والمعنى.

ولأجل الوصول إلى هذا المقام المعنويّ الشّــامخ لا بدّ أن يتعامل الإنســان مع نفسه برفــق ومداراة حتى تأنس بالكامل بكل اللذائذ الروحية وتكتشــف الفارق الكبير بينها وبين لذائذ الطّبيعة مهما كانت. ولا بد من الإشــارة هنا إلى مســألة مهمّة حتّى لا يُظن أنّ بــين لذّات الطّبيعة ولذائذ المعنى تعارضًا أو تقابــلًا؛ بل هما في الواقع بمنزلة الأصل والفــرع فيــما إذا كانت اللذات الحاصلة من التفاعل مــع الطّبيعة طيبة طاهرة. ولهذا يقــوى التذاذ أهل المعنى بلذائذ الطبيعة حين يصلون إلى هذا المقام، ويصبح التذاذهم بكل ما هو طيب وحلال فيها جزءًا من لذاتهم المعنوية. فأكلهم يصبح إلهيًا وله طعم لا يمكن أن يخطر على مذاق أهل الدنيا وأتباع الشهوات، ووقاعهم وشربهم وحتى نومهم

وكل ما ينالونه منها لأنّهم ربطوا ذلك بأصله وشاهدوه من معدنه كرسالة إلهية خالصة للذيـن آمنوا في الحيـاة الدنيا والآخرة. ولا يكون هذا الالتـذاذ في أعلى درجاته إلا بعد اسـتقرار الالتذاذ الروحيّ للنفس باتّصالها بعالمها الأعلى من ذكر الله ومعرفته والاتّصال بشؤونه وتجلّياته.

هنـا تأتي أهمية الرعاية لأجل أن تطمئن النفس شـيئًا فشـيئًا وتذوق حلاوة الأمور المعنوية وتسـتقر هذه الحـلاوة في مذاق النفس. ففي البدايـة لا تكون هذه التجربة الروحية قويّة التأثير بسبب شدّة انصراف النفس إلى شهوات الطبيعة وتعلّقها بملذّاتها. وبسبب هذا التوجّه الشـديد لا يُتاح لها الفرصة لاستشعار عمق تلك اللذات الروحيّة. ولأجـل ذلك فإنّ الإصرار على إذاقتها مثل هذه المعاني لن يؤتي ثمرته المرجوّة، بل يؤدّي عكـس الغرض. ويعلم كل من جرّب ذلك مع نفسـه أو من خـلال التربية، أنّ الأطفال الصغار لا يمكن أن يأنسـوا بلذّة العلم لأنّ نفوسهم منصرفة إلى اللعب. وغالبًا ما يكون الأمـر من خـلال إدغـام التعليـم بالمرح واللعـب حتّى تصل هذه النفوس إلى حالة إدراك تلـك اللذات المجرّدة ويصبح اللعب عندها أمرًا ممقوتًا ومتعبًا.

أفـق النفـس هـو أعـلى مـن أفق الطبيعة، فلا تخضـع النفوس لها إلا بسبب ضعفها. وإنّما تضعف النفوس أمام الطبيعة المادية بسـبب إقبالها وتوجّهها نحوها.

إنّ للنفس نصيبًا مهمًّا من عالم الطّبيعة لحكمة إلهية كبيرة ترتبط ببقاء النسل من أجل تحقّـق الوعد الإلهـيّ في الآخرة. فلا ينبغي وفق هذه السـنّة الإلهية أن تنصرف النفـوس بالكامل عن ملذّات الطّبيعة التي تجتمع في بؤرة خاصّة اسـمها الوقاع أو الإنجاب أو لذّة الجنس. ولهذا جعل الله تعالى هـذه القضية في درجة عاليـة من اللذة كما قال صادق أهل البيت عليهم السـلام أنّه ما اسـتمتع النـاس في الدنيا بشيء مثل الوقاع. وفي الوقت نفسـه جعل الله تعالى وراء هـذه اللذة حاجة كبيرة ونارًا قويـة تدفع الناس بقوّة من أجل إطفائها وإلا احترقوا بها وأوشـكوا أن يقعوا في خطرٍ عظيم. وعلى هذا الأسـاس، ينبغي لسالك طريق الروحانية الصافية أن يتعامل مع هذا النصيب والحاجة النفسـية بطريقة سـليمة واعية دقيقة. ويعمـل بنصيحة الإمام (قدس سره) وخصوصًا أيام الشـباب. ولهـذا تفصيل قد يخرج

عــن الموضوع الأســاسي لهذا الكتاب. بيد أنّ لكلّ إنســان حالة يجــب عليه أن يدركها قد تختلف باختلاف الظروف الاجتماعية والجســمانية والعرض والطلب وأمثاله. ولهذا لم يوجب الإســلام حدودًا معيّنة وإنّما وضع ضوابط واضحة لأجل توجيه هذه الشــهوة ونيرانها بدل إخمادها والقضاء عليها.

الرفق والمداراة من الأصول المهمة في مجاهدة النفس وترويضها والسلوك إلى الله، فإذا رفقت بالنفس أنسَــتْ بالعبــادات والطاعــات وتعلقت بها وأحبتها فيكون هــذا الأنس والحب سببًا لأنســها وحبها للحقّ تعالى، وفي ذلــك فتحٌ لأبــواب المعــارف الإلهية التي هي مصدر الإيمان.

الإمام الخميني

ومــن المهم أن نعلــم أنّ قوّة النفس في الطّبيعــة تزداد مع ازدياد حالاتها الرّوحية، فيكــون الانضباط عندها أهم وأولى. وعلى الإنسان الســالك في هذا الطريق أن يحترز من مخاطر ازدياد قوّة الشــهوة أثناء ذلك، بتوفــير مــا أمكن مــن مقوّمــات إطفائها بالطريقــة الشرعيــة المناســبة وألا يــترك نفســه إلى حين حصول هذا الأمر. وكم من السالكين فوجئوا بأنفسهم كيف أصبحت على هذه الشاكلة من قوّة الشهوة أثناء بلوغ الحالات الروحية أوجها، ممّا أوقعهم في حيرة من أمرهم سلك بهم مسالك غير حميدة.

شواهد إضافية

* ما أكثر ما يؤدّي أخذ النفس بالشدة - خاصّة في بدايات الأمر لا سيما مع الشباب - إلى تنفيرها من الرياضات والسلوك، وإلى الفرار بالتالي من الحق. وبالفعل فإنّ الكثير من الشباب انحرفوا بالكامل وصاروا لا يبالون بالشؤون الدينية أصلًا بعد فترة شدّدوا فيها على أنفسهم بالمواظبة المشدّدة والالتزام المفرط في أداء المستحبات![591]

* من الآداب القلبيّة للصّلاة ولجميع العبادات التي لها نتائج حسنة، بل تؤدّي إلى فتح بعض الأبواب وكشف بعض أسرار العبادات: أن يجتهد السّالك في أن تكونَ عبادتُه منبعثة من نشاط وبهجة القلب وفرح وانبساط الخاطر، ويحترزَ احترازًا شديدًا من الإتيان بالعبادة مع الكسل وإدبارِ النّفس. فعليه أن يختار وقتَ العبادة حين يكون للنّفس إقبالٌ ونشاطٌ وحيويّةٌ بعيدًا عن التّعب والفتور. لأنّه إذا حَمَل النّفس على العبادة في حين الكسل والتّعب، يمكن أنْ تترتّب عليه آثارٌ سيّئة؛ منها:

أنْ يتضجَّر الإنسان من العبادة ويزيد تكلّفه وتصنّعه، ويوجب ذلك بالتّدريج تنَفّرَ طباع النّفوس منها. وهذا، مضافًا إلى أنّه من الممكن أنْ يَصرِفَ الإنسان بالكامل عن ذكر الحقّ، ويُتعب الرّوح من مقام العبوديّة التي هي منشأ جميع السعادات، ينتجُ عنه ألّا يحصلَ للعبادة، مع هذه الحالة، نورانيّةُ القلب، ولا ينفعلَ باطنُ النّفس منها، ولا تصيرَ صورةُ العبوديّة صورةً باطنيّةً للقلب. وقد ذكرنا من قبل أنّ المطلوب في العبادات هو أنْ يصبح باطن النفس بصورةِ العبوديّة.[592]

* اعلم، أنّ للرفق والمداراة كاملَ الأثر في تحقيق الغايات المرجوّة من الأمور المختلفة؛ سواء في مجال معاشرة الناس وأمور الدنيا ... أو في مجال مجاهدة النفس وترويضها والسلوك إلى الله تعالى: ولعلّ إلى هذا يشير ما ورد في الحديث الشريف من أن "الرفق يُمنٌ والخُرق شؤمٌ".[593]

* إنّ الرفق من الأصول المهمّة في باب ترويض النفس وسلوك طريق الحقّ تعالى.[594]

* عن محمّد بن يعقوب بإسناده، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «من

قُسم له الرفقِ قُسمٍ له الإيمان". وعن أبي جعفر عليه السلام قال: "إنّ لكل شيء قُفلًا، وقُفلُ الإيمان الرفق".

وفي هذين الحديثين الشريفين دلالةٌ على... أنّ الرفق والمداراة من الأصول المهمة في مجاهدة النفس وترويضها والسلوك إلى الله، فإذا رفقت بالنفس أَنِسَتْ بالعبادات والطاعات وتعلقت بها وأحبتها فيكون هذا الأنس والحب سببًا لأنسها وحبها للحقّ تعالى، وفي ذلك فتحٌ لأبواب المعارف الإلهية التي هي مصدر الإيمان.[595]

- دعاء العامة، فهم يستعجلون في الدعاء لأنهم أسرى المقاصد النفسانية ويخافون فوات المقاصد الدنيوية أو الأغراض الحيوانية.[596]

- إنّ الذين يظنّون أنّ لدعوة النّبيّ الخاتم والرّسول الهاشميّ صلّى الله عليه وآله جهتَين: دنيويّة وأخرويّة، ويحسبون هذا فخرًا لصاحب الشّريعة وكمالًا لنبوّته، ليس لديهم معرفةٌ بالدِّين، وهم عن مقصد النّبوّة ودعوتها في تمام البُعد. إنّ الدّعوة إلى الدّنيا خارجةٌ كليًّا عن مقصد الأنبياء العظام، ويكفي في الدّعوة إلى الدّنيا حسّ الشّهوة والغضب وشيطان الباطن والظاهر دون حاجة إلى بعث الرّسل.

إنّ إدارةَ الشّهوة والغضب لا تحتاج إلى القرآن والنّبيّ. وإنّما بُعث الأنبياء ليَنهوا الناس عن الدّنيا ولتقييد إطلاق الشّهوة والغضب وتحديد موارد المنافع. والغافل يظنّ أنّهم يَدْعون إلى الدّنيا. إنّ الأنبياء يقولون أنّ المال لا يجوز تحصيلُه كيفما كان، ونار الشّهوة لا يجوز إطفاؤها بأيّ نحوٍ، بل لا بدّ من إطفائها من طريق النكاح، وتحصيل المال بواسطة التجارة والصناعة والزراعة. مع أنّ باب أصل الشّهوة والغضب هو الإطلاق. فالأنبياء يقفون بوجه إطلاقهما، لا أنّهم يدعون إلى الدّنيا. فرُوح الدّعوة إلى التّجارة هو التّقييد والنّهي عن التكسّب الباطل، ورُوح الدّعوة إلى النكاح هي تحديد الطبيعة والنّهي عن الفجور وعن إطلاق قوّة الشّهوة. أجل، هم (عليهم السّلام) ليسوا مُخالِفين بشكلٍ مطلقٍ، لأنّ هذا مُخالفٌ للنّظام الأتمّ.[597]

الهوامش:

1. سورة الطلاق، الآية 12.

2. سورة الرحمن، الآية 29.

3. سورة القيامة، الآيات 22- 23.

الإمام الخميني، جنود العقل والجهل، ترجمة مؤسّسة أم القرى، دار المحجة البيضاء، الطبعة الأولى، 2003م، 4: 119/ 8: 303- 304/ 10: 239/ 13: 130/ 20: 242/ 21: 134/ 22: 130- 132/ 36: 32/ 37: 80: 83/ 43: 129/ 44: 357/ 61: 116- 117: 119/ 64: 90- 91/ 65: 85- 88/ 68: 360/ 69: 85- 88/ 71: 83- 85/ 72: 249- 250/ 73: 106/ 76: 277- 278/ 77: 325- 326/ 78: 215/ 91: 56- 58/ 101: 85- 88/ 102: 341/ 103: 322/ 104: 317/ 105: 76/ 106: 348- 350/ 111: 321/ 112: 270/ 113: 301/ 116: 304/ 117: 306/ 118: 304/ 119: 320- 321/ 120: 146/ 122: 257- 258/ 124: 225/ 125: 147- 148/ 126: 329/ 127: 369/ 128: 322- 323/ 130: 323/ 131: 146- 147/ 138: 256/ 139: 258- 259/ 140: 330- 331/ 143: 329/ 144: 331- 332/ 145: 334- 335/ 146: 43- 44/ 147: 89/ 148: 261/ 153: 377/ 154: 91/ 156: 161/ 161: 138/ 162: 169- 170/ 166: 155- 156/ 171: 276- 277/ 173: 234/ 211: 297/ 213: 185/ 263: 54/ 270: 312- 313/ 276: 251- 252/ 283: 278/ 285: 209/ 293: 250- 251/ 307: 310- 311/ 316: 73- 74/ 317: 107/ 320: 149- 150/ 321: 154/ 322: 200- 201/ 323: 253/ 326: 60- 62/ 327: 338- 339/ 335: 326/ 337: 324/ 338: 373/ 341: 205/ 347: 225/ 362: 184/ 369: 79/ 389: 122- 123/ 393: 61/ 398: 203- 205/ 402: 309/ 411: 301- 302/ 430: 304/ 440: 364/ 441: 324/ 442: 324/ 445: 129/ 446: 374/ 450: 367/ 452: 367/ 454: 188/ 455: 313/ 460: 366/ 465: 142/ 469: 58- 59/ 473: 168/ 476: 284/ 477: 290- 291/ 478: 300/ 479: 366- 367/ 487: 281/ 489: 305/ 490: 305- 306/ 491: 129- 130/ 496: 281/ 509: 350/ 510: 194/ 511: 354/ 512: 84/ 516: 358- 360/ 517: 150: 152/ 528: 75- 76/ 533: 340/ 536: 163/ 542: 65/ 543: 136- 137/ 544: 356/ 545: 88- 89/ 565: 110/ 566: 59- 60/ 567: 152- 154/ 568: 305/ 576: 371/ 580: 193- 194/ 584: 169/ 588: 271/ 589: 107- 108/ 591: 289/ 593: 287/ 594: 289/ 595: 292/ 596: 326.

5. سورة المائدة، الآية 120.

6. غرر الحكم، ص 233.

الإمام الخميني، لطائف عرفانيّة، تحرير السيد عباس نورالدين، بيت الكاتب للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2004م، 7: 38- 39/ 17: 65- 66/ 24: 102/ 41: 103- 104/ 42: 105/ 55: 96/ 67: 95- 96/ 108: 93- 94/ 503: 83- 84/ 508: 123- 124/ 581: 83.

الإمام الخميني، شرح دعاء السحر، مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية، 1982م، 9: 77/ 12: 21/ 18: 91/ 79: 21- 22/ 80: 130/ 81: 157/ 82: 68/ 115: 111/ 176: 26- 27/ 365: 107.

الإمام الخميني، الأربعون حديثًا، تعريب محمد الغروي، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة السابعة، 2003م، 11: 305- 306/ 38: 285/ 39: 32/ 40: 207/ 45: 220/ 50: 472/ 51: 481/ 53: 244- 246/

58: 207- 208/ 66: 317- 318/ 90: 705- 707/ 97: 154- 156/ 109: 70/ 123: 41- 42/ 160: 253/ 174: 252- 253/ 224: 304/ 271: 188/ 278: 157/ 279: 405/ 319: 568/ 339: 618- 619/ 340: 309- 310/ 366: 72- 73/ 368: 649- 651/ 374: 356- 357/ 378: 606- 607/ 391: 160- 163/ 405: 92- 93/ 413: 362/ 414: 329- 330/ 419: 340/ 435: 337- 338/ 436: 164- 165/ 495: 324- 327/ 499: 359/ 500: 338/ 507: 203- 204/ 563: 39- 41/ 578: 306.

14. سورة الفجر، الآيات 27- 30.

15. سورة القصص، الآية 78.

16. سورة الزمر، الآية 60.

الإمام الخميني، وصايا عرفانية، ترجمة السيد عباس نورالدين، بيت الكاتب للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 2007م، 19: 58- 59/ 34: 45/ 163: 54/ 165: 34/ 262: 70/ 266: 30/ 267: 96- 97/ 268: 31- 32/ 284: 20/ 306: 95- 96/ 308: 107- 108/ 364: 29/ 394: 93- 94/ 403: 71/ 416: 15- 16/ 421: 103- 104/ 432: 42- 43/ 448: 60/ 466: 52- 55/ 467: 69/ 468: 18- 19/ 470: 19/ 471: 69/ 472: 91/ 494: 116- 117/ 502: 22- 23/ 530: 69/ 538: 46/ 540: 8/ 547: 77/ 575: 90- 93/ 583: 95.

الإمام الخميني، معراج السالكين، ترجمة السيّد عبّاس نورالدّين، بيت الكاتب للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2009م، 23: 203/ 35: 129- 130/ 48: 45/ 49: 274- 275/ 52: 101/ 54: 339/ 56: 339/ 57: 141/ 98: 95- 97/ 107: 67/ 110: 113/ 114: 120- 121/ 129: 156- 157/ 151: 66- 68/ 159: 87- 88/ 164: 92/ 167: 235/ 168: 90/ 169: 99/ 170: 117- 118/ 172: 182/ 175: 112- 114/ 177: 124- 125/ 178: 25/ 179: 137/ 180: 139/ 182: 131- 132/ 183: 144/ 184: 147- 148/ 186: 148/ 187: 154- 156/ 188: 159- 160/ 191: 172- 173/ 192: 233/ 193: 242/ 194: 243- 244/ 196: 347- 348/ 198: 356/ 199: 357/ 200: 357- 358/ 201: 362/ 202: 367/ 203: 374/ 204: 85- 86/ 207: 107- 108/ 208: 282/ 210: 333/ 214: 61- 62/ 264: 239- 240/ 273: 339/ 281: 217- 218/ 287: 217- 218/ 288: 210- 211/ 294: 205- 206/ 295: 195/ 298: 198- 199/ 300: 205/ 302: 214- 215/ 303: 217/ 309: 89- 90/ 310: 69/ 328: 56- 57/ 329: 233/ 343: 83/ 345: 82- 83/ 346: 84/ 355: 45- 46/ 359: 122/ 360: 64/ 361: 348- 349/ 381: 211/ 392: 82/ 396: 77/ 397: 59/ 404: 35/ 408: 87/ 409: 98- 99/ 410: 109- 110/ 422: 229/ 424: 372/ 425: 155/ 429: 226- 227/ 444: 25- 26/ 492: 35/ 493: 137/ 497: 173/ 498: 231/ 505: 35- 36/ 522: 268- 269/ 523: 128- 129/ 524: 76- 77/ 525: 360/ 526: 363/ 532: 271/ 541: 41/ 564: 70- 71/ 570: 22- 23/ 577: 89/ 585: 34- 36/ 587: 35- 36/ 590: 39- 42/ 592: 37- 38/ 597: 58.

25. سورة البقرة، الآية 170؛ سورة البقرة، الآية 171.

26. سورة البقرة، الآية 73؛ سورة الأنعام، الآية 151.

27. سورة الأعراف، الآية 179.

28. سورة القلم، الآيات 26 – 27.

29. سورة إبراهيم، الآية 43.

30. الكافي، ج1، ص 11.

31. الكافي، ج1، ص 11.

32. سورة الحشر، الآية 9.

33. إشارة إلى فقرة من المناجاة الشعبانية "وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور" [بحار الأنوار، ج91، ص 97]

46. نهج البلاغة، ص 303.

47. سورة الانفطار، الآية 8.

59. سورة المعارج، الآيات 19- 22.

صحيفة الإمام، 60: ج14، ص 163- 167/ 74: ج14، ص 163- 167/ 75: ج14، ص 163- 167/ 141: ج14، ص 288/ 142: ج14، ص 289/ 149: ج19، ص 325/ 197: ج16، ص 164/ 212: ج14، ص 308– 309/ 215: ج11، ص 304 - 305/ 216: ج14، ص 307- 308/ 217: ج18، ص 21/ 218: ج20، ص 71/ 219: ج18، ص 117/ 220: ج16، ص 353/ 221: ج20، ص 221/ 222: ج20، ص 247/ 223: ج5، ص 194/ 225: ج16، ص 129/ 226: ج14، ص 308– 309/ 229: ج2، ص 24/ 245: ج9، ص 11/ 246: 261: ج18، ص 352/ 247: ج13، ص 394/ 248: ج9، ص 11/ 249: ج2، ص 34- 35/ 250: ج9، ص 111/ 252: ج11، ص 303/ 253: ج14، ص 15– 16/ 254: ج11، ص 612- 127/ 255: ج2، ص 35- 36/ 256: ج10، ص 50/ 257: ج19، ص 124- 125/ 258: ج15، ص 431– 432/ 259: ج18، ص 199/ 260: ج2، ص 376/ ج18، ص 336- 337/ 265: ج16، ص 168/ 269: ج16، ص 169/ 272: ج18، ص 21/ 277: ج15، ص 71/ 280: ج2، ص 27/ 282: ج14، ص 306– 307/ ج16، ص 164/ 311: ج20، ص 129/ 312: ج2، ص 343/ 313: ج3، ص 300– 301/ 315: ج1، ص 43– 44/ 324: ج8، ص 380/ 330: ج8، ص 204– 205/ 331: ج12، ص 204/ 332: ج4، ص 16/ 333: ج20، ص 221/ 334: ج21، ص 295/ 342: ج14، ص 163- 167/ 350: ج3، ص 211– 212/ 351: ج4، ص 30/ 352: ج13، ص 127/ 353: ج3، ص 222- 223/ 354: ج4، ص 323– 324/ 363: ج5، ص 113/ 379: ج11، ص 385/ 380: ج15، ص 408/ 385: ج12، ص 348/ 386: ج20، ص 21/ 387: ج4، ص 128/ 388: ج7، ص 357– 358/ 399: ج18، ص 22/ 420: ج14، ص 163- 167/ 426: ج13، ص 225/ 427: ج16، ص 162/ 437: ج5، ص 113/ 438: ج14، ص 163- 167/ 439: ج14، ص 163- 167/ 447: ج8، ص 257/ 451: ج18، ص 358– 359/ 453: ج16، ص 354/ 456: ج20، ص 189/ 457: ج18، ص 128/ 458: ج18، ص 412/ 459: ج14، ص 15- 17/ 462: ج19، ص 48/ 463: ج17، ص 398/ 464: ج17، ص 427/ 474: ج15، ص 72/ 475: ج18، ص 252/ 480: ج21، ص 377/ 481: ج14، ص 299/ 482: ج20، ص 80/ 483: ج18، ص 409/ 484: ج19، ص 29/ 485: ج21، ص 49/ 486: ج16، ص 163/ 513: ج14، ص 124/ 514: ج9، ص 112/ 515: ج13، ص 127/ 527: ج16، ص 387– 388/ 534: ج17، ص 47/ 535: ج8، ص 236/ 537: ج13، ص 396/ 539: ج5، ص 114/ 546: ج14، ص 310/ 548: ج8، ص 236/ 549: ج11، ص 307/ 550: ج6، ص 223/ 551: ج19، ص 48/ 552: ج18، ص 22/ 553: ج6، ص 41/ 554: ج16، ص 168/ 555: ج11، ص 304/ 556: ج8، ص 214/ 557: ج1، ص 36- 37/ 558: ج7، ص 378/ 559: ج8، ص 236/ 560: ج14، ص 310/ 561: ج18، ص 324/ 562: ج18، ص 397/ 579: ج12، ص 56/ 582: ج1، ص 37.

62. سورة الرحمن، الآية 33.

61. سورة يونس، 91.

70. سورة القارعة، الآية 9.

83. سورة البقرة، الآية 31.

84. سورة الأحزاب، الآية 72.

85. سورة القصص، الآية 88.

86. مفاتيح الجنان، الزيارة الجامعة الكبيرة.

87. سورة النور، الآية 35.

88. سورة الروم، الآية 27.

89. سورة الحجرات، الآية 29.

92. بحار الأنوار، ج91، ص 98.

93. نهج البلاغة، ح 131.

94. سورة النمل، الآية 30.

95. الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب حب الدنيا، ح1 و3.

96. نهج البلاغة، خ 5.

99. سورة فصلت، الآية 53.

100. سورة التغابن، الآية 2.

121. سورة التغابن، الآية 14.

132. سورة الانفطار، الآية 8.

133. سورة آل عمران، الآية 30.

134. سورة التكوير، الآية 5.

135. سورة فصلت، الآية 25.

136. سورة إبراهيم، الآية 43.

137. سورة الزمر، الآية 15.

الإمام الخميني، رشحات ملكوتيّة، تعريب عزة فرحات، بيت الكاتب للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 2008م، 150: 9/ 325: 12/ 449: 29/ 461: 26- 27/ 488: 21.

152. سورة القصص، الآية 78.

155. علل الشرائع، المجلد الأول، باب 165، العلة التي من أجلها سمي علي بن الحسين زين العابدين.

157. سورة الأعراف، الآية 12.

158. سورة الأعراف، الآية 12.

181. سورة يونس، الآية 30.

185. سورة النور، الآية 40.

189. سورة النساء، الآية 100.

190. سورة القدر، الآية 5.

195. سورة البقرة، الآية 2.

205. سورة الزمر، الآية 69.

206. سورة البقرة، الآية 257.

209. سورة الأعراف، الآية 143.

227. سورة يونس، الآية 93.

228. سورة التوبة، الآية 97.

230. الكلمات المكنونة للفيض الكاشاني، ص 123.

231. مستدرك الوسائل، ج11، ص 187.

232. سورة مريم، الآية 96.

233. الإمام الخميني، الجهاد الأكبر.

234. قال أمير المؤمنين (ع): "لما وجهني رسول الله (ص) إلى اليمن قال: يا علي لا تقاتل أحدًا حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله لأن يهدي الله عز وجل على يديك رجلًا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت ولك ولاؤه". [الكافي، ج5، ص36]

235. الكافي، "كتاب فضل العلم"، أبواب: صفة العلماء، بذل العلم، النهي عن القول بغير علم، استعمال العلم، المستأكل بعلمه والمباهي به، لزوم الحجة على العالم، و"باب النوادر".

236. وسائل الشيعة، ج18، ص9- 17، وص98 - 129، "كتاب القضاء"، "أبواب صفات القاضي"، باب 4، 11، 12.

237. الكافي، ج1، ص 59.

238. الكافي، ج1، ص 59.

239. قال رسول الله، (ص): "صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي وإذا فسدا فسدت أمتي. قيل: ومن هم؟ قال (ص): العلماء والأمراء". [كتاب الخصال، ص37؛ تحف العقول، ص50]

240. عن سليم بن قيس الهلالي قال: سمعت أمير المؤمنين (ع) يحدث عن النبي (ص) أنه قال في كلام له: "العلماء رجلان: رجل عالم آخذ بعلمه، فهذا ناج. وعالم تارك لعلمه، فهذا هالك. وإن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه". [الكافي، ج1، ص55]

241. ورد عن الإمام الصادق (ع) قوله: "كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع". [الكافي، ج3، ص 164]

242. غرر الحكم، ج7، ص 269.

243. الإمام الخميني، الجهاد الأكبر.

244. الإمام الخميني، الجهاد الأكبر.

251. نهج البلاغة، ص 333.

274. سورة محمد، الآية 27.

275. نهج البلاغة، ص 320.

289. سورة محمد، الآية 24.

290. سورة الواقعة، الآيات 77- 79.

291. سورة البقرة، الآية 2.
292. سورة المائدة، الآيات 15- 16.
296. سورة الأنعام، الآية 76.
297. سورة الأنعام، الآية 79.
299. سورة الأعراف، الآية 23.
301. سورة الإسراء، الآية 82.
304. سورة محمد، الآية 24.
305. سورة الواقعية، الآيات 77- 79.
314. سورة سبأ، الآية 46.
318. سورة الأنعام، الآية 110.
336. سورة يونس، الآية 62.
344. سورة الصافات، الآية 96.
348. سورة البقرة، الآية 165.
349. نهج البلاغة، ص 533.
356. سورة النحل، الآية 60.
357. سورة البقرة، الآية 26.
358. سورة البقرة، الآية 31.
367. سورة الأنعام، الآية 79.
370. سورة الحجرات، الآية 10.
371. الكافي، ج2، ص 175.
372. الكافي، ج2، ص 175.
373. الكافي، ج2، ص 175.
375. الكافي، ج2، ص 180.
376. الكافي، ج2، ص 179.
377. الكافي، ج2، ص 182.
382. سورة الشعراء، الآيات 221- 222.
383. من لا يحضره الفقيه، ج4، ص 388.
384. سورة الأنعام، الآية 158.
390. نهاية ابن الأثير، المجلد الأول، ص 440، مادة "همز" أهمزها أي أقواها وأشدّها.
395. سورة النمل، الآية 62.
400. الإمام عليّ بن الحسين (ع)، الصحيفة السجادية، من دعائه في مكارم الأخلاق.
401. الكافي، ج5، ص 83.

406. سورة الأعراف، الآية 12.

407. سورة الأعراف، الآية 12.

412. مستدرك الوسائل، ج1، ص 116.

415. سورة الرعد، الآية 28.

417. سورة البقرة، الآية 152.

418. سورة المائدة، الآية 119.

423. سورة التوبة، الآية 111.

428. سورة البقرة، الآية 152.

431. إشارة إلى قوله تعالى {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}. [سورة الرعد، الآية 28]

433. عَنْ أَبِي جَعْفَرَ (عليه السّلام) قالَ: "مَكْتُوبٌ فِي التَّوراة الَّتي لَمْ تُغَيَّر أَنَّ مُوسى عليه السّلام سَأَل رَبَّهُ فَقالَ: يا رَبِّ أَقَرِيبٌ أَنْتَ منّي فَأُناجيك، أَمْ بَعيدٌ فَأُناديكَ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْه: يا مُوسى أَنَا جَليسُ مَنْ ذَكَرَني. فَقالَ مُوسي: فَمَنْ في سِتْرِك يَوْمَ لا سِتْرَ إِلّا سِتْرُكَ. فَقالَ: الَّذينَ يَذْكُرُونَني فَأَذْكُرُهُمْ وَيَتحابُّونَ فِيَّ فَأُحِبُّهُمْ فَاؤُلئِكَ الَّذينَ إِذا أَرَدْتُ أَنْ أُصيبَ أَهْلَ الأَرْضِ بِسُوءٍ ذَكَرْتُهُمْ فَدَفَعْتُ عَنْهُمْ بِهِم".

434. سورة طه، الآية 126.

443. سورة البقرة، الآية 260.

501. سورة الكهف، الآية 6.

504. سورة النساء، الآية 141.

506. إحياء العلوم، المجلد الرابع، ص 256.

518. سورة طه، الآية 41.

519. سورة طه، الآية 13.

520. سورة الغاشية، الآية 25.

521. سورة الغاشية، الآيات 25- 26.

529. سورة القلم، الآيات 5- 6.

531. سورة هود، الآية 56.

569. سورة النساء، الآية 100.

571. سورة الحديد، الآية 4.

572. سورة عبس، الآية 17.

573. بحار الأنوار، ج91، ص 98.

574. إشارة إلى مضمون قوله تعالى: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا}. [سورة الأعراف، الآية 143]

586. سورة يونس، الآية 36.

أعمق الافكار
حول النفس

تقرّبنا من معرفة
الكنز المستودع فينا

ليست القوة في
البطش والتسلط، بل في التمتع إلى
أقصى حد بكل النعم التي لا تحصى

فعّل طاقاتك الكامنة

كتاب سيجعلك تكتشف نفسك من جديد
وتكشف الكثير من الامور الرائعة في نفوس الآخرين

إذا آمن الإنسان بأنّ الله تعالى قد أعطاه مثل هذه القابلية والاستعداد، وتوجّه بقلبه إلى تلك العوالم التي هي محل تفتّح وازدهار هذه القابلية، يكون قد حقّق الخطوة الأساسية على طريق تفعيل قواه النفسية الكامنة إلى ما لا يتناهى.

وما يسعى إليه هذا الكتاب هو أن يكون دليلًا مرشدًا للانطلاق في الآفاق الواسعة لمعرفة النفس وتفعيل قواها.

بيت الكاتب للطباعة والنشر
www.islamona.center.com